

١٠٧

تاريخ المصريين

# الأصولية الإسلامية في العصر الحديث

تأليف: دليب هيرو

ترجمة: عبد الحميد فرهي الجمال



الهيئة المصرية العامة للكتاب



Bibliotheca Alexandrina



0051933



( ١٠٧ )

تاريخ المصريين

---

## تاريخ المصريين

---

رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرحان

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب





# الأصولية الإسلامية في العصر الحديث

تأليف  
دليب هيرو

ترجمة  
عبد الحميد فرهي الجمال



مكتبة النهضة العربية

فرع الصحافة

١٩٩٧



هذه هي الترجمة العربية لكتاب :

Islamic Fundamentalism  
by Dilip Hiro  
Paladin Grafton Books 1988

اهـداء

الى الشيخ محمد ادريس

زعيم الجالية السودانية بهرسى مطروح

مع خالص الشكر لسيادته على مساعدتى فى اعادة  
الايات القرآنية المترجمة الى نصها الاصلى الوارد  
باللغة العربية فى القرآن الكريم .

عبد الحميد فهمى الجمال



## تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب المهم والمتميز عن « الأصولية الإسلامية » ، الذي ألفه « دليپ هيرو » وصخر في عام ١٩٨٨ ، وترجمه الأستاذ عبد الحميد فهمي الجمال ، الذي ترجم لنا عدة أعداد في هذه السلسلة .

و « دليپ هيرو » مؤلف باكستاني تلقى تعليمه العالي في الهند وبريطانيا وأمريكا ، وهو كاتب وصحفي متفرغ ، وله العديد من الكتب عن الشرق الأوسط .

وقد تناول في هذا الكتاب تاريخ العالم الإسلامي وتعرض للأصولية في كل من مصر وسوريا وليبيا والمملكة العربية السعودية وأفغانستان ، مبينا الفوارق بين كل منها والأخرى ، على المستوى الفكري والحركي ، من منظوره التاريخي المتميز .

وقد مهد لكتابة فصلين هامين تناول فيهما « بزوغ الإسلام و ظهور المذاهبين السني والشيعة » ، و « الإسلام والصوفية » ، وانتقل الى الإسلام في « الأزمنة الحديثة منذ الفصل الثالث مع ظهور الدولة العثمانية ، وما ظهر فيها من حركات اصلاحية على يد الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا ، و ظهور الاخوان المسلمين في مصر وسوريا ، متتبعا علاقاتهم مع الدولة حتى عصر مبارك في مصر وعصر حافظ الأسد في سوريا .

كذلك تعرض المؤلف للأصولية الإسلامية في المملكة العربية السعودية ، من حيث هي أقدم دولة أصولية ، وما جرى فيها من أحداث أبرزها الاستيلاء على المسجد الحرام في عام ١٩٧٩ ، وسياستها الخارجية الإسلامية .

ثم تناول الأصولية الثورية في إيران متتبعا تاريخها حتى قيام الثورة الخمينية ، والاستيلاء على السفارة الأمريكية ، وسياسة إيران الخارجية ، كما تناول تاريخ أفغانستان متتبعا الحركة الأصولية فيها ، وقيلام الثورة الماركسية فيها ، وتدخل موبسكو العسكري . واختتم كتابه القيم بتلخيص عام للأحداث استخلص فيه الدروس التاريخية من كل هذه الحركات .

والكتاب على هذا النحو يقدم رؤية تاريخية للعالم الإسلامي من كاتب يعيش في الغرب ولكنه يمتد بحذوره الى العالم الإسلامي ، وهي رؤية لاشك أنها سوف تدفع القارئ الى التأمل والتفكير !

رئيس التحرير

د . عبد العظيم رمضان

## نبذة عن المؤلف

---

ولد دليوب هيرو في لركانا بباكستان وتلقى تعليمه العالي في الهند وبريطانيا وأمريكا . وحصل على درجة الماجستير من أمريكا وهو مقيم في لندن حاليا بصفة مستمرة منذ عام ١٩٦٤ وهو كاتب وصحفي متفرغ تهما للكتابة والصحافة . وقد صدرت مقالاته عن الشرق الأوسط والموضوعات المرتبطة به في العديد من الصحف والمجلات الكبرى البريطانية منها والأمريكية بما في ذلك : الصنداي تايمز والجارديان والوشنجتون بوست وول ستريت جورنال وأتلانتيك كوميونتي كوارترلي . وقد صدرت له العديد من الكتب بما في ذلك كتاب « الأوضاع في داخل الهند اليوم » الذي صدر في عام ١٩٧٦ وكتاب « الأوضاع في داخل الشرق الأوسط » الذي نشر في عام ١٩٨٢ وكذلك كتاب « إيران في عهد آيات الله » الذي طبع في عام ١٩٨٥ . وهو عضو في « جمعية أمريكا الشمالية لدراسات الشرق الأوسط » علاوة على أنه كثيرا ما يقوم بالتعليق على الشؤون الإسلامية في الراديو والتلفزيون في كل من أمريكا وبريطانيا .





## نبذة عن التقويم الاسلامى

السنة الاسلامية هى سنة قمرية . ويرجع التقويم الاسلامى الى يوم ١ يوليو من عام ٦٢٢ ميلادية وهو اليوم الذى هاجر فيه محمد عليه الصلاة والسلام من مكة الى المدينة المنورة ويرمز الى التاريخ الهجرى بحرفى : A.H. أى بعد الهجرة .

ويبلغ متوسط عدد أيام السنة القمرية ٣٥٤ يوما . والشهور القمرية الاسلامية هى على النحو التالى : محرم ( ٣٠ يوما ) صفر ( ٢٩ يوما ) ربيع الاول ( ٣٠ يوما ) ربيع الثانى ( ٢٩ يوما ) جمادى الاولى ( ٣٠ يوما ) جمادى الثانية ( ٢٩ يوما ) رجب ( ٣٠ يوما ) شعبان ( ٢٩ يوما ) رمضان ( ٢٩ يوما ) شوال ( ٣٠ يوما ) ذو القعدة ( ٢٩ يوما ) ذو الحجة ( ٣٠ يوما ) .

ونظرا لأن السنة الهجرية تقل عن السنة الشمسية بمقدار احد عشر يوما فان كل ٣٤ سنة قمرية تساوى ٣٣ سنة شمسية

تقريبا . وهذا يعنى أن هناك farka يصل الى حوالى ثلاث سنوات  
بين القرن القمري والقرن الشمسى .

ولكى يمكن لنا تحويل تاريخ السنة القمرية الاسلامية الى  
تاريخ سنة شمسية مسيحية فان الأمر يستلزم ان تقسمها أولا على  
١٠٣١ ثم نضيف ٦٢١ أو ٦٢٢ .

## مقدمة

لقد كان للأصولية الإسلامية في الآونة الأخيرة تأثير كبير على الغرب يفوق التأثير الناجم عن أي حركة أخرى تتواجد بالعالم. الثالث . والسبب في ذلك هو أن العديد من الدول التي تمر بتجربة الأصولية الإسلامية تقع في داخل نطاق الشرق الأوسط الذي يتمتع بأهمية استراتيجية وهناك سبب آخر وهو أن العديد من دول الشرق الأوسط هي دول غنية بالبتروال الذي تعتمد عليه الاقتصاديات الغربية اعتمادا كبيرا للغاية .

وتميل الجماهير في الغرب الى ربط الأصولية الإسلامية بالثورة الإسلامية الإيرانية عام ١٩٧٩ مع النظر الى هذه الأصولية على انها حركة اضطلع بها أناس متعصبون يحكمون في همة ونشاط على الانسار بالمصالح الغربية . ومع ذلك نماننا نجد أن أقدم دولة أصولية في الأزمنة المعاصرة الا وهى المملكة العربية السعودية قد تحالفت تحالفا راسخا مع الغرب . كما أننا نجد في أفغانستان أن الأسلحة الغربية والأموال الغربية هي التي لعبت دورا حاسما في

تدعيم المعسكر الأنفاني الأصولي في حربه ضد نظام الحكم  
الماركسي في كابول .

ومن الملامح البارزة في التاريخ الاسلامي أنه يقدم نماذج  
عديدة من حركات احياء الروح الاسلامية . وانه لمن طبيعة أى دين  
كبير أن يعيد احياء نفسه من وقت لآخر . الا ان الاسلام فريد  
من نوعه في هذا المجال . لأن الاسلام ليس مجرد دين . انه أكثر  
من مجرد كونه ديناً . اذ يشتمل على نظام اجتماعي كامل يشتمل  
على كافة المسلمين ويضم كل أولئك الذين ارتضوا الاسلام ديناً .  
فالدين الاسلامي هو في حقيقة الأمر بمثابة حضارة تنطبق على  
كافة الأزمنة وعلى الأماكن والبلدان .

ومثل هذا الأسلوب الشامل يضع مستويات السلوك الصحيح  
ومبادئ الصواب والخطأ لكافة المسلمين في كل مظهر من مظاهر  
الحياة . ولأن المسلمين آدميون فانهم يفشلون في العيش وفقاً لهذه  
المستويات الصارمة . ومن هنا يظهر في الأفق من حين لآخر زعيم  
ديني ورع على نحو غير عادي لينادي بوضع حد للتجاوزات التي  
حادت عن الطريق القويم .

والأصولية Fundamentalism هي اصطلاح يعبر عن الجهود  
المبذولة من أجل تحديد وتعريف الأسس الجوهرية التي يركز عليها  
نظام ديني والتمسك بتلك الأسس . ومن بين المبادئ الرئيسية  
للأصولية الاسلامية حماية نقاء المفاهيم الاسلامية من الشوائب  
التي تنجم عن الممارسات التي تتسم بالتخمينات . والاحياء  
الاسلامى أو العودة الى الحياة الاسلامية القوية مع تجديد الاهتمام  
بالاسلام هو امر يتعلق بالأصولية . ووراء كل هذا يوجد دافع نحو  
تنشئة الاسلام وذلك بهدف اطلاق كل قواه التيوية .

وفى العصور الوسطى كان هذا الاتجاه نحو تنقية الاسلام  
يعنى تخليص الاسلام من الخرافات والتقيد الحرفى بالتشريع  
الدينى الشديد التمسك بالمذاهب الدينية . وهذا معناه أن الأصولية  
كانت متسمة بطابع داخلى محض ، أما فى هذه الأيام فاننا نجد أن  
الأصولية تتخذ كلا من الطابع الداخلى والخارجى : بمعنى أنها تحرر  
الاسلام من شراكه وخطوطه العنكبوتية المذهبية علاوة على تحريره  
من الأفكار التى تم ابتصاصها من الغرب .

والاسلام لا يفرق بين الدين والسياسة . فالنبي محمد صلى  
الله عليه وسلم علاوة على كونه رسول الله ومبلغ تعاليم الله الى  
الناس أجمعين فإنه كان رجلا ضليعا فى الشئون الادارية وكان  
خافيا وكان قائدا حرييا . ويتألف الفقه الاسلامى من : القرآن  
الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ( والأحاديث هى عبارة اقوال  
وأفعال النبي محمد عليه الصلاة والسلام ) . ولذلك كان من  
الضرورى أن يخصص الفصل الأول من هذا الكتاب عن حياة  
محمد فى شىء من الإيجاز .

وعقب وفاة محمد صلى الله عليه وسلم فى عام ٦٣٢ ميلادية  
انتشر الاسلام بسرعة وامتد الى أماكن تقع فى شرق وغرب شبه  
الجزيرة العربية ودخلت فى الاسلام شعوب كانت لها تقاليد  
وأديانها الراسخة فى أذهانهم منذ فترات زمنية بعيدة . وكثيرا ما  
تمكن الاسلام من خلال التصوف الاسلامى من امتصاص المعتقدات  
والممارسات السابقة على الاسلام التى كان يمارسها أولئك الناس  
الجدد الذين اعتنقوا الديانة الاسلامية . وهكذا نرى أن الاسلام قد  
أقلم نفسه وتكيف مع الثقافات البالغة الاختلاف . وعقب الجيل  
الأول من الشاهدين المسكرين العرب نجد أن الزعماء الصوفيين قد  
أصبحوا فى الغالب هم أكثر المبعوثين الفعالين للاسلام ، إلا أن  
الاسلام قد أصبح من خلال هذه العملية مخففا وأقل تركيزا وهذا

بدوره أدى الى ظهور حركات الاحياء التي تركز اما على ادخال  
المعتقدات والافكار القويمة الى الصوفية واما على تنقية الممارسات  
التي يقوم بها المسلمون . وهذا هو الموضوع الرئيسى الذى  
تطرقت اليه فى الفصل الثانى من هذ الكتاب .

أما الفصل الثالث فانه يتناول الاسلام فى الأزمنة الحديثة  
عندما وجد العالم الاسلامى نفسه فى موقف الدفاع عن النفس  
كلما حدث اتصال مع النفوذ المسيحى سواء أكان نفوذا سياسيا  
أم تجاريا . وهذا ينطبق على الامبراطورية التركية العثمانية  
باسستانبول فى مواجهتها للدول الأوروبية كما ينطبق هذا على  
امبراطورية المغول Mogul فى دلهى ومعاملاتها مع شركة  
الهند الشرقية البريطانية . وفى مواجهة السيطرة المتصاعدة التى  
تمارسها الدول الغربية على العالم الاسلامى نجد أن الزعيم  
الاسلامى العالمى جمال الدين الأفغانى ( ١٨٣٨ — ١٨٩٧ ) قد  
أبدى ردود فعل متنوعة : اذ نادى بالحصول على الأسلحة من  
أجل اتخاذ موقف دفاعى مع بذل محاولات مشتركة تهدف الى  
معرفة الأسرار التى تكمن وراء قوة الدول الغربية بالاضافة الى  
اختيار وسائل التفكير الغربى المتواجدة فى داخل نطاق الاسلام  
كما نجد أن الشيخ محمد عبده ( ١٨٤٩ — ١٩٠٥ ) وهو أشهر  
تلاميذ جمال الدين الأفغانى قد أصبح مصلحا اجتماعيا اسلاميا  
بارزا فى مصر ثم سار على نهجه تلميذه النابغة الذى يسمى  
محمد رشيد رضا ( ١٨٦٥ — ١٩٣٥ ) .

الا أن الأصولية فى كل من مصر وسوريا وليبيا والعربية  
السعودية وإيران وأفغانستان مختلفة عن بعضها البعض تماما .  
ففى مصر وهى المكان الذى ولدت فيه « جمعية الاخوان المسلمين »  
نجد أن الأصولية الاسلامية كانت سمة من الملامح السياسية منذ  
الثلاثينات من القرن العشرين . وهى فى اوقات مختلفة قد

شهدت حالات من التودد اليها من جانب الحكومة أو استتبابها أو قمعها بمعرفة السلطات الحاكمة . وبعد مجيء أنور السادات كرئيس لجمهورية مصر العربية في عام ١٩٧٠ نجد أن العناصر المعتدلة في الحركة الأصولية قد تم اختيارهم ليكونوا أعضاء جديدا في المؤسسة السياسية الدينية بينما لجأت فروعها الراديكالية الى أعمال المقاومة المسلحة والاعتداءات بها في ذلك اغتيال أنور السادات نفسه . وهذه الصورة المختلطة تعتبر مختلفة تماما عن أقدار الحركة الأصولية في سوريا ، إذ كانت الحركة الأصولية في سوريا تتخذ موقفا عدائيا للغاية ضد حكومة الرئيس حافظ الأسد وضد حكومات الرؤساء السابقين عليه وهي كلها حكومات تنبع من حزب البعث الاشتراكي العربي السوري . ولذلك نجد أن الأصولية الإسلامية في سوريا قد نشأت وتطورت من حيث هي حركة للمقاومة . ( وهناك الكثير من الجدل حول ما إذا كانت الأصولية الإسلامية متقدمة زمام السلطة في ليبيا أم لا . خاصة أن التفسير الذي يقدمه الأخ معمر القذافي للشرعية الإسلامية يعتبر تفسيراً ليبرالياً للغاية حتى أن معظم المفكرين الأصوليين بدأوا ينظرون اليه على أنه منجرف الى الضلال على نحو مثير للتعقيدات ويؤد الى المتاعب والمهالك ) .

وببزغ على السطح تناقض مماثل عندما يتفحص المرء الحكومات الأصوابية في كل من : المملكة العربية السعودية وإيران . فالحكومة بالسعودية هي حكومة أتوقراطية ملكية بدون دستور أو برلمان . أما الحكومة في إيران فهي حكومة في دولة تطبق النظام الجمهوري ولها دستور ويران قوي يتم اختيار أعضائه من خلال الاقتراع والتصويت وفقا للنظام العاملة . وهناك تباين شاسع وعزلة كاملة بين تاريخ كل من هاتين الدولتين . ففي السعودية قام عبد العزيز ابن سعود بدور الرجل المسلم المليء بالحماسة وبأادر الى القيام

بنفس الأحداث التي حدثت في الجزيرة العربية في أيام النبي محمد صلى الله عليه وسلم في العشرينات من القرن السابع الميلادي فمكف على اخضاع وتوحيد القبائل العربية المتناحرة سواء كانت قبائل من البدو الرحل أو قبائل متوطنة ومستقرة في أماكن معينة بهدف إقامة دولة « العربية السعودية » في عام ١٩٣٢ . أما إيران فكان مركزا لامبراطورية الصفافيد Safavid منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي . وقد شهدت على مدى عقود عديدة محاولات من اصفاء الطابع العلماني الديني في عهد أسرة بهلوي Pahlavi ( في الفترة من عام ١٩٢٦ حتى عام ١٩٧٩ ) وتلا ذلك قيام حركة ثورية قادت البلاد الى حكومة اسلامية بزعامة آية الله روح الله الخميني . وبذلك يمكن القول بأن النموذج الإيراني يتطابق ويسير في خط متواز مع معظم أعضاء منظمة المؤتمر الاسلامي البالغ عددهم ٤٥ عضوا . وقد شهدت تلك الدول الأعضاء بالمؤتمر الاسلامي تجارب تتعلق بالعلمانية واصفاء الطابع الحديث بل كانت بمثابة مستعمرات لدول أوربية .

أما أفغانستان فهي بمثابة حالة فريدة من نوعها . نهى دولة مستقلة تمكنت من الهروب من السيطرة الأوربية سواء كانت سيطرة سياسية أو اقتصادية ولعبت مؤسستها الدينية دورا كبيرا في الإطاحة بالملك أمان الله Amanullah في عام ١٩٢٩ عندما حاول تنشيط عمليات التحديث العلمانية التي تسير في بطء شديد . وفي دولة أفغانستان الحالية الراوحة تحت حكومة شيوعية نجد أن الاسلام قد بزغ كأيديولوجية للمقاومة المسلحة . إلا أن الحكومة اليسارية قد تجنبت الدخول في مواجهة كاملة مع رجال الدين ذوي الآراء الدينية القويمة أو مع مشايخ الصوفية . فبعد أن اتخذت السلطات خطوات غير دينية في أعقاب ثورة اور Kaur Revolution التي نشبت في ابريل ١٩٧٨ نجد أنها راحت



تتوود لرجال الدين وتشيد مساجد جديدة وتنتقد المتمردين وتصنهم  
بأنهم غير اسلاميين .

وتحصارى القول أنه يوجد هناك اتفاق عام فيما يتعلق بالمبادئ  
الرئيسية للأصولية الا أن الوسيلة التى تلجأ إليها حركة الأصوليين  
تختلف اختلافا كبيرا من دولة لأخرى . وإذا قلنا أن الأصولية  
الاسلامية هى العقيدة السائدة فى كل من الحكومة السعودية  
والحكومة الإيرانية فان ذلك لا يعنى أن هاتين الحكومتين تعملان  
فى توافق وانسجام من حيث السياسة الخارجية أو تتبعان  
سياسات متماثلة فى الشؤون الداخلية .

ولذلك فائنى أتناول فى هذا الكتاب الأصولية الاسلامية من  
حيث هى فكرة وحركة .

\* \* \*



## الفصل الاول

---



## بزوغ الاسلام

### المذهب السننى والمذهب الشيعى

لقد خرج الاسلام من مجتمع بدوى بدائى بالجزيرة العربية  
فى خلال الربع الأول من القرن السابع الميلادى وخلق من لا شىء  
نظما اجتماعيا كاملا . فكيف حدث ذلك ؟ وكيف تطور الاسلام وانتشر  
عقب وفاة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ؟ السبب فى ذلك يرجع  
الى أن المجتمعات الاسلامية التى أعقبت وفاة الرسول قد جاهدت  
لتنظيم نفسها مسترشدة بالأحداث والمواقف التى حدثت فى الفترات  
المبكرة من ظهور الاسلام . وتلك الفترة الاولى المبكرة من الاسلام  
هى التى يرجع اليها المسلمون المعاصرون بهدف الحصول على  
اجابات عن أسئلة حيوية كهذه . تتعلق بكيان سياسى ادارى  
مثل السلطة والشرعية والعلاقات بين الحاكم والمحكوم والقانون  
والنظام والتوافق الاجتماعى .

ان كلمة اسلام تعنى باللغة العربية التسليم والخضوع  
والاذعان والشخص المسلم هو الشخص الذى سلم أمره الى الله

الواحد الذى لا شريك له . ومع وضع كافة المسلمين فى كفة واحدة من المساواة المطلقة من خلال التسليم لله سبحانه وتعالى فان الاسلام قد خلق بذلك اخوة دينية تعلو فوق الروابط التقليدية للعشائر والقبائل فالمؤمنون كانوا متحدين من خلال ايمانهم بالله ومن خلال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفقا لما نقله اليهم محمد رسول الله .

لقد ولد محمد فى ٢٢ ابريل عام ٥٧٠ ميلادية أو ( ٥٧١ ميلادية ) من آمنة بنت وهب وزوجها عبد الله المنتمى لعشيرة هاشم وهى العشيرة المنتمية لقبيلة قريش المتواجدة فى مكة . وكانت مكة مركزا تجاريا يقع فى غرب الجزيرة العربية ويضم ٥٠٠٠ نسمة . وقد كانت مكة أيضا مكانا للحج حيث كان يحج اليها الناس الذين يعبدون الاصنام المتواجدة فى الكعبة . والكعبة هى معبد مربع الشكل وصغير الحجم ويحتوى على الحجر الأسود المقدس . وربما كان هذا الحجر الأسود قد سقط من الفضاء وارتطم بالأرض . وعلى مدى العديد من القرون نجد أن معتقدات القبائل البدوية بالجزيرة العربية قد تطورت وأصبحت بمثابة عبادة للأوثان والاصنام التى توضع فى الغالب حول صخرة أو شجرة ينظر اليها على أنها مقدسة . ولذلك فقد كان الحجر الأسود المتواجد بالكعبة نموذجا بارزا يدل على ذلك . وقد كان محمد انسانا قويا مفتول العضلات متوسط الطول وكان له أنف مقوس وعينان واسعتان وفم حساس وشعر كثيف متجعد ببعض الشئ . وكان رجلا متسما بالهدوء والجد والتأمل والتفكير كما كان يميل الى التحدث فى اختصار وفى صميم الموضوع الذى يتناوله . وعندما وصل الى سن الأربعين فان طبيعته الدينية الانطوائية دفعتة الى الذهاب من وقت لآخر الى كهف متواجد فى التلال القريبة من مكة لكى يتمكن من الاستغراق فى التأمل والتفكير بمفرده . وأثناء انهماكه فى الصلوات والتأمل

فى احدى المرات أحس بوجود « طيف Presence فى المكان  
يقول له : « يا محمد . انت رسول الله » . وفى خلال زيارة لاحقة  
للكهف — وفقا لما جاء فى المراجع الاسلامية — هبط أول وحى  
مقدس على محمد فى ليلة ٢٦/٢٧ رمضان وهو الشهر التاسع من  
التقويم الاسلامى . ونزلت عليه سورة :

• اقرأ باسم ربك الذى خلق •

• خلق الانسان من علق •

• اقرأ وربك الاكرم •

• الذى علم بالقلم •

• علم الانسان ما لم يعلم •

وعلى مدى العشرين سنة التالية استمر هبوط هذه الحالات  
من الوحي عليه فى نشر ايتاعى . وقد قام اتباعه وحواريوه بكتابة  
وتدوين الايات الكريمة على اوراق النخيل أو عظام الجمال أو قطع  
صفيرة من جلود الحيوانات . وقاموا بتجميع ١١٤ سورة ( أى  
فصل ) مختلفة من حيث الطول وكونوا فى النهاية كتابا يضم  
٦٦١٦ آية تسمى فى مجموعها : القرآن . وقد اتخذ القرآن شكلا  
محددا عقب موت محمد بسنوات قليلة .

فى عام ٦١٣ بدأ محمد بن عبد الله فى نشر الدعوة الاسلامية  
بين عدد محدود من اقاربه وأصدقائه . وكانت رسالته التى ينشرها  
بين اتباعه هى : توقنوا عن كافة أنواع عبادة الأصنام وأسلموا  
أنفسكم الى الله العليم بكل شئ القادر على كل شئ وعلاوة  
على ذلك فهو رحيم . وحذر الأغنياء قائلا أن تجميع الثروات من  
حدث هو هدف فى حد ذاته والتحول الى النشح والبخل سيؤدى بهم

الى الوقوع فى كارثة . ونظرا لان تعاليم محمد التى تنادى بالتوحيد وعبادة الاله الواحد كانت تتعارض مع عبادة الاصنام التى تركز على تعدد الالهة والتى تمارس فى مكة فانه قد أغضب تجار مكة الذين كانوا يستفيدون من وصول الحجاج الى مكة . وايضا فان مناداة محمد بالقبول المطلق بالاله الواحد قد خلق ولاء يتجه الى ما وراء الولاء للعشيرة أو القبيلة فأدى هذا الى اغضاب قادة العشائر الاثوياء الذين استاءوا ايضا من القيود الصارمة التى فرضها محمد على ثرواتهم .

وبحلول عام ٦١٩ كانت العداوات ضد محمد وضد الفئة القليلة العدد من أتباعه والتى تضم أربعين من الرجال وعشرين من النساء قد وصلت الى درجة كبيرة حيث أصبحوا يتعرضون فى كثير من الاوقات للغارات المتكررة والهجوم الشرس . وفى عام ٦٢٠ اعتنق الاسلام بعض افراد من قبيلة الخزرج الذين جاءوا لزيارة الكعبة قادمين من واحة يثرب التى تسمى باللغة الآرامية باسم مديننا Medinta أو المدينة ( سميت فيما بعد باسم : مدينة النبی أو المدينة ) تقع على مسافة ٢٠٠ ميل تقريبا الى الشمال الشرقى من مكة . واثناء عودتهم الى المدينة المنورة تمكنوا من اقناع المزيد من الناس باعتناق الدين الاسلامى . وفى السنة التالية احضروا معهم اثناء رحلتهم الى مكة عددا من هؤلاء الناس الذين اعتنقوا الاسلام مؤخرا . وكان من بينهم شخصان من قبيلة الأوس التى ظلت تحتفظ بالعداء الشديد تجاه قبيلة الخزرج . وفى يونيو من عام ٦٢٢ تم عقد اجتماع سمرى يضم ٧٥ مسلما من مسلمى المدينة المنورة وتم الاتفاق فى هذا الاجتماع على أن يوفرنا الحماية لمسلمى مكة اذا اتخذوا قرارا بأن يهاجروا الى المدينة . وفى خلال الاسابيع العديدة التالية تسلل مسلمو مكة خارجين من مكة فى هدوء واتجهوا الى المدينة المنورة .



وكان محمد وصاحبه أبو بكر هما آخر شخصين غادرا مكة الى المدينة المنورة .

واستمر الوحي في الهبوط على محمد الا ان الوحي أصبح آنئذ مليئا بالتوجيهات التشريعية والأخلاقية . وكانت تلك التشريعات تتلاءم مع الحاجة في ذلك الوقت الى اطار عمل من أجل تحقيق التقوى والنظام في نطاق المجتمع . ولذلك نجد أن القسم المدني من القرآن الكريم يهتم بشأن الشئون الجارية مع تقديم مجموعة كاملة من التشريعات والقوانين . اذ يتناول في المقام الأول الأمن الخارجى والداخلى للأمة الاسلامية ومهمة حماية الأمة من التهديدات الخارجية تقع على عاتق الأمة بأكملها . أما أفضل وسيلة تضمن العمل على حماية الشخص وحماية ممتلكات الأفراد في داخل الوطن فهي تتوقف على تلك العادة القبلية القديمة الخاصة بالعقاب التي وردت في الآية القرآنية التالية : « **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والآنف بالأنف والأذن بالأذن واللسن باللسن والجروح قصاص** » صدق الله العظيم .. والتعديل الوحيد هو أنه في حالة حدوث قتل على نحو غير مقصود وغير متعمد فان الفريق المحزون المظلوم ينبغي عليه أن يقبل ثمنا للدماء . وثانيا أنه يتم تنظيم حياة الأسرة . بحيث يعطى الحق للنساء في أن يملكن ويرثن العقارات والممتلكات وهذا في حد ذاته بمثابة ادخال تحسينات على الموقف الذي كان سائدا آنئذ في الجزيرة العربية . كما تمنح النساء نفس الحقوق في الزواج والطلاق مثل الرجال تماما . ويتم تحديد الالتزامات التي ينبغي أن يضطلع بها الزوج . والرجل مسموح له بأن يتزوج من أربع زوجات كحد أقصى وذلك بشرط الالتزام بتطبيق العدالة بينهن . « **فإن كنتم لا تعلمون فواحدة** » صدق الله العظيم . وثالثا ان القرآن يحدد الأوامر والوصايا المتعلقة بالنواحي الأخلاقية

والقانونية . والقرآن يحرم المسكرات ولحوم الحنزير ولعب القمار والميسر . كما يشجب الخداع والاحتيال وتشويه السمعة والافتراء والحنث باليمين والنفاق والفساد والاسراف والتبذير والكبرياء والعجرفة . كما يقضى القرآن بانزال العقاب على الناس الذين يرتكبون أعمال السرقة والقتل والزنا . وقطع الأيدي هى عقوبة السرقة . واذا ثبت على نساء متزوجات ارتكاب الزنا وذلك من خلال أربعة شهود فانه يجب احتجازهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت . وذلك وفقا لما ورد فى الآية رقم ١٥ من سورة النساء : « **وَاللّٰتِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسَكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا** » .

وفى المدينة المنورة وضع محمد الأسس التى ينبغى أن تسير عليها الأمة الإسلامية ودار الاسلام ، وصدرت وثيقة مكتوبة بمعرفته فى عام ٦٢٧ على الأرجح وسميت هذه الوثيقة فيها بعد بـ « **دستور المدينة** » . وهى وثيقة بالغة الأهمية من حيث توضيح الأمور ويمكن تلخيص تلك الوثيقة على النحو الآتى : أولا : ان المؤمنين والتابعين لهم يشكلون أمة واحدة . ثانيا : ان كل عشيرة أو كل قسم فرعى من الأمة تكون مسئولة عن تسديد أموال كفدية عن قتل شخص ما أو المساعدة فى قتله وذلك كتعويض لأقارب الشخص المقتول . ثالثا : انه ينبغى على جميع أفراد الأمة أن يظهروا التماسك والتضامن ضد الجريمة وينبغى عليهم عدم مساندة أى مجرم . رابعا : انه ينبغى على المؤمنين الالتزام بالتضامن والتماسك ضد الملاحدين أثناء الحرب والسلام . والبند الأخير ينص على أنه فى حالة نشوب نزاع بين أعضاء من الأمة فان الأمر يستلزم الرجوع الى الله واللجوء الى محمد من أجل الحصول على قرار بشأن النزاع .

وأحرز محمد سلسلة من الانتصارات فى ميادين المعارك مما أدى الى توسيع نطاق الاماكن الخاضعة لسلطاته . كما تمكن محمد من الحاق الهزيمة بقريش فى مكة . اذ دخل محمد مكة فى يناير من عام ٦٣٠ على رأس جيش يتألف من عشرة آلاف مسلم . وأصدر أوامره بتحطيم جميع الأصنام المتواجدة بالكعبة والبالغ عددها ٣٦٠ صنما وانزالها عن القواعد الخاصة بها . وارغمت قريش الوثنية بأن تسير فى استعراض أمامه فى ولاء واجلال وتقدير ثم لمس محمد الحجر الأسود بعصاه وصاح قائلاً : الله أكبر « وهى صيحة الحرب لدى المسلمين .

وتزايد عدد أتباع محمد عقب دخول المشركين من البدو الرحل فى الدين الاسلامى بأعداد هائلة . اذ وصلت وفود متلاحقة قادمة من مناطق عديدة من جميع أرجاء شبه الجزيرة العربية الى المدينة المنورة لمناشدة النبى محمد لادخالهم ضمن الامة الاسلامية . فرحب محمد بهم حيث كان يدرك أن الوضع الجديد الناشئ فى المدينة المنورة بحاجة الى توفير كل أنواع الحماية حتى يمكن للمدينة المنورة أن تظل على قيد الحياة عقب وفاته .

وهكذا نرى أن الاسلام قد انطلق على نحو مختلف تماماً عن الديانة اليهودية والديانة المسيحية وهما الديانتان التوحيديتان اللتان تناديان بتواجد اله واحد واللذان تتواجدان فى داخل الجزيرة العربية وفى الأراضى المحيطة بها واللذان ذكرنا مرات عديدة فى الآيات القرآنية التى نزلت على النبى محمد صلى الله عليه وسلم . وطبقاً لما أورده المؤرخ برنارد لويس Lewis Bernar فإن الاسلام هو دين ودولة فى آن واحد حيث كان النبى محمد يقوم بدور القائد العسكرى وتقرير الحرب والسلام وتحصن الضرائب وسن التشريعات والقوانين وتطبيق العدالة .

وعلى النقيض من ذلك نجد أن السيد المسيح قد أوضح منذ البداية أن هناك فارشا بين الأمور التي تتعلق بالله والأمور التي تتعلق بقصر . . . ومنذ ذلك الحين نجد أن الديانة المسيحية قد اعترفت بوجود سلطتين منفصلتين : سلطة الكنيسة وسلطة الدولة تعلمان في توافق وانسجام في بعض الأحيان وفي تصارع في أوقات أخرى . أما بالنسبة للديانة اليهودية فإن الموقف غير واضح : إذ نجد أن الديانة اليهودية الكلاسيكية الخاصة بالربانيين والأخبار لم تظهر إلى الوجود إلا بعد أن توقفت الدولة اليهودية عن التواجد . ولذلك فإنه يمكن القول بأن الديانة اليهودية تحتل مكانا وسطا بين الاسلام والمسيحية فيما يتعلق بموضوع العلاقة بين الدين والدولة (١) .

وأدرك محمد أن أفضل وسيلة تضمن بقاء الأمة الاسلامية على قيد الحياة هي أن يدخل في أذهان الأشخاص الجدد الذي اعتنقوا الاسلام احساسا بالتماسك والتكافل الذي كان يتفوق على الولاءات التقليدية والذي كان يتخذ طابعا طقوسيا شديدا حتى أنه كان يمس الحياة اليومية ماسا وثيقا . وبزغ من هذه الأعمدة الخمسة للاسلام وهي بمثابة تلخيص موجز للالتزامات الفردية والاجتماعية التي وضعها محمد في أحد أحاديثه النبوية الشريفة : الشهادة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، الحج .

المسلم ينعم عليه بتلاوة الشهادة . والشهادة هي المبدأ الرئيسي في الاسلام ، ونصها كالتالي : « لا اله الا الله . محمد رسول الله » . ويكفي المرء لكي يعتنق الدين الاسلامي أن يقول نس هذه الشهادة أمام عدد من الشهود .

---

(١) نظرا لأن اليهود والمسيحيين قد ورد ذكرهم في القرآن الكريم فإنهم يعرفون في الاسلام باسم « أهل الكتاب » . (( المترجم ))

والصلاة تؤدي على نحو فردي وجماعي . وإداء الصلاة على نحو جماعي في أيام الجمعة من كل أسبوع يدعم ويساند تكافل وتماسك الجماعة ، والحركات التي يقوم بها المسلم أثناء الصلاة الجماعية : مثل الوقوف والانحناء والركوع والسجود يتولد عنها النظام على النحو الذي يحدث في تدريبات الفرق العسكرية . وعندما أوضح محمد بأن المؤمن ينبغي عليه أن يتوقف عن تامة الأنشطة لكي يؤدي الصلاة ثلاث مرات يوميا على الأقل (١) فإنه كان يريد بذلك أن يذكر أتباعه بأن الأمور التي يطلبها منا الله تكون لها الأولوية القصوى لأنها هي الاسمى والاعلى والأهم من أى شيء آخر . ووقوف المسلمين جميعا في مستوى واحد في داخل المسجد أو فوق أرض مهيبة من أجل الصلاة بغض النظر عن منزلتهم الاجتماعية فإن ذلك يؤكد على فكرة أن المسلمين جميعا متساوون أمام الله . وتشتهر المساجد بالبساطة مع توفير مكان مستو ومسطح بها لكي يؤدي عليه المؤمنون الصلاة . والخطبة الدينية التي تسبق صلاة الجمعة لها أهداف اجتماعية ودينية مهمة . لأنها لا تقتصر على بعض النواحي الدينية للدين الاسلامي وإنما تتناول أيضا الأوضاع الاجتماعية والسياسية السائدة إذ نجد في هذه الأيام — على سبيل المثال — أن خطبة الجمعة التي تلقى في جمهورية إيران الاسلامية هي بمثابة الوسيلة الرئيسية التي يلجأ اليها القادة الاسلاميون من أجل تعليم جماهير المسلمين وإبلاغهم بما بدور في الشؤون والأحداث الجارية سواء أكانت داخلية أم خارجية .

**أما الزكاة فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم : « إنما الصدقات الفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب**

(١) لأنه عادة ما يكون الإنسان متوقفا بالفعل عن أى نشاط دنيوى أثناء حلول يوم صلاة العشاء وكذلك صلاة النجر . ( المترجم )

**والفارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم** « • صدق الله العظيم •

ثم دخلت عليها تعديلات فيما بعد لى تصبح زكاة اجبارية تصل الى ٢٣٪ سنويا من ثروة الانسان المسلم • والهدف الرئيسى من وراء ذلك هو أن الشخص المسلم ينبغى عليه أن يظهر ثروته من خلال دفع رسوم ومستحقات للأمة الاسلامية التى تقوم بانفاق هذه الموارد المالية فى مجال مساعدة الفقراء والمعوزين •

والصوم طوال شهر رمضان وهو الشهر التاسع من التقويم الاسلامى ( التقويم القمري ) يتطلب من الشخص المسلم أن يمتنع عن الطعام والشراب وممارسة الجنس فى الفترة ما بين شروق الشمس وغروبها • ومن خلال ممارسة الصوم فان الانسان المسلم يتعلم كيفية ممارسة السيطرة على متطلباته الجسمانية المادية • وهذا الزهد الذى يمارسه الأفراد المسلمون يساعد على تحويل الأمة الاسلامية الى أمة تعشق النظام وضبط النفس •

أما الحج فيستمتع به أولئك الذين تمكنهم ظروفهم المالية من تأديته • ويتم تأدية فريضة الحج فى شهر ذى الحجة وهو الشهر الأخير من التقويم الاسلامى • ويبدأ الحج بالطواف حول الكعبة المتواجدة فى مكة المكرمة وينتهى بذبح حيوان فى منطقة منى Mina التى تبعد عن مكة بمسافة عشرة أميال • وفى الفترة ما بين بداية الحج ونهايته تؤدى الصلاة فى عرفات وفى المزدلفة • وطقوس الحج التى يمكن أن تستكمل فى خلال خمسة أيام هى طقوس مستقاة من الممارسات التى كانت شائعة ومنتشرة بالفعل بين سكان وأهالى الجزيرة العربية قبل مجيء أيام محمد عليه الصلاة والسلام فمن خلال ادخال هذه التقاليد الوثنية نجد أن الحج قد ساعد على تدعيم وتماسك المجتمع الاسلامى الذى بزغ الى الوجود مؤخرا •

ومن خلال تأدية فريضة الحج أصبحت الأمة الإسلامية مدركة للتواجد الخاص بها كقوة اجتماعية قوية . وفى الأزمنة الحديثة حالبا نجد أن تجمع ما يزيد على مليونى مسلم من جميع أرجاء العالم من أجل تأدية فريضة الحج يزيد من الاحساس بعالمية الدين الإسلامى .

وقد أوصى النبى محمد بنفسه بضرورة الاهتمام بطقوس ومراسم الحج وذلك عقب قيامه بتأدية فريضة الحج فى آخر مرة فى مكة فى أوائل عام ٦٣٢ وكان آنئذ فى أوج قوته وذروة سلطانه بل كان أقوى رجل فى الجزيرة العربية وكان شخصية دينية بالغة التقديس فى داخل الجزيرة العربية وخارجها . والقبائل العربية التى كانت حتى ذلك الحين تبدد الكثير من جهودها وطاقاتها فى عداوات مدوية قد أصبحت موحدة تحت قيادته . الا أن محمدا كان يدرك أن تلك الوحدة هى وحدة هشة وضعيفة وأن الوسيلة الوحيدة التى يضرب بها بقاء النواة التى يتألف منها مسلمو المدينة المنورة فى دار الاسلام عقب وفاته هى مواصلة الاتجاه نحو التوسع — وهى استراتيجية كانت تروق أيضا لأتباعه من البدو المتلهمن على الاستيلاء على الغنائم ( الشرعية ) التى تنجم عن القيام بحملات وغزوات عسكرية ناجحة .

وبعد أن عاد محمد الى المدينة المنورة عقب تأديته لفريضة الحج بدأ يستمد لفتح سوريا . الا أنه تعرض لمرض شديد مفاجئ وانتقل الى رحمة الله فى ٨ يونيو ٦٣٢ بدون أن يترك وراءه ابنا له . ولو كان محمد قد ترك وراءه ابنا جديرا بقيادة الأمة الإسلامية من بعده لكانت الأمة قد اختارته خليفة على المسلمين على الأرجح مما يعطى بذلك سابقة حيث كان ذلك من شأنه انقاذ أجيال المسلمين التالية من الدخول فى الصراعات المميتة التى تركزت حول مسألة

الخلافة وهى أخطر قضية تسببت فى إثارة النزاع والشفاق فى التاريخ الإسلامى بأسره .

وقد جرت العادة بالجزيرة العربية على أنه عندما يموت رئيس قبيلة يخلفه فى القيادة أفضل من فى الأسرة أو فى القبيلة ويتخذ قرار فى هذا الشأن من خلال عقد اجتماع يضم كافة الذكور الراشدين فى الأسرة أو القبيلة . وهناك روايات عديدة تتعلق بالأحداث التى جرت أثناء فترة مرض محمد وعقب وفاته . وهى روايات مستقاة من السجلات التاريخية الشفوية منها والمكتوبة . والوصف الذى نوردته هنا هو ما أجمعت عليه معظم الآراء فيما يتعلق بوصول الخلفاء الراشدين الثلاثة الى قمة السلطة عقب وفاة محمد .

وأثناء فترة مرض محمد التى دامت ١٤ يوما نشبت منافسات حادة بين أقرب المعاونين والمساعددين له . وكان المتنافسان الرئيسان على الخلافة هما : أبو بكر الصديق . فهو والد عائشة التى هى أصغر زوجات النبى محمد سنا بل هى أفضل الزوجات الى قلبه . ثم على بن أبى طالب وهو ابن عم النبى محمد ومتزوج من فاطمة بنت محمد رسول الله . وفى حين كان أبو بكر يؤم المسلمين فى الصلاة الجماعية أثناء فترة مرض النبى نجد أن النبى قد اختار على بن أبى طالب البالغ من العمر آنئذ ٣٣ عاما لكى يغسل جسده عقب وفاته وذلك فى حد ذاته يعتبر شرفا فريدا من نوعه بالنسبة لعلى بن أبى طالب .

وبينما كان على ومسلمون آخرون فى حالة من الانهماك والحزن على موت النبى والانشغال فى مراسم دفنه قام المسلمون بالمدينة المنورة الذين يعرفون باسم : الانصار بعقد اجتماع عند مسقيئة بنى ساعدة . وعندما سمع أبو بكر وعمر بن الخطاب ( وعمر



أبن الخطاب هو والد حفصة وهي إحدى زوجات محمد ( بنبا هذا الاجتماع ذهباً على الفور لكي يحضروا اجتماع السقيفة . وتمكننا من احباط وجهة النظر التي كان المجتمعون يميلون اليها الا وهي اختيار شخصية من بين المسلمين الأنصار لكي يخلف رسول الله وساقا الحجج والبراهين التي تؤيد وجهة نظرهما ومن بينها أن الشبائل البدوية لن توافق على اختيار خليفة للرسول الا اذا كان ذلك الخليفة من أهالي مكة بل من قبيلة قريش التي ينتمي اليها محمد رسول الله . وتمكننا من اقناع الحاضرين بوجهة نظرهما . فاختار الحاضرون أبابكر الصديق كخليفة للمسلمين . وكان أبو بكر أكبر سنا من جميع الأعضاء الآخرين المتنافسين على منصب الخلافة . كما كان من أوائل الناس الذين اعتنقوا الدين الاسلامي علاوة على أنه كان رفيقا للنبي محمد أثناء هجرة النبي من مكة الى المدينة المنورة بالاضافة الى أنه كان رئيسا للحج في عام ٦٣١ .

وبعد مرور عامين مات أبو بكر الصديق في عام ٦٣٤ . الا أنه قبل أن يموت قام بتعيين عمر بن الخطاب ليكون خليفة للمسلمين من بعده ولكن عمر قبل توليه لهذا المنصب الكبير سعى للحصول على موافقة وتأييد من كافة كبار الشخصيات والقادة بالامة الاسلامية . وأدى ذلك الى شعور علي بن أبي طالب باجباط شديد فاعتزل الحياة العامة الى درجة كبيرة وكرس نفسه لأعمال تدريس الدين الاسلامي علاوة على تجميع نسخة رسمية من القرآن الكريم .

وفي عام ٦٣٦ تمكنت جيوش عمر بن الخطاب من الحاق الهزيمة بالقوات البيزنطية المتواجدة في سوريا . وفي السنة التالية ألحقت الهزيمة بـ Sassanids عند قادش Qadisiya الواقعة على ضفاف نهر الفرات مما أدى الى استيلاء المسلمين على ما يسمى حاليا بالعراق وجزء من ايران الحالية . وبعد مرور

أربع سنوات تمكنت قوات عمر بن الخطاب من فتح مصر . وهذا التوسع فى حجم دار الاسلام من خلال شن الحروب المقدسة أو ما يسمى بالجهاد لدى المسلمين قد ساعد عمر بن الخطاب فى تدعيم التآلف والتماسك بين القبائل العربية تحت قيادته . وعزز عمر هذا الاتجاه التوسعى من خلال وضسع خطة قوية تهدف الى الإبقاء دائماً على وجود جيش قوى دائم مع الحرص على غرس الأفكار والتعاليم والممارسات الاسلامية فى أذهان أفرادها . وأصدر عمر تعليمات تنص على منع الجنود المسلمين من استعمار البلاد التى يفتحونها ويستولون عليها . وفرض عمر ضريبة أراض على ملاك الأراضى بالبلاد التى تم فتحها كما فرض عمر ضريبة الرؤوس (١) على المواطنين فى تلك البلاد . وأصدر أوامره بأن تعيش قواته الحربية فى مدن عسكرية منعزلة عن المواطنين ومزودة بالمساجد ومقرئ القرآن الكريم بهدف تثقيف الجنود بالثقافة الدينية الاسلامية . وأعد سجلات بأسماء الرجال المسلمين الذين تتألف منهم الجيوش الاسلامية وكان يدفع لهم رواتبهم ومعاشاتهم من حصيلة الضرائب التى يتم تحصيلها من أهالى البلاد التى تم فتحها . وبكلمات أخرى كان عمر يعمل على تدعيم وتقوية الكفاح المقدس علاوة على تقوية الأساس الأيديولوجى للإسلام .

وكان عمر يهمل الى القسوة والصرامة فى داخل وطنه بالجزيرة العربية مما كان يجتعل الناس يخافون منه أكثر مما يحبونه . وقد سار على نهج النبى محمد وخليفته أبى بكر الصديق من حيث قيادته بدور رئيس القسوة . وكان عمر حى الضمير . الا أن كل أحكامه لم تكن خالية تماماً من الأخطاء . إذ كان على بن أبى طالب يقوم من وقت لآخر بتوضيح بعض الأمور المتعلقة بالأحكام التى يصدرها عمر . وقد اغتيل عمر فى نوفمبر عام ٦٤٤ .

---

(١) ضريبة الرؤوس : ضريبة تفرض على كل شخص من البالغين . ( المترجم )

وبينما كان دور في فراش الميت تام بتعيين لجنة تضم ستة أعضاء تكون مهمتها اختيار خليفة للمسلمين . وكانت هذه اللجنة تضم كلاً من : على بن أبي طالب وعثمان بن عفان وهو أحد أعضاء عشيرة أمية ( وهي فرع من قبيلة قريش ) وكان عثمان قد تزوج من رقية ثم تزوج من أم كلثوم وهما ابنتا النبي محمد . وقد عرضت الخلافة على بن أبي طالب ولكن مع التزامه بتنفيذ شرطين : الشرط الأول هو أن يحكم وفقاً للقرآن والسنة والشرط الثاني هو أن يحكم وفقاً للسوابق أو الأمور السابقة التي أرساها الخلفاء الراشدون السابقون عليه . فرفض على ذلك الشرط الثاني . . حيث كان قد سبق له فيما مضى انتقاد بعض الأعمال والتصرفات التي قام بها كل من أبي بكر وعمر ونظراً لأنه رجل يؤمن بضرورة الانساق والتوافق بين النكر والعمل فمانه رفض أن يتنازل عن مبادئه ومواقفه التي سبق أن أعلنها أمام الجميع ورفض أن يتوافق مع كافة الأحكام والقرارات التي سبق أن صدرت عن كل من أبي بكر وعمر . وعندئذ عرضت الخلافة على عثمان بنفسه هذين الشرطين . فوافق عثمان على ذلك بدون أي تردد .

وهذا الاختيار في حد ذاته قد بذر بذور الشقاق والخلافات في دار الاسلام وأصبح على بمثابة مركز للمعارضة التي تزايدت وتعاضمت خاصة بعد أن سرع عثمان في محاربة الأمويين على نحو مستهوف وصريح . والمؤهلات الاسلامية لعلى بن أبي طالب هي مؤهلات لا ترقى إليها أية مؤهلات أخرى . فهي مؤهلات لا نظير لها . لأنه قد اعتنق الدين الاسلامي عندما كان لا يزال وليداً صغيراً بالإضافة الى أنه كان متعبقاً للخباية في أسرار القرآن الكريم . علاوة على أنه كان رجلاً تقياً وورعاً الى أقصى حد حتى أنه لم يتخلف ولو مرة واحدة في حياته عن تأدية الطقوس والصلوات الاسلامية . وقد كان رجلاً مثالياً وشديد التمسك بالمبادئ حتى أنه

وصف بأنه بمثابة ضمير الاسلام . وهو قد فضل أن يخضع على نفسه فرصة اختياره خليفة للمؤمنين عندما اشترطوا عليه شرطا غير مقبول من وجهة نظره ، وعلاوة على ورعه وتقواه ومثاليته كان هناك شكه الباهر وطلعته البهية المدهشة : كان يميل الى القصر والامتلاء وكان عريض الكتفين وملتحيا فى احية طويلة .

وأبدى عثمان تهاونا ازاء السياسة التى كان قد أعلنها عمر بن الخطاب والتى تقضى بمنع عرب الجزيرة العربية من استعمار البلاد التى تعرضت للفتح الاسلامى وخاصة فى اقليم مزوبوتاميا Mesopotamia بمنطقة الهلال الخصيب والذى يعرف حاليا باسم : العراق ، كما أن تزايد الرفاهية وسعة العيش والفنى وتغيب طبقة ملاك الاراضى فى مكة والمدينة المنورة والطائف قد أثار استياء شديدا . كما أن الكثيرين من حفظة القرآن الكريم قد عارضوا بشدة احتكار أمية للمناصب الادارية الكبرى . كما كان الجنود يشكون من الشكوى من روايتهم المنخفضة وطالبوا بالعودة الى اسلوب الحصول على الغنائم التى تنجم عن القيام بحملات عسكرية ناجحة . وكانت موجات السخط تتصاعد فى غليان وفى صراع مكثوف وعلنى بين مسلمى الجزيرة العربية المدنيين منهم والعسكريين والسكان المحليين المتواجدين فى مدينتى : الكوفة والبصرة بالعراق .

ووصلت الأمور الى ذروة التعقيد فى منتصف عام ٦٥٦ عندما انضمت قوات متمردة من مصر الى منشقين من البصرة والكوفة وأحاطوا جميعا بمنزل عثمان المتواجد بالمدينة المنورة وطالبوه بالتنازل عن السلطة والخلافة . وتدخل على بن أبى طالب للوساطة بالنيابة عن الجنود المتمردين الا أنه فشل فى تسوية الازمة وحل المشكلة . وفى شهر يونيو قام مجموعة من الجنود

الثائرين بالهجوم على منزل عثمان وتمكنوا من قتله . وشجب على ابن أبى طالب هذا الاغتيال الا انه لم يبذل جهودا كبيرة من أجل القاء القبض على هؤلاء القتلة .

وتام انشوار ومعهم معظم الشباب من أهالى المدينة المنورة باختيار على بن أبى طالب خليفة للمسلمين بعد أن أعلنوا أن عليا هو « أفضل انسان بين المسلمين » وبذلك أعادوا الى الأمة الاسلامية بوجه عام الحق فى اختيار الخليفة . وهو حق كان قد اغتصب من قبل بمعرفة أبى بكر ثم بمعرفة لجنة شكلها الخليفة عمر بن الخطاب . وهكذا نرى انه بعد انقضاء ٢٤ عاما تم تقديم أعلى منصب فى الاسلام بدين قيد أو شرط الى على بن أبى طالب . وقبل على منصب الخليفة على المسلمين . الا أن الصراع كان قد تفاقم وتزايد فى داخل نطاق أمة الاسلام آنئذ الى درجة كبيرة حتى انه وجد نفسه مضطرا لأن يمضى معظم وقته وجهده فى اخضاع المعارضة .

ورفض معاوية بن أبى سفيان الحاكم الأموى على سوريا كما رفضت عائشة وهى زوجة النبى المتبقية على قيد الحياة الاعتراف بعلى بن أبى طالب خليفة على المسلمين وطالبا بضرورة الانتقام من الأشخاص الذين اغتالوا عثمان بن عفان . وأشهار القتلة فى مجادلاتهم الى أن قتل عثمان يعتبر عملا شرعيا لأنه لم يحكم وفقا للأوامر والتعليمات الواردة بالقرآن الكريم وبذلك فانه لم يعد عضوا فى الأمة الاسلامية . وعلى مدى مئات السنين نجد أن القتلة والمتمردين المسلحين بالمجتمعات الاسلامية قد ارتكزوا على هذا الأساس المنطقي كمبرر للأعمال والاغتيالات التى يقومون بها ، وهى ان الحاكم الذى لا يحكم بما يتمشى مع ما ورد فى القرآن الكريم من احكام وتعليمات فانه لا يعتبر مسلما . وأقرب مثال على

ذلك هو اغتيال الرئيس محمد أنور السادات على أيدي الجنود  
الأحمرولين .

وعندما رفض على بن أبي طالب الاذعان لمطلب عائشة  
الخامس بمعاقبة قتلة عثمان فأنها سارعت بالذهاب الى البصرة  
لكي تنسج هجوما ضد الخليفة الجديد . فانسحب على الى الكوفة  
التي تعتبر معقلا حصينا لأرئديه وأنباعه . ونشبت معركة بالقرب  
من البصرة في ديسمبر ٦٥٦ وتمكن على من التغلب على الموالين  
لعائشة الا أنه كان مجاملا وكريما تجاه زوجة الرسول . وبعدئذ  
أقسم معظم الحكام العسكريين بيمين الولاء والاخلاص لعلى بن أبي  
طالب .

وفي عام ٦٥٨ تالقت جيوش على وجيوش معاوية في منطقة  
صفين الواقعة على ضفاف نهر الفرات ودارت معركة . وسرعان  
ما اتضح تفوق جيوش على بن أبي طالب . وهنا لجأ رجال معاوية  
الى الاستعطاف وحسم النزاع من خلال اللجوء الى القرآن الكريم  
وغرسوا صفحات من القرآن في الرماح الخاصة بهم . فأدى هذا  
الى وقف القتال بين الجانبين .

وبعد شهور عديدة من المفاوضات وافق كل من على وأمية  
على عرض النزاع الشائم بينهما ومسألة الخلافة على اثنين من  
المحكمين أو الوسطاء بحيث يقوم كل جانب باختيار الحكم الذي  
ينوب عنه . وقد صار التحكيم الذي نجم عن هذين الوسيطيين  
بشابة أكثر القصص تعقيدا في التاريخ الاسلامي وذلك بسبب  
الروايات غير الآمنة التي ساققتها جهات عديدة عن مجرى سير  
الأحداث وعن دوافع المشاركين في هذه الوساطة .

وتجدر الإشارة الى أن مئات عديدة من الأتباع العسكريين  
 لحلى بن أبى طالب قد ذهبوا الى انه لا يوجد نص فى القرآن الكريم  
 يتتعلق بالتحكيم ثم أعلنوا انفصالهم عن على وأقاموا معسكرا لهم  
 بالقرب من بغداد . وأصبحت هذه المجموعة من المقاتلين يسمون :  
 الخوارج Kharagis أو الغرباء Outsiders أو المنشقين  
 Seceders . وقد اضطر على إحصاريتهم والحاق الهزيمة بهم  
 فى يوليو ٦٥٨ إلا أن عددا كافيا منهم قد أفلت من الموت واستجروا  
 فى تشكيل « حركة الخوارج » التى ذهبت فى تقديراتها الى أن أى  
 شخص مسلم يتميز بالتقوى والورع جدير بأن يصبح خليفة للمسلمين  
 علاوة على إيمانهم ببعض الأور والآراء الأخرى ( وهم فى هذا  
 الصدد يختلفون عن شيعة على — أو أنصار على — الذين أصروا  
 على قدسية ذرية النبى محمد من خلال ابنته فاطمة الزهراء  
 وزوجها على وأشاروا الى أن هذه القدسية هى الشرط الأساسى  
 للخلافة ) .

ومن بين الروايات التى قيلت عن التحكيم أن الحكيم قد  
 اتفقا على الراى على اقالة وخلع كل من على ومعاوية بحيث يتم  
 اختيار خليفة جديد من خلال عقد اجتماع يضم علىة القوم وكبار  
 الشخصيات . ونظرا لأن مندوب على كان أكبر فى السن من مندوب  
 معاوية فقد تقرر أن يتكلم أولا أمام ذلك الحشد من كبار الشخصيات  
 . . فأعلن عزل واقالة كل من على ومعاوية . وبعدئذ نهض مندوب  
 معاوية لىلقى كلمته . ولكنه بدلا من أن يدعو الى الترشيحات  
 من أجل شغل منصب الخليفة فإنه أعلن أن معاوية هو الشخص  
 الملائم لشغل منصب الخليفة . فتشبهت على بمنصبه . وقد استاء  
 شيعة على من الخيانة التى ارتكبتها مندوب على الى أقصى حد .  
 وترك ذلك أثرا عميقا عليهم . ويستمر هذا الاستياء المتواصل حتى  
 يومنا هذا . فالرفض المستمر من جانب آية الله الخمينى وهو رجل

شيعة لقبول الوساطة في الحرب الإيرانية العراقية يرجع أساساً إلى عدم الثقة في الوسطاء . وهي عدم الثقة المحفورة في عمق التجربة التي شهدتها على عقب معركة صفين .

وقرر الخوارج Kharagis المتبقون على قيد الحياة الانتقام لموت زملائهم على أيدي قوات علي . وكان علي بالطبع على رأس قائمة الأشخاص المراد قتلهم . ولقد تمكن رجل منهم يسمى ابن مجلم من طعن علي طعنة مميتة في يوم ١٩ رمضان عام ٤٠ هجرية الموافق شهر مارس عام ٦٦١ بينما كان يؤدي الصلاة في مسجده بالكوفة . وكان اغتيال علي بمثابة ضربة هائلة لأولئك الذين كانوا يؤيدونه في مطالبته بالخلافة وأحقته لها . وكان رحين علي هو نهاية فترة حكم دامت ثلاثين عاماً على أيدي الخلفاء الراشدين الأربعة . وهي فترة الحكم التي اتخذت من المدينة المنورة مقراً لها .

وتم الاعلان عن معاوية خليفة بالقدس كما تم الاعلان عن الحسن وهو الابن الأكبر لعلي بن أبي طالب خليفة في الكوفة . الا ان هذه الازدواجية في الخلافة لم تستمر لفترة طويلة . وكان معاوية — وهو سليل عشيرة أمية التي تعتبر جزءاً من الطبقة العليا الراسخة في مجتمع الجزيرة العربية — يتمتع بنموذج أكبر وقوة عسكرية أكبر من الحسن . وأرسل معاوية مندوبين عنه لكي يقتلوا الحسن أن يعتزل السلطة ويعود إلى المدينة المنورة ويحصل على معاش كبير مع وعده بعودة الخلافة — عقب وفاة معاوية — إلى العشيرة الهاشمية التي ارتفعت مكانتها إلى درجة عظيمة بسبب الشعبية الهائلة التي تمتع بها أحد أفراد هذه العشيرة ألا وهو محمد رسول الله وبسبب اهتمام أفراد هذه العشيرة بتدعيم الدين الإسلامي الجديد القوي . ومات الحسن بسبب تعرضه لحالة من



التسمم فى عام ٦٦٩ . ثم نكث معاوية بوعدده حيث قام بتعيين ابنه يزيد خليفة أثناء فترة حياته . وهو بذلك قد أنشأ أسلوب السلالة الحاكمة وهو أمر لا نظير له فى دار الاسلام . وقضى هذا الاجراء على التقاليد السابقة التى تنادى بضرورة اختيار أكثر المسلمين وزعا وتقوى من بين عشيرة بنى هاشم أو عشيرة بنى أمية ليكون زعيمها للأمة الاسلامية . ومازال الحكم من خلال أسرة ملكية يلقى معارضة شديدة من جانب الكثير من كبار المفكرين الاسلاميين المعاصرين . وهى معارضة تركز على أسس أيديولوجية .

وبحلول الوقت الذى مات فيه معاوية فى عام ٦٨٠ كان الأمويون قد دعوا قوتهم وسلطانهم . الا أن الشيعة كانوا لا يزالون متشددين فى آرائهم القائلة بأن عليا قد عين تعيينا الهيأ مقدسا لكى يخلف النبى محمد وأن الرسالة الالهية قد استقبلها بكل وضوح على وأسرته وبذلك فإن المنحدرين فقط من سلالة عائلة المسلم الحقيقى الأول هم الذين يصلحون لأن يحكموا دار الاسلام .

ونشأ عن هذا المفهوم ذهنى عن الامامة . بمعنى أن أولئك الذين ينحدرون من نسل النبى محمد — وبالتالي ينحدرون من نسل فاطمة وعلى — هم فقط الذين يمكنهم أن يحكموا المسلمين وأن الأئمة أو القادة الدينيين يتلقون الهاما مقدسا وبالتالي فهم معصومون من الخطأ . الا أن هذا الرأى لم يوافق عليه السنيون أو أهل السنة — اذا توخينا المزيد من الدقة — لأن أهل السنة يعتقدون أن الخلفاء عرضة للوقوع فى خطأ من حيث هم مفسرون للقرآن الكريم . والسنيون يبجلون ويوقرون النبى والخلفاء الراشدين بينما الشيعة لا يبجلون سوى النبى والامام على والمنحدرين من سلالة على بن أبى طالب . والسنيون يؤمنون بثلاثة مفاهيم ذهنية رئيسية : التوحيد بمعنى أنه لا اله الا الله . ثم النبوة من حيث هى وسيلة

اتصال بين الله والجنس البشرى ثم البعث بمعنى أن الآديين الذين ماتوا سيروظهم الله من سسببائهم فى يوم القيامة أو يوم الحساب ويتم الحكم على الأعمال التى قاموا بها أثناء فترة حياتهم فى الكرة الأرضية .

« الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يمتكسكم ثم يحببكم دار من شؤركم من ينسى من ذللكم من شىء مسسببائه وتعالى عما يشركون » . « صدق الله العاليم » .

والشيعة يؤمنون بتلك المفاهيم الذهنية الثلاثة مسالفة الذكر بالإضافة الى ايمانهم بالامامة والعدالة الاجتماعية . ولكن المذهب الشيعى فى أواخر القرن السابع كان بمثابة مدرسة فى الفكر الإسلامى أكثر مما هو طائفة للشيعمة محددة المعالم بشكل واضح .

وعقب موت معاوية أصبح يزيد خليفة على المسلمين . وعندئذ أعلن الحسين وهو أكثر أبناء على المتبعين على قيد الحياة والذى كان يقيم آنئذ فى المدينة المنورة مطالبته بالخلافة على أساس أن الخلافة تخص بيت النبى وعلى أساس أنه أكبر الأعضاء الذكور فى بيت النبى . وأشار الى أن يزيد يعتبر مفتصبا للخلافة . فوصلته رسائل تأييد مليئة بالحماسة من الكوفة التى تعتبر القلعة التى تضم مؤيدى وأنصار على بن أبى طالب . وكانت تلك الرسائل مليئة بالعبارات التى تشجعه على المطالبة بالخلافة واهياء المجد الذى هيم على دار الاسلام أثناء فترة حكم الامام على . ووصلت هذه الأنباء الى يزيد بن معاوية . فسارع الى ايفاد أحد مساعديه الموثوق بهم وهو عبيد الله بن زياد الى الكوفة . فاستخدم ابن زياد نفس التكتيكات القديمة المتعلقة بالاستتطاب والقمع وممارسة الضغوط وتمكن من تهديد القوات العسكرية المناهضة ليزيد بن معاوية . وكان الحسين آنئذ لا تساوره أدنى شكوك فى مدى

اخلاص أنصاره المتواجدين بالكوفة فسافر مع عائلته برفقة ٧٢ من التابعين له : ٤٠ من الفريسان + ٣٢ من المشاة متجها الى جنوب العراق .

وفى يوم ١ محرم ٦١ هجرية الموافق ٨ مايو ٦٨١ وعلى مسافة حوالي ثلاثين ميلا من الكوفة اعترض جنود يزيد بن معاوية سبيل الحسين ورفاقه وأسرتهم عند كربلاء . وعلى مدى الأيام الثمانية التالية حاول قائد قوات يزيد بن معاوية الحصول من الحسين على التسليم غير المشروط من خلال المفاوضات معه . الا انه لم يفلح فى هذا الشأن . اذ كان الحسين يؤمن ايمانا راسخا وكاملا بأحقيته فى الخلافة . ورفض التزحزح عن موقفه حتى بعد أن أدرك أن قواته تعتبر ضئيلة للغاية بالنسبة لجنود يزيد بن معاوية وأن الهزيمة والموت أمران محققان ولا مفر منهما . وهذا الاستخفاف بالبرجماتية التى تنادى بالتضحية بالبادئ السامية الرفيعة على محراب الواقعة كان بمثابة اعلاء واطهار للمثالية التى فجرت جسد الحسين وجعلت منه أعظم شهيد فى التاريخ الإسلامى وخاصة بين الشيعة . اذ فضل الحسين الدخول فى المعركة والاستشهاد على الاستسلام أو التراجع أمام تضيعة العدالة . وكان الحسين يدرك أن الظلم قد وقع عليه كما كان يدرك أن استشهاده من شأنه أن يحيى مطالبه بيت النبى محمد بالخلافة مستقبلا . وفى صباح يوم الجمعة الموافق العاشر من محرم قام الحسين بقيادة تلك المجموعة الصغيرة من المحاربين التابعين له لى يواجهوا جنود يزيد بن معاوية المسلحين والبالغ عددهم ٤٠٠٠ مقاتل ما بين فريسان ومشاة . ولكى يواجه الحسين هذا الحدث البالغ الأهمية فانه ارتدى العباءة المقدسة الخاصة بجده محمد رسول الله . واستشهد أنصار الحسين الواحد تلو الآخر نظرا للتفوق العددي لقوات يزيد بن معاوية .

وكان الحسين هو آخر من استشهد من المجموعة الصغيرة التابعة له . ثم قطع رأسه وقدم رأسه المقطوع الى يزيد بن معاوية .

ويتم تلاوة تلك الأحداث الدرامية التي شاهدها تلك الأيام العشرة من شهر محرم سنويا في كل مكان يعيش فيه الشيعة . وتتم التلاوة بمعرفة قراء محترفين بالمساجد وفي قاعات الاجتماعات . وأصبحت تلك المناسبة هي أشهر احتفال عاطفي مصحوب بالحزن الشديد والبكاء والوعويل المحموم مع جلد الناس لأنفسهم بالسياط وهذه الطقوس السنوية التي يمارسها الشيعة تباعد كثيرا ما بين الشيعة وأهل السنة وتعمق الفجوة بين الجانبين . وهي طقوس شيعية تحيي ذكرى الامام الحسين وتعيد من جديد ذكرى التاريخ خلال الفترات الأولى من الاسلام وذلك يعطى لقادة الشيعة المعاصرين الفرصة لاستقاء الدروس من التراجم البطولية لرجل يتميز بالتقوى والورع والروحانية على نحو غير عادي وأن المؤمن الحق ينبغي عليه ألا يمتنع عن تحدى نظام الحكم القائم مع استخدام القوة المسلحة اذا اقتضت الضرورة وذلك اذا أصبح نظام الحكم السائد متسما بالظلم والظلميان حتى لو كانت فرص النجاح في الاطاحة بالحكم الفاسد ضئيلة للغاية . ومما لاشك فيه أن أولئك الحكام الذين يرغبون في قيادة مواطنيهم بدون الالتزام بالخط الاسلامي يحاولون القضاء على تلك الطقوس التي تذكر الناس بهقتل الحسين . ففي ١٩٣٩ قام الشاه رضا بهلوي بتحريم جلد الناس لأنفسهم علنا أمام الجماهير في يوم العاشر من رمضان كما حاول وقف العروض الجماهيرية التي يقوم بها الشيعة في خلال الأيام السابقة على الحداد .

وفي داخل البلاط الملكي في عام ٦٨١ شعر يزيد بن معاوية بالحزن الشديد نظرا لأن الامام الحسين من سلالة النبي على نحو

مباشر . وأصدر يزيد أوامره بتأمين سفر جميع نساء عائلة الحسين المتبقيات على قيد الحياة علاوة على على زين العابدين الذى تعرض لجراح واصابات خطيرة حتى أن قوات يزيد قد اعتقدت أنه قد مات بالإضافة الى حفيد صبي يسمى محمد الباقر وذلك أثناء عودتهم الى المدينة المنورة . وقد تبنت زينب — وهى أخت الامام الحسين — قضية الشيعة الى أن شفى زين العابدين من جراحه تماما . ومنذ ذلك الوقت فصاعدا بدأ الشيعة يجذبون اليهم العناصر المتمردة والثورية والمنشقة المتواجدة فى دار الاسلام .

وكان استشهاد الامام الحسين بمثابة نقطة تحول فى التاريخ الاسلامى وليس مجرد هزيمة نهائية لعشيرة آل هاشم على أيدي الأمويين . فهذا الصدام المسلح بين يزيد الفاسد والحسين التقى الورع كان جزءا من نفس الديالكتيك الذى جعل عثمان البراجماتيقى يتصارع مع على بن أبى طالب المثالى : وهو جدل ديالكتيكى لايدولوجية قد أحرزت النجاح . والمسألة الرئيسية وفقا لما أورده المؤرخ الاسلامى ماليز روتفين Malise Ruthven كانت على النحو التالى : « هل يمكن للتهايبك الجديد للأمة الاسلامية المرتكز على الالتزام بما ورد بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أن يكون هو الأساس الأيديولوجى لنظام اسلامى جديد أو ينبغى على النظام أولا أن يرسخ نفسه على أساس من النفوذ والسلطة القرشبية وخاصة النفوذ الاموى ؟ » وكانت الاجابة النابعة من الحياة الواقعية — مثلما يكون عليه الحال فى كثير من الأحيان — هو اتخاذ خط وسط بين هذين الاتجاهين المتناقضين . الا أن هذا الديالكتيك قد ظل مستمرا وظل بدون حسم وينسيف هذا المؤرخ قائلا : « ان مشكلة العثور على توازن بين ما هو مثالى وما هو واقعى — أو التوازن بين النموذج الكامل للاسلام والحقائق الانسانية والمادية للحياة قد أصبحت

هى المادة العلمية للتاريخ الاسلامى ابتداء من عهد محمد حتى الوقت الحاضر » .

يل نشأ تصدع وصراع فى داخل نطاق معسكر الشيعة المعارض . ففى حين تقبل زين العابدين الحكم الأموى نجد أن محمد بن الحنفية وهو ابن لسيدنا على من زوجة حنفية قد ثار ضد الأمويين فى عام ٦٨٧ . ومنيت ثورته بالهزيمة الا أن الأوضاع الاجتماعية التى تغذى بذور الشقاق ظلت قائمة . اذ أصبح المجتمع تحت ظل حكم الأمويين مكونا من طبقات اجتماعية بتباينة : طبقة الارستقراطيين متربعة فوق قمة المجتمع وطبقة الشعب غير العربية الواقعة فى نطاق الامبراطورية الاسلامية يتواجدون عند قاع المجتمع ويسمون عادة بالأشخاص الموالين أو التابعين بينما الانصار العرب والقبائل البدوية الذين يقفون الى جانب الحكم الأموى يشكلون الطبقة المتوسطة . وكانت التفرقة العنصرية التى يمارسها الأمويون ضد المسلمين من غير العرب هى أمرا يتنافى مع تعاليم القرآن الكريم كما كانت تلك التفرقة سببا فى تصاعد مشاعر السخط والغضب بين الموالين مما يجعلهم ينجذبون نحو معسكر الشيعة .

وتمشيا مع التقاليد الشيعية قام على زين العابدين بتعيين ابنه الذى يسمى محمد الباقر كوريث روحى له وذلك قبل أن يموت فى عام ٧١٢ . ونظرا لأن الباقر قد اتخذ نفس موقف المهادنة السلمية مثلما فعل والده فقد قام الشيعة النشطاء بتقديم يد العون والتأييد والمساندة لأخيه غير الشقيق الذى يسمى زيد بن على . ورنع زيد لواء التمرد والعصيان فى عام ٧٤٠ الا أنه تلقى ضربة قاتلية . وبعدئذ فى عام ٧٤٣ قام ابنه يحيى بن زيد باعلان التمرد والعصيان فى منطقة خراسان وهو الاقليم الواقع الى أقصى

الشرق من دار الاسلام والذي يشتهل حاليا على كل المساحة التي تشغلها ايران . الا أنه لقي هزيمة منكرة .

الا ان جميع تلك الحالات من الفشل لم تضع حدا للتناقضات الشديدة المتواجدة في داخل نظام الحكم . وكان الناس الورعون الاتقياء يروعون من ذلك الفساد وحياة الرفاهية الخاصة بالأمويين الذين امتدت امبراطوريتهم آنذ الى اسبانيا غربا والى السند شرقا . وفي العاصمة دمشق كانت معظم النواحي الادارية في أيدي العائلات المسيحية التي سبق لها ان ادارت شئون البلاد في ظل حكم الأباطرة البيزنطيين وهو امر لا يطاق من وجهة نظر كبار مشايخ المسلمين في ذلك الوقت . فدمشق في الثلاثينات من عام ٧٣٠ كانت تختلف اختلافا شاسعا عن المدينة المنورة التي كانت تحرص على تحقيق العدل والمساواة والبساطة بين الناس منذ قرن مضى . ومن المؤكد أن المدن العسكرية المتواجدة في كل من العراق وخراسان كانت تموج بالاستياء . وفي خلال الثلاثينات من عام ٧٣٠ والأربعينات من عام ٧٤٠ تزايد تناول المثقفين لمسألة الحق في اعلان التمرد والثورة ضد الحاكم الفاسد الظالم .

وتحت ظل هذه الظروف التي كانت سائدة في أواخر الأربعينات من عام ٧٤٠ تم القيام بسلسلة ثانية من حالات التمرد والثورة تحت قيادة أبو مسلم الذي كان عبدا سابقا لدى ابراهيم وهو امام الهاشميين ومن سلالة عباس عم النبي محمد وقد انضم الى تلك التمردات والثورات قبائل الحاميات العسكرية في خراسان كما أيدها وساندها المثقفون الاسلاميون الحضريون الذين كانوا ينتقدون بشدة حياة البذخ والرفاهية التي يعيشها الأمويون . كما كسب أبو مسلم تأييد الشيعة عندما أعلن أنه سيتم تعيين عضو من بيت النبي محمد ليكون خليفة على المسلمين ولكي يحل محل الخليفة الأموي . وهكذا نرى أن المنافسة الهاشمية مع الأمويين والاستياء

الأيديولوجى من الحكام الفاسدين الذين انحرفوا عن الاسلام وتشوق الشيعة الى عودة الخلافة الى بيت النبى قد تلاقت كلها لكى ينجم عنها قوة راسخة . واستجوع المصيان والتفرد قواه ونجح بالفعل فى الاطاحة بالأمويين فى عام ٧٥٠ .

وهكذا جاءت الخلافة العباسية بعد الأمويين . وقد سميت على اسم العباس الذى هو عم النبى صلى الله عليه وسلم . وقد لقيت الثورة العباسية ترحيبا من جانب العلماء الدينين وجماهير المسلمين الذين هم من غير العرب . وكان ذلك بمثابة أول انتصار للمذهب الأصولى فى التاريخ الإسلامى . فالأمويون كانوا قد انحرفوا عن الطريق القويم للقرآن الكريم والسنة ثم أطيح بهم . وأولئك الذين حلوا محلهم إلا وهم العباسيون قد تعهدوا بالالتزام الشديد بالمبادئ الإسلامية الواردة بالقرآن والسنة . كما تعهدوا بأن يعاملوا المواليين أو المسلمين غير العرب على قدم المساواة التامة مع المسلمين العرب وأن يختاروا القضاة من بين أولئك الذين درسوا القرآن وممارسات النبى .

ونظرا لأن عباسا الهاشمى كان أكبر فى السن من النبى محمد بحوالى ٣٠ سنة فإن الادعاء الذى يقوله العباسيون من حيث انتمائهم لبيت النبى يعتبر ادعاء غير صحيح . وكان جعفر الصادق وهو الامام الشيعى السادس بازال خاضعا فى اذعان للسلطة العباسية . وفى مقابل ذلك نجد أن الخليفة العباسى كان يكرم الصادق مع ابقائه فى نفس الوقت تحت المراقبة السرية . وكان هذا بمثابة بداية للتعاون الهش المزعزع بين اتباع الامام الشيعى والدولة السنية .



ولكن ليس كل الشيعة قد اتبعوا جعفر الصادق . ففى خلال عقود قليلة من الاستيلاء على السلطة صار العباسيون يقتلون الأسلوب الديكتاتورى الساسانى Sassanian الذين أطاحوا بهم وتركوا الشؤون الادارية تسقط فى أيدى البيروقراطيين الذين سبق لهم أن قدموا خدماتهم لأباطرة الساسانيد . فمشر الرجال العسكريون الاسلاميون الذين سبق لهم تأييد العباسيين فى حماسة شديدة بأنهم تعرضوا للخيانة . وفى عام ٧٨٦ قام الشيعة باعلان التمرد والثورة والعصيان فى منطقة الحجاز التى تضم مكة والمدينة المنورة . الا أن الخليفة العباسى قام باخمادهم وقمعهم .

وعلى مدى الأجيال العديدة التالية تبلورت ثلاثة فروع للمذهب الشيعى : الزيديون أو الخماسيون والاسماعيليون أو السباعيون والاماميون أو أتباع الاثنا عشرية . والزيديون يشتركون فى القول بالائمة الأربعة الأوائل(\*) مع أنصار الاثنى عشر ويتبعون خطأ مختلفا ابداء من زيد بن زين العابدين . والاسماعيليون يشتركون فى الائمة الستة الأوائل مع أنصار الاثنى عشر(\*\*) وبعدئذ يتخذون خطأ مختلفا ابتداء من اسماعيل وهو الابن الكبير العسكرى لجعفر الصادق والذى مات قبل والده . وأولئك الذين اتبعوا موسى الكاظم وهو الابن الأصغر المعتدل لجعفر الصادق أصبحوا يعرفون باسم : الجعفريون ثم صاروا يعرفون

---

(\*) الائمة الأربعة الأوائل هم : على والحسن والحسين وزين العابدين .

(\*\*) الائمة الستة الشيعة الأوائل وفقا لرأى أنصار الاثنى عشر هم :

على والحسن والحسين وزين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق .

( المترجم )

بعد ذلك باسم : الاثنا عشرية أتباع الاثنى عشر (\*) . وهم يعتقدون أن محمد المنتظر وهو الابن الصبى للإمام الثانى عشر قد اختفى عن انظار الناس العاديين على نحو غامض فى عام ٨٧٢ وبذلك سمي بالإمام المخبى وترك وراءه أربعة من المساعدين الخصوصيين .

وبطول ذلك الوقت كان النفوذ القوى للخليفة العباسى قد تدهور وذلك مع تزايد اغتصاب الاقليم الشرقى من دار الاسلام على ايدى الاسرات الملكية الايرانية شبه المستقلة . بل ان بغداد قد سقطت فى عام ٩٣٢ فى ايدى أحمد معز الدولة وهو أحد ملوك البويد Buyid وكان من شيعة الاثنى عشر . الا انه لم يحاول — وكذلك المنحدرون من سلالته — ادخال المذهب الشيعى الى بلاط الخليفة او الغاء الخلافة العباسية . وهكذا نرى انه قد حدث تقسيم للسلطة : بحيث يتولى ملك البويد السلطة السياسية ويتولى الخليفة العباسى السلطة الروحية .

ومثل هذه الترتيبات كانت تتعارض مع روح الاسلام الحقيقية . فلم يوافق عليها الاسماعيليون وهم أكثر الشيعة اتساما بالطابع المسكرى . فقاموا أيضا بتحدى العباسيين ولكنه تحد يهدف الى الاطاحة بهم . ونجحوا بالفعل فى هذا المضمار فى تونس . فهناك تمكنوا تحت قيادة عبيد الله المهدي وبمساعدة من البربر من الاستيلاء على السلطة فى عام ٩٠٩ وأنشأوا هناك الخلافة الفاطمية (نسبة الى فاطمة زوجة على بن أبى طالب ) . وكان هذا بمثابة تحد

---

(\*) وباتى الأئمة الاثنى عشر هم : موسى الكاظم وعلى الرضا ( او على الرضا بالالفه الفارسية ) ومحمد التقى جواد وعلى التقى وحسن العسكرى ومحمد المنتظر .

( المترجم )

ناجح أمسوى شيعي للحكم السني العباسي الذي كان يعتبر من وجهه نظر الفاطميين حكما جائرا وغير ملتزم بالعدالة . وتزايدت أهمية الفاطميين عندما تمكنوا في عام ٩٦٩ من الاستيلاء على مصر حيث أصبحوا منافسين للعباسيين . ثم شيدوا في القاهرة جامع الأزهر والجامعة الأزهرية الدينية الإسلامية التي أصبحت أهم مركز للدراسة الشيعية .

واثناء سيطرة البوييد على بغداد ( في الفترة من عام ٩٣٢ حتى ١٠٥٥ ) تم جمع وتصنيف أربع مجموعات من أحاديث الشيعة ( أقوال وأفعال أئمة الشيعة ) . وهذا الاجراء في حد ذاته قد جعل الشيعة متكافئين مع المذاهب السنية الأربعة للشريعة المتواجدة بالفعل : الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية . وقد تم الاطاحة بالبوييد بمعرفة السلاجقة الذين قدموا من أواسط آسيا والذين كانوا من السنين .

وقد تسبب فقدان القدس وهي الثالثة مدينة مقدسة لدى المسلمين — حيث وقعت في أيدي المسيحيين خلال الحرب الصليبية الأولى ( ١٠٩٥ — ١٠٩٩ ) — في خلق أزمة في العالم الاسلامي . وكان فقدان القدس بمثابة قوة دافعة لبث وتشجيع الاتجاهات الاحيائية بين جماهير المسلمين وزيادة التفاف الناس حول الفاطميين وحول رؤيتهم للاسلام وقرر الفاطميون وضع كافة اراضي المسلمين تحت نفوذ وسيطرة ائمة الفاطميين . وتمكنوا من احراز تقدم هائل في هذا الصدد . اذ امتدت الاراضي الواقعة تحت حكم الفاطميين من تونس غربا الى بلاد الهند شرقا بما في ذلك مصر وسوريا والحجاز واليمن وعمان بحيث لم يتبق تحت السيطرة العباسية سوى العراق واهران .

وبسبب هذا الاكتساح الشيعي للمناطق الاسلامية نجد ان صلاح الدين الايوبي وهو جنرال كردي بزغ من بين صفوف الجيش

السلجوقى قد شن هجومه على الفاطميين فى عام ١١٧١ وتمكن من القضاء على الحكم الشيعى الفاطمى . وبذلك أصبحت السنة مرة أخرى هى القوة السائدة فى الاسلام . وفى الوقت الحالى نجد أن الشيعة لا تزيد نسبتهم على ١٥ ٪ فقط من مجموع السكان المسلمين بالكرة الأرضية والبالغ عددهم ٩٥٠ مليون نسمة .

### تلخيص :

لقد ولد محمد صلى الله عليه وسلم فى مجتمع قبلى اقطاعى مشرك بالله ومذموم بتعدد الآلهة والأوثان . ولكى يتمكن محمد من تشكيل مجتمع موحد ومتامسك ومؤمن بالتوحيد تحت قيادته فإنه نصح باتباع مجموعة كاملة من الطقوس والممارسات علاوة على قوانين أخلاقية تتعلق بالسلوك وعلاوة على قواعد اجرائية حازمة تتعلق بإدارة الشؤون السياسية للدولة . وكانت الأسس التى يركز عليها تنظيم الأمة الإسلامية هى : القرآن الكريم . والممارسات الشخصية الخاصة به أو السنة .

ومن خلال التمسك الشديد بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من جانب على بن أبى طالب فإنه أصبح يمثل الاتجاه المثالى فى الاسلام . أما الاتجاه البرجماتيقى بالاسلام فكان يمثله أولئك الذين تولوا بعد محمد عليه الصلاة والسلام وشغلوا منصب الخلافة بل ان الخليفة الثالث وهو عثمان بن عفان قد توسع فى البرجماتية مما أدى الى اغتياله فى نهاية الأمر . وبذلك أصبح شيعة على أو أنصار ومؤيدو على هم أول الأصوليين فى التاريخ الإسلامى ودخل الحسن بن على فى صراع مسلح ضد يزيد الحاكم المستبد الظالم رغم التفوق العددي الرهيب لصالح قوات يزيد العسكرية . وبذلك فهو قد حول المذهب الذهنى للاستشهاد الى تكتيكات تهدم الى تحقيق النظم الإسلامى المثالى .

وكان الشيعة وهم الأصوليون الأولون في الاسلام يحصلون على المساعدة والعون والتأييد من المسلمين المتميزين بالورع والتقوى ومن المسلمين الأعاجم ( غير العرب ) الذين كانوا يشعرون بأن التفرقة العنصرية تمارس ضدهم على أيدي العرب المسلمين .

ورغم أن الزمن قد تغير فان جهاير المناصرين للأصوليين لم يتغيروا . فحتى يومنا هذا نجد أن طبقة المهاجرين من القرى الى المدن يقدمون تأييدا شعبيا للحركة الأصولية التي يقودها أساسا رجال دين من ذوى المنزلة أو المقام المتوسط كما يقودها مهنيون أثقياء وتجار يتسمون بالورع .

وقد قام الشيعة بدور مهم في التحالف الذي قاد الثورة العباسية ضد الخلفاء الأمويين الذين انحرفوا الى حد بعيد عن الخط الاسلامي مما أدى الى احراز أول انتصار للأصوليين في تاريخ الاسلام . الا أن الخلفاء العباسيين السنيين سرعان ما شرعوا أيضا في الانزلاق بعيدا عن القرآن والسنة مما أدى بالشيعة لأن يصبحوا حملة لواء الاتجاه المثالي للإسلام . وهذا الدور بالاضافة الى عقدة الشهيد التي هبطت مثل الالهام على ذهن الامام الحسين قد حول الشيعة الى جنود ومقاتلين يتسمون بالشجاعة . وقد نجم عن ذلك نتائج مهمة منها : اخضاع الخليفة المنصور المتواجد في بغداد على أيدي ملك شيعي من أتباع الاثنا عشر في عام ٩٣٢ هـ لولاة على بزوغ خلافة شيعية اسماعيلية متمثلة في الفاطميين بالقاهرة في عام ٦٦٩ هـ . وقد ظلت السيطرة الشيعية

مستمرة على مدى أجيال عديدة وفقدت سيطرتها على بغداد في  
 بادئ الأمر في عام ١٠٥ ثم فقدت سيطرتها على القاهرة في عام  
 ١١٧١ . ولكن من الغريب حقا أن صلاح الدين الأيوبي وهو القائد  
 السنن الذى هزم الخلافة الشيعية بالقاهرة كان يركب موجة الاحياء  
 الاسلامى التى اكتسحت اراضى المسلمين فى أعقاب فقدان المسلمين  
 للقدس بعد أن استولى عليها المسيحيون فى عام ١٠٩٩ .

\* \* \*

## الفصل الثاني

---





## الاسلام القويم والصوفية

بوجه عام يمكن القول ان العهد الاموى ( ٦٦١ - ٧٥٠ ) كان عهد توسع للدين الاسلامى بينما العصر العباسى كان عهد التماسك والاندماج اذ كان الامويون الأوائل ملتزمين بضرورة ابقاء الفاتحين العرب بهزل عن أهالى وشعوب البلاد التى فتحوها . وجرصوا على وضع جنودهم فى داخل مدن عسكرية ومنعوا إقامة علاقات جنسية بينهم وبين النساء غير العربيات . وتسعدوا بنوعى الحماية للأهالى غير المسلمين فى مقابل قيامهم بتسديد ضريبة الرؤوس (\*) وهو أسلوب سبق أن طبقه النبى محمد عقب احرازه الانتصار فى خيبر وهى واحدة كان معظم سكانها من القبائل اليهودية . وتأنوا غير متحمسين لفكرة تحويل السكان والأهالى المحليين الى الدين الاسلامى .

---

(\*) ضريبة الرؤوس : هى ضريبة تفرض على كل شخص من البالغين .  
( المترجم )

الا أن أهالى البلاد التى فتحتها المسلمون وقعوا تحت اغراء  
 الموائد المالية وغير المالية التى يحصلون عليها من وراء اعتناق  
 الدين الإسلامى فاعتنقوا الدين الإسلامى بأعداد هائلة وأصبحوا  
 دونهون باسم : المواليين أو التابعين . وعقب حدوث ذلك أصبحت  
 العلاقة بين المسلمين العرب والمسلمين من غير العرب ضئيلة  
 للغاية . وتداخلت العادات والتقاليد القبلية والقوانين البسيطة  
 الخاصة بالعرب مع القوانين المعقدة للمجتمعات الريفية فى كل من  
 العراق وإيران ، فاتخذ الخلفاء الأمويون الطريق السهل من خلال  
 تطبيق نفس الممارسات القانونية والإدارية التى كان يقوم بها  
 الإمبراطور البيزنطيون الساسانيون Sassanian الذين أطيح بهم .  
 الا أن ذلك أحدث مشاعر من الألم العميق فى نفوس المسلمين  
 الأتقياء المتدينين . ومع قيام الأمويين فيما بعد بتثجير الناس  
 المتواجدين بالأراضى التى فتحها العرب على التحول الجماعى الى  
 اعتناق الدين الإسلامى فإن الإسلام انتشر بالقرى بين الفلاحين  
 والمزارعين الذين ليسوا من العرب . وهذا بدوره أدى الى ظهور  
 الحاجة الملحة الى نظام إدارى وشرعى متسم بالطابع الإسلامى .  
 الا أن الأمويين فشلوا فى تلبية هذه الاحتياجات الملحة العاجلة .  
 ومن ثم فإن المثقفين الدينيين وقفوا الى جانب الثورات الثورية  
 العباسية لدى تمردهم ضد الأمويين .

وركز العباسيون الأوائل جهودهم على تنمية وتطوير الإسلام  
 من حيث هو نظام اجتماعى مما أدى بالتالى الى تدعيم وتقوية  
 الإمبراطورية الإسلامية . وكان ذلك عملا صعبا استغرق حوالى  
 قرنين من الزمان لكى يتم اتجاذه . وقد قام به مشايخ من كبار  
 المثقفين الإسلاميين . وقد اكتشفوا أن القرآن الكريم الذى بضم  
 ٦٦١٦ آية لا يوجد به سوى ٨٠ آية تتعلق بالمسائل القانونية وأن  
 معظم هذه الآيات تتناول شئون النساء والزواج والأبوة والميراث .

ولكن نظرا لأن النبي محمد كان يحكم ويسيطر على كيان سياسى فانه كانت هناك التسجيلات الشفوية للأقوال التى قالها والأعمال التى فعلها من حيث هو قائم بدور القاضى والرجل الادارى . وسبب موت النبي محمد تم اللجوء الى وسائل عديدة من أجل جمع بيان بأقواله وأعماله . وهذه الأقوال والأفعال هى ما تسمى بالسنة النبوية الشريفة . ( وفيما بعد فى منتصف القرن التاسع الهجرى تم جمع وتصنيف حوالى ٢٧٠٠ من الأحاديث والأقوال والأعمال التى قام بها النبي وتم نشرها فى ست مجموعات تسمى فى مجموعها الأحاديث النبوية وأشهر هذه المجموعات هى المجموعة التى أنجزها محمد البخارى (٨١٠ — ٨٧٠) . وقصارى القول أن القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى . والأحاديث النبوية الشريفة هى التى تشرح وتفسر معانى القرآن الكريم .

وكان أبو حنيفة النعمان ( ٦٩٩ — ٧٦٧ ) من بين أوائل الناس الذين قاموا بتجميع وتنسيق القرآن الكريم والسنة . وهو تاجر إيرانى كان مقيما بالكوفة وقد أتبع العباسيون مذهبه أو مدرسته فى التشريع . وبعدئذ ظهر مذهب دينى آخر لأنس بن مالك ( ٧١٤ — ٧٩٦ ) وكان مقيما بالمدينة المنورة . وكانت البيئة التى عمل فيها هؤلاء العلماء الدارسون تنعكس على طابع الوثائق التى أنتجوها ، اذ نجد أن المذهب الحنفى يتخذ الطابع الليبرالى ويميل نحو المجتمع الحضرى فى حين أن المذهب المالكى يميل الى الطابع التقليدى المحافظ ويتلاءم مع مجتمعات الرعى .

الا أن العالم الدينى الذى أحدث أكبر تأثير على الجهاز الادارى والقانونى للإمبراطورية العباسية كان هو محمد بن ادریس الشافعى ( ٧٦٧ — ٨٢٠ ) وكان تلميذاً للإمام مالك بالمدينة المنورة ثم استقر به المقام فيما بعد بالقاهرة . وقد أنشأ الامام الشافعى علم الفقه الاسلامى على أربعة أسس : القرآن الكريم ، والسنة

النبوية على النحو الذى سسجلت عليه فى الاحساديث النبوية الشريفة ، والاجماع ، والقياس . وقد عسر الاجماع على أنه بمثابة الاتفاق فى الراى بين « أهل الحل والعقد » على أساس أن « أهل الحل والعقد » يشتملون على النماذج العديدة المثلين للأمة بما فى ذلك المثقفون الدينيون . الا أن الامام الشافعى قد توسع فى ذلك بحيث يشتمل على المجتمع بأكمله . أما القياس فكان يسمح للمجتمع بادخال المواقف الجديدة الى نظام الشريعة بدون الاخلال بالأولوية الخاصة بالقرآن الكريم والسنة النبوية . كما كان القياس يسمح أيضا بالآراء الفردية والفوارق الفردية وهو أمر قد أقره ووافق عليه الحديث النبوى الشريف الذى يعنى أن اختلاف العلماء الدينين فى الراى هو رحمة للمسلمين .

وباتباع هذه الوسيلة أصبح بإمكان العلماء الدينين احداث ادماج بين تعاليم النبى محمد والتقاليد العربية والتقاليد غير العربية بحيث تكون كلها منهجا واحدا قابلا للتطبيق على كافة جميع المسلمين سواء كانوا من العرب أو غير العرب . وهكذا نرى أن تنظيم الشافعى للشريعة تنظيما منهجيا قد قدم لنا الاسس التى يمكن أن تشيد عليها الهوية المشتركة العامة للمسلمين المنتشرين فى جميع أرجاء العالم .

والمدرسة الدينية الأخرى التى صمدت وظلت متواجدة على قيد الحياة هى مدرسة أحمد بن حنبل ( ٧٨٠ — ٨٥٥ ) وكان أحمد بن حنبل ضد استنباط مجموعة من التشرييع القانونية الفوقية المبنية على القرآن والسنة . وذهب فى تقديراته الى أن القرار القانونى ينبغى التوصل اليه من خلال الرجوع مباشرة الى القرآن والسنة بدلا من الرجوع الى تشريع دينى مأخوذ عن القرآن والسنة . . وأشار الى أن القرآن والسنة هما مصدر القانون فى حد ذاته وليس مجرد مصدر القانون . وقد افصح أن طريقته هذه فى فهم هذا

الموضوع لهم تلقى تأييدا شعبيا في المجتمعات المعقدة الصهينة الشقانة  
بالهلال الخصيب والننى تشتغل حاليا على العراق وسوريا والأردن  
ولبنان ومصر . الا انها وجدت اتباعا لها بين أعضاء القبائل البغوية  
المتواجدة في نجد بشبه الجزيرة العربية .

وعلى مدى الأجيال العديدة التالية نجد أن معظم العلماء  
الدينيين السنيين في دار الاسلام قد وقع اختياهم على احد هذه  
المذاهب الأربعة التي تحدد نطاق الشريعة ابتداء من الخط الأصولي  
المتشدد الحنبلي الى الخط الليبرالي الحنفي . ولكيلا يتم افساد  
وابطال مفعول « الاجماع » الذي تم التوصل اليه من خلال ادخال  
بعض الابتكارات الراديكالية الجديدة فان العلماء الدينيين ابتداء من  
القرن العاشر فصاعدا أعلنوا أن باب « الاجتهاد » ( أو التفسير  
الاجتهادي الابتكاري الخلاق ) في الاسلام قد تم اغلاقه . وقد  
اتضح أن التأثيرات التراكمية الناجمة من ذلك الموقف قد الحقّت  
الضرر بالاسلام . اذ أصبح الاسلام متسما بالصرامة والجمود  
بحيث لا يعكس سوى الوضع الراهن . . مما جعله  
يتدهور بشكل واضح خلال القرون الأخيرة من الألف عام الثانية  
« المسيحية » لدى تزايد ايقاع التطور التكنولوجي في الغرب وزيادة  
حدة المنافسة بين الخلافة العثمانية والدول الأوروبية .

والمذهب الحنفي الذي سار عليه العباسيون أصبح راسخا  
في الأماكن الغربية من قارة آسيا . أما مذهب مالك - ومالك  
من أهالي المدينة المنورة - فقد انتشر في شمال واواسط  
أفريقيا . أما المذهب الشافعي الذي نبع في مصر فانه قد وصل  
الى جنوب شبه الجزيرة العربية ومن هناك انتشر على طول  
الطريق الجنوبي الغربي لشرق أفريقيا وجنوب شرق آسيا . أما  
المذهب الحنبلي فقد ظل مقصورا على منطقة نجد بشبه الجزيرة  
العربية .

والتشريعة أو القانون الالهي تتحكم في حياة الانسان المسلم  
 تحكما كاملا . وقد قام الفقهاء الدينيون بدراسة كافة انواع الاعمال  
 التي يقوم بها الانسان . وقاموا بتصنيفها على النحو التالي : اعمال  
 اجبارية ، واعمال يوصى باتباعها ، واعمال مسموح باتباعها ،  
 واعمال غير محددة ، واعمال غير مرغوب فيها واعمال ممنوع الاتيان  
 بها . ثم اوضحوا الكيفية التي ينبغي ان يؤدي بها المرء الاعمال  
 الاجبارية والموصى باتباعها والمسموح باتباعها على وجه الدقة . .  
 ثم بداوا ينسبون معاني عميقة لبعض الاعمال الاجبارية فالامر  
 البسيط الذي اصدره النبي محمد والذي ينص على ان المؤمن ينبغي  
 عليه ان يتوضأ باستخدام الماء ( او الرمال ) قبل تأدية الصلوات  
 قد ادخل في مناقشات عميقة تتعلق بطهارة وتلوث الجسد الانساني .  
 وقدمت القوانين الاسلامية تفحصا وارشادا دقيقا لكافة الوظائف  
 الجسدية : الاكل والشرب والتنفس والاغتسال والتبول والتبرر  
 واخراج الغازات من الامعاء والممارسة الجنسية والتقيؤ والتعرض  
 لنزيف من الدماء وحلاقة الذقن ، مع تقديم وصف دقيق للكيفية  
 التي ينبغي ان تتم بها هذه الامور حيث يتركز الاهتمام على العمل  
 على جعل الجسد « طاهرا » باستمرار . وبالإضافة الى كل ذلك  
 صدرت مجموعة تعاليم عن السلوك الاجتماعي تنسم ايضا بانها  
 شاملة تماما ومطلوبة لكافة انواع السلوك . وهاتان المجموعتان من  
 القوانين المتلازمة مهمة للغاية وقاسية تماما بحيث يتعذر على المؤمن  
 الالتزام بها طوال الوقت . حتى لو كانت لديه افضل ارادة قوية  
 في العالم . ومن ناحية اخرى كان ادخال هذه القوانين الى حياة  
 اولئك الذين اعتنقوا الاسلام هو الذي ادى الى تواجد نماذج سلوكية  
 مشتركة بين جميع المسلمين بالعالم سواء كانوا يعيشون في  
 صحراء موريتانيا أو في مجموعة الجزر الاندونيسية .

والسرعة التي تأصلت بها هذه العملية اختلفت من منطقة  
 لاخرى . وبوجه عام نجد انه كلما ابتعدت المنطقة عن الاراضي

الاسلامية الرئيسية المتواجدة بشبه الجزيرة العربية الواقعة غرب آسيا ، طالت المدة قبل أن يفسر الطبائع الاسلامى بجذوره ويترسخ . وكان ذلك يتوقف أيضا على الكيفية التى تم بها ادخال الاسلام فى الاقليم : سواء كان ذلك عن طريق الفتح المسلح أو من خلال العلاقات الاقتصادية والتجارية مع التجار العرب الذين يصلون سواء بطريق البر أو بالبحر .

مثال ذلك أن الاسلام قد انتشر فى المناطق الصحراوية الافريقية من خلال طرق التجارة التى اهتم بها العرب من جهة الشمال . فعادة ما كان شيخ القبيلة الافريقية يعتنق الاسلام بهدف تدعيم مركزه الاجتماعى والسياسى من خلال الانضمام لحضارة اسمى وأقوى وأكبر لها كتاب مقدس مكتوب ( القرآن الكريم ) . وكان يبدأ بقبوله تعويذة أو حجابا أو ثوبا من الملابس . ثم يشرع تدريجا فى تأدية الصلاة وبعدئذ يتخلى عن المحظورات المحلية ويستبدل بها المحظورات الاسلامية فى حياته الشخصية . وبعدئذ كان أفراد قبيلته وأتباعه ومريدوه يقتدون به ويقلدونه . وبعد أن ترسخ الثقة الاسلامية فى داخل القبيلة يتم تطبيق الفقه الدينى فى المرحلة الثانية .

ونفس هذه العملية كانت تتم فى جزيرتى : جاوة وسومطرة ، وهما من أكبر الجزر فى أندونيسيا . وكانت هاتان الجزيرتان واقعيتين تحت النفوذ البوذى أو الهندوسى عندما وصل اليهما التجار العرب فى القرن الثالث عشر ، وانتشر الاسلام تدريجا من المنطقة الساحلية الى المناطق الداخلية من خلال شبكة الطرق التجارية . الا أن الأمر كان يتطلب استكمال عملية اضماء الطبائع الاسلامى التى بدأت فى السبر بخطوات سريعة فى خلال القرن الرابع عشر . وفى جاوة وغيرها من الجزر الكبرى نجد أن سكان

التلال بالمناطق الواقعة خلف الشريط الساحلى ، من المؤهدين بمذهب حيوية المادة(\*) أو المؤهدين بالمسيحية أو « مسلمين من الناحية الاسمية أو الشكلية فقط » يعرفون باسم : أبانجان Abangan ( فى حين أن المسلمين الراشدين المتواجدين بالشريط الساحلى يعرفون باسم : سانتري Santri ) . وفى الأماكن الداخلية نجد أن الممارسات والعبادة الاسلامية تتواجد جنباً الى جنب مع تلك الممارسات الضاربة بجذورها فى مذهب حيوية المادة وفى الديانة الهندوسية والديانة البوذية .

لقد انتشر الاسلام بين تلك المجتمعات التى كانت العقائد الدينية بها تنصب على عبادة الأوثان أو عبادة كبار الشخصيات . وهذا كان ينطبق على شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع . مثلاً كان ينطبق على جاوة فى القرن الثالث عشر . ونتيجة لذلك فإن أولئك الذين اعتنقوا الاسلام لآى سبب من الأسباب قد أفتقدوا الاشباع الروحى الشبيه بالتنويم المغناطيسى الذى كانوا يحصلون عليه من وراء عبادة الأصنام أو عبادة الأشياء المتواجدة فى الطبيعة أو عبادة شخص ما له صفات متميزة وهذه كلها ممارسات قد حرّمها الاسلام ومنعها القرآن تماماً . هذا بالإضافة الى أن الله من خلال المنصوص القرآنية كان يثير التمجيل والمهابة والخوف فى نفوس المسلمين أكثر مما يثير الحب أو المحبة . وبالنسبة لمعظم أولئك الناس الجدد الذين اعتنقوا الدين الإسلامى مؤخراً فإن الاسلام بزغ فى عقولهم من حيث هو عقيدة تهتم أساساً بالتنفيذ الدقيق للأوامر والتعاليم القرآنية . إلا أن الطاعة الشديدة للأوامر الالهية وتأدية الطقوس الدينية بكل دقة قد جعل كثيرين من المسلمين

---

(\*) مذهب حيوية المادة : الاعتقاد بأن لكل ما فى الكون حتى للكون فى ذاته روحاً أو نفساً . والروح أو النفس هىabda الحيوى المنظم للكون . المترجم



يشعرون بعدم الاشباع من الناحية الروحية والسيكولوجية . كما أن تلك المناقشات العميقة التى دارت حول نقاط دقيقة تتعلق بالقرآن والسنة بين العلماء الدينيين قد جعلت الأميين من المسلمين يشعرون بالحيرة والارتباك . وأصبحت جماهير المسلمين بحاجة الى قائد اسلامى يعمل على بث الدفاء فى عقيدتهم الاسلامية الجديدة . وسمى أوائل فترات الاسلام أصبحت الشخصية المثالية لعلى بن أبى طالب هى الشخصية التى يستقى منها المسلمون الجدد الالهام والقُدوة . وبعدئذ قدم الامام الحسين من خلال استشهاد الغداء الروحى لهذه المجموعة من المؤمنب الجدد . . ولكن عقب موت الحسين فى عام ٦٨٦ لم تبرز شخصية أخرى يمكنها تلبية الاحتياجات الروحية للمل هؤلاء المسلمين .

ومن هنا سعى بعض المسلمين الى الحصول على البهجة الروحية من خلال القيام بممارسات فى الزهد والتقشف علاوة على ممارسات روحية صعبة على اعتقاد منهم أن ذلك من شأنه أن يقربهم كثيرا من الله سبحانه وتعالى . وقد استرشدوا فى اتجاههم هذا بالنبي محمد الذى اعتاد على الذهاب بمفرده الى كهف ليتعبد ويؤدى صلوات ليلية كما استرشدوا بممارسات الرهبان المسيحيين . . وذهبوا فى تقديراتهم — شأنهم فى ذلك شأن أتباع الكنيسة الارثوذكسية الشرطية — الى أنه لا يمكن فهم الله الا من خلال تجربة شخصية مباشرة . ومن ثم راحوا يركزون على التأمل والتفكر فى الله واعتقدوا أن الانخراط المباشر فى الشؤون الدنيوية أو اتباع السلطات السياسية من شأنه أن يشمتت السعى نحو الوصول الى الله . ومن خلال ممارساتهم تمكنوا من ادخال المزيد من الدفاء والتقوى والحب والغيرة ( عدم الانانية ) الى الاسلام . وأصبح هؤلاء الناس يعرفون بالصوفييين — وكلمة الصوفى مشتقة من كلمة الصوف حيث كان الرواد الأوائل للصوفية يرتدون جلابيب مصنوعة

من الصوف كدليل على الزهد والتقشف . وكان الحسن البصري  
 ( توفي في عام ٧٢٨ ) الذي اتخذ طريق الزهد والتقشف البسيط.  
 هو أول شخصية صوفية عرفت في التصوف الاسلامي .

وفي ذلك الوقت ظهر نوعان من الصوفيين : الصوفيون  
 المتقشفون والصوفيون المتأملون .

وأعلن الصوفي المتقشف الحسين بن منصور الحلاج ( ٨٥٧ —  
 ٩٢٢ ) قائلا : « أنا الحق ، أنا الله » فتم تنفيذ حكم الاعدام فيه على  
 أساس أنه كافر ومتبرد على التعاليم الاسلامية . وكان أبو حامد  
 محمد الغزالي ( ١٠٥٨ — ١١١١ ) هو أشهر الصوفية المتأملين .  
 وكانت تجربته الشخصية هي التي قادتته الى الاعتقاد بأن المذهب  
 الصوفي في الدين هو الوسيلة المجدية لادراك ومعرفة الحقيقة  
 الالهية رغم أن ذلك لم يمكن المؤمن من معرفة أى شيء عن الله أو  
 الحقيقة الالهية يفوق أو يزيد عما هو متواجد بالفعل في القرآن  
 الكريم . وهو بذلك حاول أن ينسج التجربة الصوفية في داخل  
 نطاق الشريعة الاسلامية . وكان اعظم اسهام قدمه للدين الاسلامي  
 هو تأليفه لكتاب « احياء علوم الدين » وهو مرجع للوجود اليومي  
 الذي يهزج الدستور الديني مع الفضيلة الفردية .

وفي حين أنام الشافعي بنيانا علويا قانونيا يرتكز على أساس  
 من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة نجد أن الغزالي قد  
 حاول أن يحدث تكابلا بين الكيان التشريعي بأكمله والبنية الأساسية  
 الروحية التي تنبع من الوعي الصوفي للذبي محمد . ففى كتاب  
 « احياء علوم الدين » حث الغزالي المؤمنين على أن يكونوا على  
 وعى وادراك بالتواجد الالهى ليس فقط أثناء تأدية الصلاة والصوم  
 ولكن أيضا أثناء تأدية الأعمال اليومية العادية مثل تناول الطعام

والاغتسال والنوم . ولقد أصبح كتابه العظيم هذا بمثابة الوثيقة للطرق الصوفية التي بزغت الى الوجود عقب موته مباشرة .

وكانت أول طريقة صوفية هي الشاذلية . وقد أسسها عبد القادر الجيلاني ( ١٠٧٧ - ١١٦٦ ) الذي كان يقيم في بغداد . وقد انتشرت هذه الطريقة الصوفية فيها بعد الى مسافات بعيدة حتى انها وصلت الى غرب أفريقيا وجنوب شرق آسيا . وهي طريقة صوفية تهيمة وراشدة على نحو يفوق الطرق الصوفية الأخرى التي ظهرت بعدها علاوة على أنها طريقة تركز على التثوي والورع والاتجاهات الانسانية .

وفي غياب أي منظمة اجتماعية خارج نطاق الأسرة الموسعة ، نجد أن الطرق الصوفية قد قدمت البرنامج الاجتماعي الوحيد للتماسك الاجتماعي . إذ كانت الطريقة الصوفية تتكون من المريدين أو الدراويش الذين يحلفون اليمين بالولاء والاخلاص للمرشد أو الشيخ الخاص بهم . وشيخ الطريقة الصوفية يكون مرتبطا بسلسلة من البركات الموروثة أو القرابة مع الشيخ المؤسس للطريقة الصوفية . وتلك السلسلة ترجع الى أوائل الصوفييين المؤسسين مثل الحسن البصري ومن خلالهم ترجع الى بيت النبي أو النبي محمد نفسه . وقد جرت العادة أن تقوم كل طريقة صوفية بإنشاء البيوت أو المقار الخاصة بها .

وفي خلال الفترة التي ازدهرت فيها دولة البوييد Buyid الشيعية في بغداد علاوة على ازدهار الخلافة الفاطمية بالقاهرة نجد أن قدرا كبيرا من الطاقة الايديولوجية الروحية للعالم الاسلامي قد تحولت الى الصراع السني الشيعي . ولكن ما تم الاطاحة بالبوييد على أيدي السلاجقة السنيين في عام ١٠٥٥ والاطاحة بالفاطميين على أيدي صلاح الدين الأيوبي في عام ١١٧١ مع اعادة

ترسيخ السيادة للذهب السننى مرة أخرى حتى انتهت بالنيل  
الزعامات السننية الشيعية . ونظرا لأن الطرق الصوفية عادة  
كانت تخلق من التأثيرات الملائكية فإنها أصبحت تتلقى وتستقبل  
الطاقة الذهبية والثمينة التي كانت تستهلك من قبل فى الفراغ  
السننى الشيعى . وهذا بدوره أعطى نوعا من التنشيط للصوفية .

كما أن الاملاحة بالعباسيين السننيين فى عام ١٢٥٨ على أيدي  
الغزاة من المغول بقيادة هولاكو خان Hulagu Khan تدأوجد  
مراغا أيديواوجيا وثقافيا ازدهرت فيه الصوفية . وأدى ذلك أيضا  
الى ازدهار المذهب الشيعى . وأثناء هذه الفترة التى اتسمت  
بالتوسع السريع أخذت الطرق الصوفية أيديولوجيات من كلا  
الاتجاهين : الاتجاه الراشد والاتجاه المنشق .

والطريقة البكتاشية فى تركيا كانت نموذجا للطرق الصوفية  
المنشقة . فاحترامها وتبجيلها الشديد لبیت على بن أبى طالب كان  
أمرا شبيها بالمذهب الشيعى بل أن الكثيرين من أتباع هذه الطريقة  
كانوا ينتون لملائة العلوى Alevi ( التى تختلف بعض الشيء  
عن الشيعة ) . أما الطريقة النقشبندية فكانت نموذجا للاتجاه  
السائد بالطرق الصوفية . وقد تأسست هذه الطريقة بمعرفة  
يوسف الحميدانى ( توفى فى عام ١١٤٠ ) إلا أن هذه الطريقة قد  
اتخذت اسمها من اسم بهاء الدين النقشبندى ( ١٣١٨ — ١٣٨٩ )  
وهو رجل متصوف ولد فى تاجيكستان ودفن فى مكان قريب من  
بخارى . وقد اعتقد النقشبنديون أنه لا توجد هناك طريقة تقع  
خارج نطاق الشريعة وكانوا يعتقدون فى صحة الحكمة القائلة :  
« الأمور الخارجية هى من أجل العالم أما الأمور الداخلية فهى  
من أجل الله » . ونظرا لأنهم كانوا يؤمنون بأن التقوى والورع يتم  
التعبير عنه على أفضل وجه من خلال نشاط اجتماعى فإنهم كانوا

يعارضون الانسحاب من الحياة العامة . والطريقة النقشبندية كانت تخطو من ذلك الانشقاق في الرأي المتواجد بين الشيعة والسنة . ويتضح ذلك من سلسلة الأنساب الخاصة بها : أبو بكر الصديق ، وعلى بن أبي طالب ، وسلمان الفارسي ( رفيق النبي ) ، وجعفر الصادق ، وأبو اليزيد البسطامي . والنقشبندية مشهورون بذلك الذكر الصامت الذي يؤدونه بالمساجد بهدف التوصل الى نوع من الغبطة الجماعية .

ومنذ منتصف القرن الثاني عشر فصاعدا أصبحت الصوفية منتشرة في كل مكان حتى أنها صارت مندمجة في داخل التيار الرئيسي للإسلام بحيث يتعذر تمييزها عن ذلك التيار . اذ توقف الصوفيون عن الابتعاد عن السياسة وانهمكوا في الحملات السياسية والعسكرية . مثال ذلك أن الدراويش الصوفيين شاركوا في عام ١٤٥٣ في الاستيلاء الناجح على القسطنطينية على أيدي الأتراك العثمانيين . كما قامت الطريقة الصفوية Safavid الصوفية المتمركزة في أردبيل Ardebil بالاستيلاء على تبريز في عام ١٥٠١ ووضعوا الأسس لأسرة الصفوية الملكية في إيران .

وقد كان هناك دائما توتر بين العلماء الدينيين — وهم هناك متعمقون في دراسة النصوص المقدسة ومدركون للدور الذي يقومون به من حيث هم فقط المرشدون الروحيون الوحيدون المؤهلون لذلك — وشايخ الصوفية الذين يعتمدون على فدائات تهبط عليهم من الله أو من محمد من خلال حلم أو رؤية وتدعوهم الى الاضطلاع بمهمة القيادة الروحية ( بدون أن يكونوا بحاجة لتلك الدراسات العميقة الشاقة للكتب المقدسة والتي يقوم بها العلماء الدينيون ) . وكثيرا ما كان مشايخ الصوفية يتمتعون بقوة عجيبة فائقة موروثه حتى أنه قد ساد الاعتقاد بأن قدسيته الموروثة تظل متواجدة عقب

وشتاتهم عند القبور الخاصة بهم . وقد أدى هذا الاعتقاد الى تحويل  
تقويمهم الى اُسَرجنة تمارس في اندها والقوقس تقديس المشايخ مما كان  
يسبب التفكير من الهم والقلق والحزن للعلماء الدينيين . وفي حين  
أن عبادة المشايخ كانت بمثابة عرقلة أو بدعة في الاسلام فانها  
لقد تبادلا كثيرا من جانب أولئك الناس الجدد الذين اعتنقوا الدين  
الاسلامى والذين كانوا يفتنون لمجتمعات متعمقة في مثل هذه  
التقاليد . وهكذا نرى أن الصوفية أصبحت بمثابة جسر يربط بين  
الاسلام والعقائد التي كانت سائدة قبل ظهور الاسلام مما  
ساعد على دخول الكثيرين من الناس الجدد في الدين الاسلامى .

هذا بالإضافة الى أن العلماء الدينيين التقليديين الذين يقومون  
بدور القضاة الدينيين كانوا يعجزون عن أن يقدموا للشخص المؤمن  
نموذجا للسلوك الاجتماعى . أما مشايخ الصوفية فكانوا يلوون  
القوانين لكي تتلاءم مع العادات والتقاليد المحلية .

وفي حين كانت الطقوس الاسلامية صارمة بوجه عام نجد أن  
الطرق الصوفية كانت تقدم اطارا تمارس فيه طقوس دينية غنية  
بالألوان ونابضة بالحياة وشبيهة بالطقوس التعبدية الخاصة  
بالناس الجدد قبل أن يعتنقوا الاسلام . فالطرق الصوفية المليئة  
بالغبطة والنشوة الدينية كانت تتلاءم بصفة خاصة مع ذلك الهدف .  
والطريقة الرفاعية الصوفية التي نشأت في العراق هي نموذج  
يعبر عن ذلك تماما . فاتباع هذه الطريقة كانوا يدخلون في نوبات  
يقومون خلالها بركوب حيوانات خطيرة أو المشى في داخل النيران  
أو الهجوم على الثعابين السامة أو يشوهون أنفسهم بأن يضعوا  
حلقات الحديدية في آذانهم أو رقابهم أو أيديهم لكي يظهروا مدى  
سيادة الروح على المادة . ونظرا لأن القرآن الكريم قد ورد به  
ما يفيد ظهور الشياطين والملائكة من وقت لآخر فان ذلك قد جعل

الأمارقة ممن كانت لهم عقائد وثنية يتعایشون مع الطقوس الإسلامية . كذلك نجد أن الصلوات الصامتة الصوفية كانت تؤدي بهدف تحقيق غرضين : الغرض الأول هو التسبب في الذكر لله والغرض الثاني هو استرضاء الآلهة والآلهات الوثنية المتسمة بالوحشية .

وازدهرت الصوفية وتعاضمت في الفترة من عام ١٢٥٠ حتى عام ١٥٠٠ عندما كانت الخلافة متواجدة بالقاهرة في عهد المماليك . . وعندما تغلغل الإسلام في أواسط أفريقيا وغرب أفريقيا وجنوب الهند وجنوب شرق آسيا وعلى طول الطرق البرية والبحرية التي استخدمها التجار العرب . فالإسلام قد أجرى اتصالات ليس فقط مع الأديان الوثنية المتواجدة في أفريقيا ولكن أيضاً مع الأديان والحضارات المتقدمة مثل الهندوسية والبوذية المتواجدتين في آسيا .

وحقيقة الأمر أن أول مواجهة بين الإسلام والهندوسية قد حدثت في عام ٧١١ عندما وصلت قوات إسلامية إلى السند بطريق البحر قادمة من شبه الجزيرة العربية . وقد استمر حكم المسلمين هنالك حتى عام ٨٢٨ . وبعدئذ حدثت غزوة إسلامية عبر ممر خيبر Khyber على طول الحدود الأفغانية الهندية وذلك عندما قام محمود الفاتح ( وهو شيخ بلدة غازني Ghazni الأفغانية ) بضم البنجاب إلى مملكته . وفي عام ١٢٠٦ قام قطب الدين أيبك وهو رجل تركي أفغاني بإنشاء سلطنة تركية أفغانية في شمال الهند .

وقد اتضح أن المساواة التامة التي ينادى بها الإسلام قد لقيت قبولاً شديداً من جانب الطبقة الاجتماعية المنخفضة من الهندوس

ومن جانب الزنود المنيوزين . ولكن الأمر كان يتطلب تواجد كوبري بين الهندوسية التي تنادي بتعدد الآلهة والاسلام الذي ينادى بالتوحيد من أجل أن يكسب الاسلام المزيد من المعتنقين الجدد للدين الاسلامي . فقام بهذا الدور طرق صوفية مثل القادرية والنقشبندية والشستية (Shesti) ونظرا لأن القادرية قد نشأت وتأسست في بغداد فانها انتشرت في الهند ووصلت من الهند الى افغانستان الشرقية من أفغانستان . ونظرا لأن النقشبندية قد ازدهرت في طاجيكستان فانها قد شقت طريقها عبر التتار المعتنقين للدين الاسلامي منذ فترة قصيرة الى تركيا ( حيث شيد السلاطين العثمانيون الخلافة ابتداء من عام ١٥١٧ فصاعدا ) وأيضا الى الهند من خلال الغزاة الاتراك/الأفغان والغزاة المغول . ومن الناحية اللاهوتية نجد أن هذه الطرق الصوفية قد أقرت وأيدت نظرية « وحدة الوجود » التي أعلنها بوضوح محيي الدين بن عربي ( ١١٦٥ - ١٢٤٠ ) . فوفقا لما أورده ابن عربي لا توجد هناك ثنائية بين الله والكون الخاص به . وحقيقة الأمر أن الله والخلق الخاص به هما جزء من المتصل (\*) أو من « وحدة الوجود » التي تتألف من درجات متفاوتة من الحقيقة . والانسان هو عالم صغير أو صورة مصغرة من العالم والله يتأمل نفسه من خلال الانسان . ومن ثم فإن الالهية والانسانية هما مظهران متميزان وجدا التعبير عند كل مستوى للخلق ، فالالهية هي بمثابة الجانب الخفي من الحقيقة والانسانية هي بمثابة الجانب العلني أو الصريح أو المكشوف من الحقيقة .

ولقد قام مشايخ الصوفية بالزناد بالتوسع في نظرية محيي الدين بن عربي حيث ذهبوا في تقديراتهم الى انه مادام الله هو

---

(\*) المتصل : كمية أو سلسلة متصلة .



الحقيقة الوحيدة فان كافة الاشياء الفيزيائية المادية ليست مسوى « مظاهر » ( وهذه نكرة تشبه كثيرا المفهوم الذهني الهندوسى عن العالم الذى هو مجرد وهم أو سراب أو *Maya* يمكن أن تلقى التبجيل والاحترام من حيث هى تجليات للارادة الالهية . وانطلاقا من هذا فان تقبل وحدة الوجود الهندوسية كان بمثابة خطوة واحدة قصيرة فقط . وعلى ذلك النحو قام مشايخ الصوفية بتشديد كوبرى شيولوجى دينى أتاح الفرصة أمام الهندوس الساخطين المتمردين من العبور عليه الى الاسلام وتوليف بعض الممارسات السابقة على الاسلام مع الممارسات الاسلامية .

وعملية التوليف بين الاسلام والهندوسية قد وصلت الى أوجها وذروتها أثناء عهد جلال الدين محمد الأكبر ( ١٥٥٦ - ١٦٠٥ ) وهو حفيد زاهر الدين محمد بابار *Babar* الذى قام بتأسيس الأسرة الحاكمة المغولية فى الهند فى عام ١٥٢٦ . وقد قدم جلال الدين محمد الأكبر الرعاية والتشجيع لمشايخ الصوفية وكان وثيق الصلة مع الطريقة الشستية *Chisti* الصوفية التى كانت مشهورة باتساع أفقها ووجهة نظرها العالية . وقد بذل محاولات للتغلب على الفوارق بين الهندوسية والاسلام وذلك من خلال تطبيق المساواة التامة على رعاياه من الهندوس والمسلمين وهو أمر كان يتعارض مع الشريعة الاسلامية بل لم يسبق أن قام حكام مسلمون من قبل بتطبيق مثل هذه المساواة التامة . وتغلب جلال الدين محمد الأكبر على هذه المشكلة بأن قال عن نفسه أنه هو رئيس « المجتهدين » فى الاسلام أو أعظم ممارس « للاجتهاد » فى الاسلام . وبذلك يكون هو الذى ألقى ذلك الحظر الذى فرضه العلماء الدينيون على الاجتهاد منذ القرن العاشر . وبعدئذ قام بتغيير تلك النشرات من الشريعة التى وردت بها تفرقة ضد الرعايا من غير المسلمين . ثم قام بإلغاء ضريبة الرؤوس وأعلن أن النساء

الهندوسية. كانت لدى ابن في حاجة الى اعتناق الدين الاسلامي عندما يتزوج من المسلمين . وكانت أعماله وتصرفاته هذه بمثابة انحراف كبير عن الخط الاسلامي وتسيب ذلك في الكثير من الضرر بين العلماء الدينيين الراشدين (٨) .

وفي عام ١٥٨١ تبادى الى انفسى حد عندما أعلن عقيدة دينية خاصة به تسمى « دين الله » . وهى عقيدة ترتكز على التوليف بين الاسلام وغيره من الأديان الأخرى . وقد أسس عقيدته الجديدة هذه على : العمل والزهد والتششف . وامتدحت عقيدته هذه الخصال والصفات التى تتميز بها الصوفية مثل : الاخلاص والولاء والتقوى والورع والشفقة والتحرق شوقا الى الله ، واستهجنّت التقليد والتحليق الأعمى للشريعة الاسلامية التى هى بمثابة الصفة المميزة للمؤسسة الاسلامية فى الهند وفى أى مكان آخر فى العالم . وقد حصل « دين الله » على التأييد الكامل من التاج . الا انه لم يلق تأييدا شعبيا كبيرا . حيث لم يعتنق « دين الله » سوى رجال حاشيته والمتوددين اليه الذين كانوا يعاملون « الامبراطور جلال الدين محمد الأكبر » على أنه المرشد الدينى الخاص بهم .

ونظرت الدوائر الاسلامية الرشيدة الى « دين الله » على أنه هرطقة وبدعة وخروج عن الخط الاسلامي القويم . لأنه ينطوى على تحدى الدعوى القائلة بأن الاسلام هو آخر دين وآخر عقيدة حقيقية صادقة يمنحها الله للبشرية جمعاء . وكان من المحتم أن ينجم عن ذلك ردود فعل أصولية . وحدثت ردود الفعل تلك بالفعل .

---

(٨) الراشدين : تم استخدام كلمة رانند لى مقابل كلمة Orthodox باللغة الانجليزية .  
الترجم

ولكن من المثير حقا أن يقود ردود الفعل شيخ نقشبندى يسمى الخواجة أبو المؤيد راضى الدين باقى بالله ( ١٥٦٣ — ١٦٠٣ ) وقد حصل على مؤيدين لطريقته الصوفية من بين أنصار جلال الدين محمد الأكبر . وعلى كل حال فإن الهجوم العلنى على تخفيف الاسلام(\*) ودخول ممارسات سرية فى الطرق الصوفية كان ينبغى أن يتأجل الى حين انهيار حكم جلال الدين الأكبر ومجىء حكم نور الدين سليم جينجير Jahangir ( ١٦٠٥ — ١٦٢٧ ) . وقد شن الهجوم الشيخ أحمد سيرهندي Sirhindi وهو تلميذ لباقى الله . فالتقى بالعلوم على نظرية « وحدة الوجود » التى نادى بها محيى الدين بن عربى لأنها هى التى فتحت الباب أمام تدفقات الهندوسية الى داخل الدين الاسلامى مع تفكيك عقيدة التوحيد الاسلامية فى داخل البنيان التعددى للمجتمع الهندوسى . وكرر نفس موقف النقشبندية : ان السبيل الوحيد لادراك الله سبحانه وتعالى يكون من خلال الشريعة وأنه ينبغى أن تتواءم التجارب الصوفية للانسان المسلم المؤمن مع الشريعة ومع قوالب الشريعة الخارجية حتى يمكن تجنب الانزلاق الى الهرطقة والبدع والضيايع فى متهافت غرابيات الأطوار الفردية ( وهو ننس الكلام الذى سبق أن قاله من قبل أبو حامد الغزالى ) . وقاوم نظرية « وحدة الوجود » لابن عربى من خلال النظرية التى نادى بها وهى : « وحدة الشهود » ونظارية وحدة الشهود تفرق تماما بين الله والأمور التى خلقها الله وترفض تماما الرأى القائل بوجود كميات متصلة . وفى حين قال محيى الدين بن عربى بأن الحقيقة هى المرآة التى يتأمل من خلالها الله فى ذاته نجد أن السيرهندي قد برهن على أن الحقيقة هى انعكاس عن الله الا أنها فى نفس الوقت منفصلة تماما

---

(\*) بمعنى التسامح بعض الشيء ازاء المبادئ الاسلامية القوية والتخفيف من حدتها .  
المرجم

عن الذات الالهية . وقصصارى القول أن السيرهندي يرى أن الشريعة لها اليد العليا سواء فى الممارسات والتجارب المصونية الجوانبية للمؤمن أو فى ممارساته وتجاريه الخارجية . وهذا الرأى قد منع تواجد أى فرصة للمصالحة بين الاسلام والهندوسية . وقد اطلق عليه اسم : مجدد الألف الثانية أى المسلح الاسلامى فى خلال الألف الثانية من تاريخ الاسلام .

وهكذا نرى أن سيرهندي قد كبح جماح الاتجاهات التوليفية فى المجتمع الاسلامى الهندى ووضع طباعا قويما رائدا على الاسلام فى الهند وبذر بذور الطائفية الاسلامية التى نجم عنها عقب مرور ٣٥٠ عاما خلق دولة الباكستان لى تكون دولة خاصة بالمسلمين فى شبه القارة الهندية .

ووصل سيرهندي الى ذروة نفوذه وسلطانه — وكذلك الطريقة النقشبندية وصلت الى ذروتها — اثناء فترة حكم محبى الدين الأورانجزب aurangzeb ( ١٦٥٨ — ١٧٠٧ ) وهو حفيد ججنجير Jahangir . اذ سار الأورانجزب على هدى ايديولوجية سيرهندي وانهمك فى تطهير المجتمع الاسلامى من خلال تطبيق الشريعة بكل دقة وحزم . واتبع فى همة ونشاط القوانين القرآنية الخاصة بدخس الشرور والاستمتاع بالفضيلة . بل قام بتعيين مراقبين على الاخلاق بهدف منع تعاطى الكحوليات والخمر والحلوللة دون حدوث الرذائل الجنسية . بل فرض حظرا على الدعارة والبناء وزراعة الحشيش علاوة على عدم تشجيعه للموسيقى . وأصدر أوامر صارمة بمنع تشييد أسقف فوق قبور الأولياء ومنع استخدام مثل هذه الأضرحة كأماكن للحج حيث كانت تلك عادة شائعة بين المسلمين الهنود . كما كان يقدم وجبات طعام مجانية فى المطابخ والمطاعم ويقدم المبيت المجانى فى الفنادق

الصغيرة . كما كان يخصص موارد للرزق للمسلمين الفقراء والمعوذين . وكذلك ألغى الضرائب التى لم يرد بشأنها نص فى الشريعة الإسلامية . وأعاد فرض ضريبة الرؤوس على الهندوس وبذلك قضى على حصولهم على المساواة القائمة التى سبق أن منحت لهم منذ أيام جلال الدين محمد الأكبر . واستبدل التقويم الشمسى الهندوسى بالتقويم القمري الإسلامى .

وهذه السياسات التى اتبعتها الأورانجيز قد ساعدت على تنقية الإسلام فى الهند من البدع والهرطقة والخرافات التى كانت قد زحفت إليه منذ أوائل القرن الثالث عشر . كما أنها قد عملت على تمكين الدولة الإسلامية من أحكام سيطرتها مرة أخرى على المواطنين غير المسلمين . إلا أن الدولة الإسلامية قد خسرت من وراء تلك الإجراءات الكثير من مشاعر الود التى كانت قد نجمت عن سياسات جلال الدين محمد الأكبر وانتشرت بين الهندوس الذين كانوا يشكلون ٣٠ مجموع السكان . وكانت النتيجة هى ظهور سلسلة من التمردات والثورات التى قام بها الهندوس والسيخ Sikhs ( والسيخ هم أتباع عقيدة توحيدية قد نشأت من حيث هى حركة إصلاح هندوسية فى أواخر القرن الخامس عشر ) . وهى ثورات أضعت إمبراطورية المغول وأظهرت للمسلمين — عقب وفاة الأورانجيز فى عام ١٧٠٧ — أنهم بمثابة أقلية بسيطة وغير محصنة فى مواجهة الأعداء .

وفى مواجهته للتدهور المتوقع لامبراطورية المغول نجد أن شاه ولي الله الحاكم على مدينة دلهى ( ١٧٠٣ — ١٧٦٤ ) وهو شيخ نقشبندى بارز تلقى تعليمه فى مكة والمدينة المنورة قد أشار إلى أن الإجراءات التى اتخذها أورانجيز ليست كافية . وذهب فى تقديراته إلى أنه مادام الإسلام قد لحق به الضعف بسبب

أدخل عادات ومعتقدات هندوسية عليه فإن الحل الوحيد هو  
القرن على المزيد من الإصلاح الدينى الإسلامى . وكان يعتقد  
أن جوهر الإسلام أنه طابع الخلود والأبدية ولكن ممارساته  
التعميلية ليست لها تلك الطابع . ومن ثم تظن الحاجة الى اللجوء  
الى الاجتهاد باستمرار وهو موقف يتعارض تماما مع المؤسسة  
الدينية . واقترح عمل مراجعة وتمحيص دقيق للمذاهب الأربعة  
السنية وفقا لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ،  
وهذا الاقتراح من حد ذاته هو موقف يتخذ طابع الأصولية . ولكنى  
يساعد فى إنجاز هذه العملية ولكنى يتيح الفرصة أمام المسلمين  
المثقفين الناديين (والذين يعتمدون تماما على الفقهاء وأئمة المساجد  
المحليين فى توجيههم وارشادهم) للدخول فى اتصالات مباشرة مع  
القرآن الكريم فانه قام بترجمة القرآن الى اللغة الفارسية التى هى  
لغة المثقفين المسلمين . وكانت هذه الخطوة هى الأولى من نوعها  
حيث لم يسبق لأحد أن قام بترجمة القرآن الكريم حتى ذلك الوقت .  
والأهم من ذلك كله أنه أشار الى أنه سيكون هناك حاجة مستمرة  
الى اللجوء الى الاجتهاد لمواجهة المشكلات الجديدة التى ستظهر  
فى الأفق مع توسع الأمة الإسلامية وازدهارها وتقدمها . وربما  
كان هو أول مفكر إسلامى يتحدث صراحة عن ضرورة أن يتفاعل  
الفكر الإسلامى مع الظروف الاجتماعية المتغيرة .

الا أن امبراطورية المنول استمرت فى التدهور والاضمحلال  
حيث تعرضت للهجمات التى شنها ملوك الهندوس والسيخ علاوة  
على الهجمات التى قامت بها قوات شركة الهند الشرقية البريطانية .  
وبذلك نجد أن حركة الإصلاح الدينى التى كان ينادى بها ولى الله  
قد تحولت الى كفاح مسلح تحت قيادة أحمد بارليفى Ahmad  
Barelvi (توفى عام ١٨٣١) وهو تلميذ لعبد العزيز الذى  
هو ابن ولى الله . وقد توسع فى قاعدة حركة الإصلاح الدينى من

خلال جذب معاونين ومؤيدين ينتمون للطرق الصوفية الثلاث الكبرى — وهى النقشبندية والقادرية والشسئية — وشدهم الى داخل اطار الشريعة القوية الراشدة المجددة . وهكذا نشأت الطريقة المحمدية . وهى طريقة تربط الأسلوب والنظام الصوفى بالشريعة الراشدة . ونظرا لأن حكام السيخ قد دأبوا على اضطهاد المسلمين فقد أعلن بارليفى الجهاد ضدهم فى عام ١٨٢٦ . وبعدئذ قاد أتباعه الى منطقة الحدود الهندية الأفغانية بهدف تأسيس دولة اسلامية على « أراضى محررة » محاكيا بذلك هجرة محمد صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة المنورة .

وقد صادف نجاحا فى مغامرته هذه فى بادىء الأمر . ولكنه عندما حاول فرض الضريبة التى تنص عليها الشريعة على رجال القبائل الوثنية فى تلك المنطقة فانهم تخلوا عن الوقوف الى جانبه . ثم اشتبك جيش السيخ فى معارك مع قوات بارليفى وألحق بها الهزيمة فى عام ١٨٣١ . وبعدئذ تم تنفيذ حكم الاعدام فى بارليفى . الا أن الطريقة المحمدية ظلت مستمرة من حيث هى حركة حربية عسكرية ولعبت دورا رئيسيا فى التمرد الهندى الكبير ضد البريطانيين فى عام ١٨٥٧ . وكان ذلك مثالا لحركة اصلاحية فى الاسلام تضطلع بمهمتين فى آن واحد : ألا وهما محاربة الفساد الذى لحق بالممارسات الاسلامية بين المسلمين بالاضافة الى محاربة القوات المسيحية الغربية .

ولم تكن دائرة دار الاسلام هى فقط التى شهدت ردة عن الدين والنواحى الاخلاقية والنواحى المتعلقة بالكتب المقدسة . اذ تسرب ذلك أيضا الى قلب الأراضى الاسلامية الرئيسية فى شبه الجزيرة العربية . وأولئك الذين حاربوا هذا الاتجاه فى حماسة وانفعال شديدين هم أتباع أحمد بن حنبل مؤسس مدرسة التشريع

الحنبلية . وكان الحنابلة يرجعون مباشرة الى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من أجل اصدار قراراتهم التشريعية مع الوقوف بمعزل عن المذاهب التشريعية الثلاثة الأخرى الذين استخرجوا من القرآن والسنة فقها تشريعيًا شاملاً . وفى أواخر القرن الرابع عشر ظهر تقى الدين بن تيمية كصالح حنبلى بارز . ورغم أنه بدأ حياته كعضو فى الطريقة الشاذلية الصوفية فإنه استهجن بشدة فيما بعد الممارسات المتعلقة بعبادة المشايخ المدفونين فى الأضرحة . وعارض وجهة نظر العلماء الدينيين آنئذ القائلة : بأن أبواب الاجتهاد فى الدين قد أغلقت . وفى الفقه التشريعى وضع القرآن والسنة فى مرتبة تعلو كثيراً على الاجماع . وركز على ضرورة الولاء الشديد للسلف الصالح على نحو يفوق الولاء لآى مذهب تشريعى . . والمفهوم الذهنى عن السلف الصالح هو الذى أصبح فيما بعد الأساس الذى تقوم عليه الحركة الأصولية بين أهل السنة أو السنيين . وقد لقيت آراؤه استجابة كبيرة وفعالة بين السلاطين المماليك بالقاهرة التى كانت مقراً للخلافة فى الفترة من عام ١٢٥٠ الى عام ١٥١٧ .

وتغير الموقف عندما أصبح الأتراك العثمانيون هم القوة الرئيسية فى دار الاسلام : حيث كان الأتراك العثمانيون من أتباع المذهب الحنفى . وقد تأسست الامبراطورية العثمانية على أيدي عثمان الأول ( ١٢٥٩ — ١٣٢٦ ) وهو قائد الأتراك /العثمانيين . وعندما استولى محمد الثانى على القسطنطينية/استانبول فى عام ١٤٥٣ فإنه أصبح وريثاً للامبراطورية البيزنطية . وفى فترة حكم سليم الأول ( ١٥١٢ — ١٥٢٠ ) اكتسبت الامبراطورية العثمانية الصدارة الاسلامية من خلال اغتصاب الخلافة من المماليك . واستمر التوسع فى فترة فى عهد خلفه : سليمان العظيم Magnificent Suleiman ( ١٥٢٠ — ١٥٦٦ ) عندها شملت الامبراطورية



كلا من : الجزائر وليبيا ومصر ومعظم أجزاء اليونان والمجر والكثير من أراضي بلاد الفرس وشبه الجزيرة العربية وسوريا . أما ترانسلفانيا وولاشيا Wallachia ومولدافيا فكانت امارات تابعة للامبراطورية العثمانية وتقوم بدفع الجزية . واستمر النمو والتماسك حتى عام ١٦٨٣ عندما وصل العثمانيون الى فينا وان كانوا قد فشلوا في الاستيلاء عليها . وبحلول ذلك الوقت كانت الامبراطورية العثمانية قد بسطت جناحيها على افريقيا وأوروبا وآسيا وأصبح لديها رعايا من المسلمين والمسيحيين واليهود . وكان الامبراطور الاسلامي هو حامى حوى المدن المقدسة الاسلامية مثل مكة والمدينة المنورة اللتين كانتا أيضا بمشابة مركزين مزدهرين للدراسات الاسلامية .

فعلى سبيل المثال نجد أن مكة والمدينة المنورة هما المدينتان اللتان اكتسب فيهما شاه ولي الله Waliullah Shah معلوماته العميقة عن الاسلام . وكان من بين المعاصرين له : محمد بن عبد الوهاب ( ١٧٠٣ - ١٧٨٧ ) وهو من اهالى نجد التى تعتبر معقلا قويا للمذهب الحنبلى . وقد ولد محمد بن عبد الوهاب فى بلدة العوينة Uyaina وكانت أسرته شديدة التدين . وقد تأثر محمد بن عبد الوهاب كثيرا بكل من : ابن حنبل وابن تيمية . وبعد أن تلقى تعليمه فى مكة والمدينة المنورة عاد الى بلدته الصغيرة المتواجدة فى منطقة نجد . وقد شعر بالانزعاج الشديد بسبب انتشار الخرافات والخداع والزنا والتعصب القبلى فى داخل المجتمع الخاص به الذى أصبح مهملًا فى تأدية الصلاة والطقوس والممارسات الاسلامية . فنادى بنبذ وترك كافة خرافات العصور الوسطى التى تجمعت وتراكمت حول التعاليم الاسلامية الأصلية . كما نادى بممارسة الاجتهاد . وكان يعارض تصنيف الشريعة واستخراج مجموعة كاملة من القوانين تستند اليها . وقام هو

وأتباعه بتحطيم الأشجار المقدسة وهدم أضرحة الأولياء . وقد أدى هذا الى انزعاج المجتمع المحلي الى درجة كبيرة حتى أن الناس قاموا بطرد محمد بن عبد الوهاب وأتباعه فى عام ١٧٤٤ وهو أمر يذكرنا بأهالى مكة فى الأيام الأولى من الاسلام . فلاجأوا الى اماره درية Diriya حيث قام محمد بن عبد الوهاب بعقد تحالف مع الحاكم محمد بن سعود . وقام اتباع محمد بن عبد الوهاب والذين يعرفون باسم الوهابيين بتسليح أنفسهم وشنوا حملة ضد الوثنية الدينية المتمثلة فى اشراك آخرين فى صفة القدسية التى ينبغى أن تكون لله وحده . كما حاربوا الظلم والطفيان والفساد والزنا . وكان الوهابيون ينظرون الى أنفسهم على أنهم المؤمنون الحقيقيون الصادقون ومن ثم فانهم أعلنوا الجهاد ضد الناس الآخرين الذين وصفوهم بأنهم مرتدون ، وهى ممارسة لها سابقات عديدة فى التاريخ الاسلامى . ولكن الأمر الذى لم يكن له سابقة من قبل فى التاريخ الاسلامى هو ذلك التزمت الشديد الذى رغبوا فى فرضه على المجتمع الاسلامى . اذ حرموا الموسيقى والرقص بل حرموا الشعر الذى كان دائما جزءا لا يتجزأ من حياة العرب . وقد ادعوا أنهم يستندون الى الأحاديث النبوية الشريفة فى تحريمهم لهذه الأمور . بل حرموا استخدام الحرير والذهب والزينة والمجوهرات وكان يرغب فى العودة بالأمور الى ما كانت عليه فى صدر الاسلام . ومع ذلك فقد كانت هناك أمور مهمة مختلفة عما كان عاياه الحال فى صدر الاسلام . ففى حين أن محمد عليه الصلاة والسلام قد استخدم السيف بنفسه نجد أن محمد بن عبد الوهاب قد جعل حليفه وصديقه الرئيسى الذى يسمى محمد بن سعود هو الذى يخوض المعارك ويحكم جمساعة الموحدين المؤمنين بوحداية الله وسمى محمد بن سعود نفسه باسم : الامام وكان كل امام يختار الخليفة الذى يجىء من بعده مع المنحدرين من سلالة عبد الوهاب الذين يعرفون باسم أهل الشيخ . ومثلما حدث فى القرن

السابع فان الأحداث تكررت مرة أخرى في فترة محمد بن عبد الوهاب : اذ قام الأعضاء المتحمسون لفكرة إعادة تجديد الاسلام بتوسيع نفوذهم وسلطانهم بسرعة كبيرة .

ولكن هنا أيضا كانت توجد فوارق جوهرية مثال ذلك أنه عندما قام سعود بن عبد العزيز — وهو حفيد مؤسس المملكة العربية السعودية — في عام ١٨٠٢ يغزو كربلاء وتحطيم ضريح الامام الحسين وسرقته الحلى والأشياء النفيسة الموجودة بالضريح فانه أصدر أوامره بقتل جميع سكان كربلاء نظرا لانهم — من وجهة نظره — مرتدون عن الاسلام .

وفي خلال السنة التالية استولى الوهابيون على مكة المكرمة وقاموا بتحطيم جميع القباب الموجودة فوق أضرحة الشخصيات القيادية لصدر الاسلام . وفي عام ١٨٠٥ قام أهالي المدينة المنورة — بعد أن وجدوا أنفسهم محاصرين على أيدي الوهابيين — بتحطيم القباب المتواجدة فوق جميع الأضرحة . وكل هذه الأحداث تشير الى انتصار القوى الأصولية وبزوغ شبه جزيرة عربية موحدة بما في ذلك مكة والمدينة المنورة تحت حكم الامام الخاص بها .

الا أن المسلمين في أوائل القرن التاسع عشر كانوا منتمين الى طوائف عديدة . وذلك بعكس ما كان عليه الحال في عهد النبي محمد حيث كان المجتمع الاسلامي موحدا تحت قيادته . ولكن لأن الوهابيين الذين يعتبرون طائفة متطرفة كانوا مسيطرين على مكة والمدينة المنورة فقد أدى ذلك الى اثاره مشاعر القلق بين الحجاج الذين كانوا يدينون ببالولاء لعدد كبير من العقائد الرشيدة والطرق الصوفية المنتشرة في جميع أرجاء العالم الاسلامي . هذا بالإضافة

الى أن فقدان العثمانيين لمكة والمدينة المنورة كان من شأنه تهديد الأمن والرخاء في كل من دمشق وبغداد اللتين كانتا مرتبطتين ارتباطا وثيقا بالتجارة القائمة على موسم الحج . لذلك لم يكن بمقدور السلطان العثماني الوثوق مكتوف الأيدي وترك الأعمال الوهابية بدون أى عقاب . اذ قام السلطان محمود الثانى ( ١٨٠٨ - ١٨٣٩ ) بأيفاد محمد على باشا الوالى على مصر فى عام ١٨١٢ فى حملة عسكرية لتأديب الوهابيين والحاق الهزيمة بهم . فنجح محمد على باشا فى مهمته . وبحلول عام ١٨١٩ كان قد تمكن من سحق الوهابيين وتحطيم مدينة الدرعية Diriya والقبض على الحاكم عبد الله بن سعود ونقله الى استانبول حيث تم تنفيذ حكم الأعدام فيه هناك وهكذا تمكن محمد على باشا من القضاء على حركة أصولية قوية .

أن منطق المعتقدات الوهابية وموقعهم الجغرافى قد جعل الوهابيين مضطرين للزحف على مكة والمدينة المنورة وفرض وجهة نظرهم عن الاسلام على أمل أن يتمكنوا من كسب انصار جدد الى معسكرهم . ولكن نظرا لأن هاتين المدينتين كانتا جزءا من الامبراطورية العثمانية فقد أصبح الصدام بين الامبراطورية العثمانية والوهابيين أمرا لا مفر منه . وربما لو كان الوهابيون قد بثوا حركات وهابية مماثلة فى أماكن مهمة بالامبراطورية العثمانية مثل مصر أو سوريا أو العراق لكانوا قد تمكنوا من تحريك قوات هائلة بحيث يتعذر على العثمانيين التغلب عليها ، الا أن الوهابيين لم يفعلوا ذلك .

ومن المؤكد أن السلطان محمود الثانى كان مثقلا بالمشاكل التى يتعذر السيطرة عليها وإيجاد حلول لها . كما كان عاجزا عن اضعاف الطابع الحديث على أجهزته الادارية والحربية . كما كان

واقعا فى مصيدة تقلب موازين القوى فى داخل الطبقة الحاكمة بالامبراطورية . ناهيك عن المشاكل التى تصاحب تسيير دفعة الشئون الادارية فى نطاق امبراطورية شاسعة تضم سكانا من غير المسلمين . وكانت المسائل التى تواجه هذه الامبراطورية معقدة للغاية بحيث لا يمكن للحلول المبسطة الواردة فى الاصولية الوهابية ان تأتى بالنتيجة المرجوة .

وعندما وقع قلب العالم الاسلامى تحت نفوذ وسيطرة الغرب تغيرت طبيعة التهديدات والمخاطر التى تواجه الاسلام . اذ بدأ يظهر الفساد وعدم الالتزام الدقيق بالقوانين الاسلامية بسبب الممارسات غير الاسلامية التى يقوم بها بعض الاهالى المحليين. وايضا بسبب — وهذا هو الأهم — تغلغل الافكار والممارسات الغربية والنماذج السياسية الغربية الى الكيان السياسى للإسلام .





## الفصل الثالث

---





## الاسلام فى الأزمنة الحديثة

لقد دخل الإسلام فى العصر الحديث تحت قيادة الأتراك لعثمانيين مع تواجد استانبول كعاصمة للخلافة . ولذلك فإن من لهم أن نتطرق الى التطورات الكبرى التى حدثت فى داخل نطاق لامبراطورية العثمانية علاوة على دراسة علاقاتها مع الدول لأوربية .

بعد أن فشل العثمانيون فى الاستيلاء على فيينا فى عام ١٦٨٢ فإنهم وجدوا أنفسهم فى موقف دفاعى تجاه امبراطورية هابسبورج وامبراطورية القيصر . وقد نصت معاهدة كوشوك كينارجى Kuchuk Kainarji لعام ١٧٧٤ على السماح لقيصر الروسى بمساعدة التتار المسلمين الذين كانوا منتشرين فى المناطق الواقعة ما بين الحدود البولندية حتى البحر الكاريبى بما فى ذلك كريميا Crimca لكى يشيدوا دولة شبه مستقلة تحت رعايته ونفوذه . وبعد مرور عشر سنوات قام القيصر بضم هذه لدولة الى امبراطوريته . وفى عام ١٧٩١ قام امبراطور هابسبورج بضم بلجراد بصفتة رسمية . وكان من الواضح أن المؤسسة

العسكرية العثمانية أصبحت غير قادرة على صد ومواجهة المنافسين الأوروبيين لها .

وقد أدرك سليم الثانى ( ١٧٨٩ — ١٨٠٧ ) أنه بحاجة الى تجديد جيشه واضفاء الطابع الحديث عليه . فكون فرقة جديدة للحرس الوطنى كما شيد مدارس عسكرية مزودة بأساتذة فرنسيين ومراجع علمية تتعلق بالتدريبات العسكرية . فأتى ذلك الى انزعاج الجنود والنضباط المحترفين والبالغ عددهم ٥٠ ألفا والذين يسمون الجنود الانكشارية أو عساكر حرس السلطان العثمانى الذين هم بمثابة القوة المسلحة التقليدية للخلافة العثمانية منذ سنة ١٢٥٩ . فتحالف الانكشارية مع العلماء الدينيين واشتركوا معا فى اشارة المشاعر والعواطف الجماهيرية ضد اضفاء الطابع العسكرى الحديث وتمكنوا من خلع سليم الثانى وعزله . ولم يكن عملية القوم من البيروقراطيين الذين يشكلون القوة الثالثة المركزية والذين تتزايد قوتهم ونفوذهم بشكل مطرد اقوياء بالقدر الذى يسمح لهم بتغيير مجرى الأحداث وجاء بعد ذلك الخليفة محمود الثانى ( ١٨٠٨ — ١٨٣٩ ) الذى تخلص من اصلاح العسكرى .

وكان احتلال نابليون بونابرت لمصر فى عام ١٧٩٨ — وكانت مصر آنئذ جزءا من الاراضى الاسلامية الخاصة بالامبراطورية العثمانية — بمثابة ضربة قوية لهيبة ونفوذ سليم الثالث . وبعدئذ قامت فرنسا فى عام ١٨٣٠ باحتلال جزء آخر من الاراضى الاسلامية التابعة للامبراطورية العثمانية : ألا وهى الجزائر . وكان معنى ذلك أن أوروبا المسيحية من خلال احراز تقدم مذهب فى التكنولوجيا والشئون الادارية بدأت يحرز تقدما كبيرا فى السنوات الأخيرة على حساب العثمانيين . وذلك التفوق المتصاعد لأوروبا قد نجم عن النمو المتزايد للنظام الرأسمالى الذى يرجع اساسا الى اكتشاف

أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية كما نجم عن الحقيقة التي مفادها أن الإمبراطورية العثمانية كانت آخذة في الانحدار نحو الاضمحلال .

وكان هناك وعى متزايد في دوائر المثقفين بالإمبراطورية العثمانية الإمبراطورية تعاني من التدهور السياسى والاجتماعى . ويمكن الحكم على مدى الركود في الاسلام من الناحية الرسمية من خلال الفتوى التي أصدرها مفتى الأزهر الشريف بالقاهرة في أوائل القرن التاسع عشر . « أن المذاهب الأربعة الرشيدة هي بمثابة أفضل النتائج وأفضل تلخيص لكافة المذاهب الأخرى لأنها تعتمد على رجال عديدين قد كرسوا حياتهم من أجل البحث عن الحقائق وأصبحت لديهم معلومات شاسعة وعميقة . والابتعاد عن هذه المذاهب الأربعة يوضح الرغبة في العيش في أخطاء » . وبناء على هذه الفتوى أصبح لزاما على المرء أن يتبع مذهباً من هذه المذاهب الأربعة الرشيدة . وقد رفض المفتى في صراحة تامة اللجوء الى الاجتهاد في تفسير النصوص الدينية المقدسة . وقال في هذا الشأن « لا أحد ينكر أن هبة ووقار الاجتهاد قد اختفت منذ فترة طويلة ولا يوجد رجل في الوقت الحالي لديه هذه الدرجة من العلم الدينى العميق التي تمكنه من اللجوء الى الاجتهاد في تفسير النصوص المقدسة . وإى شخص يعتقد في نفسه أنه مجتهد يكون واقعا تحت تأثير الهلوسات الخاصة به وتحت تأثير وساوس الشيطان » .

وقد اضطروا المفكرون الذين لهم رأى مستقل الى الانكماش والتراجع أمام العلماء الدينيين الذين لهم آراء رسمية صارمة والذين يذهبون الى أن معارضة الحاكم من شأنه أن يؤدي الى الفوضى وأنه ينبغي تجنب حدوث الفوضى مهما كلف الأمر .

وفي أوائل القرن التاسع عشر أدرك المثقفون ذلك التدهور

الواضح بالامبراطورية العثمانية وراحوا يفكرون فى الأسباب التى أدت الى تزايد قوة الدول الأوروبية المسيحية . وذهبوا فى تقديراتهم الى انه اما أن الأوروبيين قد توصلوا الى منهج أنسب من الاسلام واما أن المجتمع الاسلامى قد فشل فى السير على نهج الاسلام الحقيقى . ونلنا لأن أحدا منهم لم يكن على استعداد لأن يسلم جدلا بأن الاسلام فى مستوى أقل من أى نظام اجتماعى آخر فان النتيجة الحتمية التى توصلوا اليها هى أن المسلمين قد انحرفوا عن الطريق القويم للدين الاسلامى . وأصبح المسرح مهيأ لادخال الإصلاح الدينى الاسلامى . الا أن الإصلاح فى هذه المرة لم يتناول المجادلات الدينية أو الروحية الا بقدر يسير وأنصب أساسا على المجادلات المتعلقة بالنموذ السياسى والسياسات . وكانت جميع الحلول المقدمة تركز على توجيه النصح والارشاد لجميع المسلمين فى جميع أرجاء العالم لكى يتحدوا معا ضد الاعتداءات والانتهاكات الأوروبية ووضع خطة لدراسة مصادر القوة الأوروبية بهدف العمل على استنزافها والقضاء عليها .

وفى مجال تدعيم وتقوية القوة العسكرية العثمانية نجد أن محمود الثانى قد انحاز مع الطبقة الارستقراطية البيروقراطية فى الميل الى اضعاف الطابع العصرى الحديث أكثر من انحيازه وميله الى التحالف الذى يضم الإنكشارية والعلماء الدينيين . وواجه الإنكشارية نكسة حادة فى عام ١٨٢١ عندما فشلوا فى كبح جماح التمرد الذى قام به الرعايا اليونانيون بالامبراطورية . حيث أدرك السلطان عندئذ أن الامبراطورية الاسلامية لم يعد بمقدورها احكام قبضتها على الرعايا من غير المسلمين التابعين لها . وقد تدهور موقف الإنكشارية للغاية حتى أنه عندما قام محمود الثانى باصدار أوامره بحل الإنكشارية وتسريحهم فى يونيو ١٨٢٦ فان العلماء الدينيين لم يظهروا أدنى احتجاج على ذلك . وكان ذلك بمثابة

انتصار كبير لصالح الطبقة الارستقراطية البيروقراطية ولصالح استيراتيجيتهم التى ترمى الى التعلم من الاوربيين بالخارج مع ادخال اصلاحات عسكرية وادارية فى الداخل . وبذلك بدأت عملية « التنظيمات » فصدر قرار بالغاء الاقطاع الزراعى واعادة تشكيل المناصب الدينية فى عام ١٨٢٧ . كما تم فتح المدارس فى عام ١٨٣٨ لتدريب الموظفين المدنيين والاطباء والضباط العسكريين . كما امر محمود الثانى بان يرتدى الناس الطربوش بدلا من غطاء الرأس الذى يرتديه القطاعات المختلفة من المجتمع العثمانى . وكان ذلك يعنى المساواة الرمزية بين جميع المواطنين العثمانيين سواء كانوا من المسلمين او من غير المسلمين . وهو اجراء قد لقى استياء كبيرا من جماهير المسلمين . الا ان كل هذه الاجراءات قد فشلت فى ترضية الدول الاوربية . فبعد ان قامت روسيا بضم ديساربيا Bassarbia فى عام ١٨١٢ نجد انها استولت على الممتلكات العثمانية فى منطقة القوقاز فى عام ١٨٢٩ .

وتم التوسخ فى « التنظيمات » فى عهد عبد المجيد Abdul Majid ( ١٨٣٩ — ١٨٦١ ) . اذ ارسى نظرية المساواة بين جميع المواطنين العثمانيين بغض النظر عن الديانات الخاصة بهم . كما اصدر قرارا ينص على حماية ارواح وممتلكات جميع السكان فى كافة ارجاء الامبراطورية . وقام فى عام ١٨٤٧ بانشاء مدارس عسكرية . كما وضع مسودة تمهيدية لمجموعة من القوانين التجارية والجنائية تركز على مجموعة قوانين نابليون فى عام ١٨٥٩ . وكان ذلك يعنى ان تقتصر الشريعة الاسلامية على المسائل المتعلقة بالاحوال الشخصية . كما انه تم تخفيض سيطرة العلماء الدينيين على التعليم عندما اعلنت وزارة التعليم التى شكلت فى عام ١٨٥٧ عن اقامة مرحلة من التعليم العمومى عقب مرور ثلاث سنوات . ومع تزايد اقبال الناس على ارتداء الزى الاوروبى بالمناطق الحضرية

أصبح العلماء الدينيون مختلفين في الزى عن البيروقراطيين والضباط العسكريين . وتدرجاً أصبح ينظر إلى العلماء الدينيين على أنهم أناس محافظون في عناد ومعارضون لكافة أنواع التجديد والابتكار . ومن بين الابتكارات التي عارضوها معارضتهم لماكينه الطباعة ( ولكن اعترضهم لم يلق أى تأييد ) كذلك أخذ على العلماء اهتمامهم فقط بالشئون العائلية وليس بالحياة الكاملة للمؤمن .

لقد رحبت الدول الأوروبية بـ « التنظيمات » إلا أن ذلك لم يمنعهم من الهجوم على الامبراطورية العثمانية . وكانت روسيا القيصرية هي أكثر الدول من الناحية العدوانية . اذ كانت مصممة على القيام بدور الحامى أو النصير العسكرى لـ ١٢ مليون مسيحي أورثوذكسى شرقي يعيشون تحت حكم العثمانيين . كما كانت تقوم في نفس الوقت بتوسيع حدودها في منطقة أواسط آسيا التي يسكنها المسلمون .

وقام قادة المسلمين في أواسط آسيا بمناشدة السلطان عبد العزيز ( ١٨٦١ — ١٨٧٦ ) للقيام بدور حامى حوى المسلمين في روسيا القيصرية . وذلك على غرار ما يقوم به الروس ازاء المسيحيين المقيمين في الامبراطورية العثمانية . كما حصل عبد العزيز على مناشدات والتماسات أخرى مرسلة اليه من مسلمي الهند . فبعد أن فشل التمرد ضد الانجليز في الهند في عام ١٨٥٧ وهو التمرد الذى لعب فيه الملوك والامراء المسلمون دوراً رئيسياً ، انتشر الاحباط واليأس بين المسلمين بالهند وبدأوا يشعرون بالقلق على مصيرهم من حيث هم رعايا بريطانيون بعد أن ظلوا يشكلون الطبقة الحاكمة على مدى سبعة قرون تقريباً . اذ كانت

الامبراطورية العثمانية التي تحتوى على المدن المقدسة : مكة والمدينة المنورة والقدس علاوة على المراكز الثقافية الدينية الكبرى فى كل من القاهرة ودمشق وبغداد وهى بمثابة التجسيد الرئيسى للحضارة الاسلامية والقوة الاسلامية وذلك من وجهة نظر مسلمى الهند وأواسط آسيا .

ولكن لم يكن بمقدور عبد العزيز أن يفعل الكثير من أجلهم . اذ كان حاكما مبذرا ومسرنا ومدينا بأموال طائلة للدول الأوروبية ولم يكن له نفوذ على هذه الدول ، وأصبح عجزه واضحا ومثيرا للخجل عندما تهردت كل من بلناريا والبوسنة والصرب والمنتجرو ضد استانبول فى السنوات الأخيرة من حكمه وذلك بناء على أوامر صادرة من روسيا . وقد أثار ذلك موجة من الاستياء العام مما أدى الى قيام شيخ الاسلام بإصدار فتوى ضد عبد العزيز مما أدى الى الاطاحة بعبد العزيز على يدى مدحت باشا قائد وزعيم «الشعباء العثمانيين» وهى منظمة شهابية قوية تشكلت فى عام ١٨٥٩ بهدف الصل على انشاء برلمان منتخب للأمة الاسلامية يتمشى مع التطبيق الصادق للشرعية الاسلامية .

وأصدر مدحت باشا دستورا . وهذه خطوة متطورة وتعتبر الأولى من نوعها فى الاسلام . ونص هذا الدستور على بنود كثيرة من بينها أنه أفسى دليعا رسميا على الوضع الدينى للسلطان العثمانى . اذ نص على : « ان جلالة السلطان بوصفه خليفة الاعلى هو حامى ديم الدين الاسلامى » . وهذا الدستور الذى اشتمل على ميثاق للحقوق أو خلاصة للحقوق الأساسية للشعب والذى نص على برلمان منتخب قد أعلن عنه ونششر بمعرفة عبد الحميد الثانى ( ١٨٧٦ - ١٩٠٩ ) وذلك فى ديسمبر عام ١٨٧٦ .

وفى إبريل قام الجيش الروسى بعبور الحدود العثمانية بهدف تحرير السلافيين Slave ثم وصل الى استانبول . فاضطر السلطان للتوقيع على « اتفاقية سان ستيفانو » المتسمة بالاذلال فى مارس ١٨٧٨ . وهى الاتفاقية التى عدلت فى يوليو وحلت محلها « اتفاقية برلين » . ووفقا لهذه المعاهدة أعطيت قبرص لبريطانيا كما أعطيت تونس لفرنسا . والأكثر من ذلك أن السلطان قد أرغم على تعيين مستشارين فى الشؤون المالية والعسكرية من ألمانيا من أجل تنفيذ الإصلاح كما أرغم على السماح لمفتشين قانونيين من دول أوربية بالسفر فى جميع أرجاء الامبراطورية من أجل البحث فى الشكاوى وانصاف المظلومين .

وهذا فقدان المستمر للأراضى علاوة على تزايد تدخل الأوربيين فى الشؤون الداخلية للامبراطورية العثمانية قد جعل عبد الحميد الثانى يقتنع بأن برنامج « التنظيمات » البالغ من العمر ٥٠ عاما قد فشل فى إعادة الطمأنينة سواء للدول الأوربية أو لرعاياه المسيحيين . ومن ثم فقد حان الوقت لتغيير الاتجاه .

وفى فبراير ١٨٧٨ قام بتعطيل أو وقف الدستور بصفة مؤقتة ثم قام بحل البرلمان . ويعيئذ ألقى القبض على مدحت باشا وقام بنفى أعضاء منظمة « الشباب العثمانيون » الى أماكن مختلفة فى أرجاء الامبراطورية . ورفض العصرية الاسلامية وعاد الى القيم الاسلامية التقليدية والى الأفكار الاسلامية القوية . الا انه استمر فى استيراد التكنولوجيا الغربية والمناهج الغربية . ولم يعترض العلماء الدينيون على استيراد ماكينات الخياطة أو قضبان السكك الحديدية . ولكنهم أصروا فى نفس الوقت على أن الاسلام ليس بحاجة الى استيراد أفكار روحية من الغرب وهو موقف مازالوا يتمسكون به حتى الآن .



واتخذ عبد الحميد الثانى وجهة النظر والسياسات التى سبق أن نادى بها أحمد سفديت باشا Ahmad Cevdet Pasha الذى استنكر « التنظيمات » وقادة التنظيمات بسبب تدميرهم تماسك المجتمع العثمانى من خلال تنفيذ اصلاح دنيوى للجهاز القضائى . واقتراح ادخال الطابع الحديث على الجهاز التكنولوجى مع الإبقاء فى نفس الوقت على الاسلام فى طابعه التقليدى من حيث هو النظام الأساسى للمجتمع العثمانى . وحقيقة الأمر أن عبد الحميد الثانى قد اتخذ خطوة أخرى للأمام . إذ حاول احياء التماسك فى داخل المجتمع العثمانى من خلال حث جماهير الناس على اعداد برنامج لحزب دينى يرفع لواء الاسلام ويفجر طاقاتهم . ولكى ينجح فى مغامرته هذه فإنه شجع الطرق الصوفية واستخدمها كقنوات اتصال للوصول الى جماهير الناس . ونجحت استراتيجيته هذه حيث كان هناك دائما تيار سائد من المشاعر الاسلامية بين الرعايا المسلمين بالامبراطورية العثمانية .

كما حاول أيضا انشاء حركة اسلامية شاملة وهو فى هذا الصدد حصل على التأييد النشط من الكثيرين . ومن بينهم جمال الدين الأفغانى . وهو شخصية دينية وله مواهب متعددة : فهو دارس أكاديمى وغيلسوف ومعلم وصحفى ورجل سياسة . وقد ولد من أبوين شيعيين فى أسد آباد Asadabad القريبة من همدان الواقعة فى غرب ايران الا أنه ادعى أنه قد ولد فى أسد آباد القريبة من كونار Konar الواقعة فى شرق أفغانستان وأشار الى أن والديه كانا من أهل السنة . وهو بادعائه بأنه نشأ فى بيئة سنية استطاع كسب الكثير من الأنصار والمؤيدين له . وهو على كل حال قد أمضى فترة طفولته وشبابه فى كابول التى درس فيها الاسلام والفلسفة . ثم غادر كابول وهو فى سن الـ 18 عاما من أجل الحج حيث سافر الى مكة وإلى النجف وكربلاء . ثم

أمضى عاماً في الهند وذلك عقب فشل التمرد الهندي لعام ١٨٥٧ ضد البريطانيين . فشهد بين المسلمين مشاعر قوية مناهضة للبريطانيين . وقد ترك ذلك تأثيراً عميقاً في نفسه .

ولدى عودته الى أفغانستان في عام ١٨٦١ انتهك في السياسة المحلية الداخلية . وعندما أرغم نصيره وصديقه محمد عزام على ترك البلاد في عام ١٨٦٩ — حيث أرغبه أخوه غير الشقيق الذي يسمى شير علي Sher Ali على مغادرة البلاد — نجد أن جمال الدين الأفغاني قد طرد أيضاً من أفغانستان . ووصل جمال الدين الى استانبول فاستقبله السلطان عبد العزيز استقبالا حسنا . ونظرا لأن جمال الدين الأفغاني كان يشجع الإصلاح التعليمي والتفكير العلمي فقد تم تعيينه في «مجلس التعليم» . وأشار في إحدى محاضراته الى أن فهم القرآن الكريم مقصور على عدد ضئيل للغاية من الناس . أي أن القرآن الكريم لن يفهم سوى خاصة الخاصة من الناس . وهو رأى قد اعتبره السنون نوعا من الهرطقة والبدعة . وقد أساء هذا القول الى العلماء الدينيين الذين هم تحت رئاسة شيخ الاسلام : حسن فهمي . وكان حسن فهمي يشعر بالغيرة والحقد من استاذية وشعبية جمال الدين الأفغاني . لذلك رأى جمال الدين الأفغاني أن من الحكمة أن يبادر الى مغادرة استانبول .

وعقب وصوله الى القاهرة في عام ١٨٧١ خصص له الخديوى اسماعيل راتبا شوريا كبيرا للغاية . وكان من بين تلاميذه : الشيخ محمد عبده وسعد زغلول باشا . وقد أصبح محمد عبده المفتي الأكبر على مصر كما أصبح سعد زغلول مؤسسا لحزب الوفد الوطنى . وكان الشيخ جمال الدين الأفغاني يحدث على ضرورة المقاومة الوطنية ضد التدخل المتزايد البريطانى والفرنسى في

شئون مصر كما كان يهاجم الخديوى اسماعيل بسبب تبذيره فى انفاق الأموال واقترح اقامة حكومة تركز على الأسلوب البريطانى وكان يرى أن الحكومة البرلمانية تنمى مع المفاهيم الذهنية الاسلامية . وبذلك يمكن القول انه انسان مبتكر من حيث تقديمه حلولاً اسلامية للمشكلات المعاصرة .

وعندما تولى توميق باشا الحكم عقب والده الخديوى اسماعيل فى أوائل عام ١٨٧٩ نصحه البريطانيون بأن يقوم بطرد جمال الدين الأفغانى من مصر . وفى سبتمبر تم ترحيل الأفغانى الى حيدر أباد بالهند ثم بعدئذ الى كلكتا . وظل هناك تحت مراقبة واشراف البريطانيين . وهنا هاجم الأفغانى المجدد الاسلامى : سيد أحمد خان بسبب اتجاهاته الخائفة المنسمة بالعبودية ازاء البريطانيين علوة على اتخاذه لأسلوب فى حياته متنسج بالطابع الغربى . كما عبر عن استيائه أيضا من أحمد خان لأنه يقوم باقناع المسلمين الهند بالاحصول على التعليم البريطانى ومحاولة تقديم تفسير للقرآن الكريم . ونادى جمال الدين الأفغانى بالوحدة الهندوسية الاسلامية بهدف مقاومة الحكم البريطانى . وفى مصر حيث كان الأفغانى يساند الحركة الوطنية بقيادة أحمد عرابى باشا تفجرت المشاعر المناهضة للبريطانيين وظهرت على هيئة تمرد مسلح فى عام ١٨٨١ — ١٨٨٢ الا أن الانجليز تمكنوا من سحق ذلك التمرد . وكان ذلك بداية الاحتلال البريطانى لمصر الذى استمر حتى عام ١٩٥٤ .

وظهر جمال الدين الأفغانى فى باريس فى يناير ١٨٨٣ وبعد مرور أربعة أشهر نشر مقالا فى جريدة : Journal des Débats رمض فيه الحجج والبراهين التى ساقها جوزيف أرنست رينان فى محاضرة سابقة والتى تشير الى أن الاسلام والعلم متعارضان

ومتنافران تماما وأوضح الأفغانى أن من الخطأ أن توصف الدراسات العلمية بأنها متناقضة مع الاسلام . لأن العلم كان جزءا لا يتجزأ من الحضارة الاسلامية . وأن فقدان الدراسات العلمية هو السبب الرئيسى فى الاضمحلال الذى أصاب الأمة الاسلامية .

وقام هو والشيخ محمد عبده بطبع ونشر جريدة باللغة العربية تسمى : العروة الوثقى . وفى هذه الجريدة قاما بتأييد النزعات واليول الاسلامية الشاملة التى نادى بها عبد الحميد الثانى كما نشر فى هذه الجريدة افكارهما وآراءهما الاصلاحية .

وبعد أن وجه ناصر الدين شاه امبراطور ايران الدعوة للأفغانى فى عام ١٨٨٦ ذهب الأفغانى لى يعيش فى طهران . الا أن شيعيته الهائلة هناك سببت الارتباك للشاه . وفى السنة التالية سافر الأفغانى الى إقليم أربكستان الذى يقع فى نطاق الامبراطورية القيصرية . وانهك هناك فى الدعاية ضد البريطانيين المتواجدين بالهند مما أدخل السرور على القيصر . وبعدئذ فى بطرسبرج ( ليننجراد حاليا ) تمكن الأفغانى من اقناع القيصر الاسكندر الثانى بالسماح بطبع القرآن الكريم وبعض الكتب الاسلامية الاخرى وذلك لأول مرة فى التاريخ القيصرى .

وفى عام ١٨٨٩ بينما كان فى طريقه الى « معرض باريس العالمى » تقابل مع ناصر الدين شاه فى ميونيخ . ووجه له الشاه الدعوة لى يعود الى ايران فعاد بالفعل الى طهران . الا أن خططه الرامية الى اصلاح السلطة القضائية أثارت شكوك الشاه . فاعتزل الأفغانى الحياة الاجتماعية وذهب الى ملتجأ دينى قريب من العاصمة . وفى أوائل عام ١٨٩١ تم القاء القبض عليه وطرده الى تركيا .

وشق الأفغانى طريقه الى البصرة . ومن هناك شن هجوما ضاريا على الشاه لاعطائه امتياز التبغ لشركة بريطانية . وأصدر تلميذه ميرزا حسن شيرازى قرارا ينص على أنه ينبغي على المؤمنين التوقف عن التدخين الى أن يسحب الشاه امتياز التبغ . وكانت تلك هى أول مرة فى التاريخ يقوم فيها زعيم دينى بتحدى الحاكم صراحة وعلنا فى ايران . وكانت الاستجابة الجماهيرية للنداء الذى وجهه شيرازى هائلة للغاية حتى أن الشاه اضطر الى إلغاء امتياز التبغ فى أوائل عام ١٨٩٢ . ومرة أخرى نقول أن هذه هى أول مرة يصطدم فيها الراى العالمى بدولة اسلامية على نحو مباشر بقرارات ملكية .

وسافر الأفغانى من البصرة الى لندن . وفى لندن قام بحملة ضارية ضد الحكم الديكتاتورى للشاه وخاصة من خلال الجريدة الشهرية التى تسمى : *Diyai al Khafikyan* . والتى تصدر باللغتين الفارسية والانجليزية . وهكذا نرى أنه قد ساعد على انشاء حركة اصلاحية سياسية فى ايران تحت قيادة العلماء الدينيين مما أدى فى نهاية الأمر الى الاطاحة بالشاه ، فلتك هى المقدمات التمهيدية التى أفضت الى أحداث أواخر السبعينات .

وعندما وجه السلطان عبد الحميد الثانى الدعوة للأفغانى بالمجئ الى استانبول فانه لى الدعوة . وقدم السلطان لجمال الدين الأفغانى مرتبا شهريا مجزيا وحاول اقناع الأفغانى بوقف حملته المناهضة للشاه . فرفض الأفغانى ذلك وسعى الى مغادرة استانبول ولكنه لم يفلح فى ذلك . وفى مارس ١٨٩٦ أغتيل شاه ايران على يدى تاجر كان ذات يوم تلميذا للأفغانى . وبعد مرور سنة تقريبا مات الأفغانى بعد أن أصيب بالسرطان .

كان الأفغانى شخصية بارزة ومهمة للغاية بل كان هو أول — وأيضاً آخر — شخصية اسلامية تلعب دوراً نشطاً وفعالاً فى الحياة الدينية/السياسية لجمهير الناس المتواجدين فى المناطق الاسلامية المهمة : تركيا العثمانية ومصر وإيران والهند وأواسط آسيا . وقد أعطاه هذا منظورا اسلاميا شاملا وجعله يدرك أن الأمة الاسلامية تقع تحت تهديدات فعلية من جانب الدول الأوروبية . ويشير وإفريد كالنتويل سميت وهو خبير فى شؤون الاسلام الى أن الأفغانى كان هو أول من استخدم المفهوم الذهنى لكلمة « الاسلام » لكلمة « الغرب » من حيث هما لنظان لهما علاقة متبادلة عدائية بالطبع كظاهرة تاريخية .

وكان الأفغانى يدرك أن كلا من روسيا وبريطانيا تشكلان تهديدا للعالم الاسلامى الا أنه كان يعرف أيضا أن بريطانيا هى التى تشكل تهديدا أكثر من روسيا . لأن النظام الاقتصادى البريطانى كان أكثر تقدما وفق الأساليب الرأسمالية من النظام الاقتصادى الروسى . كما أن بريطانيا هى التى سيطرت على كل من الهند ومصر .

وكان الأفغانى مصلحا مناضلا من أجل الاسلام كما كان أداة مناهضة للاستعمار . وكان يرغب فى دفع جماهير المسلمين الى الاشتراك مع الحكام المسلمين فى مقاومة فعالة ضد الاستعمار الأوروبى . وبينما كان يستخدم اللغة العربية الفصحى ويدعو دائما الى ديناميكية وكفاح وجهاد السلف الصالح من أجل الاتحاد ومقاومة الاستعمار المتزايد للعالم الاسلامى على أيدى الكفار فإنه كان يدعو أيضا المسلمين لاهياء التفكير العلمى واصلاح نظامهم التعليمى . . بدعى أن يتعلموا من الغرب .

وكان الأفغانى يبحث على اللجوء الى « الاجتهاد » وقال أن كل مؤمن له الحق فى تفسير القرآن والسنة لنفسه . وكان يريد للناس أن يساعدوا أنفسهم بأنفسهم وكثيرا ما كان يستشهد بالآية القرآنية الكريمة : « أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وكان تأثير الأفغانى جوهريا من حيث خلق القومية الاسلامية وحياء حركة السلف الصالح . وفى موقف الاسلام تجاه الغرب كان يرى ثلاثة أنواع من ردود الفعل الاسلامية ازاء الغرب : الدعوة الى حمل السلاح من أجل الدفاع عن النفس ، ومحاولة معرفة أسرار القوة لدى الغرب ، وادخال طرائق الفكر العلمانية الغربية .

وكان الأفغانى مفكرا اسلاميا أصيلا . وهو اذا كان قد أبدى اهتماما ببعض المفاهيم الذهنية الغربية فإنه لم يسمح أبدا للايديولوجية الغربية أن تكون هى ينبوع لوجيه والهامه . اذ ظل ضاربا بجذوره القوية فى التراث الاسلامى رغم أنه أمضى سنوات فى فرنسا وبريطانيا وروسيا .

والأفغانى هو الجد الأكبر للإصلاح الاسلامى وقد قام تلميذه الشيخ محمد عبده بتطبيق المبادئ العامة والتوجيهات الأفغانية فى مجال تشريع القوانين . كما أن محمد رشيد رضا الذى هو أحد تلاميذ محمد عبده قد قدم برنامج العمل أو الخطة اللازمة لأقامة دولة اسلامية تتلاءم مع الظروف الحديثة المعاصرة .

. وقد ولد محمد عبده فى أسرة ريفية مصرية وتأثر كثيرا بجمال الدين الأفغانى فى السبعينيات من عام ١٨٧٠ . وعندما وقعت مصر تحت الاحتلال البريطانى فى عام ١٨٨٢ سافر محمد عبده الى باريس حيث قام بمساعدة جمال الدين الأفغانى فى نشر واعداد جريدة اسلامية . واختلف فى رأى مع الأفغانى فيما يتعلق بمسألة

مقاومة الغرب اذ كان المجاهد الأفغانى يعتقد فى ضرورة اثاره  
مشاعر الحكام المسلمين ورعاياهم من المسلمين وتعبثهم من أجل  
محاربة الدول الأوربية بينما محمد عبده كان يعتقد أنه ينبغي على  
المسلمين أن يركزوا أولا على الاصلاح الدينى والتعليمى علاوة على  
الاقتداء بتلك النواحي المتواجدة بالحضارة الغربية التى تتمشى  
مع الاسلام .

واشار محمد عبده الى أن الاسلام لا يتعارض ولا يتناقض مع  
أسس الفكر الغربى . وأوضح أن الشورى فى الاسلام ليست  
سوى الديمقراطية البرلمانية عند الغرب . كما أن الاجماع فى  
الاسلام ما هو الا الراى العام لدى الغرب . كما أوضح أن المصلحة  
فى الاسلام ( بمعنى تفسير الشريعة على النحو الذى يؤدى الى  
أكبر قدر من الفوائد والنوايا الحسنة ) يقابلها مذهب المنفعة  
Utilitarianism عند الغرب .

وعاد محمد عبده الى مصر فى عام ١٨٨٨ وركز جهده على  
تطبيق الاصلاح التعليمى والقانونى والتشريعى . وبعد أن تولى  
منصب المفتى الأكبر فى مصر فانه حول المفهوم ذهنى عن :  
المصلحة الى اجراءات عملية تتمثل فى وضع قوانين تركز على  
المبدأ الشامل للأخلاقيات العامة . بل ذهب الى ما هو أبعد من  
ذلك . حيث اشار الى انه اذا أصبح حاكم مسلم مصدرا للأضرار  
والأذى أو اذا أصبحت حكومة مسلمة مصدرا للأضرار فانه ينبغي  
تغييرها بحيث تتلاءم مع الظروف المعاصرة . كما توسع محمد عبده  
فى المفهوم ذهنى عن التوفيق . ( والتوفيق هو اختيار تفسير من  
أحد المذاهب الأربعة بخلاف المذهب الذى يتبعه المرء ) بهدف  
الحصول على توليفة تركيبية من أحكام مختلفة بحيث تركز على  
المصادر الرئيسية للشريعة الاسلامية : الا وهى القرآن والحديث



والسلف الصالح أو المبادئ التي سار عليها السلف الصالح . .  
وبينما كان جمال الدين الأفغانى يركز على الجهاد العام للسلف  
الصالح فى أوائل الاسلام نجد أن محمد عبده قد ركز على تأثير  
السلف الصالح على صياغة الشريعة كما ركز على لجوء المراف  
الصالح الى العقلانية Rationalism . وقد استرشدت كثير  
من الدول الاسلامية بالانجازات التي حققها محمد عبده فى مجال  
صياغة القوانين .

فمحمد رشيد رضا وهو أشهر تلاميذ الشيخ محمد عبده اتخذ  
المزيد من الخطوات فيما يتعلق بمبادئ السلف الصالح بأن راح  
يبحث ويدرس الأموال والأعمال التي قام بها محمد صلى الله عليه  
وسلم والسلف الصالح بهدف تطبيقها على الظروف المعاصرة .  
وبالنسبة للنواحي القانونية فإنه كان يفضل اتباع آراء وأفكار  
السلف الصالح على اتباع المذاهب التشريعية الأربعة الرسمية .  
وذهب الى رأى مماثل لرأى أحمد بن حنبل حيث كان يعتقد أن اللجوء  
الى القرآن والسنة هو الأمر الأسى والأعلى لأن الله لا يمكن  
الا من خلال ما فعله وفقاً لما هو وارد بالقرآن الكريم ومحمد لا يمكن  
وصفه الا من خلال ما فعله وفقاً لما هو وارد فى السنة . وأشار  
أيضاً الى أنه اذا ظهر تناقض بين نصائح معينة فإن أفضل وسيلة  
لحل هذه المشكلة هى لجوء المؤمن الى المبادئ الأساسية التي  
حددها القرآن والسنة .

وقد أوضح كل هذه الأمور وغيرها من الأفكار الأخرى فى  
جريدة « المنار » . وهى الجريدة التي كان يصدرها فى القاهرة  
عقب وصوله الى القاهرة فى عام ١٨٩٧ قادماً من بلدته طرابلس  
الواقعة فى شمال لبنان والتي سبق أن تقابل فيها مع الشيخ محمد  
عبده قبل ثلاث سنوات .

وبينما كانت مصر واقعة تحت الاحتلال البريطاني فنانها كانت فى نفس الوقت جزءا من الامبراطورية العثمانية من الناحية الرسمية . وفى أوائل القرن العشرين نجد أن اتجاهات عبد الحميد الثانى الشعبية ازاء الاسلام فى الداخل واعتناقه لمبدأ الجامعة الاسلامية بالخارج كانت غير كافية لحياء الامبراطورية الآخذة فى التفكك والاضمحلال . وفى عام ١٩٠٨ أرغم ضباط الجيش العاملون بالمناطق الأوربية من الامبراطورية عبد الحميد الثانى على إعادة دستور عام ١٨٧٦ . وفى السنة التالية أبعدوه عن السلطة على أمل أن ذلك قد يحسن من صحة الامبراطورية المتدهورة . . الا أن الامبراطورية ظلت مريضة .

ومما أكد ضعف الامبراطورية وتدهورها تلك الحرب التى نشبت فى عام ١٩١٢/١٩١٣ والتى أسفرت عن فقدان الأراضى الأوربية المتبقية علاوة على فقدان ليبيا . وعلى كل حال فانه يمكن القول أنه عقب النكسة الأخيرة أصبحت الامبراطورية العثمانية قليلة المساحة أكثر تجانسا من الناحية الدينية . وربما كان ذلك هو السبب الذى جعل قيصر ألمانيا يشجع القادة العسكريين باستانبول — الذين كانوا يعرفون باسم : الشبان الأتراك — على القيام بتحرير زملائهم الأتراك من القيود الروسية وتوسيع الامبراطورية العثمانية شرقا الى اواسط آسيا . وكانت نتيجة ذلك التشجيع أن انضمت تركيا الى ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى فى أكتوبر ١٩١٤ . وبعد مرور أربع سنوات انتهت الحرب بهزيمة العثمانيين هزيمة منكرة : وكان هذا الحدث يعنى انتهاء آخر امبراطورية اسلامية وكان ذلك بمثابة تجربة قاسية وصدمة هائلة للمجتمع الاسلامى العالمى .

وعلى مدى السنوات العديدة التالية ظل الموقف فى تركيا — وهى الأراضى الأصلية للامبراطورية العثمانية القديمة — مليئا

بالشغب والاضطرابات . وفى استانبول تعاون السلطان محمد السادس Mehmet VI مع قوات الاحتلال التابعة للحلفاء المنتصرين بينما كان الأتراك الوطنيون بقيادة مصطفى كمال يعارضون ذلك . ثم قام الأتراك الوطنيون بانشاء « الجمعية الوطنية العمومية الكبرى » فى أنقرة . وتصاعدت شعبية مصطفى كمال الى درجة هائلة بين جماهير الناس عندما نجح فى طرد قوات الاحتلال اليونانية من تركيا فى أغسطس ١٩٢١ . وأصدر مصطفى كمال أوامره فى نوفمبر ١٩٢٢ بالغاء السلطنة بحيث تحل محلها « الجمعية الوطنية العمومية الكبرى » الا أنه أبقى على الخلافة من حيث هى منصب دينى . ولكى يبرر مصطفى كمال تصرفاته هذه فإنه أشار الى سابقة فى العهد العباسى عندما فقد الخلفاء العباسيون كافة السلطات السياسية وأصبحوا مجرد شخصيات ترمز الى الوحدة الاسلامية . الا أن الترتيبات فى هذه المرة كانت مجرد بديل مؤقت . وفى مارس ١٩٢٤ طلب مصطفى كمال من الجمعية الوطنية الكبرى « أن تقوم بتطهير وتهذيب العقيدة الاسلامية والعمل على انقاذها من وضعها كأداة سياسية وهو الوضع الذى اعتادت عليه منذ قرون عديدة » . وبعدئذ تم عزل وإقالة الخليفة وتم الغاء منصب الخلافة . وانهى بذلك أسلوب الخلافة الذى استمر على مدى ١٢٩٢ عاما . وقد نجم عن أزمة روحية فى العالم الاسلامى خارج تركيا . وأصبحت تركيا تتبع خطا عسكريا علمانيا تحت قيادة مصطفى كمال أتاتورك .

والجدير بالذكر أن محمد رشيد رضا وهو أحد مواطنى سوريا الكبرى قد اشترك على نحو مباشر فى الأحداث التى أعقبت تشكل الإمبراطورية العثمانية فى عام ١٩٢٠ أصبح رئيساً للمؤتمر الوطنى السورى الذى اختار الأمير فيصل بن الحسين

ليكون ملكا على سوريا . وبعد مرور ثلاث سنوات قام بتجميع سلسلة مقالاته التى كتبها عن الخلافة فى جريدة « المنار » وأصدرها فى كتاب تحت عنوان « الخلافة أو الامامة العليا » . وهذا الكتاب جعل منه أول باحث نظرى فى مجال الدولة الاسلامية بمعناها الحديث المعاصر . اذ تناول فى هذا الكتاب أسس ومبادئ الخلافة كما تناول الفجوة التى تتواجد بين النظرية والتطبيق للخلافة . بل انه تقدم ببرنامج عمل من أجل اقامة دولة اسلامية .

ان شئون الدولة الاسلامية ينبغى أن تدار فى نطاق دستور يركز على القرآن الكريم والأحاديث وتحارب الخلفاء الراشدين وذلك ونفا لما أوضحه محمد رشيد رضا . أما الاجتهاد فى الاسلام فينبغى أن يستخدم من أجل تدعيم الفوائد العامة . ويذهب فى تقديراته الى أن رئيس الدولة الاسلامية — الذى يمكن أن يسمى باسم الخليفة أو الامام الأعلى — ينبغى أن يكون ممارسا « للاجتهاد » . وفى النواحي القضائية ينبغى أن يساعده « أهل الحل والعقد » بمعنى أن يساعده ممثلو المجتمع على اختلاف أنواعهم بما فى ذلك العلماء الدينيون . ومثلو المجتمع يجب أن يكونوا هم الحماة للطابع الاسلامى للدولة . وينبغى على الخيفة أن يستشيرهم . . وأن هذه الاستشارات هى التى تجعل قراراته ملزمة من الناحية الدينية . وعادة ما كان « أهل الحل والعقد » هم ممثلى المجتمع ومختبى الخلفاء . ولكنهم فى هذه الأيام ينبغى عليهم أن يقوموا أيضا بممارسة سلطة التشريع وسن القوانين وذلك بهدف العثور على حلول منطقية وعقلانية ومنهجية للمشكلات التى تبزغ فى الآن . والشريعة الاسلامية المرجع الرئيسى فى التشريع ولكن على مدى القرون نجد أنها استكملت من خلال مجموعة كاملة من القوانين الوضعية التى تكون تابعة للشريعة الاسلامية . وفى

«التحليل النهائي يمكن القول أن « القانون الوضعي » ينبغي أن يكون متمشياً مع الخطوط والمبادئ الرئيسية الإسلامية .

والخليفة أو الامام الأعلى يجب اختياره بمعرفة مندوبين وممثلين عن جميع طوائف المسلمين ( أهل السنة والشيعة والخارج أو الخوارج Kharji ) من بين القضاة والمحامين والضالعين في القوانين . ويركز محمد رشيد رضا على المشتغلين بالقانون . وهذا التركيز ينبع من الحقيقة التي مفادها أن التشريع في الأزمنة الحديثة يعتبر هو العنصر الحاسم والرئيسي في الدولة الحديثة وأن الخليفة أو الامام الأعلى يتوقع له أن يكون هو القوة الرئيسية المتواجدة خلف العملية التشريعية . والخليفة من حيث هو رأس الدولة فإنه هو القائد لجميع المسلمين ومن ثم ينبغي عليه الاعتراف بتعددية النظرية الإسلامية Pluralism . وينبغي على المؤمنين اطاعة الخليفة مادامت أفعاله تتمشى مع المبادئ الإسلامية ومع الصالح العام . وعندما تصبح قراراته متعارضة مع المبادئ الإسلامية أو المصلحة العامة يكون لمندوبي المجتمع الحق في تحدي قراراته .

ويذهب محمد رشيد رضا الى أن المسلم له الحق في أن يحاول بنفسه أن يفهم ما جاء بالقرآن الكريم والاحاديث بدون الحصول على مساعدة من أى وسيط سواء أكان هذا الوسيط ينتمى الى الأوقات الماضية أو الأزمنة الحاضرة . وينبغي معاملة النساء في مساواة تامة مع الرجال عدا رئاسة شئون المنزل أو القيام بدور الامام في الصلاة أو تولى منصب الخليفة أو الامام الأعلى .

ان الدراسة المنهجية للنظرية والتطبيق للخلافة مع ربطها

---

(\*) التعددية : بمعنى أنه توجد هناك أكثر من حقيقة واحدة . المرجع

بالارتقاء بالمفهوم الذهنى للخلافة فى ضوء الظروف والأوضاع المعاصرة كان بمثابة حجر الزاوية فى تاريخ الإصلاح الإسلامى وكان دليلا على الطاقة الابتكارية للمفكرين الإسلاميين خلال الربع الأول من القرن العشرين . وتجدر الإشارة الى أن الخط الإصلاحى الذى انتهجه الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا كان موجها ضد المشتغلين بالقانون المتعجربى العقلية الذين تسببوا فى تدهور الإسلام كما كان موجها ضد الناس المتغربين أو المتخذين للطابع الغربى الذين ينقصون من الإسلام ويحاولون الإساءة اليه .

وكان محمد رشيد رضا واقعيا لأنه كان يعتقد أن الدولة الإسلامية وفقا لرؤيته وتصوراتها هى بمثابة هدف على المدى البعيد . كما أن تناوله البراجماتى العملى للأمور قد انعكس على تقبله للبرنامج الذى نادى به والذى يحتوى على التعايش بين الدول الدينية والدول السياسية . . . والتعايش بين الشريعة والقانون الوضعى .

وعلى كل حال فإن عوامل عديدة قد وضعت حدا لهذه الازدواجية وذلك مع ترك المظهر السياسى مكانه لكى يشغله المظهر الدينى . إذ وافق المصلحون تدريجا على وجهة النظر السائدة بين العلماء الدينيين والتى مفادها أن هجوم الغرب على الإسلام لم يكن هجوما سياسيا فقط وإنما كان أيضا هجوما أيديولوجيا وأن الأفكار العلمانية الغربية قد تغلغلت فى التفكير الإسلامى واضعته . كما أنه ابتداء من العشرينات فصاعدا أصبح من الواضح أنه يمكن تحقيق أية أفكار إصلاحية إذا كانت تلك الأفكار تلقى التأييد من جانب جماهير المسلمين . هذا بالإضافة الى أن إلغاء الخلافة الإسلامية فى عام ١٩٢٤ قد أدى الى تفجير أزمة حادة فى العالم الإسلامى مما دفع بالمظهر الدينى للحياة الإسلامية الى المقدمة .

وفى حين كان المصلحون يزدون من تركيزهم على ضرورة مواجهة الغرب سياسيا وثقافيا فانهم لم يطلوا من الحاجة الى اصلاح الدينى . بل انهم كانوا يشعرون بالحاجة الملحة الى تطهير الاسلام من الاضافات الغربية التى لحقت به والتى تتسم بطابع غير اسلامى تماما وبالتالي يمكنون المسلمين من استعادة مجد العقيدة الاسلامية . وبكلمات أخرى فانهم قادوا حركة تسير فى اتجاهين « بينما كان التركيز أقل من حيث تطهير الاسلام من صوفية العصور الوسطى أو التقيد الحرفى الأكاديمى وأكثر من حيث تطهير الاسلام من البدع الجديدة والهرطقات الحديثة والأفكار العلمانية الغربية التى رفعت تحت شعار العصرية أو الطابع الحديث . . وتركيز أقل من حيث أن يكتسب الاسلام ( أو يكتسب من جديد ) مصادر القوة الغربية . . وتركيز أكثر على تخليص الاسلام من بذور الانحطاط الغربى » .

وليس غريبا أن تكون مصر هى أول دولة تقوم بتفجير حركة احيائية اسلامية شعبية . فمصر هى أهم دولة فى العالم العربى من الناحية السياسية والثقافية علاوة على أن مصر هى النواة التاريخية للاسلام . وقبل العثمانيين كانت مصر هى قلب الخلافة الاسلامية على مدى ٢٥٠ عاما . ومع ذلك فانها كحمية تحت التاج البريطانى منذ عام ١٨٨٢ قد خضعت لموجات مستمرة من الفكر الغربى والثقافة الغربية . وكانت الحركة الاسلامية التى نشأت فوق تربة مصر وتدعمت وازدهرت تسمى « الاخوان المسلمون » .







## الفصل الرابع

---



## الاخوان المسلمون في مصر وسوريا

---

كان حسن البنا ( ١٩٠٤ — ١٩٤٩ ) من بين القراء الذين يحرصون على قراءة جريدة المنار التى يصدرها رشيد رضا . وكان يعمل مدرسا فى مدرسة ابتدائية بالاسماعيلية عاصمة منطقة قناة السويس التى يحتلها البريطانيون . وهو من أسرة تتميز بالورع والتقوى تعيش فى مدينة تسمى المحمدية وتقع فى دلتا النيل . وكان والده : أحمد البنا من خريجى جامعة الأزهر وكان واعظا دينيا ويؤم المصلين فى المسجد المحلى . هذا بالإضافة الى أنه ألف كتباً عن الأحاديث النبوية الشريفة وعن التشريع الإسلامى .

ونشأ حسن البنا فى فترة زمنية تجتاحها القلاقل . فعقب الحرب العالمية الأولى ( وكانت بريطانيا أعلنت أثناء الحرب أن مصر محمية تابعة لها ) قام المصريون بثورة شعبية هائلة وحصلوا على استقلال جزئى فى عام ١٩٢٢ . وتمت أول انتخابات برلمانية فى عام ١٩٢٣ حيث انتصر حزب الوفد الوطنى على حزب الأحرار الدستوريين . وفى تركيا قامت قوات سلطانية جمهورية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك بالغاء الخلافة فى

١٩٢٤ وهو حدث مهم خلق أزمة في العالم الاسلامى . وقد أرجع حسن البنا السبب فى ذلك الجيشان والاضطراب الى التنافر والشقاق والنزاع بين حزب الوفد وحزب الاحرار الدستوريين . كما أرجعه الى المناقشات السياسية الصاخبة التى تفجرت عقب ثورة ١٩١٩ علاوة على الاتجاهات نحو الارتداد عن الدين ونحو الفلوسينية التى كانت تحتاح العالم الاسلامى آنئذ . بالاضافة الى الهجوم على التقاليد والاتجاهات القويمة الراشدة من جانب ثورة كمال أتاتورك فى تركيا وهى الثورة التى تغيرت تدريجا وأصبحت حركة لتحرير مصر اجتماعيا وثقافيا . ومن الأسباب أيضا تلك الاتجاهات غير الاسلامية والعلمانية والليبرالية التى سادت الدوائر الاكاديمية والثقافية فى مصر . ونتيجة لهذه الفوضى العارمة أوضح حسن البنا أن الشعب المصرى يرث ديننا فاسدا ويتشرب الشكوك والحيرة . ولذلك بدأ يلقي المحاضرات ويفتح باب المناقشات فى الأماكن العامة ثم شرع فى انشاء جماعة الاخوان المسلمين فى عام ١٩٢٨ على هيئة ناد للشباب يركز أساسا على الإصلاح الأخلاقى والاجتماعى من خلال الاتصالات والاعلام والدعاية . وكان من المنطقى أن يتم مولد جماعة الاخوان المسلمين فى الاسماعيلية . فالاسماعيلية يوجد بها المركز الرئيسى لشركة قناة السويس ويوجد بها المركز الرئيسى لقيادة القوات البريطانية فى مصر ولذلك كانتا تعتبر هى القاعدة الامامية للغرب علاوة على كونها بمنابة تهديد متعدد الأبعاد لكيان وهوية مصر السياسية والاقتصادية والثقافية .

ولم تحول جماعة الاخوان المسلمين نفسها رسميا الى كيان سياسى الا بعد أن شن المصريون المقاومة المسلحة ضد المعاهدة الانجاز/مصرية لعام ١٩٣٦ وبعد أن شن الفلسطينيون ثورة مسلحة فى فلسطين ضد الانتداب البريطانى والاستعمار الصهيونى فى

عام ١٩٣٧/٣٦ . لقد حدث هذا التحول في عام ١٩٣٩ . وهذا يؤيد الافتراض العلمي القائل بأن الراديكالية تزدهر عادة عندما يكون هناك تهديد من عدو خارجي . وأعلنت جماعة الإخوان المسلمين الإنكار الآتية :

١ — ان الاسلام هو نظام شامل يطور نفسه تلقائيا . والاسلام هو الطريق الأساسي والنهائي للحياة بكل مجالاتها المختلفة .

٢ — ان الاسلام ينبثق ويرتكز على مصدرين أساسيين هما القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

٣ — ان الاسلام صالح للتطبيق في كل زمان ومكان . وقصارى القول ان الاسلام هو أيديولوجية شاملة يقدم نظاما قادرا تماما على تنظيم كافة تفاصيل الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمؤمنين .

ومنظمة الإخوان المسلمين قد قدمت أيضا على أنها كيان شامل لكل شيء . . وقد قدم حسن البنا وصفا لحركة الإخوان المسلمين من حيث هي وارثة وحفازة لمعظم العناصر النشطة في التفكير الاصلاحى والتراثى السننى فقال انه يراها « رسالة سلفية وطريقا سنيا وصدقا صوفيا ومنظمة سياسية وجماعة رياضية وجمعية علمية ومشروع اقتصاديا وفكرة اجتماعية » .

وشهدت حركة الإخوان المسلمين توسعا وانتشارا هائلا منذ عام ١٩٣٣ بالقاهرة . وفى عام ١٩٤٠ أصبح لجماعة الإخوان المسلمين ٥٠٠ فرع . وتل فرع له المركز الخاص به سواء كان هذا المركز متواجدا في مسجد أو مدرسة أو ناد أو منزل أو مصنع . وكانت مدارس الإخوان المسلمين تضم فصولا لتعليم النواحي الدينية وللتعليم النواحي البدنية الجسمانية ( تحولت فيما

بعد الى التدريبات العسكرية ) لأعضائها بهدف أعدادهم من أجل الكفاح المسلح أو الجهاد . وكان الهدف من الجهاد ليس فقط تحرير مصر من السيطرة الأجنبية وإنما أيضا تحرير الوطن الاسلامى كله . اذ ينبغي أن يقام فى الوطن الاسلامى حكومة اسلامية حرة تطبق مبادئ الاسلام ونطبق الأسلوب الاجتماعى الخاص بها وتقدم مبادئها الأساسية الراسخة وتنقل نداءاتها الحكيمة الى الشعب . وكان هدف الاخوان المسلمين مشابهها للأهداف التى عرضها جمال الدين الأفغانى منذ عشرات عديدة من السنين . الا أن الأفغانى كانت تنقصه الوسيلة التى تعينه على تنفيذ أهدافه : كانت تنقصه قاعدة شعبية عريضة من المؤمنين بآرائه وأهدافه .

وتعاضد نمو جماعة الشبان المسلمين فى نفس الوقت الذى كان يشعر فيه المصريون بالاذلال بسبب وقوعهم تحت النفوذ والسيطرة الأجنبية . وفى فبراير ١٩٤٢ بينما كانت الجيوش الألمانية تزحف فى اتجاه مصر قادمة من ليبيا وبينما كان الملك فاروق يفكر فى تعيين رئيس وزراء جديد مشهور بعدائه للبريطانيين أصدر السفير البريطانى بالقاهرة أوامره للدبابات البريطانية ( عادة ما كانت تتمركز الدبابات فى منطقة قناة السويس ) بمحاصرة القصر الملكى وبعدئذ خير الملك فاروق بين التنازل عن العرش أو تعيين مصطفى النحاس باشا زعيم حزب الوفد الموالى للبريطانيين فى منصب رئيس الوزراء . فوجه الملك فاروق الدعوة للنحاس باشا لى يشكل الحكومة الجديدة . وقد أدى ذلك الى تعزيز مركز الحلفاء فى مصر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية كما أدى أيضا الى تدمير هيبة الملك بين رعاياه .

وقد أدت هذه الأحداث الى تدعيم مركز الاخوان المسلمين الذين كانوا يستمدون التأييد الشعبى من الطلبة والموظفين المدنيين

والحرفيين وصغار التجار والفلاحين الذين هم من الطبقات المتوسطة والفقيرة . وكان الاخوان المسلمون يتقابلون فى صلاة الجمعة حيث يقوم القادة والزعماء بارشادهم الى تأدية الواجبات الدينية مع اعضاء الطابع الاسلامى على حياتهم الشخصية وعلى أفراد عائلاتهم وكان الاخوان المسلمون ينظمون أنفسهم على هيئة خلايا بحيث تضم كل خلية خمسة أشخاص . وتسمى الخلية بالأسرة . ويتصاعد التنظيم بحيث كل مجموعة من الأسر تكون عشيرة ومجموعة العشائر تكون مجموعات وكل عدد من المجموعات تكون الكتائب . واضطرت قيادة الاخوان المسلمين فيها بعد الى تكوين خلايا سرية .

وعقب الحرب العالمية الثانية تصاعد الكفاح المسلح ضد البريطانيين . واصبح العنف السياسى متوطنا فى مصر . وهبطت شعبية الملك فاروق الى درجة كبيرة بعد أن اشترك الجيش المصرى فى المجهود الحربى العربى ضد دولة اسرائيل الوليدة وذلك عقب الانسحاب البريطانى من فلسطين فى مايو ١٩٤٨ حيث كان أداء الجيش المصرى فى هذه الحرب سيئا للغاية . وكان السبب الرئيسى فى ذلك الضعف هو انخفاض كفاءة كبار الضباط بالجيش المصرى واتهامهم فى الفساد والانحلال بالاضافة الى أسلحة الجيش المصرى القديمة البريطانية الصنع علاوة على عدم انتظام امدادات الطعام والدواء وقلة كمياتها . وشارك متطوعون من جماعة الاخوان المسلمين فى الحرب العربية/الاسرائيلية وأجروا اتصالات مع الضباط المصريين الوطنيين . واعتنق كثيرون من الضباط ايدولوجية الاخوان المسلمين وفى نفس الوقت بدأ الاخوان المسلمون يتدربون تدريبات عسكرية تحت اشراف الضباط المؤمنين بأفكار الاخوان المسلمين . وكان قادة وزعماء الاخوان المسلمين وكذلك الضباط الوطنيين الذين شكلوا فيها بينهم « تنظيم الضباط الأحرار »

يشعرون بالغضب والاحباط بسبب نفشى الظلم والانحلال والفساد فى مصر وبسبب انتشار الايديولوجيات العلمانية وخاصة الماركسية التى جعلت الأمة منقسمة داخليا على بعضها البعض وبسبب تدهور السياسات الانتخابية . وقد أدى انضمام مجموعات من الضباط العسكريين لمنظمة الاخوان المسلمين الى تدعيم وتقوية المنظمة حيث ادعت فى عام ١٩٤٦ انها تضم ٥٠٠ ألف عضو نشط و ٥٠٠ ألف شخص متعاطف موزعين على ٥٠٠ فرع . وكان شعار الاخوان المسلمين جذابا للغاية : « القرآن دستورنا . ومحمد مرشدنا . والموت فى سبيل الله هو أسمى أمانينا » .

واستفادت جماعة الاخوان المسلمين أيضا من الحقيقة التى مفادها ان المؤسسة الدينية بالبلاد والمتمثلة فى جامعة الأزهر ورئيسها كانوا ينحازون الى جانب الملك . اذ كان علماء الأزهر يعتقدون أن اتخاذ أى عمل ضد الحاكم — سواء اكان الحاكم من أهل البلاد أم أجنبيا — يعتبر فتنة تؤدى الى بث الفوضى بالمجتمع وهو أمر ينبغى تجنبه مهما كانت التكلفة . وكانوا يخافون من الفوضى للغاية حتى أنهم فى الماضى اضطروا للتسامح ازاء الاحتلال الأجنبى والتفاضى عنه . وفى عام ١٧٩٨ نجد أن علماء الأزهر قد حثوا اتباعهم على طاعة المحتلين الفرنسيين « ينبغى عليكم الالتزام بعدم اثاره الفتنة وعدم اطاعة مثيرى الشغب أو الاصغاء للمرائين والمنافقين أو السير وراء الشر » . وفى عام ١٩١٤ وعقب الاعلان عن قانون الاحكام العرفية بمعرفة المحتلين البريطانيين نجد أن علماء الأزهر أصدروا بياناً جاء فيه : « نحمد الله ونشكر فضله الذى حذر المؤمنين لكى يتجنبوا كل أنواع الفتن . . ومن ثم فان من الواجب علينا أن نلتزم بالهدوء والصمت وننصح الآخرين بالالتزام بالهدوء وأن نتجنب التدخل فى الأمور التى لا تخصنا » . ولذلك فان خنوع واستسلام العلماء المستمتر للملك فاروق كان



متمشيا مع سلوكهم فى الماضى . بل ان علماء الأزهر لم يظهروا  
أيد دلائل تشير الى ابتعادهم عن الحاكم فى أعقاب الهزيمة المصرية  
فى الحرب العربية/الاسرائيلية لعام ١٩٤٨ .

أما جماعة الاخوان المسلمين فقد أعلنت أن المؤسسة السياسية  
المصرية هى المسئولة الوحيدة عن الكارثة التى لحقت بالعرب فى  
حربهم مع اسرائيل . ثم لجأت الى الأنشطة الارهابية والتخريبية .  
فقام رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى باتخاذ اجراءات انتقامية  
حيث أعلن الاحكام العرفية فى البلاد وأصدر قرارا بتحريم جماعة  
الاخوان المسلمين فى ديسمبر ١٩٤٨ . وبعد ذلك بثلاثة أسابيع  
قام أحد اعضاء الاخوان المسلمين باغتياله . فادى ذلك الى قيام  
الدولة بتشديد قمعها لجماعة الاخوان المسلمين . وأشار حسن  
البنا الى أنه مدامت جماعة الاخوان المسلمين قد حلت قبل الاغتيال  
فان الشخص الذى قام بالاغتيال لا يمكن وصفه بأنه عضو فى منظمة  
الاخوان المسلمين . وفى ١٢ فبراير ١٩٤٩ تم اغتيال حسن البنا  
على أيدي عملاء للأجهزة السرية خارج مكتبه بالقاهرة .

ومن الناحية الأيديولوجية كان حسن البنا يسير فى خط  
متوافق تماما مع الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا الذين كانوا  
يؤمنون بحركة الإصلاح وكان حسن البنا ضد تقليد العلماء الدينيين  
أو السير وفقا لسلوكهم فى معالجة الأمور . وكان يحب الاجراءات  
التي تضمن تحقيق أكبر قدر من الصالح العام وكان يجب « الاجتهاد »  
فى الاسلام الذى يعتمد على التفكير المنطقى السليم وكان يرى أنه  
ينبغى تطبيق « الاجتهاد » حتى يمكن للاسلام مواجهة مشكلات  
العالم الحديث . ولكنه كان يختلف مع زعماء الإصلاح السابقين  
عليه فربما يتطرق بالوسائل التى ينبغى استخدامها لتحقيق قيام  
الدولة الاسلامية . فالأفغانى كان يقتصر على كتابة النشرات

والكتيبات التي تناشد الحكام المسلمين والمثقفين المسلمين بالاتحاد ضد الكفار . ومحمد عبده قد ركز على الإصلاح الدينى واصدار الفتاوى والقرارات الدينية ومحمد رشيد رضا قد استخدم جريدة « المنار » من أجل تدعيم ونشر أيديولوجية السلف الصالح بالإضافة الى اللجوء الى أعمال اجتماعية وسياسية لها طابع شعبي يهدف اعادة احياء الدولة الاسلامية . أما حسن البنا فإنه هو الذى قام بإنشاء حزب جماهيرى سياسى . وذهب حسن البنا فى تقديراته الى أن الهدف الرامى الى اعادة خلق الدولة الاسلامية يمكن أن يتحقق فى نطاق الاطار الدستورى المتواجد بالمثل . فالحكومة الحالية عليها فقط أن تعترف بالشريعة الاسلامية كمصدر أعلى للقانون ونبذ القوانين الأوربية المستوردة التي أدت الى تقويض وهدم أسس النظام الاسلامى .

وهذه الآراء قد شرحها ووضحها محمد الغزالى وهو مناصر لجماعة الإخوان المسلمين ، فى كتابه الذى صدر تحت عنوان « بدايتنا فى الحكمة Oat Begihn, in wisdom » فى عام ١٩٤٨ . وأشار الغزالى الى أن المسلمين الصادقين — شأنهم شأن الأوروبيين من الفرنسيين والروس — لا يمكن لهم أن يفصلوا قيمهم الأخلاقية عن السياسة بدون أن يحرموا أنفسهم من إمكانية تدعيم قيمهم ومبادئهم الأخلاقية . كما أشار الى أن الشريعة الاسلامية ينبغى أن تكون هى المصدر للقانون فى جميع نواحي الحياة سواء الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية . وهذا أمر اجبارى ينبغى أن تلتزم به السلطة الاسلامية لأنه عندئذ فقط يمكن ادخال الفرائض القرآنية ذات الطابع الاجتماعى والمتعلقة بالجهاد والقياس والزكاة مع الفرائض الأخرى ذات الطابع الشخصى التى تتعلق بالصلاة والصوم والحج . وقد أشار آية الله الخمينى فيما بعد الى نفس

هذا الكلام فى نداءاته التى تحض على خلق دولة اسلامية فى ايران .

وفىما يتعلق بالعقوبات على النحو الوارد بالشريعة الاسلامية نجد أن الغزالي قد اتفق فى رأى مع محمد رشيد رضا على أنه ينبغى تأجيل تنفيذ قطع اليد بالنسبة للسارق والجلد بالنسبة للزانى لحين الانتهاء من اقامة مجتمع اسلامى قويم وسليم . وكان الغزالي ينتقد مثل هذه الممارسات التى تتم فى المملكة العربية السعودية « نحن لا نجادل ولا نعارض من حيث ان هذه المنوعات هى جزء لا يتجزأ من الاسلام ولكن من الغريب حقا أن ينظر الى هذه المنوعات على أنها بمثابة الاسلام كله » . وأضاف « نحن نرغب أن نشاهد تطبيق هذه العقوبات حتى يمكن الحفاظ على الفضائل والحقوق والأمن ولكننا لا نرغب أن نشاهد قطع يد لص صغير سرق مبلغاً ضئيلاً بينما لا تطبق العقوبات على أولئك الذين اختلسوا مبالغ خيالية من خزانة الدولة » وفىما يتعلق بالنساء اتخذ الغزالي الموقف الاسلامى التقليدى . اذ كان يرى تحريم الملابس الجذابة الباهرة والمظهر الجذاب عند النساء وتواجدهن بدون مرافقين فى الحدائق العامة والأماكن الخلوية . وكان يرحب بتعليم المرأة مادام تعليمهن يتجه مباشرة نحو اعدادهن لتربية أطفالهن ورعاية شؤون العائلات .

وعندما ألغيت الأحكام العرفية فى عام ١٩٥٠ فإن الحظر المبروض على جماعة الاخوان المسلمين قد أُلغى وسمح لها بالعمل والممارسة من حيث هى مؤسسة دينية . ولكن عقب مرور عام على انتخاب حسن الهضسيبى — وهو قاض كبير يعارض العنف والارهاب — رئيساً لجماعة الاخوان المسلمين نجد أن الاخوان المسلمين عادوا الى الحقل السياسى . وتحت الضغوط الشعبية المناهضة للبريطانيين ألحقت الحكومة المصرية على بريطانيا لى

تسحب قواتها العسكرية على الفور من الأراضي المصرية . وعندما راوغت بريطانيا فى تنفيذ هذا المطلب قامت القاهرة بالغاء المعاهدة الانجلو مصرية لعام ١٩٣٦ من جانب واحد فى أكتوبر ١٩٥١ ( وكانت هذه المعاهدة سارية المفعول حتى عام ١٩٥٦ ) . وهنا قامت مؤسسة الاخوان المسلمين بتقديم عونها ودعمها للحكومة المصرية وأعلنت الجهاد ضد المحتلين البريطانيين . ونظرا لان الاخوان المسلمين أصبحوا يتلقون تدريبات عسكرية على أيدي المتعاطفين معهم من أفراد الجيش المصرى فان قيادة الاخوان المسلمين أصبحت فى أيدي المجاهدين والمحاربين منهم . ولعبت جماعة الاخوان المسلمين(\*) دورا مهما فى أحداث الشغب بالقاهرة التى تمت فى يناير ١٩٥٢ وهى أحداث هزت النظام الملكى فى مصر ومهدت الطريق أمام تفجر انقلاب عسكرى عقب ستة شهور .

وفى مجال الاستعداد لتنفيذ انقلاب عسكرى ضد الملك فاروق قام الضباط الأحرار بتخصيص فرق من الاخوان المسلمين للقيام بأعمال المعاونة والمساعدة . ولكن اتضح أن ذلك الاجراء لا لزوم له : اذ لم يواجه انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أية مقاومة . وعندما قام اللواء محمد نجيب والعقيد جمال عبد الناصر بحظر والغاء كافة الأحزاب السياسية فانهم استثنوا جماعة الاخوان المسلمين على أساس أنها جماعة دينية وليست سياسية . ومن بين أعضاء مجلس قيادة الثورة الذى يضم ١٨ عضوا والذى تقلد زمام الحكم فى البلاد كان يوجد أربعة منهم على صلة وثيقة للغاية مع جماعة الاخوان المسلمين . وكان محمد أنور السادات من بين هؤلاء الأربعة . وأعطى مجلس قيادة الثورة لجماعة الاخوان

---

(\*) جماعة الاخوان المسلمين أو منظمة الاخوان المسلمين أو تنظيم الاخوان المسلمين كل ذلك مترادفات لاسم واحد .  
المترجم

المسلمين ثلاثة مقاعد فى الحكومة ولكن الهضبيى رفض هذا العرض . وعندما تخلص جمال عبد الناصر من محمد نجيب وترجع على قمة السلطة فى البلاد فى أواخر عام ١٩٥٣ بدأ القادة العسكريون فى تطبيق الإصلاح الزراعى . فعارض الاخوان المسلمون هذا الاجراء وتشجرت فجوة واسعة بينهم وبين الحكومة . وبدأ الاخوان المسلمون يعتقدون أن الحكام العسكريين هم الى حد بعيد أناس يجرّون وراء الأساليب الحديثة ويميلون أكثر الى نشر التعليم العمانى واعطاء حقوق متساوية للمرأة واصلاح نظام الملكية للأراضى ويهملون تطبيق الشريعة الاسلامية على جميع مجالات الحياة . فقام المجاهدون من الاخوان المسلمين بتكوين الخلايا السرية من جديد — وهى خلايا تعرف أيضا باسم الأنظمة الروحانية — من أجل تنفيذ الاغتيالات والأعمال التخريبية . وفى ٢٣ أكتوبر ١٩٥٤ حاول عبد المنعم عبد الرؤوف — وهو من الجناح العسكرى للاخوان المسلمين — اغتيال عبد الناصر اثناء مؤتمر شعبى عقد فى الاسكندرية . ولكنه فشل فى اغتياله . فتم تنفيذ حكم الاعدام فى عبد المنعم عبد الرؤوف علاوة على اعدام خمسة آخرين من أعضاء الاخوان المسلمين بالاضافة الى وضع ٤٠٠٠ عضو نشط من الاخوان المسلمين فى السجون . واضطر الآلاف من الاخوان المسلمين للهرب الى سوريا والمملكة العربية السعودية والأردن ولبنان والاقامة هناك بصفة مستمرة .

وبعد عامين تغلب عبد الناصر على المحنة التى نجمت عن غزو مصر بمعرفة اسرائيل وبريطانيا وفرنسا وتصاعد نجم عبد الناصر وبدأ التدهور يتفشى فى أوصال الاخوان المسلمين تدريجا . وسار الأزهر على نفس سياسته القديمة التى تتلخص فى مساندة السلطات الحاكمة ولذلك كان يصدر الفتاوى التى ترغب حكومة عبد الناصر فى اصدارها سواء كانت الفتوى تتعلق

بإعادة توزيع الأراضي على الفلاحين أو تأمين التجارة الداخلية والخارجية أو الاستيلاء على ممتلكات الأشخاص الذين تم نفيهم سياسياً وإبعادهم عن مصر .

وفي عام ١٩٦٤ - كجزء من العفو العام - قام عبد الناصر بإطلاق سراح أعضاء الإخوان المسلمين من أجل استقطابهم واختيارهم ليكونوا أعضاء في تنظيم سياسي بهدف مواجهة الشيوعيين الذين كانوا قد أطلق سراحهم من السجن أيضاً .  
إلا أن المصالحة بين عبد الناصر وجماعة الإخوان المسلمين لم تستمر سوى فترة قصيرة . إذ أشارت التقارير إلى أن العديد من قادة الإخوان المسلمين قد تورطوا في ثلاث مؤامرات لاغتيال عبد الناصر بتمويل وتدبير من ملك السعودية الذي كان منهمكاً آنئذ في صراع مع عبد الناصر بشأن فرض السيادة على اليمن الشمالية ( وذلك عقب الانقلاب الجمهوري الذي حدث باليمن في سبتمبر ١٩٦٢ ) وعلى كل مكان في الشرق العربي . وقد نتج عن ذلك القضاء القبض على ١٠٠٠ من الإخوان المسلمين ومحكمة ٣٦٥ منهم بالإضافة إلى تنفيذ حكم الإعدام في كبار قادتهم في عام ١٩٦٦ ومن بينهم سيد قطب ( ١٩٠٦ - ١٩٦٦ ) .

وكان سيد قطب هو أعظم الأيديولوجيين والمفكرين في جماعة الإخوان المسلمين . وفي كتابه « معالم على الطريق » الصادر في أوائل الخمسينات قسم سيد قطب الأنظمة الاجتماعية إلى فئتين : نظام الإسلام ونظام الجاهلية ( وكلمة الجاهلية هنا مشتقة من الجهل الذي كان سائداً في شبه الجزيرة العربية قبل مجيء النبي محمد وقبل نزول الرسالة على محمد صلى الله عليه وسلم حيث كان الناس لا يعبدون الله وإنما يعبدون رجالاً آخرين متفكرين في هيئة آلهة ) وأشار سيد قطب في تحليلاته إلى أن حكومة عبدالناصر

هى عبارة عن نسخة جديدة من الجاهلية . وقد أدى ذلك الى تصاعد شعبية سيد قطب بين الشباب من جماعة الاخوان المسلمين كما أدى احتقار الناس للمؤسسة السياسية والدينية فى مصر . وكان سيد قطب قد ألقى القبض عليه فى عام ١٩٥٤ أثناء اضطهاد الاخوان المسلمين . وعندما أطلق سراحه عقب مرور عشر سنوات رشحه الأعضاء العسكريون المصريون بجماعة الاخوان المسلمين ليكون رئيسا للجماعة . اذ كانوا يريدون الانتقام من ذلك الاضطهاد الذى سببته منه الاخوان فى منتصف الخمسينات . ونظرا لأن سيد قطب كان يميل بطبيعته الى التأمل والتفكير فانه كان يرغب فى تجنب العنف . ولكن عندما ألح عليه أتباعه الراديكاليون على ضرورة شن الجهاد ضد النظام الذى سبق له أن وصفه بأنه مماثل للنظام فى العصر الجاهلى لأنه نظام يخون المفاهيم الاسلامية فانه لم يستطع العثور على مخرج .

وأثناء محاكمته فانه لم يتجادل فى الاتهام الرسمى الموجه اليه بأنه قام بالتحريض على الفتنة والعصيان . وراح يشرح موقفه من الناحية الايديولوجية . حيث قال : « ان روابط الايديولوجية والايمان هى اقوى من روابط المشاعر الوطنية الحماسية التى تتركز على الاقليم أو المنطقة . وهذا التمييز الزائف بين المسلمين الذى يتم على أسس اقليمية ليس سوى تعبير عن الجماليت النصرانية ضد المشرق وتعبير عن الامبريالية الصهيونية التى ينبغى القضاء عليها » . وبمعنى آخر فان الوطن ليس هو الأرفس وانما هو مجموعة المؤمنين أو الأمة الاسلامية كلها . وذهب فى تنديراته الى أنه ما أن يعلن الاخوان عن شخص ما أنه جاهلى فانه يكون لهم الحق فى الهجوم على شخصه أو ممتلكاته . فهذا الحق قد منحه الاسلام . فاذا حدث أثناء تأدية هذا الواجب المقدس وشن الجهاد ضد الكفار أن وجد أخ مسلم نفسه قائما بأعمال

التحريض على الفتنة والعصيان فانه لا غرابة في ذلك ولا مسؤولية عليه . لأن مسؤولية خلق مثل هذا الموقف تقع على عاتق أولئك الذين خلقوا من خلال سياساتهم مثل هذه الظروف منذ البداية .

وعقب مرور عام على وفاة سيد قطب فان وجهة نظره هذه قد لقيت الكثير من القبول والانتشار . وكان لهذا علاقة بحرب الايام الستة العربية/الاسرائيلية في يونيو ١٩٦٧ . فالهزيمة المذلة الساحقة التي ألحقها الاسرائيليون بمصر مع تدمير سلاحها الجوي والاستيلاء على شبه جزيرة سيناء كان بمثابة ضربة شديدة لاشتراكية عبد الناصر العربية شبه العلمانية مما خلق بيئة تميل الى قبول وجهة نظر الاخوان المسلمين القائلة بأن المعتقدات الاسلامية التراثية قد أهملت أو كبتت بمعرفة الحكم الناصري . وساد اعتقاد عام بين جماهير الناس بأن العرب قد هزموا لأنهم ابتعدوا عن الطريق القويم وعن تنفيذ تعاليم الله . وحتى « مجلة الأزهر » الشهرية الناطقة بلسان الجامعة الموقرة التي سبق لها أن كانت خانعة ومتذلة لعبد الناصر مثلما كانت خانعة لكافة الحكام السابقين على عبد الناصر قد أشارت الى أن المسلمين قد ابتعدوا عن ماضيهم المجيد وسمحووا لأنفسهم بالوقوع فريسة للمفاهيم المسمومة الضارة المصطنعة الزائفة . كما أشارت الى أن الحرب الاسرائيلية العربية كانت بمثابة صراع بين الاسلام واليهودية وحثت على ضرورة تقوية وتدعيم التعليم الاسلامي بين جماهير الناس على أساس أن تلك هي أفضل وسيلة فعالة لمحاربة اسرائيل . وساد الاعتقاد بأن السبب في انتصار اليهود يرجع الى أن اليهود كانوا متمسكين بعقيدتهم أكثر من العرب الذين كانوا مشغولين بفكرة انشاء وطن عربي يركز على اللغة المشتركة وعلى الحقوق المتساوية لكافة المواطنين المنتمين لكافة الأديان .



وكانت الهزيمة على أيدي الاسرائيليين سببا في اندحار تيار القومية العربية العلمانية والاتجاه نحو احياء الثقة في الأصوليين .

وأحدثت الهزيمة صدمة هائلة في نفوس جماهير الناس حتى انهم كانوا في أشد الحاجة الى العزاء والتهدئة من روعهم . . فوجدوا ذلك في الدين . وأحسست الحكومة بذلك . وقامت وسائل الاعلام الموجهة بمعرفة الحكومة بتذكير قرائها ومستمعيها بالانجازات الكبرى وكذلك حالات المحن والبلاء التي شهدتها الاسلام وكذلك الأعمال التي قام بها محمد عليه الصلاة والسلام ورفاقه . وسرعان ما زودت القوات المسلحة بمطبوعات تتحدث عن معنى الجهاد مع تقديم وصف للمعارك التي خاضها النبي محمد . لقد سارعت حكومة عبد الناصر الى استقطاب مشاعر الحساسية الاسلامية التي اجتاحت جماهير الناس وتوجهها للمصلحة القومية في مصر . ففي ابريل ١٩٦٨ أطلق عبد الناصر سراح مئات عديدة من الاخوان المسلمين المسجونين البالغ عددهم ألف شخص والذين كانوا قد أودعوا في السجن منذ ثلاث سنوات .

وقد ازدادت موجة التدين التي كانت تتخذ في الفالاب طابعا روحيا أو صوفيا بعد أن قامت اسرائيل بضم القدس الشرقية ( التي تعتبر ثالث مكان مقدس بالنسبة للاسلام حيث يوجد بها المسجد الأقصى وقبة الصخرة ) واحراق المسجد الأقصى على نحو متعمد في يوليو ١٩٦٩ .

ومات جمال عبد الناصر في سبتمبر ١٩٧٠ ووصل محمد أنور السادات الى منصب رئيس الجمهورية فأدى ذلك الى رفع معنويات جماعة الاخوان المسلمين . وكان السادات قد تقابل مع حسن البنا لأول مرة في عام ١٩٤٠ كما حضر العديد من الدروس الأسبوعية التي كان يلقيها حسن البنا في المركز الرئيسي للاخوان

المسلمين في خلال الأربعينيات . وهو لم ينقلب ضد حزب الاخوان المسلمين الا بعد أن قام الاخوان بمحاولة لاغتيال عبد الناصر في عام ١٩٥٤ . وكان السادات مشهورا بالتقوى والورع . لذلك كثيرا ما استخدمه عبد الناصر من أجل إبراز الطابع الاسلامي لحكومته . مثال ذلك أنه قد اختار السادات ليكون سكرتيرا عاما للمؤتمر الاسلامي الذي تأسس في عام ١٩٦٥ بهدف تجميع الرأي العام الاسلامي بالخارج لصالح مصر .

وبعد أن تولى السادات رئاسة الجمهورية فإنه رفع شعار « الايمان والعلم » وأصدر تعليماته للتليفزيون والراديو التابعين للدولة باذاعة اذان الصلوات الخمس يوميا . ووعد بأن تكون الشريعة الاسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع مستقبلا . ثم أطلق سراح المسجونين المعتنقين للاخوان المسلمين بهن نبيهم الهضبي . وتعهد أن يكتسب طابع « الرئيس المؤمن » .

وفي مايو ١٩٧١ قام السادات بالثأب أو « حركة تصحيح » ضد مجموعة على صبرى اليسارية بالاتحاد الاشتراكي العربي الحاكم . وشجع في حواسنة المشاعرة الاسلامية والجماعات الاسلامية بهدف أحداث توازن مع النفوذ اليسارى . ثم أصدر تعليماته للواء عبد المنعم أمين لكي يشهد حوالى ألف جمعية اسلامية بالجامعات والمصانع بهدف محاربة الماركسية الوثنية . وكان حريصا على أن يشاهد الشباب المصري البانث عن أيديولوجية وهو يتحول الى الاسلام أكثر مما يتحول الى الماركسية . وبدأ إنشاء الاخوان المسلمين المبعدين عن مصر يعودون من السعودية وغيرها من البلاد العربية الأخرى مما أدى الى تدعيم وتقوية القوى الاسلامية في داخل مصر .

واكتسب السادات المزيد من الشعبية بين جماهير الناس أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ العربية الاسرائيلية . وركز السادات على العناصر الاسلامية المتعلقة بالحروب : حيث شن الحرب فى شهر رمضان المقدس وأطلق اسم « بدر » على المعارك تيمنا بمعركة بدر التى هى أول معركة يخوضها النبى محمد ضد أهل مكة الوثنيين ويحرز النصر عليهم . واستبسل المصريون فى القتال الى أقصى حد ممكن . وتمكنوا من عبور قناة السويس على الرغم من المحاولات المتكررة من جانب الاسرائيليين المسلحين بأحدث الاسلحة الثقيلة الجديدة المنقولة جوا من أمريكا الى اليهود مباشرة وصمد المصريون على مدى القتال المستمر الذى دام ثلاثة أسابيع . وعلى الرغم من أن النتيجة النهائية من الناحية العسكرية هى قرار بوقف إطلاق النار فإن السادات أتمزج بالفعل انتصارا سياسيا هائلا . وأظهرت حكومة السادات النتيجة على أنها انتصار عظيم لمصر ولجميع الدول العربية . وهناك شك ضئيل فى أن حرب ١٩٧٣ التى شنتها مصر وسوريا قد ساعدت على إعادة احترام الذات للعرب والمصريين . إذ شعر الكثيرون من المصريين أن الله قد قبل ندمهم وتوبتهم الجماعية التى قدمت عقب هزيمة ١٩٦٧ وكافأهم باحراز نصر فى عام ١٩٧٣ .

ولا غرابة فى أن الحرية التى منحت للأصوليين قد أدت الى ظهور مجهوعات أكثر راديكالية من منظمة الاخوان المسلمين . ومن بين هذه المجموعات الجديدة : جماعة التحرير الاسلامى . إذ شنت هذه الجماعة فى يونيو ١٩٧٤ هجوما مسلحا على الاكاديمية العسكرية الفنية المتواجدة فى إحدى ضواحي القاهرة لكى تستولى على أسلحتها قبل الزحف الى المركز الرئيسى للحزب الحاكم المتواجد فى وسط القاهرة — حيث كان من المقرر أن يلقى السادات خطابا هناك — من أجل الاطاحة بالحكم وإنشاء دولة اسلامية ..

وفشلت في مهمتها . الا أن هذا الهجوم انذى أسفر عن مصرع ٣٠ من الجنود قد أكد للحكومة أن هناك مقاتلين اسلاميين ينتظمون في اعمال سرية خارج نطاق جماعة الاخوان المسلمين .

وأصدر السادات عفوا عاما في عام ١٩٧٥ وبعد عام واحد أصدر قرارا بالسماح بالعودة لنظام تعدد الأحزاب الذي كان سائدا في العهد الملكي وذلك سمح للاخوان المسلمين باعادة تنظيم قوااتهم مع الدخول في تكامل مع جامعة الأزهر التي هي المركز الرسمي للإسلام والتي سبق أن ظهرت من عناصر الإخوان المسلمين بمعرفة حكومة عبد الناصر . ولكن نظرا لأن السادات كان يدرك تماما مدى الشعبية الهائلة التي يتمتع بها جماعة الإخوان المسلمين فإنه أحبط خطط قادتهم الرامية الى الحصول على موافقة السلطات على اعتبارهم « منبرا » متميزا . لذلك لم يكن أمام الإخوان المسلمين سوى الوقوف كاستقلين أو كأعضاء في الحزب الحاكم . وقد تلاعب هذا مع السادات، الذي كان حريصا على احداث تقسيم في داخل جماعة الإخوان المسلمين مع استقطاب القطاع المعتدل منهم وادخاله في المؤسسة السياسية .

والأعضاء الستة الذين هم من الإخوان المسلمين والذين أنتخبوا أعضاء بالبرلمان وفقا لللائحة مرشحى الحزب الحاكم بقيادة صالح أبو رقية قد عوملوا معاملة طيبة من الحكومة وسمح لهم باصدار جريدة شهرية تحت عنوان « الدعوة » . وكانت الجريدة تطبع وتنتشر بمعرفة عبد التلمساني الذي كان يعمل محاميا والذي كان أحد قادة جماعة الإخوان المسلمين والذي كان قد صدر ضده حكم في عام ١٩٤٥ ثم سمح له فيها يعد بالهجرة الى المملكة العربية السعودية . ورغم أن جماعة الدعوة كانت تشترك في الرأي مع السادات من حيث مناهضة الشيوعية ومناهضة الآراء الناصرية

فانها كانت تعارض سياسة السادات التى تقود مصر نحو المعسكر الأمريكى مع الموافقة التامة على خطة السلام للشرق الأوسط التى يرعاها الأمريكيون . والأعضاء التسعة المستقلون من الاخوان المسلمين بالبرلمان بقيادة سعيد رمضان كانوا يتمتعون بقدر كبير من التأييد الشعبى حيث كانوا أكثر راديكالية من « مجموعة الدعوة » وعرضوا التعاون مع الحكومة ولكن بشـرط الالتزام ببرنامجهـم المتعلق بالخط الإسلامى والاجراءات الإسلامية .

لقد نجح السادات فى استقطاب العديد من قادة وزعماء الاخوان المسلمين وادخلهم فى النواحي السياسية الا أن هذا بدوره قد ادى الى خروج العديد من الاخوة المسلمين المناضلين والمقاتلين من تنظيم الاخوان المسلمين وتشكيل جماعات راديكالية سرية وأشهر هذه الجماعات السرية هى : المكفرتية **Makfirtiya** أى المناهضين للكفر والالحاد ) ، وجند الله ( أى جنود الله ) ، ومنظمة الجهاد ، والتكفير والهجرة . وكل هذه الجماعات الجديدة كانت تعارض الحكومة فى عنف شديد .

وقد لعب أعضاء « التكفير والهجرة » دورا رئيسيا فى أعمال النهب وحرق الملاهى الليلية على طول « الشريط الذهبى الملىء بالرقص وخلع الملابس قطعة وراء قطعة » بالقاهرة وعلى مدى ثلاثة أيام من التمرد الواسع الانتشار فى منتصف يناير ١٩٧٧ وكان سبب ذلك هو سحب الحكومة الدعم المالى للسلع الضرورية اليومية الأساسية . وكان ذلك التمرد بقيادة : شكرى أحمد مصطفى وهو مهندس زراعى كان قد ألقى القبض عليه فى عام ١٩٦٥ على أساس أنه عضو نشط فى جماعة الاخوان المسلمين . وفى داخل السجن حرر نفسه من الاخوان المسلمين القدامى حيث وجدهم متسدين بالعناد والضعف .

وبعد اطلاق سراح شكري مصطفى من السجن بدأ يجند أعضاء لى ينضموا الى مجموعته . ورغم أنهم قد سموا أنفسهم باسم " جماعة المسلمين فان السلطات الحكومية قد أطلقت عليهم فيما بعد اسم : التكفير والهجرة لأن ذلك الاسم يلخص أيديولوجيتهم وخططهم وتاكتيكاتهم . وفى المسودة التى كتبها شكري مصطفى تحت عنوان : « التوسعات » ( وهو قد رفض أن يطبعها بهدف تجنب التجديف المتعلق بالطباعة ) نجد أنه دعا المؤمن الى الهرب من أخطار الشرك وتجنب التعرض للتعذيب على أيدي الكفار والملاحدين . وبعدئذ ينبغى عليهم أن يعلنوا الجهاد بهدف انشاء دولة اسلامية . ويشير مصطفى الى أن تدمير الملحدين وتدمير دولتهم لا يمكن أن يتحقق بينما المؤمنون مازالوا يعيشون بينهم . . بل أضاف قائلا : ان النبى محمد قد طلب من المؤمنين أن يتركوا الأراضى المليئة بالكفر والتجديف . وبعدئذ يمكن فقط للعقوبة الالهية أن تهبط على الكفار . ونظرا لأن مصطفى يعتبر أن المجتمع المصرى هو مجتمع كافر نانه أصبح لزاما على أتباعه أن يهاجروا ويشكلوا مجتمعا نقييا يتمشى مع السياسة التى أتبعها النبى محمد فى المدينة المنورة . وحقيقة الأمر أن الكثيرين من أتباع مصطفى حرصوا على العيش فى الكهوف والجبال فى محافظة المنيا فى صعيد مصر حيث راحوا يتدربون على أمور كثيرة من بينها التدريبات العسكرية . وقد اكتشفت قوات الأمن تواجدهم فى تلك الأماكن فى سبتمبر ١٩٧٣ ولكن السادات أصدر عفوا عنهم عقب حرب أكتوبر .

ونظرا لأن أتباع مصطفى كانوا ينظرون الى الموظفين الدينيين على أنهم من الكفرة الملحدين نانه كانوا يقاطعون الصلاة التى يؤمنونها وبذلك يصلون معا نى المنازل الخاصة بهم . وكانوا يتزوجون من بين داخل أفراد الجماعة فقط ويمنعون أطفالهم من

الذهاب الى المدارس الحكومية بل كانوا يرفضون الذهاب لاداء الخدمة العسكرية فى الجيش .

وكان هذا التنظيم يضم خلايا سسرية تكون مهمتها مهاجمة الملاهى الليلية ودور السينما والبارات وذلك هو ما أهدمت عليه بالفعل أثناء تمرد يناير ١٩٧٧ . وقامت قوات الأمن بالقضاء القبض على ٦٠ عضوا من هذه الجماعة . فأنار ذلك سحقاً الأعضاء الشبان وطالبوا بأن أولئك الذين ألقى القبض عليهم ينبغى محاكمتهم أو الافراج عنهم فوراً . وعندما لم تستجب الحكومة لمطالبهم فانهم قاموا نى ٣ يوليو باختطاف الشيخ محمد حسين الذهبى وهو وزير سابق للأوقاف والأزهر لأنه كتب مقالة فى احدى الجرائد هاجم فيها جماعتهم . ورفضت الحكومة مطلبهم . فقاموا بقتل الشيخ الذهبى . فقامت قوات الأمن بالهجوم على جماعة التكفير والهجرة المنتشرين فى جميع أرجاء الجمهورية وتم القاء القبض على ٦٢٠ منهم كما تم محاكمة ٤٦٥ منهم أمام محاكم عسكرية . وتم اعدام خمسة منهم من بينهم زعيمهم مصطفى . وقد كشفت التحريات الرسمية عن أن هذا التنظيم يتراوح أعضاؤه ما بين ٣٠٠٠ و ٥٠٠٠ عضو ينتمون الى كافة أنواع الطبقات الاجتماعية وينتشرون فى جميع أرجاء البلاد .

وبعدئذ تم عقد مؤتمر للجمعيات والجماعات الاسلامية فى يوليو ١٩٧٧ برئاسة شيخ الأزهر الشيخ عبد الحليم محمود بالقاهرة . وأصدر هذا المؤتمر بياناً شاملاً :

ان كل التشريعات وكل الأحكام التى تتعارض مع الاسلام فانها تعتبر زائفة . . وايمان المسلمين لا يكون فعالا ونافذ المفعول الا اذا كان خاضعا للشريعة الاسلامية أو القانون الالهى . وحده

فقط لا غير .. والمطالبة بتطبيق الشريعة الاسلامية هو الواجب الذى ينبغى أن يقوم به جميع المسلمين . ونحن لا نقبل أية فصائح تتعلق بالاعتدال أو التأجيل فى هذا الموضوع . فتأجيل تطبيق الشريعة هو خطيئة وهو عدم طاعة الله ولرسوله محمد . وينبغى على الهيئة التشريعية أن تسارع بالتصديق على مشاريع القوانين المقترحة ..

وأخيرا فإن المؤتمر « قد أسعده أن يشير الى بيان رئيس المؤتمر الذى أعلن فيه أنه يعترف بالعمل على تطهير الإدارة من كافة العناصر الاحادية » .

وعقب انتهاء هذا المؤتمر أصدر السادات أوامره بوضع فقرات ملائمة من الشريعة الاسلامية محل تلك الفقرات الواردة بالقانون المصرى والتي تركز على القانون النابليوى . وأعلن مجلس الدولة أنه يقوم بدراسة مشروع قانون ينص على معاقبة أولئك الذين يتم ضبطهم متلبسين بشرب الخمر أو ارتكاب الزنا . وأن قرارا جمهوريا ينص على تطبيق عقوبة الاعدام لمن يرتد عن الدين الاسلامى بصدد العرض على البرلمان لاقراءه والتصديق عليه . وفى ١٠ اغسطس أشارت جريدة الأهرام — وهى الجريدة الرسمية بالبلاد — الى أنه يتم اعداد مشروع قانون ينص على قطع يد السارق .

وبالطبع هدأت هذه البيانات من روع الجماعات الاسلامية وأدخلت عليهم الطمأنينة . الا أنها تسببت فى انزعاج الأقباط أو المسيحيين المصريين الذين يشكلون حوالى ١٠ ٪ من مجموع السكان فى مصر . اذ شعروا أن مشروع القانون المتعلق بالارتداد عن الدين الاسلامى موجه ضدهم نظرا لأنهم غالبا ما يتحولون الى الدين الاسلامى من أجل التمكن من الحصول على طلاق سريع من



زوجاتهم وبعدئذ يرجعون مرة أخرى الى اعتناق المسيحية . وأعلن  
الانقياط احتجاجهم فى أوائل سبتمبر ١٩٧٧ وأصدروا بياناً أشاروا  
فيه الى انهم لن يخضعوا لقانون الارتداد عن الدين فى حالة حصول  
هذا القانون على الموافقة والتصديق عليه . فتخلى السادات عن  
هذه الفكرة بعد أن واجه هذه المعارضة القوية .

وبعدئذ أصبح السادات واقفاً فى ورطة وحائراً بين قوتين  
متعارضتين متناقضتين فى مصر : اذ هاجمه المسلمون المتشددون  
بسبب نكوصه بوعده فيما يتعلق باصدار التشريع المرتكز على  
السريعة الاسلامية . كما هاجمه المسلمون الليبراليون بسبب تدعيمه  
للاسلام التقليدى المتشدد . فحاول أن يشق طريقه مراوفاً من  
خلال تقديم تنازلات متناقضة .

ففى خطابه أمام البرلمان فى ٩ نوفمبر نجد أنه جمع فى كلمته  
بين الاعلان على الملأ بأنه على استعداد للذهاب الى البرلمان  
الاسرائيلى بهدف التوصل الى احلال سلام فى الشرق الأوسط  
والهجوم الشديد على الملحدّين المسؤولين عن أعمال الشغب  
التي حدثت فى ١٩/١٨ يناير ١٩٧٧ حيث قال محذراً « اننى لن  
أسمح لأى جماعة . . أن تنتشر الاحاد بين شعبنا المؤمن . . شعبنا  
الذى يجرى فى عروقه الايمان » . وكان هذا التحذير باعفاً على  
السخرية لأن الأصوليين الراديكاليين كانوا هم القوة الرئيسية  
التي ساندت أحداث الشغب هذه .

ومنذ ذلك الوقت فصاعداً انهمك السادات فى اجراءات  
التفاوض على السلام مع اسرائيل . ونظراً لأن هذه الأعمال كانت  
تعارض مع المشاعر الاسلامية فى داخل مصر وخارجها فإنها قد  
وسّعت الفجوة بين حكومته والجماعات الاسلامية . وقد

ساعد هذا الحركة الاسلامية بوجه عام على الاستفادة من السخط السائد فى البلاد حيث عملت على توسيع نطاق ذلك السخط . . وفى هذا الصدد قال سعد الدين ابراهيم وهو أستاذ علم الاجتماع « ان تاريخ العالم العربى هو تاريخ حركات احياء اسلامية تظهر عادة فى أعقاب ما يمكن اعتباره بأنه فشل هائل لنظام الحكم القائم . فالجولة الحالية أو الدورة الحالية بدأت فى عام ١٩٧٥/٧٤ حيث نذر الطلبة فى انزعاج شديد الى التقارب مع اسرائيل والتودد اليها علاوة على التقارب بوجه عام مع الغرب . كما كان هناك ذلك التشويش والاضطراب الاجتماعى الاقتصادى فى المجتمع علاوة على احباطات الطبقة الفقيرة والطبقة المتوسطة » .

وكان من المظاهر المهمة لهذه الظاهرة هو ذلك التأييد الذى حصلت عليه العناصر الاسلامية فى حرم الجامعات . وفى انتخابات ابريل لعام ١٩٧٨ لاختيار أعضاء اتحاد الطلبة نجد أن الاسلاميين قد نمازوا بـ ٦٠٪ من المقاعد فبحلول ذلك الوقت كانت جماعة الاخوان المسلمين والفروع النابعة منها قد سيطرت على معظم الجمعيات الاسلامية البالغ عددها ١٠٠٠ جمعية وهى التى سبق أن أنشئت وفق أوامر صادرة عن السادات فى أوائل السبعينات .

ان غالبية طلبة الجامعات فى هذه الأيام يجيئون من عائلات ريفية تنتمى للطبقة البورجوازية الصغيرة التى تشكل العمود الفقرى التقليدى لجماعة الاخوان المسلمين . وهذه الشريحة من المجتمع قد انقلبت ضد الحكومة لأسباب عديدة حيث تضايقت من اعتراف السادات باسرائيل وانزعجت من تصاعد الفساد المادى والروحى الناجم عن سياسة الباب المفتوح الاقتصادية الحكومية الرامية الى جذب رأس المال الأجنبى وتشجيع مشروعات القطاع الخاص . فالسياسة الاقتصادية للسادات قد عمقت الفجوة بين الفقراء والأغنياء بسبب رفع أسعار المواد الغذائية والمساكن

وبسبب توجيه ضربة شديدة للصناعات المحلية من خلال استيراد بضائع أجنبية رخيصة الثمن .

كما أن التوقيع على معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل والذي على وشك أن يحدث في مارس ١٩٧٩ قد أغضب كثيرا الطلبة الاسلاميين حتى أنهم تظاهروا ضد الحكومة في جامعة الاسكندرية وجامعة اسيوط : وكان ذلك خطوة جريئة للغاية لأن ذلك يعرض المتظاهرين للسجن مدى الحياة . وكانت شعاراتهم تعبر عن أحزانهم وآلامهم : « لا سلام مع اسرائيل » « لا امتيازات للأغنياء » « أوقفوا التدجور الأخلاقي » « لا انفصال بين الاسلام والدولة » . ومما لا شك فيه أنهم قد ابتهجوا من ذلك الانتصار الذي حققته القوى الاسلامية في ايران منذ شهر تقريبا .

وكانت ردود الفعل لدى السادات سريعة ازاء سقوط شاه ايران محمد رضا بهلوى الذى كان صديقا شخصيا له . اذ حث القادة الاسلاميين المحليين على تدعيم جماعة الدعوة (الرسمية) مع زيادة عدد الوعاظ الرسميين بالمساجد . كما أن وزارة التعليم العالي قد أصدرت تعليمات للجامعات لكي تجعل التعليم الدينى اجباريا . كما أن المتحدث الرسمى باسم البرلمان وعد باصدار التشريع الجديد القائم على الشريعة الاسلامية والذي ظل مركزا ومعتلا منذ عام ١٩٧٧ وتطبيقه بكل دقة .

وقامت مجلة « الدعوة » التي توزع حوالى ٨٠ ألف نسخة شهريا باعطاء صورة كاملة عن مشاعر الاحتجاج التي عبر عنها طلبة الجامعات والناخبة للاتحادية المصرية الاسرائيلية . وأصدرت مقالها الصحفى تحت عنوان « من المستحيل العيش فى سلام مع اليهود » . وتعرض هذا المقال للتجارب التي خاضها النبى محمد

فى هذا الصدد واستشهد المقال بالقرآن الكريم وبالتارىخ الاسلامى لتوضيح الأمور . وحتى الاخوان المسلمين المعتدلون الذين يقرأون هذه الجريدة قد أصيبوا بالاحباط وخيبة الأمل بسبب فشل الاتفاقية المصرية الاسرائيلية فى حل المشكلة الفلسطينية البالغة الاهمية . وعلى النقيض من ذلك نجد أن الأزهر الشريف أصدر فتوى — تحت ضغط من السادات — فى مايو ١٩٧٩ تقرر هذا الاجراء الذى اتخذه السادات من الناحية الدينية . اذ جاء فى نص الفتوى : « ان علماء الأزهر يعتقدون أن المعاهدة المصرية الاسرائيلية تتوافق مع الشريعة الاسلامية . ففى قد أبرمت من مركز القوة عقب معركة الجهاد وعقب النصر الذى حققته مصر فى ١٠ رمضان ١٣٩٣ هجرية الموافق ٦ اكتوبر ١٩٧٣ ميلادية » وأشارت الفتوى الى معاهدة الحديبية التى وقع عليها النبى محمد مع القرشيين فى مكة فى عام ٦٢٨ مع تجاهل الحقيقة التى مفادها أن تلك المعاهدة كانت بمثابة خطوة نحو سيطرة محمد على مكة .

وبنذ ذلك الوقت فصاعدا بدأ الاخوان المسلمون المعتدلون — وفقا لما جاء فى جريدة « الدعوة » — يعارضون السادات فيما يتعلق بالعديد من المسائل المهمة الأخرى . فتأييدهم السابق لسياسات الباب المفتوح التى أعلنها السادات والتى تهدف الى اغادة وتشجيع مشروعات القطاع الخاص علاوة على جذب الاستثمارات الأجنبية — التى نظر اليها على أنها ترياق شاف من النزعات الناصرية نحو التأميم والقطاع العام القوى — قد تحول الى تدخل من جانب الدولة فى شئون الادارة والاقتصاد واعادة توزيع الثروة . وشجروا تصرفات السادات الراهية الى بيع استقلال مصر لأمريكا مثلما قاموا فى الماضى بالهجوم على عبد الناصر بسبب تعلقه بالسوفيت . وذهب الاخوان المسلمون فى تقديراتهم الى أن « التهديد الشيوعى » المزعوم كان ملفقا بمعرفة الامبريالية الغربية بهدف

الابقاء على ربط دول العالم الثالث بالغرب عقب حصول تلك الدول على استقلالها السياسى . واستمروا فى هجومهم على السياسات الاقتصادية للحكومة التى أدت الى ظهور طبقة نامية من أصحاب الدخول الفاسدين والمضاربين والوسطاء والمستوردين للبضائع من الغرب وتساءلت جريدة الدعوة فى مقالها الافتتاحى فى عدد يوليو ١٩٨١ « ومن الذى يحمى الفساد فى مصر التى هى قلب العالم العربى ومنار الاسلام ؟ ان الثنائة والروائح الكريهة آخذة فى الانتشار . ويخشى من حدوث انفجار » .

وتناول جريدة الدعوة للفساد المستشرى فى المناصب العليا قد جاء فى الوقت المناسب حيث كتب ذلك فى شهر رمضان المقدس . وخلال تلك الفترة شنت اسرائيل سلسلة من الغارات الجوية المكثفة على اهداف فلسطينية تقع فى جنوب لبنان وأواسط بيروت مما أدى الى استشهاد ٣٨٦ من اللبنانيين والفلسطينيين . وهبت جميع الدول العربية — باستثناء مصر — للوقوف الى الجانب الفلسطينى اللبنانى . اذ لم يفعل السادات شيئا باستثناء شجب واستنكار الغارات الاسرائيلية علاوة على السماح لبعض الأطباء المصريين بالسفر جوا الى بيروت للقيام بمعالجة الجرحى . وقد أدى هذا الى تقويض شعبية السادات بدرجة كبيرة . وفى عيد الفطر ( الموافق أول أغسطس ) تجمع ما يزيد على ١٠٠ ألف مسلم للتأدية الصلاة فى ميدان عابدين الذى يقع خارج القصر الجمهورى بالقاهرة — وقد تم تجمع هذا العدد الهائل من خلال تشجيع من الجمعيات الاسلامية — وهتفوا جميعا بشعارات معادية للسادات . اذ أصبح الانتقاد لمعاهدة السلام المصرية الاسرائيلية صريحا . وعلمنا أكثر من ذى قبل .

وفى أواخر أغسطس أشهار مناحم بيجين رئيس الوزراء الاسرائيلى محذرا بأن اسرائيل لن تحترم التزامها الوارد بالاتفاقية

والخاص بجلالها عن شبه جزيرة سيناء فى أبريل ١٩٨٢ اذ استمر الانتقاد للاتفاقية فى مصر فى حرية كاملة وبدون أى ردع . فأتخذ السادات موقفا صارما من المعارضين فى يوم ٣ سبتمبر حيث قام بإيداع ٢٠٠٠ من المنشقين معظمهم من الأصوليين الاسلاميين ( بمن فيهم عمر التلمسانى ) فى السجن علاوة على اغلاق جريدة « الدعوة » . بل قام بتطهير ٢٠٠ من ضباط الجيش ممن تحوم حولهم الشكوك بأنهم موالون للاخوان المسلمين . وكذلك اصدر أوامره بضرورة أن تقوم كافة الجمعيات الدينية المستقلة علاوة على الوعاظ بتسجيل أنفسهم فى وزارة الأوقاف . كما قام أيضا بضم ٤٠ ألفا من المساجد الأهلية الى وزارة الأوقاف . وكان هذا يعنى أن الدولة تتوسع فى سيطرتها لى تشمل كافة جميع الوعاظ والمساجد مع ممارسة السيطرة الكاملة عليهم . لأن قانون عام ١٩١١ الذى أنشأ المجلس الأعلى للأزهر قد حول كافة العلماء الدينين الى موظفين حكوميين . وهذا القانون الجديد قد أعطى الحكومة الحق فى طرد أى عالم بل شطب اسمه من سجلات الأزهر فيصبح غير مؤهل لأن يختار لشغل أى وظيفة سواء كانت دينية أو غير دينية .

وأنشأ السادات مجالس تأديبية جديدة للطلبة وللموظفين المدنيين . وفى سرعة كان يقوم بسحق محاولات الاحتجاج التى تتم من وقت لآخر والتى يفودها أساسا الاسلاميون . وكان يفعل ذلك فى الوقت الذى أصبحت فيه الغالبية العظمى من المسلمين المؤمنين تنظر فى أشـمـعـاز لـحـكـومـته وتكن الكراهية العميقة لشخصه .

وفى يوم ٦ أكتوبر قام أربعة من الجنود المسلحين بالأسلحة الآلية والقنابل اليدوية بالهجوم على منصة العرض أثناء الموكب

العسكري الذى يتم بإحدى ضواحي القاهرة للاحتفال بانتصار مصر فى حرب أكتوبر لعام ١٩٧٣ . وتمكنوا من قتل السادات وسبعة آخرين . وكان هؤلاء الجنود بقيادة الملازم خالد أحمد شوقي الاسلامبولى البالغ من العمر ٢٤ عاما والذى كان أخوه الأكبر محمود من بين الـ ٦٩ عضوا بجماعة التكفير والهجرة الذين ألقى القبض عليهم فى أوائل سبتمبر . وكان الاسلامبولى وزملاؤه الثلاثة ينتمون لمنظمة الجهاد القى يرأسها كل من : الشيخ عمر عبد الرحمن وهو أستاذ جامعى كفيف يعمل فى جامعة أسيوط . . ومحمد عبد السلام فرج وهو منكر إسلامى . . وعبود عبد اللطيف الزمر وهو برتبة مقدم فى المخابرات الحربية .

وقد رأى قادة منظمة الجهاد ان عملية اغتيال السادات هى حافز للعمل على تحويل كراهية المسلمين المصريين لحكم السادات القمعى الفاسد الى ثورة ضد نظام الحكم القائم والعمل على قيام منظمة الجهاد بمحاولة عسكرية تهدف الى تفجير ثورة اسلامية شاملة . وقد عبر المصريون العادبون عن موافقتهم على اغتيال السادات بان اجمعوا عن المشاركة فى الحداد العام على موت الرئيس ولكنهم لم ينعوا شيئا بخلاف ذلك . وقد أدى هذا الموقف الى شعور قادة منظمة الجهاد بالاحباط الشديد . وعلى كل حال فقد حدثت مصادمات مسلحة بين الأعضاء العسكريين لمنظمة الجهاد وقوات الأمن المصرية . وكان معظم هذه المصادمات يتم فى أسيوط . وهناك فى أسيوط قام أعضاء من منظمة الجهاد بالهجوم على محطة الاذاعة المحلية وعلى العديد من أقسام الشرطة وعلى المركز الرئيسى لقوات الأمن . واستمر القتال لمدة يومين وأسفر عن مقتل ١٨٨ شخصا من بينهم ٥٤ من رجال الأمن . وفى ٢٥ أكتوبر اشارت جريدة الأهرام « الى أن الجماعات الاسلامية كانت قد وضعت خطة ارهابية دموية بهدف اقامة حكم فى مصر على غرار

حكومة الخوهميني « وانه كان من المقرر لهذه الخطة أن يتم تنفيذها في يوم ١٣ أكتوبر وهو اليوم الذي كان سيتم فيه انتخابات الرئاسة وحسنى مبارك الذي كان قد حلف اليمين كرئيس للجمهورية عقب موت السادات قد تثبت في منصبه من خلال اقتراع شعبي . وبحلول أواخر أكتوبر كان حسنى مبارك قد أودع في السجن مايزيد على ٣٠٠٠ من المتطرفين الاسلاميين الذين ينتمون أساسا لمنظمة الجهاد ومنظمة التكفير والهجرة .

وأوضح الاسلامبولى أثناء محاكمته الأسباب التى دعت الى اغتيال السادات : ان الرئيس المصرى قد عقد سلاما مع اسرائيل وهو قد اضلهد أبناء الاسلام « حيث قام بالقاء القبض على اعداد كبيرة للغاية منهم فى أوائل سبتمبر . كما أن القوانين السائدة فى مصر والتى لا تتوافق مع الشريعة الاسلامية قد فرضت المعاناة على المسلمين المؤمنين .

وكانت السلطات المصرية قد اكتشفت تواجد تنظيم الجهاد لأول مرة فى عام ١٩٧٨ أثناء أحداث الشغب التى دارت بين المسلمين والأقباط . وكان هذا التنظيم تحت قيادة لجنة تتكون من عشرة أعضاء برئاسة الشيخ عمر عبد الرحمن الذى كانت فتاويه بشأن شرعية الأعمال والسياسات التى يقوم بها تنظيم الجهاد تعتبر غاية فى الأهمية . وفى أواخر عام ١٩٨٠ أصدر الشيخ عمر فتوى تنص على اعتبار أنور السادات كافرا . وهذه الفتوى قد أعطت الشرعية لاغتيال السادات . وفى يناير/فبراير ١٩٨١ اندللق كل من فرج الزمر لىكى ينفذا خطة اغتيال السادات . وكان الزمر هو الذى تكفل بمهمة وضع الذخيرة الحية فى الأسلحة المتواجدة مع الاسلامبولى ورفاقه أما باقى المشاركين فى العرض العسكرى فكانت أسلحتهم خالية من الذخيرة الحية .



وكان فرج هو الفيلسوف الرئيسى للمنظمة وقد ألف كتابين :  
 أحدهما تحت عنوان « الجهاد : الفريضة الغائبة » والكتاب الثانى  
 عنوانه « الالتزام الغائب » . وفى هذين الكتابين أوضح نظريته  
 وخطة العمل الخاصة به . وأفكاره الرئيسية تتلخص فى أن كل  
 مسلم صادق مضطر من خلال إيمانه أن يكافح من أجل أحياء الأمة  
 الإسلامية . وأن الجماعات الإسلامية أو القادة والزعماء الإسلاميين  
 الذين ابتعدوا عن الشريعة الإسلامية قد أصبحوا مرتدّين عن الدين  
 الإسلامى . ولذلك فإن المسلم الحقيقى الصادق يكون آتيا إذا  
 تعاون مع أى حاكم كافر . وأولئك الذين يرغبون فى القضاء على  
 نظام الجاهلية وأحياء الأمة الإسلامية سيضطرون الى اعلان  
 الجهاد ضد الدولة الكافرة . والشكل الوحيد المقبول للجهاد هو  
 الكفاح المسلح وأى شىء أقل من ذلك ينطوى على الجبن والخوف  
 أو الحق والتفاهة . فالمسلم الصادق ينبغى عليه أن يواجه أولا  
 الكفر الداخلى ( بمعنى الدولة المصيرية ) وبعدئذ يواجه الكفر  
 الخارجى ( بمعنى العالم غير الإسلامى بوجه عام ) . فالابتعاد عن  
 تطبيق الجهاد قد أدى الى تلك الحالة المؤسفة المتردية التى يعيشها  
 حاليا العالم الإسلامى : من حيث الانقسام والانحطاط والازدراء .  
 الا أن هذه الحالة المتردية من المقرر لها أن تنتهى على النحو الذى  
 قدره الله لتاريخ الإسلام : عهد النبى الذى جاء بعده عهد الخلفاء  
 والموت والديكتاتوريين ، وأخيرا يتم الاطاحة بالديكتاتوريين لكى  
 يحل محلهم نظام مماثل لذلك النظام الذى كان سائدا فى أيام محمد  
 عليه الصلاة والسلام . وقيادة الأمة الإسلامية ينبغى أن تعطى  
 لأتوى المؤمنين الراسخين فى الايمان والذين يخشون الله فى نفس  
 الوقت . وينبغى أن يتم اختياره اختيارا جماعيا وبعدئذ يجب أن  
 يطاع .

وكان هناك اثنان من المفاهيم الذهنية الجديدة وردا فى  
 المؤلفات التى كتبها فرج : الجهاد من حيث هو الفريضة السادسة

التي ينبغي أن يلتزم بها الانسان المسلم ثم الجهاد من حيث هو حركة مستمرة تهدف الى تحويل العالم غير المسلم للدخول ضمن الأمة الاسلامية . وهذا كالم مماثل للنكرة التي قالها ليون تروتسكي عن الثورة الماركسية الدائمة . وهذه المفاهيم الذمنية قد جعلت من فرج أكثر المفكرين الأصوليين راديكالية .

وقد كانت فترة حكم السادات التي دامت ١١ عاما هي أهم فترة في تاريخ الأصولية الاسلامية في مصر . اذ لم تعد حركة تلقى الانسطهاد الشديد مثلما كانت عليه أثناء الحكم الناصري . ففي حين رفض السادات التصريح لجماعة الاخوان المسلمين بالعمل كحزب سياسي فإنه أتاح لهم المناخ الذي سمح للجناح المعتدل لديهم بالعمل في حرية نسبية بحيث يقوم بدور حليف مناوئ للحكومة أو بدور المعارضة المخلصة للحكومة . ومن جهة أخرى كان الاتجاه الرئيسي لسياسات السادات الدبلوماسية والاقتصادية والسياسية عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ يتناقض تماما مع أيديولوجية وسياسات الأصوليين مما جعل الأصوليين المعتدلين المتعاونين مع الحكومة يفسدون الكثير من نفوذهم وهيبتهم أمام منافسيهم الراديكاليين .

وما تغلب مبارك على التحدي المباشر لحكومته حتى قام باطلاق سراح المنشقين العلمانيين الذين سجنوا ببعرمة السادات وعقد حوارات مكثية ومناقشات كثيرة معهم . وعلى نحو متناقض قام أيضا بتشديد القمع على المناضلين الحرييين منهم . وقد ساعده في ذلك تماما وزير الداخلية : حسن أبو باشا . وتفاخى حسني مبارك عن النداءات الموجهة اليه لكيلا يقوم بتنفيذ حكم الاعدام في الاسلامولي ورفاقه وأصر على اعدامهم بالفعل . وقد استاء الكثيرون في العالم الاسلامي من اعدامهم ودعت بعض الجماعات

الأصولية الراديكالية الى الاطاحة بحكومة حسنى مبارك . بل حاول الأصوليون الاسلاميون اغتياله بالفعل فى ٢٥ أبريل ١٩٨٢ الا أن المحاولة فشلت . وقد أدى ذلك الى القاء القبض على ١٤٠ من المقاتلين الاسلاميين الذين اتهموا بالتآمر من أجل تطبيق حكم اسلامى . وزادت الحكومة من تغلغلها واختراقها للجماعات الأصولية .

وكان أسلوب حسنى مبارك فى القيادة باهتا وخاليا من الحيوية اذا ما قورن بأسلوب السادات المتوهج المشتعل الذى يشبه الأسلوب المسرحى . ومن ناحية أخرى نجد أن حسنى مبارك لم يحدث سوى تغييرات تجميلية وزخرفية على سياسة الباب المفتوح الاقتصادية التى رسمها أنور السادات . كما سار حسنى مبارك على نفس سياسة السادات الخاصة بالانحياز مع الغرب والالتزام بعملية السلام وفق اتفاقية كامب دافيد : وهى كلها سياسات تؤدى الى ظهور المزيد من المقاتلين الاسلاميين .

واستخدم حسنى مبارك علماء الأزهر ليس فقط من أجل اخفاء طابع الشرعية على حكومته ولكن أيضا من أجل اعادة تعليم السجناء الاسلاميين . وحاول هؤلاء العلماء اقناع المتطرفين بأن تفسيرهم للإسلام كان تنسييرا خاطئا . وكان قبولهم بوجهة النظر هذه بالاضافة الى اعلان التوبة والندم على أعمالهم الماضية بكفى من وجهة نظر الحكومة لاطلاق سراح المقاتلين السجناء . وقد فعل الكثيرون منهم ذلك وبالتالي أطلق سراحهم .

ولكى يوسع مبارك من قاعدته الشعبية فانه أعطى المعارضة العلمانية درجة من الحرية . اذ سمح لحزب الوفد الجديد المحافظ بالمشاركة فى انتخابات مايو ١٩٨٤ البرلمانية . وهو اجراء يعتبر

الأول من نوعه لأن السادات سبق أن رغب منحهم هذا الحق ،  
ونظرا لأن حزب الوفد الجديد يؤيد مشروعات القطاع الخاص فان  
الحزب الوطنى الديمقراطى برئاسة مبارك قد قدم نفسه على أساس  
أنه المدافع عن « المكاسب الاشتراكية التى حققها العمال  
والفلاحون » . ومثلما كان يتم دائما من قبل فان نتائج الانتخابات  
تعرضت للتزييف . ولكن على الرغم من التزييف نجد أن حزب الوفد  
قد كسب ١٥ ٪ من الأصوات وحصل على ٥٨ مقعدا فى البرلمان  
الذى يضم ٥٦٠ مقعدا ( المقاعد المنتخبة عددها ٤٥٠ مقعدا ) وبذلك  
حل الوفد محل حزب الأحرار الاشتراكيين من حيث هو حزب  
المعارضة الكبير . ونظرا لأن قانون الانتخابات الصادر فى يونيو  
١٩٨٣ قد نص — تماما مثل قانون الانتخابات السابق عليه — على  
عدم السماح بتشكيل أحزاب تركز على الدين أو الاتحاد  
( الماركسية ) فان جماعة الإخوان المسلمين قد منعت من الاشتراك  
فى الانتخابات ، فاضطر الإخوان المسلمون الى التحالف مع حزب  
الوفد الجديد على أساس أن كلا منهما كان يعارض ثورة يوليو  
الناصرية لعام ١٩٥٢ . وأدى حزب الوفد خدمة للإخوان المسلمين  
من خلال المطالبة بأن الشريعة الإسلامية ينبغى أن تصبح هى المصدر  
الرئيسى للتشريع . الا أن حزب الوفد قد أخذ ١٨ مرشحا فقط  
من ٧٠ مرشحا عرضت قيادة الإخوان المسلمين أسماءهم . وقد  
نجح ثمانية مرشحين فى الانتخابات من بين الـ ١٨ مرشحا .  
وهكذا نرى أن قوة الأصوليين المستقلين بالبرلمان كانت تقريبا على  
الدرجة التى عليها فى أيام السادات . وقد قاطع المسلمون  
الراديكاليون الانتخابات مثلما كانوا يفعلون ذلك فى الماضى .

ومع ذلك كان هناك تباين . إذ كان الاحتجاج على التلاعب  
فى الانتخابات شديدا للناتية لدرجة أن حسن أبو باشا وزير  
الداخلية والمسئول عن الانتخابات قد نقل الى وزارة أخرى . أيضا

كانت العواطف الاسلامية جياشة للغاية لدرجة أن المعارضة فى البرلمان والعناصر الاسلامية فى خارج البرلمان قد اتحدوا معا من أجل المطالبة بالتنفيذ الفورى والكامل للشريعة الاسلامية . ووصلت هذه الحركة الى ذروتها فى ربيع عام ١٩٨٥ . فوضعت الحكومة نفسها فى موقف الدفاع . ومن الناحية العلنية أشارت الحكومة الى أن القانون المصرى يركز على الاسلام بنسبة ٩٠٪ وأن الشريعة الاسلامية هى الأساس فى الدستور المصرى . الا أنها فى السر كانت غير راغبة فى تطبيق الشريعة الاسلامية بالكامل . اذ شعرت أن مثل هذا الاجراء الذى اتخذته الحكومات فى السودان وايران قد أحدث تطورات غير صحية فى هاتين الدولتين . وثانياً فقد كانت الحكومة غير راغبة فى ابعاد وتنفير الأقلية القبطية من السكان فى مصر . وأخيراً وهذا هو الأهم من كل شئ فان الحكومة المصرية كانت تخشى من احجام المستثمرين الغربيين وواهبى المساعدات المالية عن الدخول فى الأعمال المالية والتجارية مع مصر فى حالة اتباع مصر لخطوط اسلامية . وعندما مارست المعارضة المزيد من الضغوط فان الحكومة وعدت « بتطهير » القانون المصرى من البنود غير الاسلامية الواردة به .

فاتهم الأصوليون الحكومة المصرية بأنها تتلصق وتعمل على كسب الوقت . وفى يونيو ١٩٨٥ قام الشيخ حافظ سلامة Hafiz Salaama وهو زعيم اسلامى بارز بالدعوة الى تسيير مسيرة لصالح الشريعة الاسلامية تبدأ فى الزحف من مسجده بالقاهرة . فسارع مبارك الى تطويق المسجد بفرقة كبيرة من شرطة الأمن المركزى . وبعدئذ سارعت الحكومة الى إلغاء الشعارات الدينية التى تلصق على زجاج السيارات والمركبات والتى كانت قد تزايدت طوال السنة السابقة والتى كانت تؤخذ على أنها — بالإضافة الى

منظر السيدات المحجبات بالشوارع - دليل مرئى ودراماتيكى على بزوغ وتعالم الاصولية الاسلامية .

وفى الجامعات نجد أن جهود حسنى مبارك الرامية الى احتواء شوى الاصوليين من خلال تقليص الحقوق التنظيمية للطلاب وزرع الشرطة السرية قد فشلت تماما . وفى أوائل ١٩٨٦ أصبح الأصوليون الاسلاميون مسيطرين على جميع اتحادات الطلاب بل كانوا يرغمون السلطات بالجامعات على أن تكون المناهج والكتب المقررة متوافقة مع المفاهيم الذهنية الاسلامية علاوة على أرغام السلطات الجامعية على تطبيق أسلوب الفصل بين الذكور والاناث وعزلهم عن بعضهم البعض .

وفى كل مكان ومن خلال التحالف مع حزب الوفد الجديد نجد أن الاخوان المسلمين قد نجحوا فى السيطرة على نقابات الصحفيين والحامين والاطباء والمهندسين . كما أن الصحفيين الاسلاميين قد سيطروا على اثنين من الصحف الأربع المعارضة التى كانت تنشر معلومات تمجد الحياة فى جمهورية ايران الاسلامية . كما أن العديد من شركات البناء وشركات البضائع الاستهلاكية المملوكة لسبعة شسركاء مهيمنة اسلامية كبرى لها أصول يبلغ حجمها بلايين الدولارات الأمريكية ممولة بمعرفة مليون شخص مصرى يعملون بالخليج قد أصبحت مشهورة بأنها تضم مستثمرين أصوليين . وكانت هذه الشركات تدفع حصة من الأرباح تتوافق مع المفاهيم الاسلامية ولا تدفع نسبة أرباح محددة وثابتة . وقد قيل عن هذه الشركات انها هى التى تمول المنظمات الاسلامية . ومما لا شك فيه أن ظهور قاعدة اقتصادية مستقلة تساعد الجماعات الاسلامية كان بمثابة تطور بالغ الأهمية فى تاريخ الأصولية فى مصر .

وفى أواخر فبراير ١٩٨٦ قام ١٧ ألفا من أفراد شرطة الأمن المركزى بالثورة فى خمس محافظات بما فى ذلك محافظة القاهرة . وقد اهتزت الحكومة تماما بسبب قيام احدى هيئات أمن الدولة معها بذلك التمرد الشديد الذى تم على نطاق واسع . ولم يتمكن الجيش من سحق هذا التمرد الا بعد انقضاء خمسة أيام من القتال . مما أدى الى قتل ١١٥ شخصا من بينهم ٨٩ من رجال الشرطة ، وقد قام رجال الشرطة المتمردون بنفس الأعمال التى سبق أن قام بها أعضاء التكفير والهجرة خلال تمرد يناير لعام ١٩٧٧ حيث قاموا بتدمير وتحطيم البارات والملاهى الليلية والفنادق الفاخرة والعمارات الضخمة — التى ترمز الى الفساد والترف — مما أدى الى خسائر مالية فى حدود ٥٠٠ مليون دولار . ومما أزعج السلطات الحكومية أن نصف عدد رجال الشرطة المتمردين قد لاذوا بالفرار وأخذوا معهم أسلحتهم .

وبدا للحكومة أن الحماسة الاسلامية آخذة فى الانتشار بين أفراد الجيش وضباطه . حيث لا يذهب بعضهم أثناء أوقات الفراغ لمشاهدة الأفلام السينمائية أو الانخراط فى الألعاب الرياضية وإنما يمحكون على الصلاة أو مناقشة المسائل الاسلامية المهمة .

وقد كشفت دراسة أجريت على ٣٠٣ من أعضاء منظمة الجهاد الذين سجنوا قبل اغتيال السادات عن أن ٤٪ منهم من ضباط الجيش أو الشرطة أو المخابرات . ولم يكن هذا الأمر مثيرا للدهشة . حيث من السهل أن يقوم أعضاء المجموعات الأصولية بتجنيد بعض أقاربهم العاملين فى أجهزة الأمن أو المخابرات وضمهم الى المنظمات الخاصة بهم نظرا لأن نظام الأسرة أو العائلة الموسعة مازال منتشرا فى جميع أرجاء مصر . وفى ديسمبر ١٩٨٦ اتضح أن تنظيم الجهاد مازال مستمرا فى نشاطه فى داخل المؤسسة

العسكرية فى مصر وذلك عندما ألقى القبض على ٣٠ من أعضاء الجياد من بينهم اثنان برتبة رائد وواحد برتبة كابتن وآخر برتبة ملازم حيث كانوا ينشئون مراكز للتدريب العسكرى بهدف الاطاحة بالحكومة .

وقد تفجرت ثورات شرطة الأمن فى فترة كانت مصر تعاني فيها من أزمة اقتصادية حادة . اذ كانت جميع المصادر الرئيسية للدخل مثل البترول والسياحة فى حالة من التدهور الشديد . حيث كان أسعار البترول قد انخفضت بنسبة ٦٠٪ . هذا بالإضافة الى أن الثلاثة الملايين من المصريين العاملين فى دول الخليج والعراق والذين سبق لهم الاسهام بـ ٤ بلايين دولار سنويا كإيراد لمصر قد بدأوا يرجعون الى مصر بأعداد كبيرة . بل كانت ديون مصر تقترب من ٣٢ بليون دولار .

كل هذا قد جعل أعدادا متزايدة من المواطنين العاديين الذين يعانون فى حياتهم اليومية من التضخم المالى والظروف المعيشية المتدهورة يميلون الى اعتناق آراء الأصوليين التى يمكن تلخيصها على النحو التالى : مادام الأسلوب الرأسمالى الذى انتهجه السادات قد فشل مثلما فشل من قبل أسلوب عبد الناصر الاشتراكى فقد حان الوقت للملائم لكى نجرب النموذج الاسلامى . ويذهب الاسلاميون الى أنه عندما تنهى مصر اعتمادها على الغرب غير المسلم وتطبق نظاما اقتصاديا يرتكز على المبادئ الاسلامية فانها سوف تتمكن من حل أسوأ المشاكل الاجتماعية الاقتصادية بما فى ذلك الفساد .

ونظرا لأن الأصوليين متواجدون خارج نطاق السلطة الحاكمة فانه أصبح بمقدورهم تقديم الوردية المشرقة المبالغ فيها



مع رسم صورة وردية للنموذج الاسلامى الذى يعرضونه . أما الرئيس مبارك فكان فى وضع على النقيض من ذلك تماما . فهو الرئيس المسئول عن اقتصاد آخذ فى التدهور الشديد بالاضافة الى انه قد فشل فى تقديم أيديولوجية اجتماعية اقتصادية خاصة به . كما أن عدم اتسامه بالتوجهات القوية قد خلق فراغا فى القيادة عند القمة . فقد كان فى حالة من التشوش والارتباك وعدم معرفة الأمور التى ينبغى أن يفعلها . فهو اذا قام باستخدام العنف لقمع الأصوليين ( مثلما فعل السادات فى أواخر فترة حكمه ) فانه سيتهم بأنه يضطهد أبناء الاسلام ويصبح شخصية كريهة مثلما حدث مع السادات . ومن ناحية أخرى فانه اذا أعطى الحرية للأصوليين فانهم سيحرزون المزيد من الانتصارات ويشكلون تهديدا حقيقيا على حكومته .

وقد أظهرت الانتخابات البرلمانية التى تمت فى أبريل ١٩٨٧ مدى تزايد قوة الأصوليين . ففى هذه المرة تحالف الاخوان المسلمون مع حزب الأحرار وحزب العمل الاشتراكى ، واتخذ التحالف شعارا بسيطا : « الاسلام هو الحل » . ومثلما حدث من قبل تم تزوير الانتخابات كما تم القاء القبض على ٧٥٠ من مؤيدي المعارضة معظمهم من الأصوليين . وتم حشو صناديق الانتخابات بأصوات للموتى والغائبين لصالح الحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم كما تم اغلاق لجان الانتخابات فى العديد من القرى لساعات عديدة قبل حلول الموعد المحدد بهدف منح الناخبين من ممارسة حقهم الانتخابى . ومع كل ذلك فان التحالف تحت قيادة الاخوان المسلمين قد حصل على ١٧ ٪ من أصوات الناخبين وعلى ٦٠ مقعدا فى البرلمان بحيث حل هذا التحالف محل حزب الوفد كحزب رئيسى للمعارضة .

ودع وصول ٣٦ عضوا من الاخوان المسلمين الى البرلمان الجديد بدأت جماعة الاخوان المسلمين فى التخطيط للسيطرة على النشاط

البرلمانى للتحالف وتكرار نفس مطالبها بالتطبيق الفورى للشريعة الاسلامية وتنشيط وتدعيم شركات الاستثمار الاسلامية على حساب البنوك التقليدية ( وهى البنوك التى ينظرون اليها على أنها تنتهك الأوامر القرآنية ) وانهاء روابط مصر الاقتصادية والاستراتيجية مع الولايات المتحدة الأمريكية واجهاض عملية السلام القائمة على اتفاقية كامب دافيد .

ونظرا لأنه لا يوجد أمام حكومة مبارك فرصة لتطبيق أى سياسة من هذه السياسات تطبيقا كاملا فقد أصبح من المتوقع تزايد حدة الخلافات بين الحكومة والأصوليين مع خلق مناخ يؤدى الى تزايد الجماعات السرية الراديكالية التى وصل أعضاؤها الى عدد يتراوح ما بين ٧٠ ألفا و ١٠٠ ألف عضو فى منتصف عام ١٩٨٧ وفقا لما يقوله المتخصصون المصريون والأجانب .

وبزوغ جماعة الاخوان المسلمين من حيث هم يشككون المعارضة الرئيسية فى مصر قد نبه الناس لتواجد الأصوليين فى جميع أرجاء الوطن العربى وايران . وعلى كل حال يمكن القول بأن جماعة الاخوان المسلمين هى أقدم تنظيم اسلامى شعبى له اتصالات رسمية وغير رسمية مع المنظمات المماثلة بالشرق الاوسط وشمال أفريقيا .

وحقيقة الأمر أنه قبل حل جماعة الاخوان المسلمين فى عام ١٩٥٤ نجد أنها كانت تحتفظ باتصالات دولية نشطة من خلال اقامة علاقات مع الجماعات الاسلامية المماثلة المتواجدة فى خارج مصر . وأناء الزيارات التى قام بها حسن البنا للأردن وفلسطين فى الفترة من عام ١٩٤٢ حتى ١٩٤٥ تمكن من فتح فروع لجماعة الاخوان المسلمين فى العديد من المدن . وعندما فرض الحظر على جماعة

الاخوان المسلمين لأول مرة فى مصر فى عام ١٩٤٨ ذهب المئات من أعضائها النشطاء للعيش فى المنفى فى دول عربية أخرى . وحدث نفس الشيء أيضا فى عام ١٩٥٤ . وبالتالي يمكن القول بأن الاخوان المسلمين يتواجدون فى كافة الدول العربية سواء كان ذلك التواجد سرىا أو علنيا . وهم أحيانا يعملون تحت نفس الاسم الصحيح الخاص بهم وأحيانا أخرى يعملون تحت أسماء مختلفة . ففى الجزائر نجد أن الاخوان المسلمين يعرفون باسم : « أهل الدعوة » وفى تونس يعرفون باسم : « حزب الاسلام » وفى الأردن المحظور انشاء أحزاب سياسة بها فان جماعة الاخوان المسلمين مسجلة على أنها مؤسسة خيرية . وفى المملكة العربية السعودية التى يقوم حكامها بالتمويل المالى الرئيسى لجماعة الاخوان المسلمين نجد أنه يوجد بها فرع للاخوان تحت رئاسة الشيخ محمد الخطار وهو من كبار المفكرين الاسلاميين . وفى دول الخليج الأخرى التى لا تسمح أيضا باقامة أحزاب سياسية فانه يوجد بها جماعة للاخوان المسلمين تحت اسم : « جمعية الإصلاح الاجتماعى » . أما فى سوريا فان الاخوان المسلمين يشكلون أقوى وأعنف معارضة سرية للحكومة فى تاريخ الشرق الأوسط المعاصر .

## الاخوان المسلمون فى سوريا

لقد نشأت جماعة الاخوان المسلمين فى سوريا فى منتصف الثلاثينات من القرن العشرين وذلك عندما عاد طلبة سوريون كانوا يدرسون الشريعة الاسلامية فى مصر الى وطنهم وبدأوا يكونون فروعاً فى مدن عديدة تحت اسم « شباب محمد » . وأهم هذه الفروع هو الفرع الذى أنشئ فى عام ١٩٣٥ فى مدينة حلب التى

تقع في شمال سوريا . وأصبح هذا الفرع هو المركز الرئيسي للمنظمة . وكانت منظمة « شباب محمد » تكرس كل جهودها من أجل إنهاء الانتداب الفرنسي ( الذي فرض على سوريا في عام ١٩٢٠ ) ومن أجل تحقيق اصلاح اجتماعي وسياسي يتوافق مع الخطوط والمبادئ الاسلامية . وفي عام ١٩٤٤ تم نقل مركز القيادة الى دمشق وتم انتخاب مصطفى السباعي Mustafa al Sibai ليكون هو المرشد العام . وقد ولد السباعي في عائلة متدينة كانت تزود المسجد الكبير في حمص بالوعاظ وقد تخرج السباعي في جامعة الأزهر الشريف وكان صديقا حميما لحسن البنا . وكان يدبر جمعية الاخوان المسلمين السورية ونقا للأسلوب الذي يتبعه حسن البنا . وبمجرد أن رحل الفرنسيون في عام ١٩٤٦ بدأت الجمعية في التركيز على المسائل الاجتماعية الاقتصادية مع تشديد معارضتها للعلمانية والماركسية . وجذبت معظم مؤيديها من صفار التجار الحضريين والحرفيين الذين يشكلون مع عائلاتهم ١/٢ مجموع السكان في سوريا . ولكن كان ينقصها مساندة الطبقة المتوسطة الريفية ( وذلك بعكس ما كان عليه الحال بالنسبة لجماعة الاخوان المسلمين في مصر ) . وكان زرع اسرائيل في العالم العربي وهزيمة الجيوش العربية في حرب ١٩٤٨ له أثر كبير في تأييد جماعة الاخوان المسلمين في حماسة شديدة مع اعطاء الطابع السياسي لها .

كما احرز الاخوان المسلمون بسوريا تقدما كبيرا في اعقاب الحظر الذي فرض على جماعة الاخوان المسلمين المصريين في عام ١٩٥٤ بعد أن لجأ العديد من المصريين النشطاء الى سوريا . اذ نجد أن برنامج المنظمة السورية قد دعا بكل وضوح الى « انشاء حكومة فاضلة تقوم بتنفيذ احكام وتعاليم الدين الاسلامي » . ولكن عندما انضمت سوريا الى مصر في اوائل عام ١٩٥٨ وشكلتا

الجمهورية العربية المتحدة ثم امتد الحظر على الاحزاب السياسية المطبق في مصر الى سوريا قام السباعي بحل جماعة الاخوان المسلمين بسوريا رسميا . الا أن الجماعة استمرت في العمل في الخفاء . وتزايد السخط في سوريا ازاء تولي عبد الناصر رئاسة الجمهورية العربية المتحدة . فأدى ذلك الى توسيع قاعدة الاخوان المسلمين . والدليل على ذلك هو نتيجة الانتخابات التي أجريت في ديسمبر ١٩٦١ عقب مرور شهر قليلة على انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة . اذ حصل الاخوان المسلمون السوريون على عشرة مقاعد أى حوالى نصف عدد المقاعد التي حصل عليها الحزب القديم الراسخ الذي يسمى « الكتلة الوطنية National Bloc » أو الجبهة الوطنية .

ولكن صدر قرار بحل البرلمان وفرض الحظر على نشاط جماعة الاخوان المسلمين وغيرها من الاحزاب الأخرى في مارس ١٩٦٣ في أعقاب انقلاب عسكري قام به حزب البعث العربي الاشتراكي . وكان حزب البعث قد تأسس في عام ١٩٤٣ بمعرفة ميشيل عفلق وهو مسيحي وصالح البيطار وهو مسلم سني مع رفع الشعار الرئيسي : « الوحدة والحرية والاشتراكية » . وكان ميشيل عفلق هو فيلسوف الحزب وقال في وصفه للاسلام انه حضارة وأعطى تعريفا للاسلام فقال عنه انه تجسيد للنظرية العربية Arabism . واذ ما تم التركيز على النواحي الثقافية والحضارية في الاسلام ( وليس النواحي الدينية والتشريعية والقانونية ) فإنه يمكن للكيان العربي والكيان الاسلامي أن يندمجا تدريجا . وهذا المفهوم الذهني قد لقي ترحيبا من المثقفين ومن الممسكين بزمام السلطة في هذه المجتمعات المتباينة المختلفة الذرية مثل سوريا والعراق . لأنه يقدم جسرا يربط بين الأكراد والعرب وبين أهل السنة والشيعة وبين الاسماعيليين والدروز وبين العلويين

والمسيحيين ولقد حصل حزب البعث السورى على ترحيب من جانب الطبقات الفقيرة غير المتمتعة بامتيازات ومن جانب الاقليات الدينية أو الطائفية . وكان العلويون من بين هذه الاقليات الدينية وكانوا يعملون فى الزراعة ويقيمون أساسا فى المنطقة الجبلية المحيطة بهيئة أنطاكية Antakia المدل على البحر الأبيض المتوسط وكانوا أفضل المجندين العسكريين لدى الفرنسيين أثناء فترة حكمهم فى سوريا من عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٤٦ . وكان العلويون يشكلون ١٢ ٪ فقط من مجموع السكان والدروز يشكلون ٣ ٪ والمسيحيون ١٤ ٪ .

أما السنيون الذين يشكلون ٦٩ ٪ من مجموع السكان فكانوا يحتكرون التجارة والصناعة والمهن والوظائف . وهكذا نرى أن التقسيم الطائفي قد دعمته الفوارق الاجتماعية الاقتصادية .

ورغم أن اللون السياسى لحكوماتهم قد اختلف اختلافا شاسعا فان السيطرة البعثية الرسمية على السلطة فى سوريا قد ظلت مستمرة بدون انقطاع منذ مارس ١٩٦٣ حتى الآن . ويمكن تقسيم الحكم البعثى الى ثلاث مراحل :

١ — من عام ١٩٦٣ حتى عام ١٩٦٨ .

٢ — من عام ١٩٦٨ الى عام ١٩٧٠ .

٣ — من عام ١٩٧١ فصاعدا .

وأثناء المرحلة الأولى من الحكم كان يشارك فى السلطة ضباط من الطائفة العلوية أو الدرزية أو السنية ممن لهم خلفية قروية أو خلفية المدن الصغيرة . وقاموا بتنفيذ مشروعات الإصلاح الزراعى وتأميم الصناعة والتجارة الخارجية ( تجارة الجملة ) وعلاوة على ذلك تم تغلغل سريع فى الدوائر المدنية بمعونة رجال لهم خلفية

ريفيّة ومتحالفين مع ضباط عسكريين . فأدت هذه التطورات الى تقويض المصالح الاقتصادية والسياسية لرجال الصناعة والرأسماليين وتجار الجملة علاوة على تقويض مصالح صغار التجار والحرفيين والمهنيين الذين كان معظمهم من السنين الذين يؤيدون جماعة الاخوان المسلمين التي صدر قرار بحلها وفرض الحظر على نشاطها . وكان رجال الدين السوريون يحصلون على مرتبات ضئيلة للغاية من الحكومة مما كان يضطرهم الى اللجوء الى ممارسة التجارة أو شغل وظيفة حتى يتمكنوا من مواجهة نفقات الحياة اليومية . ونظرا لأن معظمهم كانوا من صغار التجار أو الحرفيين فانهم قد عانوا كثيرا من الناحية المالية وذلك بسبب السياسات الاشتراكية التي يطبقها البعثيون .

ونظرا للاستياء الذي انتشر بين جماهير الناس الحضريين والذي نجم عن الانهيار الاقتصادي في أوائل عام ١٩٦٤ فقد تشجع الاخوان المسلمون وزادوا من أنشطتهم . وفي أبريل عقب تمرد مناهض للحكومة في حماة وهي معقل السنية المتشددة قام مؤذن جامع السلطان الشهير باصدار صحيفة الجهاد : « اما الاسلام واما البعث » . فأدى هذا الى مجيء قوات الأمن الى منطقة المسجد وعندما ردت قوات الأمن على الذبران الموجهة اليهم من المسجد بفتح نيرانهم فان ذلك تسبب في تدمير إحدى مآذن المسجد . فاندلعت الاضطرابات في امدن الكبرى ولكن بعد أن قامت الحكومة بتشكيل مليشيات من العمال تتالف من المناصرين للبروليتاريين وبعد أن لجأت الى توفير قدر من العدالة للاخوان المسلمين بدأ الاحتجاج غير المنسق في اللاش .

والجولة الثانية بين الاخوان المسلمين والبعثيين حدثت في أوائل مايو ١٩٦٧ عقب هجوم مرير على الحكومة شنه الشيخ محمد .

حسن الحبكة Habanka كبير علماء دمشق وذلك بسبب صدور مقال في جريدة « جيش الشعب » وهى الجريدة الرسمية الناطقة باسم الجيش . وكان عنوان هذا المقال : « وسائل خلق الرجل العربى الجديد » ثم وردت بالمقال عبارة مسيئة للغاية : « الله والدين والاقطاع والراسمالية والاستعمار وكافة المدلولات الكلامية التى سادت فى عهد المجتمع القديم لم تعد سوى مومياءات متواجدة فى متحف التاريخ أما الايمان المطلق بمقدرة الانسان فينبغى أن يكون هو المدلول الجديد الوحيد الذى له قيمة حقيقية » .

وتفجرت المظاهرات ضد الحكومة وصاحبها اضراب من جانب التجار فى مدينة دمشق . ومرة أخرى لجأت الحكومة الى اعادة تسليح مليشيات البروليتاريا من العمال التى لعبت دوراً حاسماً فى انتهاء اضراب التجار بالعاصمة . وقامت المليشيات بالقاء القبض على الزعماء المحتجين علاوة على القبض على الكاتب الذى كتب ذلك المقال المسمى لمشاعر الناس . وبعد محاكمة صورية صدر الحكم عليه بالسجن مدى الحياة . ولكى تظهر الحكومة طابعا اسلاميا فانها وضعت خطة طموحا لانشاء عدد كبير من المساجد . وفى خلال الثلاث السنوات التالية أنشأت عددا من المساجد يفوق عدد المساجد السابق تشييدها فى فترة الثلاثين عاما الماضية .

والذى مكن البعثيين الراديكاليين من الصمود امام التهديدات التى يشعلها الاخوان المسلمون مع الاحتفاظ بالسلطة منذ فبراير ١٩٦٦ هو ذلك التأييد والمساندة الفعالة من جانب المليشيات القروية التى تضم سنينين وغير سنينين والتى تتواجد فى الريف وكذلك المليشيات العمالية المسلحة المتواجدة بالمدن والأهم من ذلك كله هو الولاء المستمر من جانب الجيش . فبعد انقلاب عام ١٩٦٣ كان يتم باستمرار تطهير فيلق الضباط من الضباط السنينين الحضرين



وتعيين ضباط من العلويين والدروز ممن لهم خلفية ريفية وممن كانوا يشعرون بالعداء ازاء مصالح البرجوازية الحضرية ( السنية ) سواء كانت برجوازية صغيرة أو متوسطة أو كبيرة . وبحلول عام ١٩٦٨ أصبح الضباط العلويون هم القوة الرئيسية في القوات المسلحة .

وقد أدت هزيمة العرب في يونيو ١٩٦٧ الى تقسيم الاخوان المسلمين الى فئتين : فئة معتدلة متمركزة في دمشق تحت قيادة عصام العطار الذي كان يعمل من منفاه في المانيا الغربية . وفئة راديكالية متمركزة في المدن الشمالية : حمص وحماة وحلب . وكانت تحت قيادة مروان حديد الذي اتخذ أسلوب الجهاد ضد الحكم البعثي . وسافر حديد ومعه مقاتلون شبان الى الأردن حيث تلقوا هناك تدريبات على الأعمال الفدائية تحت اشراف منظمة التحرير الفلسطينية في احد المعسكرات الفلسطينية . وكان هذا التدريب هو بداية اضماء الطابع العسكري على جماعة الاخوان المسلمين ، وهو طابع تزايد وتعظم في السبعينات .

وشهدت المرحلة الثانية من الحكم البعثي ( ١٩٦٨ — ١٩٧٠ ) خلافات بين اثنين من كبار الجنرالات العلويين هما : صالح جديد وحافظ الأسد . وهى خلافات وصلت الى مرحلة خطيرة . اذ اقترح جديد الذي يقود الجناح الراديكالى السياسى للحزب شن حرب شعبية ضد اسرائيل . وكان يعارض حافظ الأسد البراجماتيقي الذى يشغل منصب وزير الدفاع والذى يرأس الجناح العسكرى المعتدل في حزب البعث . وفي أثناء هذا الصراع وقف العطار زعيم الاخوان المسلمين في صف حافظ الأسد وسانده .

وترجع حافظ الأسد على قمة السلطة في سوريا في نوفمبر ١٩٧٠ من خلال انقلاب عسكرى غير دموى ودخل في المرحلة الثالثة من الحكم البعثي . وحاول الأسد ترضية تلك القطاعات من

المجتمع الحضري التي كانت قد استبعدت من خلال السياسات الراديكالية العلمانية طوال السنوات السبع الماضية . وكانت الحكومة البحثية قد ساندت ودعمت القوات المسلحة والثلاثين والعمال الصناعيين والأقليات الطائفية والدينية ، ولكنها لم تساند العلماء الدينيين الذين يحرصون على رواتب منخفضة للغاية ولم تساند صغار التجار والحرفيين فقام حافظ الأسد بتخفيف القيود على استيراد السلع الاستهلاكية وشجع مشروعات القطاع الخاص الصغيرة والمتوسطة مما أدى إلى ترضية التجار وصغار الصناع الذين يشكلون العمود الفقري بالنسبة لجماعة الإخوان المسلمين .

ولكن نظرا لأن حافظ الأسد من العلويين فإنه كان يتعرض للنجوم عليه على أسس دينية . إذ كان الاسلاميون يذهبون في تحليلاتهم إلى أنه مادام العلويون ليسوا مسلمين وليسوا من أهل الكتاب ( يهودا أو مسيحيين ) فإنهم يعتبرون من الكفار والوثنيين الذين عذبوا « عليا » . وحاول حافظ الأسد اتخاذ صورة الرجل المؤمن المسلم من خلال المشاركة في الصلاة والاحتفالات الدينية في المساجد العديدة في جميع أرجاء سوريا ومن خلال التصريح بأنه كرجل علوي يداوم على الصلاة والصوم بانتظام في شهر رمضان . وكان حريصا على خفض الاعتقاد السائد بين السنين وعلماء السنة وبين الناس العلمانيين بأن العلويين يعبدون « عليا » وبالتالي فهم وثنيون . وبدأ حافظ الأسد يحرص على استهلال خطبه الجماهيرية بآيات من القرآن الكريم واستبدل بالقسم العلواني الذي يقوله الموظفون الحكوميون : « أقسم بشرفي ومعتقداتي » القسم التقليدي : « أقسم بالله العظيم » .

ومع ذلك ظل الإخوان المسلمون يعتقدون أن البعثيين بصرون على أبعاد سوريا عن تراثها الاسلامي . وعثروا على دليل جديد

وارد في الدستور الجديد الذي أقرته الجمعية العمومية الشعبية في يناير ١٩٧٣ . إذ ورد نص في الدستور يفيد بأن « جمهورية سوريا العربية هي جمهورية ديموقراطية شعبية اشتراكية » .  
 نهج عدد كبير من العلماء الدينيين الموالين للاخوان المسلمين الدستور ووصفوه بأنه « دستور علماني والحادي » وطالبوا بإدخال  
 فقرة تنص على أن الاسلام هو الدين الرسمي للدولة . وأعقب ذلك  
 تهردات وثورات في جميع أرجاء سوريا . فأذعن حافظ الأسد  
 وأصدر تعليماته بأن ينص على أن رئيس الدولة ينبغي أن يكون  
 مسلما . وتم ذلك بالفعل . ولكن الحكومة قامت في نفس الوقت  
 بالبقاء القبض على العلماء وتعذيبهم واعتبرتهم هم المسؤولين عن  
 التمرد والاضطرابات .

الا أن العلماء لم يقنعوا بهذا التعديل البسيط الذي أجري على  
 الدستور ودعوا الى تنظيم اضرابات ومظاهرات في جميع أرجاء  
 الدولة . وتمت بالفعل مظاهرات بالغة العنف . ثم أصدر العلماء  
 تعليماتهم لأتباعهم بمقاطعة الاستفتاء الذي يجري على الدستور .  
 واستمر الهياج والاضطرابات في الحدوث على فترات متقطعة .  
 وحدثت مصادمات بين المتظاهرين ضد الحكومة وقوات الأمن في  
 حلب ومحض وحماة في ليلة المولد النبوي الشريف في شهر أبريل  
 مما أدى الى مصرع ٢٠ شخصا وجرح ٦٠ شخصا . الا أن حافظ  
 الأسد كان يختلف عن الرؤساء السابقين عليه من حيث أنه كان  
 يجمع ما بين القمع والاستقطاب . إذ قام بتقديم شهادات تقدير  
 للعلماء علوة على رفيع وزيادة مرتباتهم بالإضافة الى عقد صدقات  
 حميمة معهم .

وفي براعة استخدم حافظ الأسد حرب أكتوبر ١٩٧٣ التي  
 شنت ضد اسرائيل في مجال إعادة توكيد الطابع الاسلامي  
 لحكومته . إذ أطلق اسم « بدر » على الهجوم العربي على اسرائيل

فى ٦ أكتوبر : لأن معركة بدر هى التى حققت السيادة لاتباع النبى محمد على الكفار الوثنيين . وفى البيانات التى أذاعها راديو سوريا أثناء الحرب وصف حافظ الأسد هذه الحرب « بأنها جهاد ضد أعداء الاسلام » . وأشار الى أن القوات السورية بمثابة « جند الله » . وكان ذلك الكلام على النقيض تماما مما حدث خلال حرب عام ١٩٦٧ حيث قال البعثيون الراديكاليون كلاما علمانيا فى مجال توضيح وتفسير تلك الحرب . هذا بالاضافة الى أن حافظ الأسد قام بتسريح عدد كبير من الضباط العلويين بسبب أدائهم المنخفض خلال حرب ١٩٧٣ وأحل محلهم ضباطا غير علويين . فأدى هذا الاجراء الى تحسين صورة حافظ الأسد بين الضباط والعساكر السنيين وكافة المواطنين بوجه عام .

وفى فبراير ١٩٧٤ قام حافظ الأسد بزيارة فيصل ملك العربية السعودية فى الرياض وبعدئذ قام بزيارة قصيرة الى مكة لأداء فريضة الحج . فأدى ذلك الى ترسيخه نهائيا كشخص مؤمن صادق فى ايمانه . وربط مثل هذه الخطوات مع المحاولات الرسمية الرامية الى تدعيم مطالب المجتمع العلوى بأن يكون مجتمعا مسلما فى صدق مع اصدار بيانات من علماء غير علويين للاعلان عن ذلك وتأكيدة . فصدرت فتوى من موسى الصدر — وهو زعيم الشيعة بلبنان — تنص على أن العلويين هم جزء من مجتمع الشيعة . فأدى ذلك الى اصفاء الطابع الشرعى القانونى على ادعاء العلويين بأنهم مؤمنون صادقون وراسخون فى ايمانهم بالاسلام .

وتحت هذه الظروف خفت حدة العداوات من جانب جماعة الأخوان المسلمين تجاه الحكومة . وأصبحت انتقاداتهم تقتصر على الهجوم على حافظ الأسد لفقدانه مرتفعات الجولان التى استولى عليها الاسرائيليون علاوة على مشاركته فى عملية السلام التى شرع فيها وزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسينجر .

الا أن هذه الأوضاع لم تستمر لفترة طويلة . ففى يونيو ١٩٧٦ تدخل حافظ الأسد عسكريا فى الحرب الاهلية اللبنانية التى كانت قد اشتعلت منذ عام واحد تقريبا . وكان تدخله فى هذه الحرب لصالح المارون المسيحيين ضد التحالف الذى يضم المسلمين اللبنانيين والفلسطينيين . فادى هذا الى احداث صدمة هائلة لقطاعات كبيرة من المجتمع السورى . كما ادى هذا الى تنجس مشاعر الغضب فى جماعة الاخوان المسلمين الذين كانوا قد بدأوا ينتقدون بشدة تعاطف اعتماد حافظ الأسد على الأسلحة السوفيتية والمستشارين السوفيت علاوة على انتقادهم للفساد الحكوى والتضخم المالى الكبير . وقام الاخوان المسلمون تحت قيادة عدنان سعد الدين ( وكان عدنان فى يوم ما عضوا فى جماعة الاخوان المسلمين المصريين ) باتهام حافظ الأسد بأنه عميل للمارونيين والاسرائيليين والأمريكان . وكان الهجوم الرئيسى للاخوان المسلمين المنصب على الحكومة يتركز حول أن القوة العسكرية التى هى أهم القطاعات فى الدول متركزة فى أيدي اقارب حافظ الأسد العلويين بينما السنيون قد أعطيت لهم وظائف قيادية فى القطاع المدنى فقط .

اذ كانت هناك قوتان أساسيتان تسيطران فى خط متواز فى داخل سوريا وكلتاهما برئاسة حافظ الأسد : القوة الأولى وتشمل الحكومة والبرلمان وحزب البعث السورى وتضم الكثيرين من السنيين . أما القوة الثانية وهى القوة الحقيقية فهى فى يدى حافظ الأسد رئيس الجمهورية وفى أيدي كبار مساعديه الخمسة : رئيس مخابرات سلاح الطيران ورئيس مخابرات الجيش ورئيس مخابرات الامن الداخلى واثنين من رؤساء القوات الحربية الخاصة : فرق الدفاع والوحدات الخاصة . وعادة ما يصنف الاخوان المسلمون حكومة حافظ الأسد بأنها حكومة « علمانية » وأنها تتألف من « مسلمين زائنين » . وقد صورت جريدة الاخوان المسلمين التى تصدر تحت اسم : « النضال » الكفاح الإسلامى على أنه

صراع « بين الغالبية الإسلامية المكبوتة ( بمعنى السنين ) والأقلية  
المحددة ( بمعنى العلويين ) الذين جعلوا من الإسلام عدوهم  
التقليدى » .

وعقب تدخل حافظ الأسد فى الحرب الأهلية اللبنانية قرر  
الاخوان المسلمون اعلان الجهاد ضد حكومته وسار الجهاد فى  
مرحلتين قبل أن يتعرض للانهايار :

المرحلة الأولى من يوليو ١٩٧٦ حتى مايو ١٩٧٩ .

٢ - المرحلة الثانية : من يونيو ١٩٧٩ حتى أغسطس عام  
١٩٨٠ .

خلال المرحلة الأولى من الجهاد قامت الوحدات العسكرية  
لجماعة الاخوان المسلمين - التى تسمى طلائع المجاهدين  
الحريين - بتنفيذ عمليات اغتيال للموظفين البعثيين والقادة  
العلويين وعملاء الأمن والمخابرات بهدف القضاء الضوء على الأقلية  
التي تتألف منها الحكومة وبهدف دفع الحكومة الى ممارسة المزيد  
من القمع مما يؤدي الى اغضاب قطاعات كبيرة من المجتمع  
فاستخدمت الحكومة جهاز الأمن الداخلى التابع لها وفرق الدماغ  
من أجل القضاء القبض على الأشخاص الذين نفذوا الاغتيالات والذين  
ساعدوهم على ذلك . ثم حدث هجوم فى فبراير ١٩٧٨ بمعرفة  
ضباط عسكريين منشقين على رفعت الأسد وهو الشقيق الأصغر  
لحافظ الأسد والذي يرأس فرق الدفاع الثوية التى تضم ٣٦ ألف  
مقاتل مما أكد أن الاخوان المسلمين يتمتعون بتأييد كبير فى داخل  
فيالق الضباط . فأثار ذلك مخاوف حافظ الأسد الذى كان يعتمد  
بشكل كبير على فرق الدماغ علاوة على اعتماده على الوحدات  
الخاصة التى هى برئاسة على حيدر وهو أحد أقربائه العلويين .  
وفى حين أن النالية العظمى من السنين اكتفوا بالتعبير عن

الاستياء من أعمال القمع التى تمارسها الحكومة نجد أن العلويين زادوا من تقاربهم واتحادهم ومساندة حافظ الأسد بقوة حيث كانوا يدركون أن الاطاحة بحافظ الأسد من شأنه أن يؤدى الى نهبهم -معرفة العسكريين السننيين الذين سيفخلرون اليهم على أنهم وثنيون -مارسوا الاضطهاد لسنوات طويلة ضد المؤمنين الحقيقيين .

وكانت الوحدات العسكرية للاخوان المسلمين تضم الأبناء الصغار للأعضاء التقليديين فى جماعة الاخوان المسلمين . وهم على العكس من آباؤهم كانوا حاصلين على تعليم جامعى ولديهم فى الغالب كفاءة مهنية . وقد شددت أنشطتهم عددا كبيرا من المجندين لصالح جماعة الاخوان المسلمين . ففى حلب — على سبيل المثال — كان أعضاء الاخوان المسلمين فى ١٩٧٥ أقل من ٨٠٠ عضو . ولكن بعد ثلاث سنوات زادت العضوية ووصلت الى عدد يتراوح ما بين ٥٠٠ و ٧٠٠٠ عضو . وقد وصل عددهم على المستوى القومى الى ٣٠ ألف عضو ( فى حين أن أعضاء حزب البعث يصل عددهم الى حوالى ٢٠٠ ألف عضو ) . وعلى الرغم من النمو المتزايد فى أعداد المنضمين الى جماعة الاخوان المسلمين فان الجماعة الاسلامية تحرص دائما على اضعاء السرية على أعدادهم وأسلوبهم وقاداتهم الذين يظلون دائما شخصيات يكتنفها الغموض والتعتيم .

وفى المرحلة الثانية من الجهاد قامت الوحدات العسكرية للاخوان المسلمين بمهاجمة أقسام الشرطة ومكاتب حزب البعث ووحدات الجيش والمباني الحكومية مع القيام بمظاهرات واضرابات على نطاق واسع . وقد بدأوا هذه المرحلة بشن هجوم جريء على المدرسة الحربية لسلاح المدفعية فى حلب فى يوم ١٦ يونيو ١٩٧٩ . وبمساعدة من ضابط نوبتاجى من السننيين قام عسكريو الاخوان المسلمين بنجح نيران المدافع والقاء التناابل اليدوية على اجتماع

يضم حوالى ٢٠٠ من الطلبة العلويين مما أدى الى قتل ٨٣ منهم .  
فأدى هذا الحادث الى اثاره جو من الرعب الشديد فى جميع أرجاء  
البلاد . فقامت السلطات الحكومية بحملة واسعة النطاق وألقت  
القبض على ٣٠٠ من الأعضاء النشطاء من الاخوان المسلمين وشنت  
حملة مناهضة للاخوان المسلمين فى جميع أرجاء البلاد من خلال  
أجهزة الاعلام الكبرى التابعة للدولة ووصفتهم بأنهم « عصابات .  
تحصل على التمويل من العراقيين والاسرائيليين والأمريكان  
والمارونيين اللبنانيين » . وأكدت الحكومة فى بياناتها أنها « تحبى  
المصالح الحقيقية للإسلام » ولكن لم يحدث فتور او توقف لأنشطة  
الاخوان المسلمين العنيفة حيث سقط الكثيرون من الضحايا ليس  
فقط من الشخصيات السورية ولكن أيضا من المستشارين الحربيين  
والمدنيين السوفييت بل من العلماء السنيين المواليين للحكومة .

وقد تمت هذه الأعمال فى جو يتسم بتصاعد السخط والاستياء  
بين البرجوازية الصغيرة الحضرية بسبب التضخم المالى والنقص  
فى المساكن وسوء التوزيع للمحاجيات الضرورية اليومية وفى جو  
تسوده اشاعات كثيرة عن الفساد المتفعل بين القادة المدنيين  
المدنيين والعسكريين وعدم الكفاءة الادارية وعدم الاتقان فى  
العمل .

وإدرك حافظ الأسد أن تشديد حدة القمع لن يأتى بالنتيجة  
المرجوة . وإدرك أن هذه الأزمة ينبغى أن تعالج سياسيا . فدعا  
الى عقد جلسة طارئة لحزب البعث فى أواخر ديسمبر وشجع  
الأعضاء الحاضرين البالغ عددهم ٧٠٠ شخص بالتحدث فى حرية  
تامة بما يجول فى أذهانهم . فعبروا عما يجول فى خاطرهم بالفعل .  
ثم صدر بيان عن المؤتمر جاء فيه أن الحزب يعانى من «اللامبالاة . .  
وفقدان الحماسة واختقاد الروح الحزبية . . والانتهازية وسوء فهم



الديموقراطية وتزايد أمراض المجتمع الموروثة » . ثم صدرت قرارات برفع الأجور فى القطاع الخاص والقطاع العام حتى يمكن للوطنين مواجهة التضخم المالى . ثم قام المؤتمر بتشكيل لجنة خاصة تحت اسم « لجنة التفتيش والمراقبة » بهدف ضمان عدم قيام عضو فى الحزب باستغلال مركزه من أجل تحقيق مكاسب شخصية . وتم الاطاحة بـ ٢٢ أعضاء القيادة القومية البالغ عددهم ٢١ عضوا مع اعطاء الكثير من المقاعد للقادة السنين البارزين مثل حكمت الشهابى رئيس أركان الحرب بالجيش . كما تم تشكيل حكومة جديدة تضم ٣٧ وزيرا من بينهم عدد كبير من السنين . كما تم طرد محافظ حلب ومحافظ حمص ومحافظ حماة ( وهى المدن الرئيسية التى تصدر عنها أعمال الشغب التى يقوم بها الاخوان المسلمون ) كما تم طرد ٢١ من كبار الموظفين الذين يعملون فى مشروعات القطاع العام الكبرى .

الا ان قادة الاخوان المسلمين لم يكتروا بهذه الاجراءات . وبينما كان مؤتمر حزب البعث منعقدا فى دمشق كان قادة الاخوان منهمكين فى عقد تحالف مع بقايا القوى المعارضة المتواجدة فى حلب التى هى ثانية أكبر مدينة فى سوريا علاوة على تنظيم الاضرابات والمظاهرات فى أجزاء عديدة من المدينة . وتساعدت الأمور فى أوائل مارس عندما أعلن التجار فى حلب القيام باضراب عام غورى نظرا لاحتجاجهم على القيود المفروضة على الأسعار . وفى نفس هذا الوقت تقريبا وعقب قيام رجل شرطة مرور باطلاق النار على زعيم اخوانى فى حماة وهى ثالثة أكبر المدن بسوريا فان الأهالى فى حماة تظاهروا من أجل تطبيق الانتخابات الحرة النزيهة ومن أجل تطبيق نظام الاقتصاد الحر ومن أجل اعلان الجهاد » بهدف انقاذ وتنقية العقيدة الاسلامية من أعدائها » . وسرعان ما طالبت نقابات المحامين والمهندسين والأطباء والأكاديميين برفع قانون

الطوارئ والفناء حالة الطوارئ ( التي ظلت سارية المفعول منذ مارس ١٩٦٣ ) واطلاق سراح السجناء السياسيين والقضاء على الطائفية .

وكان هذا بمثابة أكبر تحد تراججه حكومة حافظ الأسد وأدرك أن هذه المظاهرات والاضرابات الشاملة التي يقوم بها تحالف قوى المعارضة تحت قيادة الاخوان المسلمين قد يؤدي الى ظهور حركة ثورية اسلامية على غرار الثورة الايرانية ووفق خطوط ومبادئ الثورة الايرانية . كما أدرك أنه اذا احتدم العنف الشديد ضد هذا الهياج الشعبى فربما يأتى الأمر بنتيجة عكسية . ولذلك فإنه حاول تهدئة الموقف من خلال اتخاذ بعض الاجراءات : مثل زيادة حجم حصص الواردات من البضائع الاستهلاكية التي يستوردها التجار ثم حاول أن يحدث انقساما بين الجناح العسكرى للاخوان المسلمين وباقى أعضاء الاخوان العاديين حيث قال : « ان الاخوان المسلمين فى سوريا لا يوافقون جميعا على أسلوب الاغتيالات » وذلك فى خطاب القاه يوم ٢٣ مارس ١٩٨٠ . وأضاف قائلا : « ان الغالبية العظمى من الاخوان المسلمين يعارضون الاغتيال ويقفون ضد الأشخاص الذين يمارسون الاغتيال . وهذه الغالبية تعتقد أنه ينبغي عليهم أن يعملوا من أجل الدين الاسلامى وليس من أجل أى هدف آخر . ونحن ليس لدينا أى خلافات معهم . . فنحن نشجع أى شخص يعمل فى سبيل الدين الاسلامى ويتحلى بالنزيم الأخلاقية الدينية » ثم قام باطلاق سراح ٢٠٠ من السجناء السياسيين وطرد العديد من المحافظين الاقليميين الذين لا يتمتعون بأى شعبية بين الناس كما طرد ٢٥ مديرا يعملون فى شركات القطاع الحكومى بسبب اتصافهم بالفساد أو عدم الكفاءة فى تأدية الأعمال . ولكن خصوم حافظ الأسد فسرّوا هذه الاجراءات على أنها دليل تناطح على ضعف حافظ الأسد . ولكى يسببوا له المزيد

من الضعف قرروا مواصلة ضغوطهم عليه . وظل تجار حلب وحماة مغلقين دكاكينهم ومحلاتهم التجارية .

فاضطر حافظ الأسد فى نهاية الأمر الى اللجوء الى أسلوب اليد الحديدية . اذ قام فى ٦ أبريل بإيفاد ١١ ألف جندي من الوحدات الخاصة تحت قيادة قائدهم على حيدر الى حلب . وعلى الفور قاموا بفرض حصار حول المدينة وراحوا يفتشون المنازل الواحد تلو الآخر وأخرجوا من البيوت الآلاف من المقيمين بها وساقوهم الى مراكز اعتقال كانت قد شيدت على وجه السرعة لهذا الغرض . ثم قاموا بقتل أو تنفيذ حكم الاعدام فى مئات عديدة من الناس ، وتم تنفيذ نفس هذا الأسلوب على المواطنين فى مدينة حماة . وفى يوم ٩ أبريل قام حافظ الأسد بحل المجالس التنفيذية للقطاعات المهنية وقام بسلسلة من الاعتقالات المكثفة والقبض على زعماء مثيرة الشغب مما أسفر عن اعتقال ٥٠٠٠ سوري وايداعهم فى السجون وبذلك زالت الاخطار التى كانت ستؤدى الى الاطاحة بالحكومة .

وبعدئذ أعلن الرئيس السورى حافظ الأسد أنه سيقوم فى القريب العاجل باطلاق سراح المسجونين السياسيين واحترام سيادة القانون . وعندما لم يقيم بتنفيذ وعده تجددت المظاهرات والاضطرابات والاضرابات فى كل من حلب وحماة مرة أخرى على نطاق ضيق فى شبهي مايو ويونيو الا أن السلطات الحكومية لجأت الى أسلوب القمع مرة أخرى .

وفى يوم ٢٥ يونيو توقف هذا التناحر الدائر بين حافظ الأسد وقوى المعارضة التى أصبحت تشتمل على عناصر متدينة وعناصر أخرى علمانية . وفى ذلك اليوم تمت محاولة فاشلة لاعتقال حافظ الأسد فى دمشق .

واستخدمت الحكومة كل قواها لـ سحق جماعة الاخوان المسلمين تماما . وعلى مدى الأيام العديدة التالية قامت قوات الأمن بتنفيذ حكم الاعدام في أكثر من ١٠٠ من الاخوان المسلمين المحتجزين في داخل السجون . وعندما حاول المسجونون السياسيون المتواجدون في بالميرا Palmyra و ( تدمر Tadmur ) تحطيم السجن قام جنود فرق الدفاع بذبح عدد منهم يتراوح ما بين ٢٥٠ و ٣٠٠ سجين . وفي ٧ يوليو ١٩٨٠ وافق البرلمان على قانون ينص على تنفيذ حكم الاعدام في أي شخص يحصل على عضوية في جماعة الاخوان المسلمين أو يعقد علاقات وروابط معهم . واستنادا على هذا القانون لجأت قوات الأمن الى اقامة محاكم في الشوارع بالمدن التي تعتبر معاقل للاخوان المسلمين وتطبيق القانون على الفور على أولئك الذين لا يستطيعون انكار علاقاتهم بالاخوان المسلمين . وفي ١١ أغسطس انطلقت رصاصة من منزل في حلب تجاه قوات الأمن فتم اخراج سـ كان هذا المنزل البالغ عددهم ٨٠ شخصا من الشقق التي يسكنون فيها وتم تنفيذ حكم الاعدام فيهم جميعا على الفور . وعلى نحو ما نان هذه المذبحة كانت بمثابة انتقام من مذبحة يونية ١٩٧٩ التي راح ضحيتها ٨٣ من العلويين . وهذا العنف الشديد من جانب الحكومة قد جعل المواليين للاخوان المسلمين وهم البرجوازية السنية في حلب يعتقدون أن هذا القتال غير متكافئ وأن قدرة الحكومة في بث الرعب تفوق كثيرا قوة الاخوان المسلمين . كما أن أصحاب الدكاكين من السنيين بعد أن عانوا فترة من الكساد الاقتصادي تزيد على سنة بسبب هذه الحرب الأهلية والفوضى التي نجمت أساسا عن المذبحة التي تمت في مدرسة المدفعية أصبحوا غير راغبين في الاستمرار في المقاومة . وبذلك يمكن القول بأن الثورة الإسلامية في سوريا قد أصيبت بالانهيار والتداعي بالفعل .

وبعد أن تكبد الاخوان المسلمون هزيمة منكرة راح قادتهم يعيدون حساباتهم ويقيمون من جديد خططهم وتكتيكاتهم واستراتيجيتهم . وقرروا التحالف مع المنظمات الاسلامية الصغيرة : جمعية أبو الدار ، والدائرة الشمالية ، والقطاع المعتدل من الاخوان المسلمين بقيادة عصام العطار . ومن هذا التحالف خرجت « جبهة سوريا الاسلامية » في أكتوبر ١٩٨٠ . وكانت هذه الجبهة بقيادة كل من : الشيخ محمد البيويوني رئيس جمعية أبو الدار ، وعدنان سعد الدين أحد زعماء الاخوان المسلمين ، وسعيد حوى وهو من كبار المفكرين الاسلاميين بالدائرة الشمالية .

وفي برنامجها الذى يسمى « بيان وبرنامج الثورة الاسلامية فى سوريا » الذى صدر فى نوفمبر حاولت الجبهة الاسلامية تقديم نفسها على أنها البديل الذى يمكن أن يحل محل الحكم البعثى . كما حاولت أيضا دق أسس بين القادة العلويين وجماهير الناس بالإضافة الى اعادة الطائفية لقوى المعارضة العلمانية واليسارية . ولذلك نجد أن برنامج الجبهة الاسلامية كان بمثابة خلاصة وأغية للمفاهيم الاسلامية والديموقراطية الليبرالية كما تضمن تقسيما لليباليا للنظرية الاسلامية والممارسات الاسلامية يهدف الى التوفيق بين الاسلاميين من ذوى الألوان المختلفة علاوة على التوفيق بين مصالح الطبقات الاجتماعية والاقتصادية المختلفة والأقليات العرقية .

وبدلا من التهديد بإبادة العلويين مثلما حاول بعض المتشددين من الجناح العسكرى للاخوان المسلمين أن يفعلوه من قبل نجد أن برنامج « الجبهة الاسلامية » ناشد « الرجال الحكاء » من بين العلويين « أن يتخلصوا » من وصاية حافظ الأسد وأخيه رفعت الأسد بهدف « منع مأساة الحرب الأهلية من الوصول الى نهاية مأساوية حزينة » كما شجب قانون الطوارئ والأحكام العرفية

والقرارات الاستبدادية وممارسات الشرطة غير الانسانية . كما طالب باطلاق سراح جميع المسجونين السياسيين وحرية التعبير والنفس والاجتماع والاحتجاج والمعارضة وتشكيل الأحزاب السياسية والاتحادات التجارية والحفاظ على حقوق الأقليات . . كما طالب بالنصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية واستقلال السلطة القضائية واخضاع الحكومة للقانون المرتكز على الشريعة والاستشارة الشعبية . وفى المجال الاقتصادي تبني برنامج الجبهة الاسلامية تمليك الاراضى للفلاحين والقضاء على الوسطاء والموظفين الحكوميين الذين يمتصون دماء الفلاحين باسم الدولة والحزب والاشتراكية . كما طالب البرنامج بنقل ملكية مصانع القطاع العام الى العمال الذين يعملون فى هذه المصانع . كما أوصى البرنامج بتوفير الحرية لرأس المال الخاص فى مجال الاستيراد والتصدير والتصنيع فى اطار « خطة مدروسة موافق عليها من مجلس الشورى » . وألزم البرنامج نفسه بتدعيم العدالة الاجتماعية والشريعة الاسلامية . وتطرق البرنامج الى الصراع الدائر بين القومية العربية والأمة الاسلامية وأشار الى أنه ملتزم بالقومية العربية والوحدة فى داخل نطاق المفهوم الشامل للتضامن الاسلامى . وأشار البرنامج الى أنه يفضل الوقوف على الحياد فى مجال الشئون الخارجية والمعارضة الشديدة لاسرائيل والصهيونية . وأخيرا وهو الأمر البالغ الأهمية فإن البرنامج أشار الى قبوله وجهة نظر فرج عن الجهاد من حيث ان الجهاد هو التزام او فريضة اجبارية فى الدين الاسلامى واكد على التزام الجبهة الاسلامية باعلان الجهاد بهدف تحويل الحكم العلماني الحالى الى حكم اسلامى .

والجدير بالذكر أن برنامج الجبهة الاسلامية يتضمن ملامح من أفكار محمد رشيد رضا وحسن البنا وسيد قطب و فرج ولكنه من

فأحبة أخرى كانت به فروق واضحة بينه وبين البرنامج الذى اتخذه جماعة الإخوان المسلمين المصرية . وفيما يلى نقطة مهمة أشار إليها سيد قطب :

ان النظام الإسلامى لا يقتصر فقط على أن يكون صورة طبق الأصل من المجتمع الإسلامى الأول ولكنه هو كل شكل اجتماعى تحكمه وجهة النظر الإسلامية الشاملة فى الحياة . فالنظام الإسلامى به مكان لاستيعاب عشرات النماذج التى تكون متوافقة مع النمو الطبيعى لمجتمع ومتوافقة مع الاحتياجات الجديدة للزمن المعاصر مادام الفكر الإسلامى الشامل هو الذى يسود ويسيطر على هذه النماذج وعلى حدودها الخارجية الممتدة الشاسعة .

ان ظهور الجبهة الإسلامية السورية التى تتألف من حزب واحد كبير ومجموعة أحزاب عديدة صغيرة مع اتخاذ برنامج واحد مشترك قد جعل الحركة الأصولية السورية بمعزل عن الحركة الأصولية المصرية . اذ لم يكن بسوريا جماعات تؤمن بالرجوع الى العصر الألفى القديم السعيد مثل جماعة التكفير والهجرة المتواجدة فى مصر . وبوجه عام كانت الحركة الإسلامية السورية أكثر مرونة من الناحية الأيديولوجية بل أكثر براجماتية من الحركة الإسلامية فى مصر . هذا بالإضافة الى أنها كانت متحررة من المجادلات النظرية المعقدة التى تسبب الكثير من العذاب والازعاج فى مسرح الحياة الإسلامية فى مصر . وهذه النوارق تنجم أساسا عن اختلاف طبيعة المجتمع فى هاتين الدولتين . اذ ان مصر بها مجتمع متجانس يخضع لحكومة مركزية منذ آلاف السنين بينما سوريا بها مجتمع غير متجانس أو متغاير الخواص والعناصر كما ينقصه تواجد حكومة مركزية قوية .

وفى حين أن الأصوليين السوريين أقل من الأصوليين المصريين من حيث وضع النظريات فى مجال التطبيق العملى فاننا مع ذلك نجد أن الأصوليين السوريين قد شنوا جهادا طويلا ومميرا للغاية ضد الحكم العلماني لحافظ الأسد . وكان الجهاد هو أشـرس وأطول جهاد شهده الشرق الأوسط . وكان السبب فى ذلك يرجع الى أسباب كثيرة منها أن حافظ الأسد ( شأنه فى ذلك شأن عبد الناصر فى مصر ) كان متحالفا مع الاتحاد السوفيتى وهو دولة ماركسية ملحدة ومنها أن العلويين كانوا متريعين على عرش السلطة فى البلاد رغم أنهم أقلية متماسكة قد تمكنت من الصعود الى السلطة من خلال القضاء على الحكام التقليديين : مثل الاقطاعيين السنيين ورجال التجارة والصناعة السنيين . والمعتقدات والممارسات الابتداعية الهرطقية الخاصة بالعلويين كانت ذريعة فى ايدى الطبقة الحاكمة التى أطيح بها والتى كانت تساند ماليا وسياسيا جماعة الاخوان المسلمين التى يحتكرها السنيون من أجل العمل على الاطاحة بحكومة حافظ الأسد تحت ستار الاسلام أو تحت عباءة الاسلام . وآمال هذه الطبقة قد انعكست بوضوح شديد فى برنامج « الجبهة الاسلامية السورية » : أما فى مصر المتخذة الطابع السننى على نحو شامل فلم تكن بها طائفة ابتداعية هرطقية يهيمن أفرادها على قمة السلطة فى البلاد بالاضافة الى أن الطبقة البروجوازية المصرية التى نزع منها سلطانها السياسى والاقتصادى بمعركة عبد الناصر قد رد السادات اليها اعتبارها وحقوقها . وهناك فارق آخر وهو أن الاخوان المسلمين فى سوريا لم يضرىوا بجذورهم فى الريف السورى وذلك على العكس مما كان عليه الحال فى مصر . ومع كل ذلك كان هناك تشابه قوى بين الخلفية الاجتماعية للمحاربين الأصوليين أى أولئك الذين تاموا بالتخطيط أو التنفيذ لأعمال العنف فى كلتا الدولتين . اذ أظهرت دراسة تمت على ١٣٨٤ فردا من الأصوليين السوريين



المسجونين في الفترة من عام ١٩٧٦ حتى عام ١٩٨١ أن ٢٧٧٪ منهم من طلبة المعاهد أو الجامعات و ١٣٣٪ منهم من المهنيين والأرقام المقابلة لذلك في مصر كانت ٤٠٪ ثم ٦٪ على التوالي .

وما انتهى قادة الأصوليين في سوريا من تشكيل « الجبهة الإسلامية » علاوة على وضع برنامج مشترك ودستور مشترك وإعادة تنظيم الكوادر فانهم استأنفوا على الفور الجهاد في أغسطس ١٩٨١ . إذ أصبحت « طلائع المقاتلين The Combat Vanguard of Fighters » تعمل على هيئة وحدات كوماندوز مزودة بالأسلحة الخفيفة والصواريخ التي تحمل على الكتف . وفي نوفمبر تفجرت القنابل بالقرب من مدرسة في دمشق فأدت الى مصرع ما يزيد على ٢٠٠ شخص . ورغم أن الجبهة الإسلامية لم تعلن مسؤولياتها عن ذلك الحادث فان الحكومة وجهت اللوم لها وحاولت أن تثير الاستياء ضد الاخوان المسلمين من خلال عرض مشاهد من اجساد الضحايا الذين قطعت أطرافهم أو تفحمت أجسامهم على شاشات التلفزيون . وفي يناير ١٩٨٢ نشرت تقارير تتحدث عن وقوع انقلاب فاشل قام به بعض ضباط سلاح الطيران مما أوضح أن الأمور لا تسير على ما يرام في الحكومة .

وفي أوائل فبراير ١٩٨٢ قامت مجموعة مسلحة من الاخوان المسلمين بنصب كمين لوحدة من الفرقة المدرعة الثالثة العلوية المتمركزة في مكان بالقرب من حماة . وكان ذلك يدل على تواجد عصيان في هذه المدينة . وعلى مدى أيام عديدة نجح أفراد من الجبهة الإسلامية في مقاومة قوات الأمن . وكان ذلك بمثابة أفضل عصيان مسلح ناجح يقوم به الأصوليون . كما كان قادة الجبهة الإسلامية الذين يعملون من داخل أراضي العراق يوجهون نداءات متكررة للشعب السوري وخاصة في العاصمة دمشق بأن يقوموا بإعلان

« العصيان المدني » ضد الحكومة والعمل على « اغلاق المحلات والدكاكين والمدارس والجامعات والمعاهد والمصانع وكافة المنشآت والمؤسسات العامة » فأرسل حافظ الأسد ١٢ ألف جندي الى حماة وهى مدينة يبلغ عدد سكانها ٢٠٠ ألف مواطن . وقام الجنود بتطويق المدينة ومحاصرتها ثم استخدمت طائرات الهليكوبتر والدبابات والمدفعية من أجل الحاق الهزيمة بالعصيان المسلح . واستمروا فى القتال على مدى أسبوعين الى أن تمكنوا فى النهاية من السيطرة الكاملة على المدينة . وأثناء ذلك القتال تهدمت بعض قطاعات من المدينة القديمة وتسوت بالأرض كما لقى عشرة آلاف شخص مصرعهم بما فى ذلك ألف شخص من الجنود . وعلى العكس مما حدث فى مارس ١٩٨٠ فإن التمرد لم ينتشر الى باقى المدن الأخرى . وربما يرجع السبب فى ذلك الى القسوة الشديدة فى قمع المتمردين أو النقص فى الأسس التى وضعها الأصوليون أو يرجع الى هذين السببين فى آن واحد . ومن المؤكد أن الأصوليين كانوا أقل عددا مما كانوا عليه منذ عامين . وربما كان قانون يوليو لعام ١٩٨٠ الذى يحظر الانضمام لجامعة الاخوان المسلمين ويفرض عقوبة الاعدام على من ينضم اليهم هو السبب فى تخفيض العضوية فى جماعة الاخوان من ٣٠ ألف شخص الى ٥٠٠٠ شخص فقط . كما أن عدم استجابة التجار السنيين بدمشق للنداء الذى وجهته الجبهة الاسلامية بشأن « التمرد المدني » لم يكن أمرا مثيرا للدهشة . فعلى مدى السنين كان زعمائهم قد أنشأوا علاقات مع كبار الشخصيات المدنية والعسكرية ذات النفوذ والسلطة ولذلك كانوا غير حاسمين ازاء مسألة الاطاحة بالحكومة . هذا بالإضافة الى أن العاصمة دمشق كانت من بين الأماكن الرئيسية التى تستفيد من السياسات الحكومية كما أن تجار دمشق كانوا قد شاركوا فى الازدهار الذى نجم عن تلك السياسات . هذا بالإضافة الى أن أحداث حماة قد أوضحت بما لا يدع مجالا للشك أنه يتعذر

الاطاحة بحافظ الأسد مادامت تركيبة وأيديولوجية القطاع العسكرى  
الحكومى على ما هى عليه بدون أن يحدث فيها أى تغيير .

وفى سوريا تم الاحتفال بذكرى سحق العصيان المسلح  
الذى حدث فى مدينة حماة على هيئة عقد اجتماع جماهيرى موال  
للحكومة فى مدينة دمشق ثم أعقب ذلك اجتماع جماهيرى آخر فى  
٨ مارس ١٩٨٢ للاحتفال بذكر استيلاء البعثيين على السلطة فى  
عام ١٩٦٣ عندما قاد حافظ الأسد مسيرة شعبية على نحو لم يسبق  
له مثيل . وقال حافظ الأسد فى خطبته أمام الجماهير : « ان الاخوان  
المسلمين يذبحون الأطفال والنساء والناس الطاعنين فى السن  
باسم الاسلام » وأضاف قائلا : « وهم يمدون أيديهم للناس الأجانب  
ولعملاء الأجانب وللحكومات العميلة للولايات المتحدة الأمريكية . .  
من أجل الحصول على الأموال والأسلحة لكى يخونوا وطنهم ويقتلوا  
اخوانهم المواطنين . . انهم مرتدون عن الدين . أما نحن فاننا نمقت  
الذين ندعون عن الاسلام وعن الدين والوطن » .

واكتسبت كلمات حافظ الأسد أهمية كبرى بعد مرور ثلاثة  
شهور عندما قامت اسرائيل بغزو لبنان . إذ اشتبكت القوات  
السورية المتواجدة فى لبنان وشاركت بعض الشئ فى القتال  
الدائر هناك حيث تكبد سلاح الطيران السورى خسائر فادحة .  
وأدت تلك التطورات الدرامية الى تحويل انتباه الجماهير عن  
المقاومة الاسلامية والتمرد الاسلامى واتجهت فى تركيز نحو محاولات  
الحكومة السورية الرامية الى احباط المخططات الاسرائيلية فى  
لبنان .

وهذا أدى الى اصابة الحركة الاسلامية بالضعف والوهن  
خاصة أنها كانت قد أصيبت بالفعل بوباء الانقسام فى القيادة .

اذ كان العطار قد أبعد نفسه عن أسلوب الجهاد الملىء بالمخاطر الشديدة . كما أصبحت الخلافات فى داخل الجماعة الاسلامية شديدة للغاية فيما يتعلق بالثورة الايرانية الاسلامية لعام ١٩٧٩ وازاء حرب الخليج . فالأصوليون السوريون الذين كانوا قد رحبوا بالثورة الايرانية الاسلامية بدأوا يشعرون بالاحباط وخيبة الأمل عندما أدركوا أن حكومة آية الله الخمينى تتحالف مع حافظ الأسد خلال حربها مع العراق . وهى الحرب التى كان يتوعدا صدام حسين الرئيس العراقى .

وكانت جماعة الاخوان المسلمين قد احتفظت بعلاقات حميمة على مدى بضع سنوات مع العراق . وأثناء حملات الاخوان المسلمين ضد حافظ الأسد حصل الاخوان على مساعدات مالية وعسكرية من صدام حسين ومن ملك الأردن . وكان الاخوان المسلمون من حيث هم العنصر الرئيسى فى « الجبهة الاسلامية » يرغبون فى أن تتخذ الجبهة سياسة موالية للعراق . الا أن هذا قد تسبب فى تقسيم الجبهة الى معسكرين : المعتدلون المهادنون بقيادة سعد الدين والمتشددون بقيادة عدنان عقله الذى كان رئيساً لفرقة طلائع المحاربين التابعة لجماعة الاخوان المسلمين . وأشار المتشددون الى أن صدام حسين هو حاكم مناهض للإسلام مادام اعتدى على حكومة الخومينى الاسلامية وبالتالي لا ينبغى أن يكون هناك أى تعاون مع صدام حسين . أما المعتدلون فكانوا على استعداد للتعاون مع أى شخص ومع كل شخص يرغب فى معاونتهم على الاطاحة بحكومة حافظ الأسد البغيضة الكريهة .

وكان ذلك هو السبب الرئيسى الذى جعل سعد الدين يقود الجبهة الاسلامية فى مارس عام ١٩٨٢ الى الدخول فى ائتلاف مع ١٧ من أحزاب وجماعات المعارضة الأخرى من أجل تشكيل

« التحالف القومى من أجل تحرير سوريا » الذى كان يلقى الرعاية من العراق والاردن . ودعا هذا التحالف الى اقامة حكومة برلمانية دستورية والى أن يكون الاسلام هو الدين الرسمى للدولة وأن تكون الشريعة هى المصدر الرئيسى للتشريع والاصلاح . وبعدئذ عقد سعد الدين اجتماعات مع مسئولين أمريكيين فى عمان . وهذه الأعمال التى قام بها سعد الدين قد أثارت استياء بعض أتباعه الذين كانوا فى الغالب من الشباب الملىء بالمثلى والمبادئ الخالصة النقاء . وفى أواخر أبريل ١٩٨٢ تم طرد عقلة من « الجبهة الاسلامية » . فقام بعدئذ الى تحويل « فرقة طلائع المحاربين » الى حزب سياسى . وقد أدى كل هذا الصراع الداخلى الى انخفاض هائل فى الأنشطة العنيفة التى يقوم بها الأصوليون .

ولفترة قصيرة فى أواخر عام ١٩٨٣ أدرك القادة الاسلاميون أن عمرهم السياسية آخذة فى التناقص والازدياد . وفى نوفمبر تعرض حافظ الأسد لنوبة قلبية حادة فشهدت البلاد معركة من أجل الخلافة لعب فيها رفعت الأسد دورا بارزا . الا أن الرئيس حافظ تخطى الأزمة القلبية وتمكن من البقاء على قيد الحياة وبعد أن استعاد سلطته الكاملة على أجهزة الدولة المدنية منها والعسكرية بحلول فصل الربيع التالى فإنه قام بنفى وإبعاد شقيقه الأصغر رفعت الأسد .

ومن خلال تحركات حافظ الأسد الواسعة النشطة فإنه تمكن من احباط المخططات الأمريكية الاسرائيلية الرامية الى فرض سيطرة مارونية مسيحية على لبنان مما يضمن اقامة علاقة ودية بين اسرائيل ولبنان من خلال ابرام معاهدة سلام . فالمقاومة المسلحة النشيطة التى قام بها اللبنانيون ضد الاحتلال الاسرائيلى — وهى المقاومة التى لعب فيها حافظ الأسد دورا رئيسيا — قد أدت الى

اضطرار اسرائيل للانسحاب من لبنان بحلول يونيو ١٩٨٥ . وكان لهذه التطورات أثر عظيم فى تعزيز مركز الأسد فى داخل سوريا وفى المنطقة بوجه عام .

وقبل ذلك كان الأخ العقيد معمر القذافى زعيم ليبيا قد عرض ادماج بلاده فى وحدة مع سوريا . فوافق حافظ الأسد على ذلك على الفور . ثم قام الزعيمان بالتوقيع على اتفاقية رسمية فى ١٠ سبتمبر ١٩٨٠ . فادت هذه الخطوة الى تخفيف حدة الأعمال التى يقوم السنيون السوريون ضد الحكومة السورية نظرا لأن ليبيا هى دولة سنية .

وبعد أن أطاح الضباط الأحرار الليبيون بالملك محمد ادريس ملك ليبيا فى أول سبتمبر ١٩٦٩ فأنهم أقاموا حكومة جمهورية . ثم أعلنوا عن دستور وعن مجموعة من القوانين قالوا عنها أنها ارتكزت على القيم الانسانية للتراث العربى الاسلامى فى ليبيا . وقد أشار القذافى الى أن الطريقة الصوفية السنوسية التى أضافت صفة الشرعية على النظام الملكى غير الشرعى غير الاسلامى كانت بمثابة افساد وتحريف للاسلام ، وأشار الى أن قوانين الحكم الجديد قد تضمنت تحريم شرب الخمر واغلاق الملاهى الليلية واغلاق الكنائس وتعيين المفتى الأكبر من أجل أن يقدم التفسيرات الرسمية للشريعة الاسلامية . وهذه الاجراءات كلها قد جعلت ضباط الثورة الليبية محبوبين لدى العلماء الدينيين الذين كانوا يلقون التغاضى والاھمال من جانب الملك ادريس والسابقين عليه .

الا أن العلاقة بين العلماء الدينيين والحكومة أصابها التوتر عندما اتخذ القذافى اتجاها شديدا المرونة ازاء الاسلام وقال أن الاسلام به مكان يتسع لأكثر من اجتهاد . وطالب بضرورة اللجوء الى المرونة واستشهد بالنبي محمد : فبينما كان محمد مازال مستمرا

فى تلقى الوحي الالهى فى المدينة نائه أصدر بياننا دستوريا رسميا هناك .

وعلى الرغم من أن القذافى ليس من رجال الدين نانه قام بتفسير الآية القرآنية التى تتناول الشورى ثم أصدر كتابا فى عام ١٩٧٥ تحت عنوان : « الكتاب الأخضر : الحل لمشكلة الديمقراطية — قوة الشعب » . وطالب فى هذا الكتاب الشعب أن يمارس السيطرة على حياته من خلال المشاركة المباشرة فى المؤسسات الديمقراطية . ومن هذا المنطلق بزغ مفهوم المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية . وتم عقد مؤتمر جماهيرى عام فى ٢ مارس ١٩٧٧ وأكد المؤتمر على السلطة المطلقة للشعب وأطلق اسما جديدا على ليبيا : الجماهيرية العربية الليبية .

والمجلد الثانى من الكتاب الأخضر قد صدر تحت عنوان : « الحل للمشكلة الاقتصادية . . هو الاشتراكية » وقد صدر هذا الكتاب فى أوائل عام ١٩٧٨ وكان بمثابة مرشد للحرية الاقتصادية من خلال « اشتراكية جديدة » تختلف تماما عن اشتراكية الغرب أو الشرق وفقا لما يؤكد القذافى . وعرف القذافى الاشتراكية على أنها قيمة مطلقة مثل الحق أو الحقيقة . وفى داخل ليبيا تبنى القذافى المفهوم الذهنى الذى يعنى « أن الأرض لا تخص أى فرد » وقال أن ذلك يركز على حديث للنبي محمد هذا معناه : « من يملك أرضا يجب عليه أن يزرعها . فإذا كان لا يستطيع زراعتها أو كان غير قادر جسمنيا على زراعتها فعندئذ ينبغى عليه أن يمنحها لأخيه المسلم لى يزرعها . ولكن بدون أن يؤجرها له » . وفى مايو ١٩٧٨ أصدرت الحكومة الليبية قرارا ينص على تحديد حجم الممتلكات من الأراضى وطبق ذلك على جميع الأفراد والمؤسسات بما فى ذلك أراضى الأوقاف الحكومية الدينية مما أدى الى استياء العلماء الدينيين .

وفى منتصف ١٩٧٩ صدر المجلد الثالث والأخير من الكتاب الأخصر تحت عنوان « الأسس الاجتماعية للنظرية العالمية الثالثة ». وتعبير « النظرية العالمية الثالثة » كان يعنى أن القذافى يقدم بديلا عن الرأسمالية والماركسية . وفى هذا الكتاب تناول القذافى المفهوم الذهنى عن القانون الاجتماعى المرتكز على العرف والدين . وقال : « ان المحرك الوحيد لتاريخ الانسانية هو العامل الاجتماعى والعامل العرقى . والرابطة الاجتماعية تشكل العلاقات الأساسية بين الوحدات الأولية للمجتمعات البشرية من العائلة الى القبيلة ثم الى الامة التى هى العامل الأساسى للتاريخ » . ووفقا لما أورده القذافى فان الهوية العرقية كانت بمثابة الأسمت الذى أدى الى تماسك مجموعات كبيرة من الناس مع بعضهم البعض . وكان الدين هو المنافس الوحيد لهذا العامل الاجتماعى المشترك . اذ كان الدين قادرا على تفكيك أناس متحدين علاوة على توحيد مجموعات عرقية مختلفة . وفى حالة حدوث منافسة بين العامل الاجتماعى والعامل الدينى فان العامل الاجتماعى هو الذى سينتصر .

وعلى كل حال فقد لقيت بعض آراء وأعمال القذافى ترحيبا من جانب رجال الدين الايرانيين الذين استولوا على السلطة فى أوائل عام ١٩٧٩ : فاستنكاهه الشديد للنظام الملكى على أساس أنه أسلوب غير اسلامى علاوة على أنشطة الثورة فى داخل ليبيا وخارجها قد أدخلته فى مواجهة ضد الاستعمار الأمريكى .

\*\*\*



## الفصل الخامس

---



## المملكة العربية السعودية

### هي أقدم دولة أصولية

لقد أدى انهيار الامبراطورية العثمانية وما أعقب ذلك من الفناء للخلافة على يدي مصطفى كمال أتاتورك في مارس ١٩٢٤ الى خلق فراغ في القيادة بالمجتمع الاسلامي العالمي . ومن بين أولئك الذين حاولوا ملء ذلك الفراغ : الشريف حسين بن علي الهاشمي وهو من الأسرة الملكية الهاشمية التي كانت قد حكمت منطقة الحجاز التي تضم مكة والمدينة المنورة منذ القرن العاشر . وهي الأسرة التي ادعت انها من نسل وذرية محمد صلى الله عليه وسلم . وأثناء الحرب العالمية الأولى قام البريطانيون بتشجيع الشريف حسين على التمرد والثورة ضد رؤسائه العثمانيين وعقب انتهاء الحرب وضعوا أبنيه على عرش العراق وعرش « شرق نهر الأردن » . وهذا التحالف الهاشمي البريطاني قد اعتبر مناهضا للاسلام من وجهة نظر المسلمين من غير العرب وكذلك من وجهة نظر كثيرين من الزعماء العرب ولذلك فان مطالبة الشريف حسين بالخلافة قد لقيت تأييدا ضعيفا خارج اقليم الحجاز . بل أثار ذلك في حالات

معينة عداوات صريحة وعلنية . ومن بين أولئك الذين استاءوا من الشريف حسين : عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ( ١٨٧٩ — ١٩٥٣ ) وهو الذى يعرف أيضا باسم ابن سعود الذى كانت قواته تسيطر على الأراضى المحيطة بمنطقة الحجاز .

وعبد العزيز كان بمثابة نقطة تحول فى الأقدار المتقلبة التى شهدتها بيت آل سعود . فبعد أن تكبد بيت آل سعود الهزيمة على أيدي العثمانيين فى عام ١٨١٩ فإنه تمكن من الاستيلاء على الرياض مرة أخرى . ولكنه أرسل الى المنفى فى عام ١٨٩١ بمعرفة رئيس قبيلة الرشيدى : محمد بن رشيد الذى كان مندوبا للعثمانيين . وفى عام ١٩٠٢ قام عبد العزيز بالمخاطرة خارجا من الكويت وتمكن من استعادة الرياض مرة أخرى . ومن الرياض قام بشن سلسلة من الهجمات والحملات من أجل تحقيق السيطرة على منطقة نجد وتمكن بالفعل من هزيمة محمد بن رشيد Rashid . وبعدئذ قام بمد نفوذه الى منطقة الحساء الشرقية التى تسكنها قبائل شيعية . وكان ذلك فى عام ١٩١٣ . الا أن محاولاته للهجوم على الحجاز التى يسيطر عليها الشريف حسين قد تعطلت بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى .

وكانت منطقة نجد الواقعة فى أواسط شبه الجزيرة العربية يسكنها عدد ضئيل من الناس . وكان نصف سكان نجد من القبائل البدوية التى تعيش حياة الترحال والتنقل من مكان لآخر ولكنها مع ذلك كانت على صلة بأولئك السكان الذين يعيشون حياة استقرار فى القرى والمدن الصغيرة . وعلى الرغم من أن هذه القبائل من المسلمين من الناحية الاسمية فإنها اعتادت أن تلجأ فى حل للنزاعات التى تنشأ بينها الى القانون القبلى بدون الاستعانة بالشرعية الاسلامية . بل كانوا يرددون الى ممارس طقوس

تعود الى الفترة السابقة على ظهور الاسلام . كما اعتادت هذه القبائل على تقسيم أنفسهم الى فئتين : فئة النبلاء وفئة الحقراء أو الأدنى منزلة . ( وكانت الأسرة السعودية تنتمى الى فرع موسالينخ Musalish الذى ينتمى الى قسم الروالة Ruwalla الذى ينتمى الى قبيلة عنزة Anza التى تعتبر قبيلة نبيلة ) .

وقرر عبد العزيز العمل على تحويل المجتمع النجدى الذى يسوده التناحر والتمزق والانقسامات وتتواجد به طبقات هرمية الى أمة إسلامية موحدة بأن يجعل الولاء للإسلام وليس للقبيلة . . والولاء للإمام وليس للشيخ القبيلة . وهو نفس الاجراء الذى سبق اتخاذه شى أيام محمد صلى الله عليه وسلم فى الجزيرة العربية . واستخدم عبد العزيز المذهب الوهابى كوسيلة أيديولوجية تعينه على تحقيق هذا الهدف . وفى نفس الوقت كرر القول عن الثرات الاسلامى والعربى للأسرة السعودية الحاكمة وحالات الزواج التى تمت من وقت لآخر بين الأسرة السعودية وسلالة محمد بن عبد الوهاب البالغة الوتر والاحترام وذلك كتبرير لقولى الأسرة السعودية الإمامة فى البلاد .

وكانت أهم ملامح المذهب الوهابى هو التركيز على عقيدة التوحيد علاوة على المساواة الاجتماعية والدينية بين المسلمين . . وقام عبد العزيز بصفتة زعيما وهابيا بالتركيز على هذه الملامح الرئيسية للمذهب الوهابى . اذ قام بإلغاء ضريبة الحماية التى كانت تدفعها القبائل المحتقرة ذات المستوى الاجتماعى المنخفض للقبائل النبيلة مؤكداً بذلك على مبدأ المساواة التامة بين الناس اجتماعيا وسياسيا وهو المبدأ الذى نادى به المذهب الوهابى مما أسفر على الولاء الشديد له من جانب القبائل ذات المستوى الاجتماعى المنخفض . وبعد أن انتهى عبد العزيز من هذه الخطوة أصدر قرارا ينص على قيام جميع القبائل بدفع الزكاة له شخصيا

وذلك أدى الى ترسيخ أقدامه من حيث هو امام للجماعة كلها رغم.  
أن هذا اللقب قد ظل من الناحية الاسمية منصبا على والده  
عبد الرحمن الى أن توفى عبد الرحمن فى عام ١٩٢٨ .

وكان الوهابيون ينظرون الى أنفسهم على أنهم هم « المجتمع  
الاسلامى الحقيقى الصادق » وبذلك بدأوا فى شن الهجمات على  
المشركين بالله والملحدين والمنافقين ( المنافقون هم أولئك الناس  
الذين يدعون أنهم مسلمون بينما يكون سلوكهم غير متسم بالطابع  
الاسلامى وغير ملتزم بالقوانين الاسلامية ) . وكان الوهابيون  
يصنفون الانحراف عن خط الشريعة الاسلامية بأنه بدعة والبدعة  
هى امر غير اسلامى . وأى شخص لا يتفق فى الرأى مع التفسير  
الوهابى للإسلام كان الوهابيون يعتبرونه مارقا يستحق أقصى  
العقاب .

وكان الوهابيون يعتقدون اعتقادا راسخا فى أن العالم ينقسم  
الى قسمين : دار الاسلام والقرين لها هى دار الحرب ( أى عالم  
الحرب الدائرة بين المؤمنين وغبر المؤمنين ) علاوة على اعتقادهم  
الراسخ فى المفهوم الذهنى عن الهجرة . فهم قد نظروا الى رحيل  
محمد بن عبد الوهاب فى عام ١٧٤٤ من العيينة Uyaina الى الدرعية-  
Diriya على أنه رحيل مشابه تماما لهجرة محمد صلى الله  
عليه وسلم من مكة الى المدينة المنورة ، وبذلك أطلقوا اسم الهجرة  
أيضا على رحيل عام ١٧٤٤ الذى قام به محمد بن عبد الوهاب .

وقدم عبد العزيز الرعاية للمعتنقين الجدد للمذهب الوهابى  
واعتبرهم كأنهم « مهاجرون » الى هذا المذهب وأن اعتناقهم  
للوهابية هو بمثابة « هجرة » نحو هذا المذهب . وهى هجرة تتصف  
بأنها مادية فيزيقية ودينية روحية فى آن واحد . وهى هجرة تعنى.

التخلّى عن الحياة البدوية والانتقال من القانون البدوى الى الشريعة الاسلامية وبن الروابط القبلية الى العضوية فى جماعة الاخوان الاسلامية .

وعقب استيلائه على منطقة الحساء فى عام ١٩١٣ أنشأ مستوطنات اخوانية . وكل مستوطنة كانت تضم أراضى زراعية ومراعى ومصادر للامداد بالمياه . الا أن معظم هذه المستوطنات قد فشلت فى أن يصبح بها اكتفاء ذاتى مما كان يفترضه عبد العزيز الى تقديم الاعانات والدعم لها . وبعد فترة وجيزة أصبحت هذه المستوطنات بمثابة المراكز الدينية والسياسية والعسكرية والادارية والتعليمية للمذهب الوهابى مما مكن عبد العزيز من تحقيق شىء لم يستطع تحقيقه أى زعيم آخر من قبل : ألا وهو فرض حكم مركزى على ما يزيد على ٤٠ قبيلة كبيرة تسكن فى جميع أرجاء منطقة نجد . ولكى يقلل عبد العزيز من الصراع الداخلى والتناحر بين القبائل مع بعضها لبعض فإنه أصدر أوامره بعدم ترك أية قبيلة لأراضىها بدون إذن خاص منه شخصيا . وكان يحتفظ بالكثيرين من مشايخ القبائل لديه فى العاصمة الرياض تحت اشرافه ومراقبته وتحت ستار تلقينهم مبادئ المذهب الوهابى .

وكانت الحياة فى كل مستوطنة من مستوطنات الاخوان التى تضم فى المتوسط ٢٠٠٠ شخص بالغة التنظيم ومركزة حول المسجد المتواجد بالمستوطنة .

وقد لعب العلماء الدينيون دورا مهما فى هذا الصدد وكذلك لعب المطوعون ( الشرطة الدينية ) دورا بارزا . وكان يتم تدريب المطوعين فى الرياض . وكانت مهمة المطوعين هى تعليم المذهب الوهابى للناس ومعاينة أولئك الذين يدخنون التبغ أو ينخرطون فى

الغناء والرقص أو يتحلون بارتداء الذهب والحريز أو يتخلفون عن أداء الصلوات الإسلامية في مواعييدها المحددة . وكانت شئون مستوطنة الإخوان تدار بمعرفة قيادة مشتركة تضم أميرا ومحافظا ( حاكما ) والامير الذي يتم انتخابه بمعرفة المجلس الاستشاري المحلي كان مسئولا أمام الامام المتواجد بالرياض . أما المحافظ ( الحاكم ) الذي يحكم بالشريعة الإسلامية فكان مسئولا أمام شيخ الاسلام أو رئيس العلماء الدينيين الذي كان متواجدا أيضا في الرياض .

وكان عبد العزيز يجمع ما بين الحماسة الأيديولوجية والمذهب العملي البرجماتي . اذ كان يحرص على أن يتزوج من إحدى فتيات عائلة شيخ القبيلة التي تم اخضاعها بهدف تدعيم سيطرته ونفوذه في الأراضي التي فتحها واستولى عليها بدون تقويض البنيان الداخلي للقبيلة المهزومة بأى حال من الأحوال . ولكي يطبق هذا الأسلوب فإنه أصبح متزوجا من ١٧ زوجة وصار لديه ٥٤ ابنا بالإضافة الى ٢١٥ ابنة . وهكذا نرى أن الوحدة الدينية لدار الاسلام الجديدة الموسومة — التي أصبحت تشتمل على ٢٠٠ مستوطنة اخوان وتضم الآلاف من العساكر — وقد تدعمت وتقوت من خلال روابط البنوة أو الأبناء ،

وتماما مثل أوائل الناس الذين اعتنقوا الدين الاسلامي في منتصف القرن السابع الميلادي ثمان الاخوان الوهابيين كانوا يتفجرون بالحماسة الشديدة والرغبة في نشر الطابع الوهابي للإسلام الى أقصى الأماكن بشبه الجزيرة العربية والى ما هي أبعد من ذلك . وبحلول عام ١٩٢٠ كانت مستوطناتهم قد أصبحت هي المصدر الرئيسي لجيش عبد العزيز . وقد برهنوا على أنهم مقاتلون ممتازون . حيث كانوا يتميزون بسرعة الانتقال من مكان لآخر علاوة



على اتسامهم بالصلابة والخشونة الشديدة .. والاهم من ذلك كله أنهم كانوا مدفوعين من خلال الحماسة الدينية . وأثناء القتال والاشتباكات الحربية كانوا يستخدمون صيحات اسلامية فاذا كسبوا المعركة وتمكنوا من البقاء على قيد الحياة فانهم يشعرون بالفخر لانهم كانوا السبب فى انتصار الفضيلة على الرذيلة . واذا لقوا حتفهم فانهم يعتقدون أنهم ماتوا شهداء فى سبيل اعلاء كلمة الله مما يضمن لهم مكانا فى جنة الخلود . اذ سبق أن قال تقى الدين بن تيمية وهو احد كبار أستاذة محمد بن عبد الوهاب : « ان وفاة الشهيد الذى استشهد من أجل توحيد كافة الناس فى سبيل الله واحياء كلمته هى أسعد وأفضل وأسهل وثمة بين كافة أنواع الوفيات » . وأخيرا مادام الاخوان كانوا منهمكين فى الجهاد الاسلامى فانهم من الناحية الدينية لهم الحق فى الحصول على ٤/هـ الغنائم مع ترك الـ ١/هـ فقط من الغنائم من أجل الدولة .

وفى عام ١٩٢٠ نجح عبد العزيز فى الاستيلاء على اقليم عسير الذى يقع جنوب الحجاز . وهو اقليم يتميز بالأراضى الخصبة . وفى السنة التالية وجه ضربة حاسمة ونهائية لمنافسة محمد بن رشيد Rashid واستولى على حائل Hail وأعلن عن نفسه سلطانا أو قائدا وهو لقب علمانى . وبعد أن نجح فى اضافة المزيد من الأراضى الى ممتلكاته فى عام ١٩٢٢ أصبح سلطانا على نجد والأماكن التابعة لها . وكان يضىف تعبيرات وكلمات اسلامية على كل حملة حربية يقوم بها مثل أن يقول أنه يكافح من أجل معاقبة المنشقين عن الاسلام أو معاقبة أولئك الذين حادوا عن الطريق الحقيقى للإسلام . وعندئذ فقط كان بمقدور جنوده الاستيلاء على الغنائم من حيث هى مكافأة شرعية لهم .

وقد اراد عبد العزيز الاستيلاء على الحجاز من أجل أن يسيطر على طريق الحج المؤدى الى المدينة المنورة ومكة والذى

يدر أرباحا ومكاسب كثيرة . وفى ذلك الوقت كان حريصا على أن يضمن على أعماله الطابع الإسلامى . وعندما أعلن الشريف حسين عن نفسه خليفة للمسلمين وجد عبد العزيز فى ذلك السبب الوجيه الملائم الذى كان يبحث عنه من أجل اتخاذه مبررا . وفى نفس ذلك الوقت تقريبا كان البريطانيون قد قرروا معاقبة الشريف حسين على رفضه المستور الترتيع على معاهدة أنجلو حجازية بأن قطعوا عنه الاعانات المالية التى كانوا يرسلونها اليه . وكانت تلك التطورات هى التى شجعت عبد العزيز على تنفيذ مخططاته . وأعلن أن الشريف حسين قد ارتكب أعمالا إجرامية لادعائه أنه الخليفة . ولأنه يتخذ أساليب فاسدة فى ادارته لشنئون مكة والمدينة المنورة . ولأنه تسبب فى تدنيس الأماكن المقدسة بأن سمح للمسيحيين بدخولها . وأثناء موسم الحج لعام ١٩٢٤ اتخذ عبد العزيز الاجراءات لعقد مؤتمر لكبار رجال الدين وكبار الشخصيات البارزة . وكان ذلك المؤتمر تحت رئاسة والده عبد الرحمن الذى يعتبر هو الامام من الناحية الاسمية . ووجه هذا المؤتمر نداء للاخوان الوهابيين لى يقوموا نيابة عن الامة الاسلامية بالاطاحة بالخليفة الزائف الشريف حسين . وأرسلت خطابات بهذا المعنى الى زعماء المجتمعات الاسلامية فى جميع أرجاء العالم من أجل الحصول على تأييدهم وموافقتهم على اتخاذ ذلك الاجراء . وشعر معظم الشادة المسلمين بالعالم الاسلامى بالخوف من احتمال استيلاء الوهابيين على مكة والمدينة المنورة واحكام السيطرة الادارية عليها ولذلك لم يستجب منهم سوى عدد قليل للغاية . ولكن التمرس والخبرة قد خدمت عبد العزيز اذ أوجد هالة اسلامية بشأن العمل الحربى الذى هو على وشك القيام به . ومن خلال ذلك تمكن من تشييط همة البريطانيين وجعلهم لا يقفون فى صف الشريف حسين .

وفى أوائل أكتوبر قام الاخوان الوهابيون بفرض حصار حول

مكة ، وحتى يمكن تجنب سنك الدماء والدمار قام العلماء المحليون والتجار بالتنازع الشريف حسين بالتنازل عن الخلافة لانه على ومفادرة مكة . ووجد عبد العزيز بأنه لن يكون هناك تكرار لذلك الاستيلاء العنيف الذى تم فى عام ١٨٠٣ والذى قام به الوهابيون . ثم هرب على من مكة . فقام عبد العزيز باحتلال مكة . وبعد مرور عام استسلمت المدينة المنورة للاخوان الوهابيين .

وكتب عبد العزيز رسائل موجهة لرؤساء الحكومات المختلفة بالدول الاسلامية جاء فيها « اننى لا أرغب فى أن أكون حاكما على الحجاز . لقد عهد الى بهذا التفويض الى أن يقوم أهالى الحجاز باختيار حاكم يعتبر نفسه خادما للعالم الاسلامى ويعمل فى حرص شديد على خدمة ورعاية الشعب المسلم » . اذ كان عبد العزيز يدرك من خلال خبرة آباءه وأجداده أن منطقة الحجاز لها أهمية بالغة من وجهة نظر قادة المسلمين الأجانب وان من السخف تجاهل هذه الحقيقة المهمة . وهو فى نفس الوقت كان يعرف تماما من هو ذلك الشخص الذى « سيختاره » أهل الحجاز ليكون حاكما على منطقة الحجاز .

وفى أوائل عام ١٩٢٦ أعلن عبد العزيز أنه أصبح ملكا على الحجاز . وهو نفس اللقب الذى كان قد استخدمه الشريف حسين من قبل . وكان الهدف من استخدام هذا اللقب هو ادخال الطمأنينة فى نفوس المسلمين الأجانب الذين كانوا سيبدون احتجاجا عنيفا لو كان عبد العزيز قد أعلن عن نفسه اماما للحجاز . اذ كان يدرك أنه بحاجة لأن يطمئن المجتمعات الاسلامية الأعجمية الأجنبية بأن مكة والمدينة المنورة ستظلان مفتوحتين أمام كافة الطوائف الاسلامية . ولكى يشير اعجاب الحجاج بالتغييرات المفيدة التى أدخلها فإنه أصدر قرارا بتنفيذ حكم الاعدام فى أى شخص من أهل الحجاز يحاول

أن يفش الحجاج ويسلب أوالهم أو يستولى منهم على أموال بهدفه  
تغيير الحماية لهم . وكانت تلك ممارسات شائعة أثناء الحكم  
الهاشمي . وأصدر أوامره للمحاكم بالحجاز باتباع قوانين المذهب  
الحنفي وعلى النحو الذي كانوا يفعلونه قبل قيامه بالغزو وعدم  
اتباع المذهب الحنبلي الذي كان سائدا في كل مكان آخر يقع  
بالأماكن التابعة لعبد العزيز .

ومى حين أن هذه الخطوات قد أعادت الطمأنينة بعض الشيء  
الى أهالى الحجاز والحجاج الأجانب نجد أنها سببت تصدعا بين  
عبد العزيز وأتباعه من الاخوان الوهابيين الذين أصبحوا يقيمون  
آنئذ في ٢٢٢ مستوطنة وصار عددهم يزيد على ١٥٠ ألف رجل .

فالنمو السريع لمستوطنات الاخوان الوهابيين سواء من حيث  
العدد أو الحجم كان يعنى المزيد من الطلب على خزانة عبد العزيز .  
وكانت الغنائم التى يتم الحصول عليها من وراء سلسلة من الحملات  
العسكرية الناجحة فى أوائل العشرينات هى فقط التى كانت تسمح  
لعبد العزيز بالتغلب على هذه المشكلة . هذا بالإضافة الى أن تولى  
الشئون الادارية فى الحجاز كان عملا باهظ التكاليف . وأثناء الحكم  
الهاشمي بالحجاز كانت هناك ضريبة تفرض على التبغ وكانت بمثابة  
مورد كبير للدخل بالحجاز . وعندما قرر عبد العزيز الاستمرار فى  
تحصيل ضريبة التبغ فانه واجه معارضة شديدة من جانب العلماء  
الوهابيين . وأشساروا الى أنه مادام تدخين التبغ يعتبر غير  
اسلامى ( وهو أمر يعاقب عليه الناس فى نجد ) فان فرض ضريبة  
على التبغ يعتبر اجراء غير اسلامى . فتقبل عبد العزيز على مضض  
وجهة نظرهم . ولكنه سرعان ما بدأ يعانى من العجز فى ميزانيته  
مما جعله يرفض دفع المرتبات للجنود أو صرف المنح والمكافآت  
للاخوان . فخلق ذلك نوعا من التذمر والاستياء بينهم .

وفى أواخر عام ١٩٢٦ قام اثنان من القادة العسـكريين للاخوان الوهابيين بعقد مؤتمر . ووجه الحاضرون فى المؤتمر انتقادات لعبد العزيز بسبب قيامه بفرض ضرائب غير اسلامية وغشله فى فرض المذهب الوهابى على الشيعة المتواجدين بالحساء بالاضافة الى قيامه باستخدام التليفونات والتلغرافات والسيارات والطائرات وكلها أشياء تحتوى على أعمال سحرية شيطانية .

ورد عبد العزيز بأن عقد مؤتمرا فى يناير ١٩٢٧ . وقام بالغاء كافة القوانين غير الاسلامية الخاصة بالحجاز . وأصدر أوامره بأن يحضر جميع الشيعة فى الفصول الدراسية التى يتم فيها تدريس المذهب الوهابى . كما أصدر تعليماته بمنع الشيعة من الاحتفال فعاشوراء . وقال العلماء الذين حضروا ذلك المؤتمر أن فرض ضرائب غير اسلامية لا يعتبر مبررا كافيا يجعل المؤمنين يرفعون راية العصيان ويصرون على عدم طاعة الامام .

وكل هذه التحركات قد تسببت فقط فى تأجيل المواجهة التى بدت محتومة بين عبد العزيز والاخوان . والتى كانت لها سابقة عديدة فى التاريخ الاسلامى .

وراح عبد العزيز يدرس هذه المشاكل دراسـة واقعية وعملية . انه قد استولى على ٨٠٪ من شبه الجزيرة العربية التى تبلغ مساحتها ما يزيد على مليون ميل مربع والتى يبلغ عدد سكانها حوالى ١٣ مليون نسمة وبذلك فانه لم يعد أمامه المزيد من الأراضي التى يمكن له الاستيلاء عليها . ومن هنا بدأ يدرك انه من الناحية العملية لم يعد بحاجة الى قوة عسكرية تضم ١٥٠ ألف مقاتل من الاخوان المتعصبين للمذهب الوهابى . وبعد أن أعلن عن نفسه ملكا على نجد والامكن التابعة لها فى يناير ١٩٢٧ فانه راح يسعى للحصول على الاعتراف الدولى به ملكا على نجد .

وكان حريصا على الحصول على هذا الاعتراف من بريطانيا بصفة خاصة لأن بريطانيا كانت بمثابة أهم قوة أجنبية في شبه الجزيرة العربية . وأسفرت الجهود عن إبرام معاهدة جدة لعام ١٩٢٧ . لقد اعترفت لندن بحيد العزيز ملكا على الحجاز ونجد والأماكن التابعة لنجد . وفي مقابل ذلك وافق عبد العزيز على أن تكون بريطانيا « حامية » على الإمارات في الخليج وعمان كما وافق على أمداج شرق الأردن والعراق تحت الانتداب البريطاني . وكان ذلك معناه كبح جماح الإخوان الذين كانوا يهتدون أن تثبت الحدود بالأسلوب الغربي بين الدول لا معنى له والذين كانوا يملكون بالحماسة الشديدة والرغبة في نشر الشريعة الوهابية إلى باقي أجزاء العالم .

وقام الإخوان الوهابيون بغارات مستمرة خارج نطاق الأراضي التابعة لعبد العزيز مما وتر العلاقات بينهم وبين تلك الأراضي وطالب البريطانيون بضرورة وقف الغارات التي يشنها الإخوان الوهابيون . فلجأ عبد العزيز إلى مصادرة الغنائم التي يحصل عليها الإخوان في مثل هذه الحالات ( في حالة ما إذا كانت أعمالهم قد حصلت على موافقة من الإمام أو العلماء الدينيين ) . وفي أوائل عام ١٩٢٩ وبعد أن فشل الإخوان في العبور إلى العراق الواقع تحت السيطرة البريطانية فانهم راحوا يبددون طاقاتهم العدوانية على التبادل الواقعة عند الجانب الحدودي الخاص بهم . فأتار هذا غضب وخسب عبد العزيز . فأصدر أوامره بتسريح جيش الإخوان . فتجاهل الإخوان تلك الأوامر . فاستصدر فتوى من العلماء الدينيين تفيد بأن الهجمات التي يشنها الإخوان غير شرعية . وبدأ عبد العزيز في نفس الوقت في التوسع في الجيش التابع له من خلال الحصول على متطوعين من التبادل ومن سكان المدن الصغيرة . ثم قاد جيشا مكونا من ٣٠ ألف مقاتل ومزيدا بأسلحة ميكانيكية حديثة

تم الحصول عليها من البريطانيين لكي يواجه ثمانية آلاف مقاتل من الأخوان كانوا تحت قيادة فيصل الدراويش وسلطان بن بجاد في منطقة سبيلة في مارس ١٩٢٠ . ونجح في الحاق الهزيمة بهم .

ولكن الأخوان لم يتوقفوا نهائيا من هذه الأعمال الا بعد حلول شهر ديسمبر حيث وجدوا أنفسهم محاصرين بين قوات عبد العزيز المقدمة والكتائب البريطانية المتواجدة بالكويت . فهرب عدد كبير منهم . ثم استسلموا في نهاية الأمر للبريطانيين الذين قاموا بدورهم بتسليمهم لعبد العزيز . فقام عبد العزيز بمعاقتهم في قسوة شديدة لكي يضمن عدم تكرار ذلك التمرد مرة أخرى مستقبلا .

وفي سبتمبر ١٩٣٢ قام عبد العزيز بتوحيد نجد والحجاز وأطلق عليها اسم : المملكة العربية السعودية وأعلن نفسه ملكا على العربية السعودية . وكان العلم الوطني به الشهادة الإسلامية ( أشهد الا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ) والسيوف المتقاطعان اللذان يخصان محمد بن عبد الوهاب وبيت سعود لتكون رموزاً معبرة عن الكيان السياسي الجديد .

وبعد أن انتهى بيت سعود من تشييد دولة ( بالمعنى المعاصر لكلمة دولة ) فإنه استخدم الاسلام لاضفاء الطابع الشرعى على الحكم الملكى لهذه الدولة . ان المملكة العربية السعودية فريدة من نوعها . ان تم خلقها من خلال سلسلة من الحملات العسكرية الاسلامية في الأزمنة الحديثة ثم ظل طابعها من حيث هي دولة اصولية ثابتا بدون حدوث أى تغيير منذ انشائها في عام ١٩٣٢ . ومن هنا يمكن القول انها أقدم دولة اصولية اسلامية مستقلة سياسيا في العالم اجمع .

## الاسلام الأصوائى والدولة الحديثة

ان النظام الملكى والسلطة الموروثة هو أمر لا يحظى بموافقة اسلامية . وهذا واضح تماما منذ التاريخ المبكر للاسلام . اذ كان الخليفة يتم اختياره من خلال استشارات تتم بين كبار الشخصيات بالمجتمع أو تتم بمعرفة مجلس انتخابى يعينه الخليفة المتولى السلطة . وعلى العكس تماما من هذا الأسلوب كان أئمة بيت سعود يلجأون الى تحديد أسماء من سيجيئون بعدهم فوضوا بذلك أسلوب السلالة الحاكمة .

وعندما تعرض عبد العزيز وخلفاؤه على السلطة لهذا الانتقاد فانهم أشاروا الى أن القرآن هو دستور العربية السعودية ومادام الملك خاضعا للأمر والتعاليم القرآنية مثل أى مؤمن آخر فان النظام الملكى يصبح شرعيا فى الاسلام .

ومع ذلك فقد هزا بيت سعود من مبدأ اسلامى آخر : حيث يوجد نص قرآنى يفيد بأن الحاكم يجب عليه أن يستشير الشعب وجماهير الناس أثناء ممارسته الحكم عليهم . ( فاعف عنهم واستغفر لهم وثناورهم فى الأمر فاذا عزمتم فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين ) صدق الله العظيم .

وما حدث هو أن عبد العزيز عندما حصل على لقب : ملك الحجاز بادر الى تشكيل مجلس استشارى يضم ٢٤ عضوا ويتألف من العلماء الدينيين وكبار الشخصيات والتجار . وقد لعب هذا المجلس الاستشارى دورا هزيلا لفترة ضئيلة وبعدئذ اختفى من الوجود تماما على ندو غير رسمى . ومنذ ذلك الحين لم يوافق أى ملك جاء بعد عبد العزيز على مجرد التطرق الى فكرة



انشاء مجلس استشارى وبالتالي لم يقوموا بتعيين أى مجلس استشارى أو السماح للمواطنين بانتخاب أعضاء مجلس استشارى .

وامتلاك مكة والمدينة المنورة قد مكن عبد العزيز من التأكيد على دوره من حيث هو الحارس العام على الأماكن المقدسة وحامى حى الحج عالة على اضفاء طابع اسلامى عميق على بيت سعود . الا أن موقف ووضع عبد العزيز كان فى حقيقة الامر معقدا ومتسما بالأهمية الشديدة . فهو لم يكن يشغل فقط منصب رئيس الدولة والقائد الأعلى للقوات المسلحة ورئيس الأسرة الملكية الحاكمة وإنما كان أيضا قائدا على كافة مشايخ القبائل ( شيخ المشايخ ) . وهو بوصفه حامى حى الأماكن المقدسة فإنه اكتسب صفة حامى حى وراعى العقيدة الاسلامية .

ولكن عبد العزيز وجد مملكته تتعرض لازمة اقتصادية ناجمة عن الهبوط الشديد فى اعداد الحجاج ( وكان ذلك بسبب فترة الكساد العالمى ) مما أدى بالتالى الى انخفاض ضريبة الحج التى تسدد للحكومة . وتحت هذه الظروف الاقتصادية الصعبة فإنه منح امتيازاً للتنقيب عن البترول لشركة ستاندرد أويل بكاليفورنيا فى عام ١٩٣٣ فى مقابل ٥٠ ألف جنيه تسدد بالجنيهات الذهبية كسلفة من المبالغ المستقبلية التى ستحدد وفق الانتاج الفعلى من البترول . وعلى الفور بدأ التنقيب عن البترول فى منطقة الحساء . وبعد مرور خمس سنوات بدأ استخراج البترول بمعدلات اقتصادية ضئيلة .

وتوقف انتاج البترول بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية ولكن ما انتهت الحرب حتى تميز الانتاج من ٥٠ ألف برميل يوميا الى ٩٠٠ ألف برميل يوميا فى عام ١٩٥١ مما أدى الى تعاظم الازدهار

الاقتصادي الذي شغل المؤسسات المختلفة للدولة التي يشرف عليها عبد العزيز كما شمل بعض أفراد من أقرب اقربائه . ومع ذلك فإن الملك عبد العزيز لم يصدر قرارا بإنشاء مجلس للوزراء كهيئة استشارية الا في أكتوبر ١٩٥٣ أى قبل وثائقه بشهر واحد .

ودرت خمس سنوات قبل أن يقوم الحاكم الجديد وهو الملك سعود بن عبد العزيز باعطاء سلطات تنفيذية وتشريعية للوزراء . وقد اضطر لأن يفعل ذلك لسبب واحد وهو أن الشؤون الادارية للبلاد في ذلك الوقت كانت قد توقفت بالمثل بسبب النقص في الميزانيات وعدم وجود أنظمة حسابية مما جعله يصدر قرارا بتعيين الأمير فيصل بن عبد العزيز مسئولا عاما عن شؤون الدولة .

وفي عام ١٩٦٠ تم اعداد مشروع دستور ينص على أن الاسلام هو الدين الرسمي للدولة ويصف الملكية الخاصة ورأس المال الخاص بأنها « فئات أساسية للثروة الطبيعية » وينص على تشكيل مجلس وطني يضم عددا يتراوح من ٩٠ الى ١٢٠ عضوا بحيث يتم انتخاب ثلثي الأعضاء والباقي يتم تعيينهم بمعرفة الملك . ثم قدم مشروع الدستور هذا الى الملك سعود لكي يوافق عليه . الا أن الملك رفض الموافقة على هذه الوثيقة وقال « ان القرآن الكريم هو أعظم وأقدم وأكفأ دستور في العالم كله » .

ولكن الاطاحة بالنظام الملكي الديني في اليمن الشمالية في ٢٧ سبتمبر ١٩٦٢ قد أثار انزعاج وقلق الأسرة الحاكمة السعودية . وفي ٦ نوفمبر قام الأمير فيصل بن عبد العزيز باصدار برنامج من عشرة بنود تغطي المجالات الدستورية والدينية والتضائية والاجتماعية والاقتصادية في الدولة . وأشار البرنامج الى التزام بتحسين أحوال جماهير المواطنين المعادين من خلال اللجوء الى

تنمية اقتصادية مكثفة وتنفيذ « تشريع اجتماعي » . ووعد البرنامج بإصدار « قانون أساسى » ( بمعنى دستور ) يركز على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة . ويزود المواطن بالحقوق الأساسية بما فى ذلك « الحق فى التعبير بحرية عن رأيه فى نطاق المعتقدات الإسلامية والسياسة العامة » . كما تعهد هذا البرنامج بإدخال إصلاحات على جمعيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما يتمشى مع الشريعة الإسلامية . علاوة على إنشاء « مجلس قضائى أعلى » يضم عشرين عضوا من أجل تناول المشكلات القانونية بالمجتمع الحديث فى ضوء الشريعة . ( وبعد مرور ٢٥ سنة نجد أنه لم توضع صياغة مبدئية للدستور ناهيك عن صدوره . ولم يتم تشكيل المجلس القضائى الأعلى الذى سبق الوعد بتشكيله الا فى منتصف عام ١٩٧٥ ) .

فى داخل المملكة العربية السعودية نجد أن النظام الملكى الدينى متداخل فى نسيج متشابك مع السلطة العلمانية الدينية على جميع المستويات . فعلى المستوى المحلى نجد أن المؤسسة الدينية — الامام والعلماء والقاضى الدينى — تعمل فى ترابط مع الشؤون الادارية الحكومية بما يتمشى مع الخطوط والاساليب السابق اتباعها فى مستوطنات الاخوان الوهابيين . فالمطوعون — الشرطة الدينية — يقومون بتنفيذ قرارات الامام المحلى . وهم يحرصون على قيام الناس بتأدية الممارسات الإسلامية بكل دقة مثل اغلاق المحلات والدكاكين أثناء أوقات تأدية الصلاة ومثل ارتداء النساء للملابس الإسلامية متواضعة أثناء تواجدهن بالشوارع ومثل عدم تناول الخمر فى الأماكن العامة ومثل صوم رمضان والامتناع عن تناول الطعام من شروق الشمس الى غروبها . كما يقومون أيضا بتعليم المواد الدينية فى المؤسسات التعليمية والعمل على اتباع الناس للتعاليم الإسلامية فى كل مكان . وعلى المستوى

القومى يقوم بمساعدة الملك فى الشئون الدينية والقضائية وزير الشئون الدينية والعدل وهو عادة ما يكون من سلالة محمد بن عبد الوهاب كما يساعده فى هذا الشأن كبير القضاة الدينيين .

وفى عام ١٩٧٠ نجد أن منصب المفتى الأكبر ( ويسمى أيضا شيخ الاسلام ) وهو رئيس المحاكم الشرعية قد حل محله منصب وزير العدل . وسيرا وراء الأسلوب السابق نجد أن الوزارة الجديدة كان يرأسها عالم دينى موقر ينتمى لعائلة محمد بن عبد الوهاب التى تعرف باسم أهل الشيخ . وفى حين كان منصب المفتى الأكبر بمثابة سلطة دينية مستقلة فان وزير العدل من حيث هو عضو فى الحكومة كان من المتوقع منه أن يتبع تعليمات الملك . وهذا التغيير قد وضع اللامسات الأخيرة فى اخضاع العلماء الدينيين للسلطة السياسية التابعة للملك السعودى وهو موقف يذكرنا بما كان عليه الحال فى البلاط العثمانى . ولو أنه فى منتصف القرن الثامن عشر كان مؤسسو الأسرة المالكة السعودية ومؤسسو المذهب الوهابى يعتمدون على بعضهم البعض بصورة متساوية . ولكن التوازن قد تحول بشكل حاسم لصالح بيت سعود أثناء فترة حكم عبد العزيز . وحقيقة الأمر أنه لما استبدل عبد العزيز ( بشكل تدريجى ) بالقضاة الحنفيين بالحجاز قضاة من الحنابلة أصبح العلماء الدينيون يعتمدون فقط على الدولة فى اكتساب رزقهم ومنزلتهم الرفيعة . وبهذا الوضع تكون العربية السعودية قد سارت فى خط مماثل لمعظم الدول السنية الأخرى حيث يكون العلماء الدينيون معتمدين على الدولة فى اكتساب أرزاقهم .

ومع ذلك فانه يمكن القول أن العلماء الدينيين بالسعودية العربية يتمتعون بالمزيد من النفوذ والهيبة والسلطة عما هو الحال فى أى دولة سنية أخرى . فهم بمثابة العنصر الرئيسى فى اعضاء

صفة الشرعية على الحكم السعودي . اذ أصبح ذلك واضحا أثناء  
الازمة التي حدثت فى أوائل الستينات عندما اتضح أن الملك سعود  
ابن عبد العزيز غير كفء ومبذر . ففى أواخر مارس ١٩٦٤ أصدر  
١٢ من كبار العلماء الدينيين قرارا ينص على أن الأمر يستلزم قيام  
الأمير فيصل بن عبد العزيز بالانصراف على كافة الشؤون الداخلية  
والخارجية بدون استشارة الملك سعود ولكن مع بقاء الملك سعود  
فى منصبه كملك على البلاد . وكان فيصل وهو ابن من أم تنتهى  
لأهل الشيخ مشهورا بالتقوى والورع والصلاح والزهد والتقشف  
والحرص على النواحي المالية . وفى اليوم التالى قام سبعون من  
كبار الأمراء بتأييد رأى العلماء فى هذا الصدد . الا أن الملك سعود  
رفض أن يكون ملكا من الناحية الصورية أو الشكلية فقط . ووجه  
نداء للعلماء الدينيين لى يعيدوا النظر فى قرارهم . وفى ٢٩ أكتوبر  
١٩٦٤ تم عقد اجتماع سمرى يضم كافة كبار العلماء الدينيين  
وقرروا أن الأمر يستلزم تنفيذ رأى الشريعة الخاص  
بمرعاة « الصالح العام » وبالتالى توصلوا الى انه ينبغى على  
الملك سعود أن يتخلى تماما عن العرش لى يتربع فيصل على قمة  
السلطة بالبلاد . وقام حوالى مائة من كبار الأمراء باعلان موافقتهم  
على رأى العلماء . وفى مواجهة مثل هذا التيار الجارف من التحالف  
بين المؤسسة الدينية والفالبية العظمى من أفراد الأسرة الملكية  
الحاكمة اضطر الملك سعود الى التنازل عن العرش . وقدم تنازله  
عن العرش بالفعل فى ٢ نوفمبر ثم غادر البلاد . وقام فيصل  
بممارسة الحكم فى البلاد الى أن تم اغتياله فى مارس ١٩٧٥ على  
يدى أمير شاب يهوج بالاستياء والسخط .

ومن بين الأعمال المهمة التى يقوم بها كبار العلماء الدينيين  
تقديم المشورة بشأن سن الأوامر الملكية التى تسمى « نظام :  
والتي تنظم المجتمع السعودي فى تلك المناطق التى يكون فيها الفقه

غائبا أو غير كاف، أو غير متلائم مع العصر الحديث . والحكومة السعودية ترى أنها تصدر مثل هذه التنفيليات كجزء من جهودها الادارية الرامية الى تنفيذ وتطبيق الشريعة وليس من قبيل التوسع فى الشريعة أو ادخال تغييرات عليها . ومثل هذه الممارسة التشريعية متأصلة بعمق فى تاريخ الاسلام وترجع الى تسعة قرون على الأقل . وكان العثمانيون يستخدمون كلمة « قانون » للتعبير عن مثل هذه التشريعات . وأقدم نموذج لقانون صادر فى المملكة العربية السعودية كان هو القانون التجارى الذى أصدره عبد العزيز فى عام ١٩٣١ . وأثناء فترة حكم الملك سعود حدثت مراجعة على القانون التجارى بما يتماشى مع الخطوط الرئيسية للقانون التجارى العثمانى الخاضع لتأثيرات غربية مع الاعلان عن القوانين التى تتعلق بجنسية الأفراد والتزوير والرشوة والتعدين . ومن بين القوانين المهمة التى أصدرها الملك فيصل تلك القوانين التى تتعلق بالعمل والعمال والتأمين الاجتماعى والخدمة المدنية .

وبمثل هذه الأعمال مسموح بها وفقا للمذهب الحنبلى . وفى حين أن المذهب الحنبلى يطالب بالتطبيق الصارم والدقيق لما جاء بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية فإنه من للغاية فى المجالات التى لم يرد فيها نصوص صريحة بالقرآن أو الأحاديث النبوية . كذلك نجد أن القضاة الحنابلة لم يغلقوا الأبواب أبدا أمام « الاجتهاد » فى تلك الأماكن التى يكون فيها القرآن والأحاديث غامضا ومستغفرا على فهم الناس . والأكثر من ذلك أن القضاة يسمح لهم باختيار حكم فى موضوع معين من بين المذاهب الأخرى المعترف بها اذا كان المذهب الذى يتبعونه لم يتعرض لذلك الموضوع المعين أو كان مشوشا وغير واضح . وأخيرا يمكن القول بأن المذهب الحنبلى يقبل المبدأ الإسلامى العام بشأن « المصلحة العامة » أو « مصلحة المجتمع » التى عبر عنها — على سبيل المثال — العلماء عندما طالبوا باقالة الملك سعود .

وعندما يواجه الحكام السعوديون مشاكل تتعلق بمدى شرعية الاختراعات الحديثة أو المواقف الجديدة من وجهة نظر الاسلام فانهم كانوا يلجأون الى المعيار العام ألا وهو « مصلحة المجتمع » . وعلى هذا الأساس لم يجد عبد العزيز حرجا في استخدام التليفونات والسيارات والطائرات . إلا أن معظم الاخوان الوهابيين كانت لهم آراء مختلفة . اذ كانوا يرون أن هذه البدع الغريبة الشكل هي من عمل الشيطان . وتحت ضغوطهم اضطر عبد العزيز الى تأجيل استخدامه لهذه المخترعات الحديثة ولكن ليس لفترة طويلة .

ولكن الاخوان الوهابيين لم يكونوا هم فقط الذين عارضوا استخدام التكنولوجيا الحديثة . اذ عارض ذلك أيضا بعض كبار العلماء الدينيين . فعندما وصل الأمر الى استخدام الراديو نجد أن الشيخ عبد الله بن حسين رئيس القضاء بالحجاز اعتقد أن الشيطان نفسه هو الذي ينقل الكلام عبر الهواء وأن جميع العاملين في محطات الاذاعة بالملكة يعبدون الشيطان . فحرص عبد العزيز على اذاعة القرآن الكريم من محطة اذاعة الرياض لكي يسمع ذلك الشيخ عبد الله بن حسين وهو متواجد في مكة ولكن يبرهن له أن الشيطان ليس له علاقة بهذا الموضوع . فمن غير المعقول أن ينقل الشيطان كلام الله ولو لمسافة متر واحد الى الأمام . ومنذ ذلك الوقت فصاعدا أصبح الراديو هو من معجزات الله سبحانه وتعالى .

ومعقب التوسع في أعمال التنقيب عن البترول واستخراجه تزايد تواجد المهندسين والعمال الفنيين الأمريكيين في المملكة العربية السعودية . فانتقد أبو باز Abu Baz وهو زعيم وهابي سابق الملك عبد العزيز على ذلك وذهب في تقديراته الى أن الملك يساعد الكفار على تحقيق الأرباح المالية من وراء المسلمين . فقام

عبد العزيز باستدعاء أبو باز ومجموعة أخرى من كبار العلماء الدينيين الى قصره بالرياض . وأظهر لهم كيف أنه ضليع فى التاريخ الإسلامى وأشار الى حالات عديدة قام فيها النبى محمد بتشغيل أناس غير مسلمين من أجل أن ينجزوا أعمالا معينة . ثم سألهم : « هل أنا على خطأ أو على صواب ؟ » فرد عليه الحاضرون قائلين له أنه على صواب . ثم استطرد عبد العزيز قائلاً : « اذن فهل أنا أتخطئ الشريعة عندما أستخدم خبراء أجانب للعمل من أجلى . . وتحت اشرافى وتوجيهاتى بهدف زيادة الموارد المادية للبلاد وبهدف الحصول على الربح الخاص بنا من المعادن والبترول والمياه التى وضعها الله تحت أراضينا من أجل أن نستخدمها ؟ » . فاجتمعت آراء المتواجدين بالجلسة على أن الملك لم يخرق قوانين الشريعة . وأوضح الملك أن الأمريكيين والبريطانيين هم من أهل الكتاب وبذلك نهم مفضلون على الوثنيين والمرتدين عن الدين .

وتجادل عبد العزيز مع العلماء بشأن التصوير الفوتوغرافى . وأوضح أن الاسلام يمنع أو ينهى عن تدخل الانسان فى خلق الاشكال والقوالب البشرية بمعنى أنه ينهى عن كافة الفنون المكتوبة أو المرسومة التى تحتوى على أشكال وقوالب بشرية . ثم أشار عبد العزيز الى أن التصوير الفوتوغرافى ليس سوى تجاوز للضوء والظل المخلوقين بمعرفة الله . وهو بذلك أمر مختلف تماماً عن الفنون التشكيلية والرسم بالزيت وغير ذلك . وبذلك أصبح التصوير الفوتوغرافى مسموحاً به فى السعودية العربية . ومن نفس هذا المنطلق حاول الملك فيصل ادخال التليفزيون فى عام ١٩٦٥ . وقد واجه معارضة عنيفة من العلماء الدينين المحافظين . ولذلك حرص الملك فيصل على الاكتفاء ببث الصلاة وتلاوة القرآن الكريم والندوات والمناقشات الدينية فى بادىء الأمر .

وفى حين كان عبد العزيز ومن جاءوا بعده فى الحكم يتوددون



من وقت لآخر للعلماء لى يوافقوا على ادخال التكنولوجيا الحديثة والتطوير الاقتصادى السريع الى البلاد فانهم كانوا متفقين شى الرأى تماما مع العلماء من حيث أنه ينبغى على أهالى المملكة السعودية العربية الا يتخلوا عن أساليبهم التقليدية فى الحياة والتفكير ويجب أن يبتعدوا عن الأساليب الغربية . وهذا ينطبق بصفة خاصة على عبد العزيز الذى كان يؤمن بأن الأوروبيين أو الأمريكان ليسوا أكثر تحضرا من الأهالى بالسعودية العربية . ونظرا لأن العربية السعودية لم تتعرض أبدا لآى استعمار غربي كما لم يحكمها حكام محليون لهم الطابع الغربى ومعجبون بالأساليب الغربية فى الحياة فان ملوك السعودية كانوا يؤمنون ايماننا راسخا بأن الاسلام من حيث هو نظام أخلاقى اجتماعى أفضل وأسمى وأرقى من أى نظام آخر .

ومع التوسع فى صناعة البترول ومع زيادة اعداد الناس الاجانب من مسلمين وغير مسلمين ومع زيادة سفر السعوديين أنفسهم الى الدول الأجنبية وحصولهم على شهادات علمية من الجامعات الغربية بدأت المملكة العربية السعودية تنمى بعض الشىء جانباً من وجهها الصارم المتزمت . فأدى هذا الى شعور العلماء والملك بالقلق والانعراج . ولذلك أصدر الملك فيصل فى خريف عام ١٩٦٧ بياناً حذر فيه الشباب السعودى من الانحلال فى السلوك والملبس كما أصدر أوامره بأن يتوقف الموظفون المدنيون عن العمل لدى حلول أوقات الصلاة وأن يتم الفصل بين الأولاد والبنات بالمدارس اعتباراً من سن التاسعة وأنه ينبغى على الاناث اعتباراً من سن التاسعة فصاعدا ارتداء الحجاب . وقد ساند العلماء هذا البيان فى حماسة شديدة .

وكان العلماء آنئذ يحصلون على مرتبات عالية وكانوا يحظون بقدر هائل من التبجيل والاحترام . وكانوا يحرصون على مداومة

الاتصال بجماهير الناس بهدف تقديم المشورة لهم فيما يتعلق  
بالمشكلات الشخصية علاوة على التوسط فى المنازعات ومساعدة  
المواطنين فى معاملاتهم مع البيروقراطية . وكانوا يديرون شئون  
النظام القضائى حيث كانت تنفذ عقوبات « الحد » الخاصة  
بالشريعة الإسلامية : الا وهى المعاقبة بالجلد لمن يشرب الخمر  
وقطع اليد بالنسبة للسارق والرجم بالحجارة حتى الموت بالنسبة  
للأشخاص المتزوجين الذين يرتكبون الزنا . وكانت محاكم الشريعة  
التي يترأسها العلماء تلقى كل احترام من الجماهير لأنها من وجهة  
نظرهم تتسم بالعدالة . وكان العلماء يقدمون المنح الدينية الوفيرة  
التي تتمثل ليس فقط فى بيوت الشباب العديدة التي تمنح لكى  
يستخدمها الفقراء من الحجاج وإنما أيضا فى جامعة الامام ابن  
سعود الإسلامية المتواجدة بالرياض . وكان العلماء هم المسؤولين  
عن تنظيم الحج الذي يستمر على مدى ستة أيام والذي امتدب فى  
منتصف الستينات اعدادا تصل الى مليون مسلم من داخل السعودية  
 وخارجها . وكانوا يديرون جميعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر  
 ويشرفون على المطوعين ( الشرطة الإسلامية ) التابعين لهذه  
الجمعيات . وكان المطوعون المزودون بالعصى والهراوات يرغبون  
أصحاب الدكاكين والمحلات على الاغلاق فى أوقات الصلاة ويحطمون  
الدميات الموجودة بالحانات ( على أساس أن أى دمية تشبه  
الأوثان ) ويشتمون غارات على المساكن أو المخازن التي يشتبه أن  
بها مشروبات كحولية ويخسرون بالعصى على سيقان النساء  
الأوربيات لأن سيقانهن مكشوفة أمام أعين الناظرين .

وفى العربية السعودية نجد أن دور المرأة محدد على نحو  
حاسم وفقا لما هو وارد فى القرآن الكريم : وهذه القيود تنطبق  
على كافة النساء سواء كن مسلمات أو غير مسلمات . فوضع  
المرأة ينبع من المقدمة المنطقية التي تفيد بأن الأسرة هى الركن

الأساسى فى المجتمع الإسلامى وأن الدولة الإسلامية ينبغى أن تخلق بيئة لا يشعر فيها الرجال بالرغبة فى الانغماس أكثر من اللازم فى العلاقة الجنسية الزوجية مما يؤدى إلى تقويض الأساس الذى تقوم عليه الحياة العائلية . ومن هذا المنطلق ينبع الحظر المفروض على قيام النساء بقيادة السيارات أو السفر بمفردهن أو العمل جنباً إلى جنب مع رجال ليسوا أقرباء لهن . وهناك رأى عام سائد بين العلماء وآخرين مفاده أن الإسلام فى حقيقة الأمر قد رفع من شأن النساء بالعربية السعودية فى خلال القرن السابع وذلك بمنحهن الحق فى الزواج والطلاق والميراث . ونظراً لأن الرجال — بوجه عام — مستقرون عاطفياً وأعلى وأسمى من الناحية الذهنية والثقافية فقد أصبح لهم الحق فى أن يقودوا المجتمع بوجه عام والأسرة بوجه خاص . أما دور المرأة الرئيسى فيحصى فى أنها زوجة وأم . ومن ثم ينبغى أن يكون تعليمها موجهاً أساساً وفق هذه الخطوط .

وكانت هناك معارضة فى تعليم المرأة فى حد ذاته بالملكة العربية السعودية من جانب العلماء الدينيين . ولكن فيصـل بالاشتراك مع زوجته ( وهى زوجة واحدة فقط حيث لم يتزوج من أخرى على الإطلاق ) التى تسمى عفت بنت أحمد الثنيان al Thunayan هما أول من أدخلتا تعليم الفتيات فى عام ١٩٦٠ . إذ ذهب فيصل فى مجادلاته إلى أن القرآن أنعم بالتعليم على كل إنسان مسلم سواء أكان ذكراً أم أنثى . ورغم كل ذلك فلم يوافق العلماء على هذا الرأى رسمياً إلا بعد مرور سنوات قليلة .

وكان فيصل يتبع بشخصية كبيرة بين العلماء الدينيين قبل وبعد أن أصبح ملكاً على البلاد . وهو يهت بصلة القرابة من خاذل والدته إلى عبد الوهاب صاحب المذهب الوهابى .

وكان يبذل يعيش حياة تنسم بالصرامة والزهد والتشرف والصبر والجد كما كان يتصف بالتقوى والورع على نحو أسطوري . وقد قام برمح أجور ومربيات العلماء الدينين وفي نفس الوقت شدد من سيطرة الدولة عليهم . كما قام بإدخال أسلوب السيطرة على الأسعار والائراف عليها علاوة على اهتمامه بالخدمات التعليمية والصحية مما زاد من التأيد الشعبي له .

كما أن حرب أكتوبر ١٩٧٣ العربية الاسرائيلية قد زادت من هيئته ونفوذه . فهو قد حقق هدفين في آن واحد عندما قاد في حماسة عملية فرض الحظر على تصدير البترول للدول التي تساند اسرائيل . الهدف الأول أنه أوضح للجميع أنه زعيم مؤمن بالقومية العربية والهدف الثاني أنه ساعد على رفع سعر البترول . فاذا كانت الخطة الخمسية الأولى ١٩٧٠ — ١٩٧٥ قد تكلفت ٨ بلايين دولار فإن الخطة الخمسية الثانية ١٩٧٥ — ١٩٨٠ قد وصلت الى ١٤٢ بليون دولار . وكان أكثر من ٨٠٪ من اعتمادات الخطة الخمسية الأولى مخصصة لبناء أو التوسع في البنية الأساسية للطرق والمواصلات ومحطات توليد الطاقة الكهربائية . وكان لا يمكن تنفيذ هذه الخطط الملموح بدون الاستعانة بأعداد هائلة من العمال الأجانب من دول عربية وغيرها من الدول الأخرى . وقد أدى تواجد عدد كبير من الناس المعزبان غير المتزوجين في السعودية الى خلق عدد كبير من المشاكل الاجتماعية وغيرها من المشاكل الأخرى .

والمجتمع السعودي في حد ذاته قد طرأت عليه تغييرات اجتماعية عميقة . فالانتاج الوفير للنفط من البترول قد أدى الى توسع سريع ودرامي في المراكز الحضرية كما أدى الى الاختفاء السريع للقرى والقبائل البدوية . ففي منتصف السبعينات كان

البدو الرحل لا يشكلون سوى ١٠٪ فقط من مجوع السكان البالغ عددهم ٢٤ مليون نسمة . كما أن انتشار وتسديد الطابع الحضري والتجاري قد قوض وهدم الولاء القبلي ومما عمق ذلك التقويض هو قيام الحكومة بتوفير مصادر الامداد بالمياه علاوة على عدم تشجيع القبائل على الارتباط بأبار مياه معينة أو مناطق للرعى محددة .

ومن جهد أخرى نجد أن الزيادة الهائلة في البترول قد ساعدت على تماسك الأسرة الملكية المتزايدة الأعداد بشكل كبير للغاية . إذ كان عدد الأمراء آنئذ قد وصل الى ما يزيد على ٤٠٠٠ أمير . ينحدر نصفهم مباشرة من عبد العزيز والنصف الآخر ينحدر من أخوة عبد العزيز الخمسة ومن أبناء أعمامه . وكان من بينهم من يشغل أهم المناصب المدنية والعسكرية . ويمكن القول بأن الأسرة الملكية السعودية بأعدادها الهائلة كانت تماثل نظام الحزب الواحد الحاكم في الكثير من دول العالم الثالث العلمانية .

ومع ذلك كان هناك دائما شيء من السخط والتبرم من الحكومة . مثال ذلك أن الأمير طلال قد لجأ الى مصر في أغسطس ١٩٦٢ التي كانت تحت قيادة عبد الناصر الذي كان معاديا للملك فيصل . وشكل « جبهة تحرير المملكة العربية السعودية » وبعدئذ هدأت ثورته وعاد الى السعودية حيث لقي الترحيب من الأسرة الملكية مرة أخرى . وفي أغسطس ١٩٦٥ قام أمير آخر يسمى خالد بن مساعد بالاشتراك مع أتباعه في الهجوم على محطة الارسال التليفزيوني بالرياض . فتعرضت لهم شرطة الأمن وقتلته هو ورفاقه . وقد اتضح فيما بعد أن الأمير خالد بن مساعد كان قائدا لحركة احياء الاخوان الوهابيين وأنه كان يعارض خطط فيصل الرامية الى اضعاف الطابع الحديث على البلاد حيث كان قد عبر عن ذلك في أحاديثه الخاصة مع المقربين

اليه قبل أن يقوم بالهجوم الدرامى على محطة التليفزيون بالرياض . . وبعد حوالى عشر سنوات وفى يوم ٢٥ مارس ١٩٧٥ قام أخوه الأصغر فيصل بن مساعد باغتيال الملك فيصل وكان هذا الأمير البالغ من العمر ٢٨ عاما لديه أسباب شخصية وسياسية تدعوه الى هذا الاغتيال . اذ كان ينتقم من مقتل أخيه الأكبر الذى هاجم محطة التليفزيون . وأيضا كانت العداءات الداخلية بين القبائل من بين الأسباب نظرا لأن والدته هذين الأميرين كانت تنتمى لقبيلة الرشيدى وهى منافسة لتبليدية لبني سعود . وكان فيصل ابن سعود مخطوبا لابنة الملك سعود الذى عزل عن العرش من خلال الدور الحاسم الذى لعبه الأمير فيصل بن عبد العزيز . وقد اتضح فيما بعد أن الأمير الشاب كان يتلقى تدريبات عسكرية فى إحدى معسكرات التدريب الفلسطينية المتواجدة فى لبنان وذلك يدل على أن ذلك الأمير الشاب كان راديكاليا من نوع ما من الناحية السياسية .

وكانت توجد معارضة للنظام الملكى من جانب الأوساط العلمانية . ألا وهم القوميون العرب الذين قاموا بدور الناصريين أو البعثيين أو الماركسيين . وفى السبعينات بدأت مجموعات المعارضة هذه -- التى كانت تعمل فى سرية تامة -- فى الاضمحلال كنتيجة لنجاح الحكومة السعودية فى استقطاب الخصوم والمعارضين لها . غلحت محلهم مجموعات الأصوليين . اذ كان احياء الاخوان الوهابيين بمثابة جزء من تلك العملية . وفى أواخر السبعينات بدأوا يتخذون طابع الهجوم الدرامى على مدى شرعية النظام الملكى السعودى .

وعندما اعتلى الأمير خالد العرش فى مارس ١٩٧٥ كان اقتصاد السعودية يدخل فى مرحلة ازدهار سريع وهائل للغاية . وقد اسفر هذا الازدهار المتعاظم وما صاحبه من مشكلات اجتماعية ودينية عن ظهور خلاصات فى رأى فى داخل نطاق

الطبقة العليا الحاكمة اذ ظهرت مجموعة بقيادة الملك خالد والأمير عبد الله رئيس الحرس الوطني تتبنى فكرة السير ببطء فى مجال التصنيع مع المزيد بالتمسك بالمذهب الوهابى . أما المجموعة الثانية فكانت بقيادة الأمير فهد ولى العهد والأمير سلطان وزير الدفاع وهؤلاء كانوا يرغبون فى السير بخطوات أسرع فى مجال التصنيع مع ادخال المزيد من التحرر الدينى والثقافى وعقد المزيد من الروابط الحميمة مع أمريكا .

وكانت المملكة العربية السعودية متسمة بالكرم عندما اشترت مسندات ضمان من الخزانة الأمريكية بهدف تدعيم ومساندة الدولار الأمريكى الأخذ فى التدهور . كما قامت السعودية بتقوية روابطها فى مجال المخابرات مع وشنفلتون . كما كانت العلاقات السعودية مع الغرب قد أصبحت قوية للغاية حتى أن عدد الطلبة السعوديين بالجامعات فى الدول الغربية وخاصة فى أمريكا كان أكبر بكثير من عدد الطلبة السعوديين بالجامعات المحلية بالسعودية والبالغ عددهم ١٤٥٠٠ طالب . كما أن تنفيذ الخطط الطموح الاقتصادية منها والعسكرية بما فى ذلك تشييد ثلاث مدن عسكرية قد أدى الى ارتفاع سريع فى التواجد الأمريكى بالمملكة السعودية . وفى أوائل عام ١٩٧٧ أصبح عدد الموظفين الأمريكىين المدنيين والعسكريين ٣٠ ألفا : أى خمسة أضعاف عددهم فى عام ١٩٧١ . وهم هم إنجازهم للأعمال اليومية كانوا يتعاملون فى الغالب مع الوزراء السعوديين وكبار المسؤولين المدنيين السعوديين الذين كانوا هم أنفسهم حاصلين على تعليم أمريكى ومعتادين على أسلوب الحياة الأمريكية .

ووصل الفساد وأعمال الابتزاز فى مجال التعاقدات بالقطاع العام والقطاع الخاص الى نسب لم يسبق لها مثيل مما أسفر عن

ظهور امراء يملكون البلايين من الدولارات . وصاحب هذا ظهور تدهور شديد فى المبادئ الأخلاقية العامة وساد السلوك غير الإسلامى بين الكثيرين من الأمراء وأسسدت قوائم المقربين والتجار الأغنياء تحت ستار من السرية التامة فى داخل قسورهم ، بما فى ذلك احتساء الخمر ولعب القمار والزنا مما جعل القصص والشائعات تتناقل بين الناس فى داخل السعودية وخارجها . كما كان هناك شعور متزايد بالسخط والاستياء من التواجد الأمريكى الهائل وتزايد أعداد الأمريكيين العاملين فى القطاع الحربى وقطاع صناعة البترول بل فى الحرس الوطنى .

وبعد أن أصبح خالد بن عبد العزيز ملكا على السعودية راح يفكر على الفور فى انشاء مجلس استشارى الا أن شيئا من هذا القبيل لم يحدث بالفعل على الاطلاق . وفى منتصف عام ١٩٧٨ عارض مهد ولى العهد فكرة الحكومة النيابية وقال : أن الانتخابات لن تتيح الفرصة لأكثر الناس كفاءة من الوصول الى المناصب القيادية الحكومية : الا وهم الشباب السعودى الذين تلقوا تعليمهم الجامعى فى داخل السعودية أو فى الدول الغربية . وأضاف قائلا : « لقد أنفقنا الكثير من الأموال من أجل تعليم هؤلاء الشباب ونحن نريد الآن أن نجنى ثمرة هذه الاستثمارات وتلك الأموال التى أنفقناها على تعليمهم » . وقد أدلى بهذا التصريح لمجلة « التايم » واستطرد قائلا : « ولكننا اذا قمنا بإجراء انتخابات .. فان كبار التجار الأغنياء هم الذين سيفوزون » .

ولكن الاطاحة بالديكتاتور محمد رضا بهلوى بمعرفة حركة اسلامية جمهورية شعبية بقيادة آية الله الخمينى فى فبراير ١٩٧٩ قد سبب ذعرا للأسرة المالكة السعودية . وراحت وسائل الاعلام الايرانية — وخاصة الاذاعة الايرانية — تهاجم أسلوب الحياة غير



الاسلامى للكثيرين من أفراد بيت سعود . فاضطر الملك خالد الى اصدار أوامر تنص على عدم قيام أى أمير بالذهاب فى أجازة الى الخارج خلال شهر رمضان حيث كان الأمراء وعائلاتهم قد دأبوا على تجنب الصوم الذى يبدأ من شروق الشمس حتى غروبها من خلال السفر الى دول اجنبية . وقد قُطِعَ رأس أميرة واحدة على الأقل بسبب ارتكاب جريمة الزنا . وتم بث النشاط مرة أخرى فى جمعيات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فبدأت تمارس نشاطها وأغلقت صالونات التجميل وصالونات الحلاقة والكوافير ومنعت النساء من ارتداء الملابس الجديدة فى داخل محلات بيع الملابس بهدف اختيار المقاس الذى يتلاءم معهن . بل قامت الحكومة بفرض حظر على كافة الخدمات غير الاسلامية بما فى ذلك فصول تثبيت العباد بالمدارس الاجنبية المتواجدة بالملكة السعودية . كما فرض الحظر على بيع الصلبان حتى لو كانت على هيئة جواهر . وقد كان هناك حظر مستمر منذ أيام عبد العزيز على بناء أى كنيسة أو معبد تابع لى عقيدة غير اسلامية .

وخلال موسم الحج فى أكتوبر/نوفمبر استعدت السلطات السعودية لوصول الحجاج الايرانيين الممثلين بالحساسة الثورية وقد تملكهم الخوف والرعب من الايرانيين . الا أن مراسم الحج مرت فى هدوء وسلام . ولكن فى ١ محرم ( الموافق ٢٠ نوفمبر ١٩٧٩ ) الذى يوافق اليوم الأول فى القرن الخامس عشر الهجرى الاسلامى تعرض بيت سعود لهزة بالغة العنف .

فى تمام الساعة الخامسة والثلاث صباحا من ذلك اليوم قام حوالى ٤٠٠ من المقاتلين الاسلاميين المزودين بالأسلحة والذين يسمون أنفسهم : الاخوان بالاستيلاء على المسجد الكبير فى مكة الذى يعتبر أكثر المساجد تقدسا فى الاسلام . وكان القائد

العسكري لهذه المجموعة هو جهينة بن سيف العتيبة Juhaiman  
Ibn Saif al Utaiba البالغ من العمر ٤٠ عاما بالإضافة  
الى زعيمهم الديني البالغ من العمر ٢٧ عاما والذي يسمى محمد بن  
عبد الله القحطاني وهو شقيق زوجة جهينة .

لقد ولد جهينة في عام ١٩٣٩ في مستوطنة عتيبة بمنطقة  
سجيرة Sajir الواقعة بالتليم قاسم الغربي/الأوسط Qasim  
وهو حفيد لمقاتل اخواني مات أثناء معركة سبيلة Sabila  
في عام ١٩٢٩ في القتال الدائر ضد عبد العزيز . وقد شب عن  
الطوق عندما كانت ذكريات تلك المعركة مازالت ماثلة في عقول  
القبائل العربية . وبينما كانت سنه تحت العشرين عاما التحق  
بالحرس الوطني ووصل الى رتبة عريف ولكن يبدو أن النظام  
العسكري أحبط من ولائه الشديد لأسرته وزاد من معارضته لتواجد  
الأشخاص الغربيين غير المسلمين في مؤسسات المملكة ( بما في  
ذلك الحرس الوطني ) وفي كل مكان آخر . فترك الحرس الوطني  
في عام ١٩٧٢ بعد أن كان قد أمضى به ١٥ عاما . والتحق بجامعة  
المدينة المنورة الاسلامية وهي مؤسسة كان قد أنشأها كبار قادة  
الاخوان المسلمين المصريين في عام ١٩٦١ بعد أن أقنعوا الملك  
السعودي أن الرئيس جمال عبد الناصر يسعى استخدام الأزهر  
الشريف وأن الأمر يتطلب إنشاء مركز بديل آخر للدراسات  
الاسلامية وتدريس الدين الاسلامي . وفي هذه الجامعة أصبح  
جهينة أحد تلامذة الشيخ عبد العزيز بن باز Baz رئيس  
الجامعة منذ عام ١٩٦٩ والذي أصبح فيما بعد رئيس مجلس  
العلماء الدينيين . وكان الشيخ ابن باز يبنى فكرة العودة الى  
رسالة القرآن والأحاديث النبوية الشريفة كما كان ينتقد في قسوة  
وعنف اية بدع أو ابتكارات من أي نوع . وتشرب جهينة تعاليم  
ابن باز ويطبقها على تصرفات وأعمال الأسرة الحاكمة السعودية

وانتهى نى رأيه الى أن الحكام السعوديين قد حادوا عن طريق الاسلام الحقيقى . وهذا الموقف المتشدد من جانب جبهة اراء بيت سعود قد خلق تصدعا فى العلاقات بينه وبين ابن الباز مما أدى فى نهاية الأمر الى طرد جبهة فى عام ١٩٧٤ .

فهاد جبهينه برفقة عشرة من أتباعه الى منطقة قاسم Qasim التى نشأ فيها وبدأ يلقي الخطب والمواعظ الدينية التى تتمشى مع أفكار الشيخ محمد بن عبد الهاب التى كانت سائدة فى منتصف القرن الثامن عشر . وكان جبهة شخصية تتميز بحب الخير للناس والشماعة كما كان قائدا بطبيعته . علاوة على أنه كان شاعرا محبوبا وكاتب ناجحا فى المسائل التى تتعلق بالشئون الاسلامية . وشرع فى إقامة خلايا فى العديد من المستوطنات البدوية بمنطقة قاسم . وفى عام ١٩٧٦ ذهب هو وأتباعه المقربون الى الرياض . وهناك قام بطبع ونشر كتاب صغير تحت عنوان « أسس الولاء والطاعة : سوء التصرف لدى الحكام » . وهاجم فى هذا الكتاب الحكام السعوديين لأنهم حادوا عن الشريعة لأنهم ينسبون بالشراسة والفساد وسوء استخدام القوانين بهدف تحقيق منافع خاصة بهم بالاضمان الى اختلاطهم مع الملحدين والكافرين .

وفى صيف عام ١٩٧٨ قامت الحكومة بالقضاء القبض على جبهة وعلى ٩٨ من أتباعه بالرياض . وتم استدعاء الشيخ الباز من المدينة لى يعقد مقابلة شخصية معهم . وأشار الشيخ الباز الى أن الأفكار التى ينشرونها لا تتسم بالخيانة . وبذلك انتهت فترة احتجازهم التى دامت ستة أسابيع بعد أن تعهدوا بعدم اللجوء الى أعمال هدامة أو دعائية .

وظلوا موزعوين تحت الرقابة الشديدة . ولكن جهينة ورماته تمكنوا من الاثبات من عملاء المخابرات . ودأب جهينة على الوعظ سرا وأضـاف فكرة المهدي المنتظر الى المذهب الروماني التقليدي . والمفهوم الذهني عن المهدي المنتظر الذي سيعيد الايمان الى قوته ليس أمرا محـددا بوضوح في المذهب السنـي مثلما هو واضح في اليهودية والمسيحية والمذهب الشيعي الاسلامي . فالمفهوم الذهني السائد بين السنـيين يتعلق بالمجدد أو الشخص الذي سيحيي لكي يحدد العقيدة . وهذه الفكرة قد وردت في حديث رواه أبو هريرة الذي كان مرافقا للنبي محمد وسجله أبو داود Abu Daoud . وهذا الحديث النبوي يـشير الى أنه سيظهر مجدد كل مائة سنة لكي يدافع عن السنة ويحميها من البدعة . وهذا يعني أن المجدد ليس « مسيحا » وليس « مهديا منتظرا » وربما لا يعرفه أحد ألا يعد أن ينتقل الى رحمة الله . مثال ذلك أن الكثيرين من المسلمين يعتقدون أن حسن البنا ليس سوى « مجدد » . أما المهدي المنتظر فانه يدعى أنه موفد من قبل الله وينظر اليه الناس على أنه « مسيح » أثناء فترة حياته على وجه الأرض . ومن أوائل الكلام الذي أشار الى المهدي المنتظر هو ذلك الذي ورد في مقدمة عبد الرحمن بن خلدون ( ١٣٣٢ — ١٤٠٦ ) وهو مؤرخ عربي بارز . وهذا هو ما جاء في كتاب ابن خلدون : « لسوف ينشأ نزاع عقب موت خليفة . ولسوف يندلق رجل من المدينة ذاهبا على وجه السرعة الى مكة . وبعدئذ سيجيء اليه بعض الناس من أهالي مكة ويجعلونه يخرج بدون أن تكون له الرغبة في الخروج ولسوف يقسمون يمين الولاء والطاعة بين الركن ( فناء المسجد الكبير ) ومقام ابراهيم ( بناية بجوار الكعبة تضم حجرا به أثر لقدم النبي ابراهيم ، ولسوف يرسل ضده الجيش من سوريا . الا أن ذلك الجيش سوف تبطلعه الأرض في الصحراء الواقعة ما بين مكة والمدينة المنورة ) .

وعكف جينة العتيبي على دراسة ما كتب عن المهدي في دقة كبيرة وشام بنشر هذه الدراسة في أغسطس ١٩٧٩ في كتابه الصادر تحت عنوان « دعوة الاخوان » . وأدرك أن شخصية المهدي تنطبق على محمد بن عبد الله القحطاني وهو طالب سابق بالجامعة الاسلامية بالرياض لأن اسمه الأول مماثل لاسم النبي محمد بالإضافة الى أن اسم أسرته كان مشتقا من كلمة قحطان الذي هو الجد الأسطوري للعرب . كما أشار في المادة العلمية التي كتبها الى تلك الفكرة الشائعة بين السنيين والتي تفيد بأنه يظهر في العالم الاسلامي « مجدد » كل مائة سنة . وكان القرن الاسلامي الجديد من المقرر أن يبدأ في ٢٠ نوفمبر الموافق ١ محرم وتوقع هو وزملاؤه أن يكون الملك خالد متواجدا في ذلك اليوم في المسجد الكبير بمكة لكي يؤدي صلاة الفجر وكان جهينة العتيبي هو الشخص الملائم تماما للقيام بمثل هذا التمرد ضد بيت سعود نظرا لأنه يتميز بالخبرة في الشؤون العسكرية ونظرا لأنه يرغب في الانتقام لمقتل جده الذي كان من الاخوان الوهابيين ونظرا لاتباعه بشدة التقوى والورع ونظرا لايمنه بالتقليد القبلي القديم الخاص بمكة الثواب والعقاب .

وأثناء موسم الحج قام جهينة العتيبي بارسال رسائل لاتباعه في الريف لكي يجمعوا في المسجد الكبير بمكة في ليلة العيد الهجري الجديد . ففعلوا ذلك وراحوا يجمعون الأسلحة ويخفونها في مخازن المسجد الذي يشغل مساحة شاسعة .

ورغم أن الملك خالد لم يتم العثور عليه في داخل المسجد الكبير لأداء الصلاة في ذلك اليوم المحتوم فان جهينة العتيبي ومنه محمد القحطاني قررا تنفيذ خططهما . وبعد أن قام أتباعهما باغلاق بوابات المسجد الكبير البالغ عددها ٤٨ بوابة قام جهينة بالقاء

خطاب أوضح فيه أيديولوجيته وأفكاره الأساسية . فأشار إلى أنه ينبغي على المسلمين الصادقين في إيمانهم أن يسيروا على نهج النبي محمد المتمثل في الوحي ونشر الدعوة والكناف المسلح . . وينبغي على المسلمين الصادقين في هذه الظروف الراهنة أن يحملوا على الاطاحة بحكومتهم السعوديين الحاليين . لأن هؤلاء الحكام تنقصهم الخصال والصفات الإسلامية ولأنهم قد فرضوا على جماهير الشعب وعلى كل حال فلا يوجد في الإسلام مكان الملوك أو الأسر الملكية الحاكمة . والحاكم المسلم الشرعي ينبغي عليه أن يحكم ونفا للشرعية ويجب أن يكون إنسانا مسلما وتصفا بالورع والتقوى وينبغي أن يكون نابعا من قبيلة فريش وينبغي أن يتم اختياره بمعرفة الأمة الإسلامية . ولكن كل هذه الشروط لا تنطبق على الملوك السعوديين . والإسلام ينبغي أن يكون مرتكزا على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وليس على التقليد الأعشى للتفسيرات والتشويح التي يقدمها العلماء الدينيون بثما هو الحال في شبه الجزيرة العربية المعاصرة . ومن هنا ينبغي على المؤمنين أن يعزلوا أنفسهم عن نظام الحكم الحالي بأن يرفضوا كافة الوظائف الرسمية . والمهدى المنتظر سوف يجيء من بيت النبي من خلال ذرية الأسام الحسين بن علي لكي يقضي على الفسق والفساد ويجلب السلام والعدالة للمؤمنين . وأن من الواجب على كافة المسلمين الصادقين أن يشيدوا أمة تحمي الإسلام من الكفرة وتحجبهم عن ممالأة الأجانب غير المسلمين . وقصاري القول أن جريئة العتيبي قد وجه نداء من أجل الاطاحة بالأسرة المالكة السعودية علاوة على قطع العلاقات مع الغرب الماخذ التناثر . وأشار جهينة إلى أن القحطاني هو المهدى المنتظر ثم أشار إلى التقاليد القديمة التي تقول : « أن المهدى ورجاله سوف يلجأون إلى المسجد الكبير لكي يحتووا في داخله لأنهم مضطهدون في كل مكان إلى الا يصبح أمامهم أي مكان يلجئون إليه سوى المسجد الكبير » . فأصيب آلاف الناس

الاحتشدون بالمسجد بالذهول الشديد من هذا الحادث وذهلوا من السرعة الهائلة التي تمكن بها المقاتلون المسلحون من الاستيلاء على المسجد الكبير الذي يشغل مساحة شاسعة حيث أن فناء ذلك المسجد يتسع لاستيعاب  $\frac{1}{2}$  مليون شخص .

وكان من المهم أن احياء الاخوان بقيادة جبهة العتيبي والقحطاني وتحدى انحراف الملك خالد عن الاسلام الحقيقي وتحالفه مع الأمريكان كان اجراء مشابها لما قام به الاخوان الأقدمون الأوائل الذين حاربوا الملك عبد العزيز بسبب ابتعاده عن الايمان الحقيقي . وبسبب تحالفه مع البريطانيين .

واستدعى الملك خالد مجلس العلماء لكي يصـددروا حكماً بالنسبة لاقتحام المسجد الكبير . فسارع المجلس الى الاشارة للآية القرآنية : « ( ولا تقتلواهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه . فان قاتلوكم فاقتلواهم كذلك جزاء الكافرين ) » صدق الله العظيم . . سورة البقرة . آية رقم ١٩١ .

وقد اتضح أن عملية استعادة المسجد الكبير كانت عملية دموية وملتوية بالنسبة للحكومة . اذ كان عليها أن تنشر عشرة آلاف جندي من قوات الأمن الحكومية علاوة على الآلاف من الجنود الباكستانيين بالاضافة الى كتبة من الخبراء الفرنسيين المتخصصين في مقاومة الارهاب . ثم شنت الحكومة معركة استمرت ١٤ يوما من اجل استعادة الأمن والنظام . وقتل في هذه العملية ١٢٧ جنديا بالاضافة الى مقتل ٢٥ من الحجاج و١١٧ من أعضاء الاخوان بمن فيهم محمد القحطاني . والقى القبض على ١٧٠ من الاخوان . وتم قطع رؤوس ٦٧ منهم . وكان من بين من قطعت رؤوسهم ٢٦ شخصا من غير العرب السعوديين . وما لاشك فيه أن هذا التمرد الذي حدث بالمسجد الكبير وأحداثه الدموية قد الحق دمارا شديدا

مهيبة وسمعة بيت سعود وهو البيت المسئول عن حماية ورعاية هذا المسجد المقدس .

وقد فرضت رقابة على الصحف في العربية السعودية طوال الفترة التي استغرقتها الأزمة . ولكن الحكومة أصرت بعدئذ على تنفيذ قطع رؤوس الـ ٦٧ شخصا من المتمردين في الميادين العامة بالمدن الكبيرة المختلفة لكي تؤكد الحكومة للشعب تصميمها على معاقبة كل من تسول له نفسه الخروج على القوانين . وقد أجريت دراسة عن الخلفية الديموجرافية والقبلية للاخوان الحريين السعوديين فجاءت نتيجة الدراسة محيرة ومربكة للسلطات الحكومية . إذ اتضح أن غالبية هؤلاء الراديكاليين قد جاءوا من منطقة نجد وهي نفس المنطقة التي نبعث منها الأسرة الملكية السعودية . كما أن الكثيرين من المقاتلين كانوا من العتيبيين أي أعضاء في القبيلة التي كان ينتمى إليها سلطان بن بجاد Ibn Bijad . وهو الزعيم الاخواني الذي حارب الملك عبد العزيز في عام ١٩٢٩ . وكان من الواضح أن الولاء للقبيلة مازال يجرى بعمق في العروق وكذلك نفس الحال بالنسبة للمنازعات الداخلية بين القبائل وكانت صفوف الاخوان تشتمل أيضا على عدد كبير من طلاب الدراسات الدينية من السعوديين وغير السعوديين . وكان من بين هؤلاء الطلبة : طلبة من الاخوان المسلمين من مصر وطلبة من الاخوان « الأنصار » من السودان وطلبة أعضاء في جمعية الإصلاح الاجتماعي من الكويت وكان من الصعب على المراقبين في داخل السعودية أو خارجها معرفة مشاعر السعوديين العاديين الحقيقية ازاء ذلك التمرد . وأخيرا بعد أن اتضح مدى القسوة الشديدة التي اكتنفت هذا التمرد بدا المراقبون يدركون أن هناك تعاطفا هائلا لصالح المتمردين بين الطلبة وصغار العلماء الدينيين والطبقة المتوسطة من الأهالي الذين يسكنون في المدن الصغيرة والمدن



الكبيرة بل بين مشايخ القبائل الذين كانوا يعارضون سياسات الحكومة الرأسية الى توطين البدو وخلق سلطة مركزية شاملة . وأشار المراقبون في تقاريرهم الى أن الانتقاد لم يكن موجها أساسا ضد هذه الأعمال التي قام بها المتمردون وإنما كان موجها ضد اختيار المتمردين للمسجد الكبير ليكون مسرحا لهذه الأحداث . لأن هذا المسجد الذي يسمى : المسجد الحرام هو أكثر الأماكن الإسلامية تقديسا في العالم كله . إذ اكتشفت كتابات على حوائط دورات المياه بجامعة الرياض عقب مرور شهور عديدة على هذا الحادث تلخص المشاعر بين جماهير الناس : « يا جهينة ... يا شهيدنا .. لماذا لم تقم بالهجوم على القصور ؟ أن الكفاح مازال في بداياته الأولى » .

ومما لاشك فيه أن أحداث التمرد في مكة كانت أقوى ضربة طلقها الأسرة السعودية الحاكمة في خلال نصف القرن منذ تمرد الأخوان لعام ١٩٢٩ . لقد اعتادت هذه الأسرة على أن يقع هجوم عليها من جانب المؤيدين للأيديولوجيات الأجنبية مثل الليبرالية والماركسية وكانت تعرف كيف تتعامل معهم . ولكن الهجوم الدموي من جانب الأصوليين الإسلاميين والأصولية الإسلامية التي ترتكز عليها الأسرة السعودية الحاكمة في شرعيتها كأسرة حاكمة كان أمرا جديدا وملينا بالتعقيدات البالغة الخطورة . وكان رد الأسرة الحاكمة على ذلك هو وصم المتمردين ووصفهم بأنهم خوارج مثل الخوارج الذين ظهروا في صدر الإسلام والذين اشتبهوا بأعمالهم الارهابية التي أدت الى مصرع العديدين ومن بينهم الامام على بن أبى طالب . أما ردود الفعل السياسية والادارية لدى الأسرة السعودية الحاكمة فكانت تتمثل في الاستمرار في القمع بالاضافة الى السير قدما نحو تحقيق الإصلاحات في آن واحد . إذ قامت الحكومة بالقضاء القبض على ٧٠٠ من الأخوان وفرضت قيودا

مشددة على حرية التنقل بالنسبة للعمال المغتربين . وهذا التمرد قد جعل الأسرة الحاكمة تدرك أن هناك نزاعا قتلانيا داخليا متنسبا بالمرارة والكراهية الشديدة . وبالتالي خففت من ثقتها فى الحرس الوطنى العسكرى وهو الحرس الذى جاء بعد « الحرس الأبيض » الذى كان قد أنشأه عبد العزيز فى عام ١٩٣٢ وألحق به عددا ضئيلا من المحاربين الاخوان السابقين . وقد أسفر هذا عن وضع خطط للاستعانة بثلاثة ألوية باكستانية يرتدى أفرادها الزى العسكرى السعودى ليكونوا بمثابة الحرس الملكى الخاص . ولأنهم من المرتزقة وليست لهم جذور فى داخل المجتمع السعودى فقد اعتقدت الطبقة الحاكمة أن هذه القوات الباكستانية يمكن الاعتماد عليها الى حد كبير . وقام الملك خالد بعمل تغيير فى ١٧ منصبا من المناصب العليا المدنية والعسكرية . وحاول أن يطمئن جماهير الناس حيث قال لهم انه تتم دراسة تهدف الى ادخال بعض الاصلاحات السياسية. ثم قام بتشكيل لجنة لاعداد مشروع دستور ثم أعلن بعد ذلك ولى العهد الأمير فهد أنه سيتم « فى القريب العاجل » تشكيل مجلس استشارى يتألف من ٦٠ الى ٧٠ عضوا . كما كررت الحكومة قولها بأن التطور السريع الفعال فى الشؤون الاقتصادية والتكنولوجية هو أفضل وسيلة لحماية الاسلام .

وفى مارس ١٩٨٢ أعلن ولى العهد الأمير فهد أن المجلس الاستشارى سيظهر بالفعل « بعد فترة قصيرة » . وفى يونيو عقب وفاة الملك خالد أصبح فهد ملكا على السعودية . ولكن المجلس الاستشارى ظل مجرد فكرة . بل لم تكن توجد هناك أية دلائل تشير الى أنه يتم اعداد دستور للبلاد .

وفى تلك الأثناء عقب تمرد مكة كانت هناك دلائل متزايدة تشير الى تصاعد الأصولية فى المملكة العربية السعودية . اذ ارتفع عدد أعضاء « جماعة الدعوة » بشكل كبير للغاية . وأصبح

أعضاء هذه الجماعة يتميزون بلحية الطويلة وبشعر الرأس القصير للغاية والجلباب الأبيض الذى يصل الى الركبة وطاقيّة وغطاء فوق الرأس . وفى رأيهم أن الجلباب التقليدى الطويل يدل على الغرور والتفاخر بالثروة والممتلكات . وتتمتع « جماعة الدعوة » بالكثير من العون والتأييد فى كليات العلوم والتكنولوجيا بالجامعات ويرفض أفراد هذه الجماعة الالتحاق بالجامعات الغربية من أجل الحصول على دراسات عليا ، وهم يعتقدون أن الحكومة تشجعهم على الالتحاق بالجامعات الغربية بهدف القضاء على حماسهم الإسلامية . والتحاق مثل هؤلاء المسلمين بكليات العلوم والتكنولوجيا ليس من قبيل المصادفات البحتة . اذ أوضح أحد هؤلاء الطلبة قائلا : « نحن لا يمكن لنا أن نقوى أنفسنا فى ظل هذه الحكومات الضعيفة من خلال قراءة القرآن والتاريخ الإسلامى فقط وإنما ينبغى علينا أيضا أن ندرس العلوم ونستخدم التكنولوجيا الغربية ضد الغرب » . وهذه الفكرة التى تدعو الى اكتساب التكنولوجيا الغربية والتخلّى فى نفس الوقت عن القيم الاجتماعية الغربية هى نفس الفكرة التى نادى بها فى بادىء الأمر جمال الدين الأفغانى . وهذه الفكرة لا تتضمن أية اتجاهات هدامة . وجماعة الدعوة لا تهدد الحكومة السعودية وتعمل على المكثف وفى وضوح . ولكن هناك بعض الشكوك فى أنها ربما تكون هى الأساس الذى تنطلق منه منظمات أخرى أكثر عنفا وأكثر اتساما بالطابع العسكرى فى المملكة .

ومن أكبر نقاط الضعف المتواجدة فى النظام السعودى الحالى أن الأسرة الملكية الحاكمة قد رفضت الى حد بعيد أن تختار أشخاصا من من التكنولوجيا الصاعدة ليكونوا أعضاء فى جهاز اتخاذ القرار بالدولة . ومن نقاط الضعف الأخرى أنها تستثمر فى تجاهل الشيعة . فرغم أن الشيعة لا يشكلون سوى ٨٪ من

مجموع سكان العربية السعودية فانهم يتركزون فى اقليم الحساء  
الغنى بالبتروول .

وقد تنجرت مشكلة الشيعة على نحو درامى بعد أن تشجعوا  
عقب المناخ الناجم عن تمرد مكة حيث قام المجتمع الشيعى البالغ  
عددهم ٤٠٠ ألف مواطن بالاحتفال بيوم عاشوراء الحزين فى يوم  
٢٧ نوفمبر ١٩٧٩ بدون أن يكثرثوا بالحظر المفروض على هذا  
الاحتفال والذى استمر لفترات طويلة للغاية وأصبح امرا راسخا .  
ومما أزعج السلطات الحكومية أن مواكب الاحتفال بعاشوراء قد  
تحولت الى مظاهرات مؤيدة للخومينى فى ثمان مدن مهمة بمنطقة  
البتروول . فأرسلت الحكومة ٢٠ ألفا من رجال الأمن لفض المظاهرات  
الا أن المصادمات والمعارك بين رجال الأمن الحكوميين والمقاتلين  
الشيعة قد استمرت لفترة تقترب من شهرين مما أدى الى مقتل  
٥٧ من رجال الأمن و٩٩ من الشيعة . هذا بالاضافة الى القاء  
القبض على حوالى ٦٠٠٠ شخص من الأهالى . وأثناء هذه  
الأحداث قفزت الى الضوء المنظمة الثورية الاسلامية الشيعية لشبه  
الجزيرة العربية .

ومنذ أن سقطت منطقة الحساء فى أيدي عبد العزيز آل  
سعود دأب سكانها من الشيعة على الاحتجاج من وقت لآخر ضد  
الحكومة . وهو احتجاج يركز على أسس طائفية أو أسس  
اجتماعية اقتصادية بدون الحصول على أى انصاف أو اصلاح .  
ففى عام ١٩٢٦ عندما قام محمد الحبشى وهو زعيم شيعى بانشاء  
مجلس محلى للتعبير عن المظالم والشكاوى قام عبد العزيز بفرض  
حظر على هذا المجلس على الفور . ثم أصدر عبد العزيز بعد ذلك  
قرارا ينص على أنه ينبغي على الشيعة أن يتوافقوا مع المذهب  
الوهابى مما أدى الى الاستياء الشديد بين جماهير الشيعة . كما

أن الحكام الذين يتقلدون السلطة في إقليم الحساء والذين ينتمون إلى عشيرة جلوى Jiluwī التي هي فرع من بيت سعود (وهي العشيرة التي ينتمي إليها الملك خالد) قد دأبوا باستمرار على ممارسة التفرقة ضد الشيعة أما بمنعهم من ممارسة مهنة التدريس وأما حرمانهم من المنح والمكافآت والسلف التي تقدمها الحكومة .

واكتشاف البترول في إقليم الحساء قد حوله إلى منطقة بالغة الأهمية والخطورة . فالعمال في مجال البترول — حوالى ثلثهم من الشيعة السعوديين وثلث آخر من الأجانب — كانوا مستائين من المرتبات الفلكية التي يحصل عليها الموظفون الأمريكيون الذين يعملون في شركة البترول العربية الأمريكية وكانوا يقارنون بين الأمريكيين ومرتباتهم الضئيلة وظروفهم السيئة . وقد أضرب العمال عن العمل لفترة قصيرة في عام ١٩٤٤ ثم في عام ١٩٤٩ ثم أعقب ذلك إضراب لفترة طويلة تصل إلى أسبوعين خلال أكتوبر ١٩٥٣ . فبادر الملك عبد العزيز إلى وضع نهاية لذلك الإضراب الأخيرة من خلال استخدام العنف والضرب بيد من حديد . وكان عمال البترول من أوائل الناس الذين نفذوا المقاطعة العربية البترولية في يونيو ١٩٦٧ ثم أكتوبر ١٩٧٣ ضد الغرب . وقد شعر العمال الشيعة الذين يعملون في مجال البترول في الحساء بالابتهاج الشديد عندما استولت على السلطة في إيران حكومة شيعية بقيادة الزعيم آية الله الخميني المناهض للأمريكان . وكانوا بشعرون بالاستياء الشديد من الحكومة السعودية التي تمارس التفرقة ضدهم وتحرمهم من الفوائد الناجمة عن البترول الذي يقومون باستخراجه بأنفسهم .

وفي أعقاب تهريرات وثورات الشيعة في شهر نوفمبر/ديسمبر ١٩٧٩ قامت السلطات السعودية بزيادة معدلات التنمية

الاقتصادية فى إقليم الحساء بل بذلت محاولات لاستقطاب تادة الشعبية وتعيينهم فى الجهاز الادارى والسياسى . الا أن هذه المحاولات لم تلق سوى قدر ضئيل من النجاح .

وعلى الرغم من القمع الشديد الذى تعرضت له المنظمة الثورية الاسلامية لشبه الجزيرة العربية علاوة على ارغام زعيمها سعيد صفران للعيش فى ايران فانها استمرت فى ممارسة أعمالها سرا . اذ أجرى أعضاء هذه المنظمة اتصالات مع الحجاج الايرانيين أثناء موسم الحج — حيث يتجمع حوالى ١٠ مليون مسلم أجنبى فى مكة والمدينة — مما أدى الى تضايق السلطات السعودية وتعرضها للتوتر الشديد . وقام صفران بتأسيس جريدة فى ايران وراح يبيث من هناك التعليقات الثورية الاسلامية ضد الاسرة الملكية السعودية مما أثار الغضب والارتباك فى الرياض . ونرى الماضى كان وابل الشتائم التى تنصب على الملكيين السعوديين يصدر أساسا عن حكومات علمانية مثل حكومة عبد الناصر فى مصر وحكومة البعثيين فى سوريا أو العراق . أما الهجوم الحالى القادم من معسكر اسلامى — رغم لونه المختلف — قد أربك وأزعج بيت سعود الذى كان قد تمكن على مدى العشر السنوات الماضية من خلق مركز مرموق لا ينافسه فيه أحد فى العالم الاسلامى مما جعله يفاخر بأنه يتبع سياسات اسلامية حقة فى الداخل والخارج .

## السياسة الخارجية الإسلامية

---

### للمملكة العربية السعودية

لقد كان ملوك السعودية يحرصون دائما في سياستهم على التركيز على دورهم من حيث هم القائمون على توفير الحماية والرعاية للأماكن المقدسة والحج ومن حيث أنهم يساندون القضايا الإسلامية في جميع أرجاء العالم .

ونظرا لأن شبه الجزيرة العربية لم تتعرض أبدا لاستعمار أوروبي امبريالي فإن فكرة القومية لم تترسخ وتضرب بجذورها هناك . فاقترسام الجزء العربي من الامبراطورية العثمانية بمعرفة البريطانيين والفرنسيين لم يمس شبه الجزيرة العربية على الاطلاق . كما أن الأهالي والأراضي التي وضعها عبد العزيز تحت سيطرته لم تشكل مايسمى بالدولة القومية(\*) Nation-State ولم تبدأ

---

(\*) الدولة القومية : دولة متألّفة من قومية واحدة لا من قوميات متعددة .  
الترجم

البنية الأساسية لدولة حديثة في الظهور الا في عهد الملك فيصل. وان كانت قد ظهرت تباشيرها الاولى في عهد الملك سعود . وبوجه عام تكون السياسة الخارجية في أية دولة مرتكزة على فكرة المصلحة القومية . ولكن المملكة العربية السعودية بتركيزها المستمر على الاسلام من حيث هو أيديولوجية عالمية كانت تميل الى عدم التأكيد أو التركيز على فكرة القومية .

وعلى أية حال فان المفهوم الذهني عن أمة عربية واحدة تشتمل على ٢٢ دولة أو ولاية كان يلقي الرعاية والتشجيع من عبد الناصر وذلك اثناء فترة حكم سعود وفيصل . وقد كان الملك فيصل وأتباعه يفخرون بأنهم عرب نظرا لأن النبي محمدا كان رجلا عربيا من شبه الجزيرة العربية وأنه هو الذي نزل عليه الوحي وكلام الله باللغة العربية لكي ينقله الى الانسانية جمعاء . ومن وجهة نظرهم ان تبني فكرة الأمة العربية من حيث هي كيان منفصل أو مستقل عن الألة الاسلامية هو أمر لا يمكن اغتناره أو التسامح بشأنه . وقد عبر فيصل عن وجهة النظر هذه في قوة وفعالية من أجل الرد على الهجمات الموجهة اليه والى مملكته من جانب عبد الناصر الذي اتهمهم بالفساد والرجعية . وأكد فيصل أن القومية العربية ليست سوى حصان طروادة وأنها تهدف أساسا الى ادخال نظريات أجنبية مثل الاشتراكية الى العالم العربي .

وما توقعه فيصل قد حدث بالفعل في مصر . ففي مايو ١٩٦٢ قام عبد الناصر بتحويل « الاتحاد القومي » وهو الحزب الحاكم في مصر الى « الاتحاد الاشتراكي العربي » الذي له برنامج قومي يتبنى المذهب الاشتراكي كنظرية له . وقد حدث ذلك في موسم الحج . فأصدر مجموعة من كبار العلماء بالعربية السعودية — وذلك بناء على تعليمات صادرة لهم من فيصل — بيانا يستذكرون فيه



الاشتراكية لأن الاشتراكية معادية للإسلام . بل أصدر فيصـل بنفسه بياناً جاء فيه « نحن لا نؤمن بالاشتراكية أو الشيوعية أو أى نظرية أخرى تقع خارج نطاق الإسلام . فنحن لا نؤمن إلا بالإسلام » .

ثم سارع فيصل إلى انشاء « الرابطة الإسلامية العالمية World Muslim League » فى جنيف . وكانت مهمتها عقد المؤتمرات والحلقات الدراسية التى تتعلق بالإسلام وذلك بهدف التعبير عن وجهة نظر العربية السعودية فى تفسيرها للإسلام . وقد جاء فى دستور الرابطة الإسلامية العالمية ما يلى :

« العالم الإسلامى هو عالم متحد من خلال النظريات الإسلامية . ولكى يكون هذا الاتحاد بمثابة حقيقة واقعة ولموسسة فإن من الضروري أن يكون الولاء للنظرية الإسلامية ولمصالح الأمة الإسلامية فى مجموعها فوق الولاء للقوميات وغيرها من النظريات الأخرى » . وقد قام فيصل بتوظيف الكثيرين من الإخوان المسلمين المنفيين والمبعدين عن بلادهم لكى يعملوا فى المركز الرئيسى لرابطة العالم الإسلامى .

ورغم أن هذه كانت حركة فى الاتجاه الصحيح من جانب فيصل فإنها كان لها تأثير ضئيل على المنطقة العربية التى هى بمثابة القلب النابض للإسلام . إذ كانت الاشتراكية العربية المناصرية مازالت تحظى بالشعبية وتشد انتباه الجماهير . وفى أواخر عام ١٩٦٥ حاول الملك فيصل انشاء كيان إسلامى رسمى تحت اسم « التحالف الإسلامى » وذلك من خلال التعاون مع محمد رضا بهلوى شاه إيران ومع الحسين ملك الأردن . إلا أن هذا المشروع صادفه الفشل الذريع منذ بدايته .

ولكن هزيمة مصر على أيدي عبد الناصر في يونيو ١٩٦٧ أثناء الحرب الاسرائيلية العربية بالاضافة الى استيلاء اسرائيل على القدس العربية التي تضم المسجد الأقصى الذي هو بمثابة المكان الثالث المقدس في الاسلام قد غيرت الموقف تغييرا جذريا . اذ بدأ الكثيرون من العرب يعتقدون أنهم قد هزموا لأنهم قد حادوا عن طريق الاسلام . ووافقت الدولتان العلمانيتان : مصر وسوريا عقب التعرض للاذلال الناجم عن النكسة على قبول الاعانات المالية من العربية السعودية وغيرها من الدول الاسلامية الأخرى الغنية بالبترول بهدف العمل على اعادة بناء قواتها المسلحة وتدعيم اقتصادهما . ولكن رغم كل ذلك فان هذا لم يكن كافيا لتمكين الملك فيصل من تحقيق « التحالف الاسلامي » الذي نادى به من قبل .

ومن العجيب حقا أن العمل الذي قام به شخص مسيحي استرالي مجنون هو الذي ساعد على انقاذ الملك فيصل ونجده . ففي يوليو ١٩٦٩ حاول ذلك الرجل الاسترالي اشعال النار في المسجد الأقصى بالقدس . ونشأ في مهمته . الا أن هذه المحاولة قد سببت صدمة هائلة لجميع المسلمين في جميع أرجاء العالم الاسلامي . وبناء على تعليمات من الملك فيصل تم عقد مؤتمر قمة اسلامي حضره مندوبو ٢٥ دولة اسلامية في الرباط عاصمة المغرب في شهر سبتمبر . وأعلن فيصل في هذا المؤتمر « الجهاد » ضد اسرائيل وأقسم أمام الحاضرين بأنه سيعمل على تحرير المسجد الأقصى من الاسرائيليين .

وكان عبد الناصر قد أوفد السادات نائب رئيس الجمهورية لكي يحضر هذا المؤتمر . وتقرر في هذا المؤتمر انشاء سكرتارية دائمة لهذا المؤتمر . وانبثق عن هذه السكرتارية منظمة المؤتمر الاسلامي Islamic Conference Organization وكانت بمثابة أول

مؤسسة اسلامية شاملة رسمية للتعاون الحكومى بين الحكومات الاسلامية . واتخذت منظمة المؤتمر الاسلامى من جدة بالسعودية مقرا رئيسيا لها . وبذلك يمكن القول بأن العربية السعودية هى التى قامت بالدور الرئيسى فى انشاء هذه المنظمة . ومنذ ذلك الحين تزايد عدد المؤسسات الاسلامية المتخطية للحدود القومية والتى تحصل على تمويلها الرئيسى من العربية السعودية مثل : بنك التنمية الاسلامى ، ووكالة الانباء الدولية الاسلامية ، والمركز الدولى للبحوث فى الاقتصاد الاسلامى ، ومعهد شئون الأقليات المسلمة . وكل هذه المؤسسات قد اتخذت من العربية السعودية مقرا لها .

ومع تزايد الأرباح من البترول على نحر خيسالى فى خلال السبعينيات تعاطف أيضا نفوذ الرياض بشكل حاسم فى العالم الاسلامى خارج السعودية . وأصبحت العربية السعودية على قمة الدول التى تمنح الهبات والمساعدات المالية الضخمة . الا أنها قصرت مساعداتها المالية على الدول الاسلامية وعلى تلك الدول التى توافق على سياسات السعودية . ولكى تحصل أى دولة غير اسلامية على معونات مالية من السعودية كان ينبغى عليها أولا وقبل كل شئ أن تثن حربا ضد الماركسية وضد الاتحاد السوفيتى نظرا لأن الماركسية الملحدة — من وجهة نظر الرياض — هى العدو الأول للإسلام . والشرط الثانى هو أن تقوم الدولة الاسلامية التى تحصل على المعونات بالانضمام « للجهاد » ضد اسرائيل . وحقيقة الأمر أن هاتين النقطتين تعتبران مرتبطتين أو لهما علاقات متبادلة من وجهة نظر فيصل : اذ كان يؤمن أيمانا راسخا بأن الصهيونية تلقى كل تأييد وعون من الشيوعيين كجزء من مؤامرتهم الشاملة . وثالثا ينبغى على الدولة الاسلامية أن توافق على تطبيق الشريعة الاسلامية ولو بشكل تدريجى ووفق الخطوط المتبعة بالفعل فى داخل العربية السعودية .

وكانت السنوات الأولى من رئاسة السادات على مصر — تتلأم مع الشروط السعودية ومع الدعوة التي ينادى بها الملك فيصل . ولكن عندما قام السادات بمبادرة شخصية منه بالتوقيع على اتفاقية سلام مع إسرائيل في مارس ١٩٧٩ فإنه أصبح بغيضا لدى الحكومة السعودية .

وعلى كل حال فإنه يوجد تناقض كامن في تحالف السعودية مع الولايات المتحدة الأمريكية التي تعتبر الشريك الاستراتيجي والضامن الرئيسي والمؤيد الأساسي لإسرائيل من النواحي السياسية . وهذا من شأنه أن يعرض الحكومة السعودية للهجوم من جانب اليساريين العلمانيين والأصوليين الإسلاميين الراديكاليين الذين يقولون أن الجهاد ضد إسرائيل والصهيونية هو نوع من التدريب على النفاق .

وكان لأزمة الرهائن الأمريكيين في إيران في نوفمبر عام ١٩٧٩ وكذلك التدخل العسكري السوفيتي في أفغانستان في ديسمبر ١٩٧٩ أثر كبير في زيادة التوتر في المنطقة العربية حيث زادت واشنطن من ضغوطها على الرياض لكي توافق على تأجير قواعد عسكرية للولايات المتحدة الأمريكية . ونظرا لأن الملك خالد كان يدرك أن مثل هذا التحالف المكشوف العلني مع أمريكا من شأنه أن يدمر موقف السعودية في نظر العالم الإسلامي فإنه حرص على اتخاذ موقف محايد في الشئون الدولية . وقال الملك خالد في الخطاب الذي ألقاه في مؤتمر القمة الإسلامي الثالث بالطائف في يناير ١٩٨١ : « أن ولاعنا ينبغي ألا يكون للكتلة الشرقية أو الكتلة الغربية . إذ لا يمكن لنا أن نضمن توازن الأمن للأمة الإسلامية من خلال الدخول في تحالف عسكري ولا من خلال اللجوء الى مظلة إحدى الدول الكبرى » . ولم يكن كلامه هذا ينطوي على فكرة

جديدة . فنفس ذلك الكلام سيق أن قتاله سيد قطب أحد زعماء  
الاخوان المسلمين فى مصر منذ ثلاثين عاما . اذ كتب سيد قطب  
ما يلى : « توجد كتلتان كبيرتان : الكتلة الشيوعية فى الشرق  
والكتلة الرأسمالية فى الغرب . وكل منهما تنشر دعاية مخادعة  
مغادها أنه لا يوجد بالعالم سوى أيديولوجيتين فقط لا بدل عنهما :  
الشيوعية والرأسمالية وأن كافة الدول الأخرى ليس أمامها سوى  
التحالف مع احدى هاتين الكتلتين » . والفارق الوحيد هو أن سيد  
قطب لم يسبق له أن تقلد السلطة فى البلاد وذلك بعكس الملك  
خالد الذى تربع على عرش السعودية . ومع ذلك فإن البيان الذى  
ألقاه عاهل السعودية الملك خالد الذى تحدث فيه عن عدم الانحياز  
لاحدى الكتلتين كان بيانا متسما بالبلاغة والفصاحة اللغوية ولا شىء  
أكثر من ذلك . لأن من المعروف تماما أن العربية السعودية تحنفظ  
بعلاقات وثيقة للغاية مع الغرب وخاصة أمريكا من الناحية العسكرية  
والاقتصادية والدبلوماسية والتخابرية بحيث لا يمكن لها أن تتخذ  
بالفعل لنفسها موقفا حياديا صادقا .

وعلى أية حال فإن العربية السعودية تعتبر مهولا رئيسيا  
للعديد من الحركات الرامية الى الاطاحة بالحكومات اليسارية  
المتحالفة مع موسكو . فهى تصب أموالا طائلة فى خزان المجاهدين  
الافغان الذين يحاربون ضد الحكومة الماركسية فى كابول . كما أن  
الباكستان وهى صديقة حميمة لأمريكا قد أصبحت من الدول  
الرئيسية التى تتلقى مساعدات مالية من السعودية وبالتالي  
أصبحت حليفة من الناحية السياسية والعسكرية للرياض وفى  
آسيا نجد أن الأهوال السعودية تتدفق باستمرار على بنجلاديش  
وماليزيا وأندونيسيا وجزر الملديف . وعلى مدى سنوات عديدة  
خللت الرياض تساند ثوار إريتريا ضد الحكم الماركسى بأثيوبيا .

بل فى الدول الافريقية غير العربية مثل الكاميرون وتشاد والجاون ومالى والنيجر ونيجيريا وأوغندا كانت تنصب أيضا المعونات والأموال السعودية .

وهناك اعتقاد سائد بأن الرياض هى الممول المالى الرئيسى للاخوان المسلمين المتواجدين بالدول المختلفة علاوة على تمويل « جماعة اسلامى » المتواجدة فى الباكستان . هذا بالاضافة الى أن العربية السعودية تزود الوزارات التابعة لها بأموال اضافية من أجل القيام بأنشطة متنوعة مثل : تقديم الرعاية والأموال للطلبة الأجانب الذين يدرسون فى الجامعات السعودية ، وإنتاج برامج اذاعية وتليفزيونية تتعلق بالدين الاسلامى ، وتعليم اللغة العربية فى الدول غير العربية ، وبناء المساجد والمدارس الاسلامية والكتبات الاسلامية بالخارج . كذلك تقوم العربية السعودية بتمويل المؤتمرات الاسلامية والحلقات الدراسية التى تتناول الاسلام والموضوعات الاسلامية هذا علاوة على توزيع الكتب والمطبوعات الاسلامية مجاناً .

وعلى مدى عشر سنوات، منذ تشكيل منظمة المؤتمر الاسلامى فى عام ١٩٦٩ حتى تفجر الثورة الايرانية فى أوائل ١٩٧٩ كانت السعودية تحرص على إبراز نفسها كزعيمة للعالم الاسلامى كله مع تقديم سياساتها الرأسمالية فى الداخل وصداقتها مع أمريكا فى الخارج على أساس أن ذلك هو النموذج الاسلامى المرغوب فيه والذى ينبغى أن يحذو حذوه ويقتدى به كافة الدول الاسلامية الأخرى .

ولكن بعد تفجر الثورة الخمينية الأصولية في إيران في عام ١٩٧٩ نجد أن الزعامة السعودية والنموذج السعودي في الحكم قد واجه تحديات خطيرة من جانب الأصولية الخمينية . وأدى ذلك إلى تخفيف حدة بريق وتألق الرياض ووضع الرياض في موقف الدفاع عن النفس . وما زالت إيران تجد صعوبة كبيرة في انتزاع القيادة من العربية السعودية . والسبب الرئيسي في ذلك يكمن في أن إيران هي دولة شيعية بينما العالم الإسلامي بوجه عام يسوده المذهب السني .







## الفصل السادس

---



## ايران :

### الأصولية الثورية تقوى السلطة

رغم أن الشيعة يشكلون أقلية فانهم شهدوا فترات من السيادة في التاريخ الاسلامي : اذ قام ملك شيعي باخضاع العباسيين السنيين في عام ٩٣٢ كما بزغت خلافة شيعية متمثلة في الفاطميين في القارة في عام ٩٦٩ . وقد تعرض الشيعة لنكسة نتيجة للاطاحة بالخلافة الفاطمية في عام ١١٧١ على يد صلاح الدين الأيوبي وهو جنرال سني . ولكن هذه النكسة كانت مؤقتة . فالدمار الذي لحق بالخلافة العباسية في عام ١٢٥٨ على يد القائد المغولي هولاكو خان Hulagu Khan قد خلق فراغا سياسيا ايديولوجيا . مما أتاح الفرصة للمذهب الشيعي والصوفية للازدهار . اذ قام العلامة جمال الدين بن يوسف الحلي ( ١٢٥٠ — ١٣٢٥ ) باحياء المفهوم الذهني من « الاجتهاد » وممارسة الاجتهاد وهذا أدى بدوره الى تدعيم وتقوية المذهب الشيعي الى درجة هائلة .

وكانت هناك أوضاع غير مستقرة في غرب آسيا مما أدى الى ظهور طرق صوفية عديدة . وكان من بين هذه الطرق : الطريقة الصفوية التي أسسها الشيخ صفى الدين الاسحاق ( توفى عام ١٣٣٤ ) بالقرب من أردبيل Ardebil الواقعة في ذلك الاقليم من إيران الذي يتكلم باللغة الآذارية(\*) Azeri . وكانت هذه الطريقة سنية وظلت سنية على مدى قرن من الزمان على الأقل .

وفي أواخر القرن الرابع عشر كانت إيران واقعة في داخل نطاق امبراطورية تيمور لك Timur Lang ( ١٣٣٦ — ١٤٠٥ ) التي كانت تمتد من نهر أسوس Oxus بأفغانستان الى الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط . وبعد موت شاه روح Rukh Shah — وهو سنى — في عام ١٤٤٧ تفككت هذه الامبراطورية، ونجم عن ذلك فراغ في السلطة والنفوذ مما أثار الطموحات الدنيوية للصفويين Safavids . وتمكن شاه اسماعيل زعيم الصفويين من الاستيلاء على تبريز التي تقع في هضاب أذربيجان في عام ١٠٥١ بعد أن ساعده رجال القبائل الحرييين الذين كانوا يربطون معتقداتهم الصوفية بالتبجيل الشديد للامام على . وفي خلال سبع سنوات تمكن شاه اسماعيل من التوسع في الاراضى التي يسيطر عليها نفوذه وسيطرته بحيث أصبحت تمتد من حيرات Herat بأفغانستان الى بغداد .

وما تولى الصفويون السلطة حتى اتخذوا « المذهب الشيعى الاثنا عشري Twelver Shiaism » لكي يتوافقوا مع مشاعر الهرطقة والابتداع السائدة بين جماهير الناس وخاصة رجال القبائل ولكي يميزوا أنفسهم عن الأتراك العثمانيين السنيين المنافسين الذين يرغبون في ضم إيران الى امبراطوريتهم .

المترجم

(\*) نسبة الى أذربيجان .

وأعلن الصفويون رسمياً أن الديانة الرسمية للدولة هي المذهب الشيعي الاثنا عشري . وهو أمر لم يفعله في الماضي الفاطميون أو البويهيون Buyids وكان هذا يعني أن الأمر يستلزم تصنيف القانون الشيعي والشيولوجيا الشيعية والفلسفة الشيعية بطريقة منهجية ولكي يتم تحقيق ذلك ولكي يتم تعليم وتلقين المذهب الشيعي لرعاياهم قام الصفويون بجلب العلماء الدينيين من جنوب العراق وسوريا ولبنان . وهم باجرائهم هذا قد منحوا العلماء الوضع الرفيع والهيبة والثروة . وفي مقابل ذلك سمح العلماء للحاكم الديني . بمد نفوذه وسلطانه « لكي يضمن النظام والهدوء والاستقرار » . كما أعلن العلماء أن الصفويين ينحدرون من سلالة الامام السابع : الا وهو موسى الكاظم الامام المختفي . وبالطبع حاول شاه اسماعيل وكذلك الشاه طهماسب Tahmasp أن يقدموا نفسيهما على أساس أنها « ظل الله على الأرض » . لأنها بهذه الصفة أصبح العلماء يتوقعون منها أن يقوموا بتنفيذ الشريعة . ونظراً لأن الشاه قد منحت له صفة الاحتجاب التي يتسم بها الامام المختفي فانه كان عليه أن يعتمد على الاجتهاد الذي يقدمه له كبار المجتهدين . وفي غمرة حماسه ازاء نشر المذهب الشيعي أصدر الشاه اسماعيل أوامره لكافة الوعاظ بأن يؤموا المسلمين في صلاة الجمعة باسم الائمة الاثني عشر مع توجيه اللعنات الى الخلفاء السنيين الثلاثة الأوائل : أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان بسبب اغتصابهم للمنصب الذي يستحقه الامام علي بن أبي طالب . وهذا الاتساق الايديولوجي قد ساعد شاه اسماعيل على أن يضمن وحدة الأراضي ، وهذا ما فعلته أيضاً المنافسة والمواجهة مع الامبراطورية العثمانية السنية . وبسبب الحروب المتكررة كانت الحدود بين الامبراطورية العثمانية والامبراطورية الصفوية Safavid تتحرك الى الورا والى الامام . وفي عام ١٦٣٨ تمكن العثمانيون من الاستيلاء على العراق وأخذها من الصفويين وكان ذلك عقب انتهاء حكم شاه عباس

الذى امتد حكمه من عام ١٥٨٧ حتى ١٦٢٩ وكان بمثابة قمة الأسرة الصفوية الحاكمة .

وفى أواخر العشرات من عام ١٧١٠ حاول الشاه سلطان حسين تحويل القبائل السنية بأفغانستان الى المذهب الشيعى . ولكنهم ثاروا وتمردوا عليه . وفى عام ١٧٢٢ قاموا بغزو أصفهان والاستيلاء عليها وكانت أصفهان هى عاصمة الصفويين . ثم حاولوا فرض المذهب السنى من جديد على ايران التى كانت قد أصبحت آنئذ منتمية للمذهب الشيعى ولكنهم فشلوا فى ذلك . وغادر معظم كبار العلماء الشيعة أصفهان وذهبوا الى أكثر المدن الشيعية تقدسا بالعراق العثمانية : وهما مدينة النجف ومدينة كربلاء . ورغم أن الحكم الافغانى لم يدم سوى ثمان سنوات فان ممارسات لكبار علماء الشيعة المقيمين بالعراق قد استمرت وبرهنت فيما بعد على انها مصدر قوة للعلماء فى مواجهتهم مع الأسرة الملكية الايرانية .

وحاول الأفشار Afshars الذين جاءوا بعد الأفغان ادخال تعديلات على المذهب الشيعى على نحو يجعل المذهب الشيعى مقبولا لدى الرأى العام السنى . اذ قام نادر شاه أفشار (١٧٣٦ - ١٧٤٧) بمنع توجيه اللعنات للخلفاء الثلاثة الأوائل وسمى المذهب الشيعى بالمدرسة الجعفرية نسبة الى الامام جعفر الصادق وهو المنسق الرئيسى للتشريع الشيعى . الا أن كل هذه الاجراءات اتضح أنها غير كافية لتضييق الهوة الطائفية الداخلية . اذ كان الانقسام بين المذهب الشيعى والمذهب السنى قد وصل الى درجة عميقة ومتسعة للغاية . فالفرار والخلافات قد امتدت لتشمل النظرية والطقوس والقانون والبيولوجيا والمؤسسة الدينية .

ويشير علماء الشيعة أن النبى محمد قد ذكر اسم على ليكون خليفة له عندما قال : « من اتخذنى معلما له ينبغى عليه أن يتخذ

من على معلما له . . وعقب موت محمد كان المسلمون بحاجة لأن يحكمهم قادة معصومون من الخطأ يمتلكون معرفة عميقة بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة مما يمكنهم من قيادة المجتمع في الاتجاه السليم . وأولئك الذين كانوا قرييين للغاية من النبي محمد هم فقط الذين امتلكوا مثل هذه المعرفة العميقة وأصبحوا معصومين من الخطأ . والمعصومية من الخطأ تنبع من العصمة أو النقاء والطهارة . وكان على هو الصحابي الوحيد للرسول الذي يمتلك ذلك النقاء وتلك الطهارة الشديدة . وبعد الامام على فان أولئك الذين انحدروا من سلالة على ونماطمة ( ابنة محمد عليه الصلاة والسلام ) هم فقط المؤهلون لأن يحكموا الأمة الاسلامية . ووفقا لما يعتقده الشيعة فان الائمة معصومون من الخطأ . كما يعتقدون أن قيادة الأمة الاسلامية ينبغي أن تكون في أيدي بيت النبي . ومن ناحية أخرى نجد أن السنيين يتمسكون بالمبادئ أكثر من تمسكهم بالشخصيات . وهم يشيرون الى أن النبي محمد قد تعمد ترك مسألة الخلافة مفتوحة وترك الأمر للأمة الاسلامية لكي تقرر هذا الأمر عقب وفاته . والطريقة التي تم بها هذا الاختيار بمعرفة أولئك الذين في أيديهم « الحل والعقد » هي التي أوجدت فكرة الاجماع في الرأي لدى علية القوم . وتطور هذا فيما بعد الى الاجماع بين العلماء أو الأكاديميين الدينيين المدربين الذين بزغوا في العصور الوسطى . وعلى العكس من الشيعة نجد أن أهل السنة يعتقدون أن الخلفاء معرضون للخطأ من حيث هم شارحون ومفسرون للقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة .

ويصر الشيعة على أن الحاكم ينبغي أن يكون عادلا ويشيرون الى الآية القرآنية الآتية :

(( وأذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال انى جاعلك للناس ايمانا قال ومن ذريتى قال لا ينسب اليك ))  
« صدق الله العظيم » سورة البقرة . الآية رقم ١٢٤ .

ومن ثم يقول علماء الشيعة انه اذا كان الحاكم ظلما فانه ينبغي الاطاحة به على الفور .

ووفقا لما يقوله الشيعة فان القرآن يتعهد بمنح السيادة على الأرض للمظلومين . ولكي يبرهنوا على ذلك فانهم يشيرون الى الآيات القرآنية التالية :

— « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون »

سورة الانبياء — الآية رقم ١٠٥ .

— « قال موسى لقومه استمعينوا لى الله وأصبروا أن الأرض لله يرثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين »

سورة الاعراف — الآية رقم ١٢٨ .

— « وفريد أن فمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين »

القصص — الآية رقم ٥ .

ويتبمسك الشيعة بهذا التعهد بمكافأة الناس المتواضعين والمظلومين ويستخرجون من ذلك المفاهيم الذهنية عن عودة الامم المختفى وعن مجيء المهدي وعن رد الاعتبار للمجتمع . وبكلمات أخرى يمكن القول بأن الشيعة يمتشقون أن التاريخ الاسلامى يتحرك نحو هدف محدد وأن قوى الظلم سوف تنهزم فى نهاية الأمر . وهذا يعمل كحافز نحو التنشيط الراديكالى . وعلى العكس من ذلك نجد أن أهل السنة يرون أن التاريخ الاسلامى هو بمثابة انجراف أو انحراف وابتعاد عن خط الأمة المثالية الاسلامية التى كانت متواجدة أثناء حكم الخلفاء الأربعة الراشدين .



والأمزجة الشيعية مختلفة عن المزاج السننى . فالنزعة العاطفية الشيعية تجد مخرجاً لها فى التدب والحداد والتفجع فى حزن شديد على الأئمة : على والحسن والحسين علاوة على التضرع والتوسل الذى يقدمونه عند الأضرحة الخاصة بهم . فالشيعية يعتقدون أن المرء يمكن له من خلال الزهد والمعاناة أن يزيل الآثار السيئة الناجمة عن الخطيئة . وهذا هو السبب فى أن سيرة حياة الأئمة مليئة بأحداث تعرضوا فيها للاذلال والمعاناة حتى عندما كان لديهم القوة التى تعينهم على الحاق الهزيمة بخصومهم . فالاذلال والاضطهاد والاستشهاد هى الموضوعات الرئيسية فى سيرة حياة هؤلاء الأئمة . وتنفيذ العروض العاطفية السنوية المتعلقة باستشهاد الامام الحسين علاوة على جلد الناس لأنفسهم بالسوط هو بمثابة مخرج للتنفيس عن مشاعر الحزن والتكفير عن الشعور بالذنب والالام التى كابدها أساساً سكان وأهالى الكوفة بسبب تخليهم عن الامام حسين بعد توجيه الدعوة له للجىء الى مدينتهم وتولى المسئولية بها . أما أتباع المذهب السننى فلا يقومون بمثل هذه الأعمال التنفيسية على الإطلاق .

والسنن والشيعية يختلفون فى الرأى بشأن الكيفية التى يتم بها تنظيم الدين والأنشطة الدينية . فالسنن يرون أن الأنشطة الدينية هى من اختصاص الدولة المسلمة فقط . وأنه عندما يقوم العلماء بالعمل كقضاة أو وعاظ أو مدرسين فانهم يفعلون ذلك تحت رعاية وإشراف الدولة . ولا مجال لأن يقوم العلماء بتنظيم الدين بمعزل عنهم وتحت مسئوليتهم وبمعزل عن الدولة وليس هذا هو الوضع بين الشيعة . وسوف يتضح ذلك من الدراسة عن إيران .

وقد أصبح علماء الشيعة المتمركزون بالعراق موضوعين وحرفيين على نحو متزايد حيث صاروا يهتمون ببث ونقل المعلومات الدينية أكثر من اهتمامهم بالتشجيع على ممارسة « الاجتهاد » .

ولذلك أصبح الناس يطلقون عليهم اسم : « الاخباريون » . وظل الأمر كذلك حتى أوائل الثمانينات من عام ١٨٧٠ وبعدئذ بدأ هذا الأسلوب الموضوعى الخرمى فى الضعف والذبول تحت المعارضة القوية التى مارسها : عفا محمد بكير بهبهانى Aqa Muhammad Bagir Behbehani (توفى عام ١٧٩٣ ) اذ أشار الى أن الأمر يستلزم وجود « مجتهد » متواجد على قيد الحياة لى يفسر الأسس الرئيسية للعقيدة ولذلك ينبغى على كل مؤمن أن يختار « مجتهدا » كمصدر للمحاكاة والتقليد أو كمرجع للتقليد . وقد سميت هذه المدرسة باسم : المدرسة الأصولية . وكلمة أصول باللغة العربية تعنى الجذور أو الأصل . وقد ارتكز الأصوليون فى رأيهم على أنه مادام المجتهدون يستبدون سلطتهم فى اتخاذ القرارات من الامام المختفى فانهم يكونون بذلك مخولين لتفسير الشريعة بمعنى أن يكون لهم الحق فى شرح وتفسير الشريعة . وفى أوائل القرن التاسع أصبح الأصوليون هم العنصر السائد بعد أن تفوقوا على « الاخباريين » . وفى هذا الصدد يقول نيكى ر . كيدى وهو باحث أمريكى متخصص فى شئون ايران : « ان الحاجة لاتباع احكام رجل « مجتهد » معاصر ومازال على قيد الحياة يكون اقل عرضة فى الوقوع فى الأخطاء من أى حاكم دنيوى قد اتاحت الفرصة لاعطاء السلطة للمجتهدين وبذلك أصبحت سلطة المجتهدين أكبر بكثير من سلطة العلماء السنيين » . وهكذا نرى أن المجتهدين قد اكتسبوا الأساس الذى يجعلهم يتخذون قرارات سياسية ويخرقون المبادئ الاسلامية فى جو من الاستقلال عن الحكام الدنيويين . وقد نشأ عن هذا ذلك الاستقلال الذى مارسه علماء الشيعة خلال الفترات التالية فى ايران .

وكانت ايران آنئذ محكومة بمعرفة القاجار Qajars ، ورغم أنهم من الشيعة فانهم كان تنقصهم تلك القوى الروحية التى يتمتع

بها الصفويون Safavid السابقون عليهم . وقد قام عقا محمد خان قاجار بالحق الهزيمة بحاكم زائد Zand فى عام ١٧٧٩ ثم تمكن من غزو معظم أراضى ايران بحلول عام ١٧٩٠ وبعد مرور سبع سنوات جاء بعده ابن أخته : فتح على شاه aHth Ali Shah الذى أثبت أنه نصير للعلماء .

وتحت الحكم المعتدل الدقيق لفتح على شاه تمكن العلماء من تدعيم وتقوية مركزهم . بل أصبحوا يديرون أراضى الأوقاف الدينية ويحصلون على نسبة ١٠٪ من الإيراد كمكافآت لهم . ونظرا لأنهم كان ينظر اليهم على أنهم بمثابة الأوصياء على الإمام المختفى فانهم كانوا يقومون أيضا بتحصيل الضرائب الاسلامية ( الأخماس والزكاة وعلى الرغم من أن الأخماس كانت أساسا بمثابة ١/٥ الغنائم التى يحصل عليها المؤمنون من الكفار المنهزمين وبحيث يتم تسليم هذا الـ ١/٥ الى الحاكم على الأمة الاسلامية فان الشيعة فسروا هذا الخمس على أنه بمثابة ضريبة عامة على الدخل . وكان العلماء يستخدمون هذه الأموال فى تسيير شئون المؤسسات التعليمية والاجتماعية والخيرية بالإضافة الى الكليات والمعاهد الدينية . وكانوا يديرون العمل فى محاكم الشريعة التى تتناول قضايا الأحوال الشخصية والأسرية والعائلية . ولكى يتمكنوا من تنفيذ القرارات التى تصدرها المحكمة فانهم كانوا يلجأون الى فرق حربية خاصة تتألف من الطلبة الدينين التابعين لهم . وكان هؤلاء العلماء يتمتعون بالهيبة والاحترام الشديد من جانب المؤمنين على نحو يفوق ذلك الاحترام الذى يكنه الناس للوعاظ المحطين الذين يؤمنون المصلين فى أيام الجمعة والقضاة المحليين الذين يحكمون فى القضايا والجرائم وفقا للقوانين الاعتيادية والذين يتم تعيينهم بمعرفة الملك القاجارى . بل الأكثر من ذلك أنهم كانوا بشعرون أنهم مستقلون بشكل استثنائى نظرا لأن رؤساءهم الروحانيين الذين

يعيشون في النجف وكربلاء كانوا يقعون خارج نطاق السلطان القضائي للقاجار . وتمشيا مع هذا ساد المفهوم الذهني عن المنتجع أو الملاذ الديني . حيث ادعى العلماء أن المساجد والأضرحة الدينية ومنزلهم من حيث المبدأ أراض تابعة للإمام المختفى وبالتالي فإن حكومة قاجار ليس لها الحق في الدخول في كل هذه الأماكن . . وبالتالي أصبحت كل هذه الأماكن هي الملاذ والمأوى لجميع الناس الهاربين والشاردين . والأهم من ذلك أن هذا الأسلوب قد ساعد على جعل المساجد بمثابة أماكن للمعارضة ضد الملوك الإيرانيين الذين لا يلتزمون بتحقيق العدالة .

ومع مرور السنوات في القرن التاسع عشر حرص « المجتهدون » على تسمية أعظم شخص موثق من زملائهم باسم : « المرجع المطلق » حيث كانوا يوافقون على قبول إرشاداته وتوجيهاته . وكل هذه التطورات قد أعطت العلماء المزيد من القوة السياسية والروحية والأيدولوجية كما دعمت الاتحاد والوحدة بينهم وأضفت التماسك على تعاليمهم . ومما يثير الدهشة أن ممارسة اختيار « المرجع الأقصى » بالإضافة إلى تواجد قيادة عليا للعلماء خارج إيران كان يعنى أن المجتمع الإيراني قد أنشأ كيانا كهنوتيا في داخل إيران وفقا للخطوط والنماذج التي سبق أن شهدتها أوروبا المسيحية من قبل .

ومع بزوغ قاعدة اجتماعية اقتصادية مستقلة فإن ذلك أعطى للعلماء المقدرة على حرية الحركة والعمل المستقل . ولذلك راحوا يمارسون نفوذهم ويحتجون على ضعف التقاليد الإسلامية في داخل المجتمع ويحتجون على التغلغل السياسي في داخل إيران من جانب الدول الأوروبية وخاصة بريطانيا وروسيا القيصرية . وخير مثال على ذلك هو احتجاجهم ضد التبغ في عام ١٨٩١ - ١٨٩٢ .

اذ تحالف العلماء مع المثقفين العلمانيين والقوميين العلمانيين فى الاحتجاج ضد الامتياز الذى منحه ناصر الدين شاه ( ١٨٤٨ - ١٨٩٦ ) لبريطانيا بشـسان احتكار انتاج وبيع التبغ . وقد لعب جمال الدين الأفغانى دورا كبيرا فى اقناع « المرجع الأقصى » : الحاج ميرزا الحسين الشيرازى لكى يصدر فتوى دينية فى هذا الموضوع . فأصدر الشيرازى بيانا جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم . ان استخدام التبغ فى هذه الايام فى أى شكل من أشكاله هو بمثابة حرب ضد امام العصر » . وكان العلماء يرغبون فى القضاء على التغفلل الأوربى من خلال تدعيم وتقوية الاسلام ومقاومة اتوقراطية الشاه وحكمه الفردى المستبد .

وبذلك اظهر العلماء من خلال قيادتهم لاحتجاجات جماهير الشعب التى احرزت النجاح انهم كانوا بمثابة قوة سياسية حيوية بالغة الأهمية . وقد ثبت أن هذا الاحتجاج على التبغ كان مجرد مقدمة لشيء ما اكبر وأعظم : الا وهو الثورة الدستورية .

وقد لقيت الحركة الدستورية تأييدا وتدعيعا من جانب الطبقات التى هى من ذوى الاملاك علاوة على تأييد الزعماء الدينيين وكبار رجال الفكر المثقفين . اذ كان ملاك الأراضي والموظفون الاداريون والتجار والحرفيون يريدون لايران أن تكون متحررة من السيطرة الأوربية وذلك حتى يمكنهم تطوير وتنمية امكانياتهم مع التحرر من ممارسات الشاه الرامية الى منح امتيازات اقتصادية للأوربيين . وكان الزعماء الدينيون يدركون أن التقليل من سلطات الشاه من شأنه أن يزيد من قوتهم فى التعامل مع مشايخ القبائل والأرستقراطيين الإقطاعيين ورجال الدين .

ورغم أن العلماء كانوا يشكلون أغلبية فى المؤتمر الذى عقد فى أكتوبر ١٩٠٦ من أجل وضع دستور للبلاد فانهم فشلوا فى العمل

ككتلة واحدة فالتدريب الذى تلقوه لم يزودهم بنظرية سياسية علاوة على أنهم لم يكن لديهم فى أذهانهم نموذج دستورى . وكل ما فعلوه هو أنهم راحوا يستجيبون للمبادرة التى اتخذها العلمانيون بشأن اتخاذ الدستور البلجيكى كنموذج يحتذون به .

وكان العلماء الدينيون منقسمين الى فئتين :

١ — المتمسكون ببقاء الدين .

٢ — البرجمانيون العمليون .

وأشارت الفئة الأولى الى أنه فى ظل عدم تواجد الامام المختفى ، الذى يعرف بين جماهير الناس بامام الزمان او والى العصر فانه ينبغى الاطاحة بحكومة الطاغية الحالية بحيث يحل محلها حكومة دستورية تتألف من « المجتهدين الحكماء » . أما البرجمانيون العمليون الذين يشكلون اكثرية كبيرة بين العلماء فانهم اتفقوا فى الراى مع المتمسكين ببقاء الدين ولكنهم أشاروا الى استحالة تنفيذ ذلك الراى ووضعه موضع التنفيذ الفعلى .

وكان يوجد بين البرجمانيين علماء معتدلون وآخرون راديكاليون . وكان المعتدلون يرغبون فى عمل مراجعة على مدى استبدادية الملك مع الاسترشاد بالخطوط الواردة فى الدساتير الأوروبية مثل ذلك الدستور الخاص ببلجيكا . أما الراديكاليون الذين كانوا تحت قيادة الشيخ فضل الله نوري **Fabiolah Nuri** فكانوا يريدون لسلطة الحاكم أن تكون محصورة فى نطاق اطار اسلامى .

وبالنسبة للسلطة العليا أشار الراديكاليون الى أنه ما دامت السلطة العليا قد أعطاها الله بالتفويض الى الامام المختفى ومنه الى « المجتهدين » فانها لا تتعلق بجماهير الشعب . وقد لقى رأيهم

هذا معارضة من جانب رجال الدين المعتدلين ومن جانب الدستوريين العلمانيين . وخسر الراديكاليون الجولة . اذ نصت المادة ٣٥ على ما يلي : « ان السلطة العليا هي الثقة التي يعهد بها الشعب الى الذات الملكية . ( كمنحة مقدسة ) » .

أما الوثيقة الأخيرة التي تسمى « القوانين الأساسية » والتي كتبت وفق نموذج الدستور البلجيكي فكانت تتخذ طابع التوفيق بين آراء المعتدلين وآراء الراديكاليين مع احراز رجال الدين الراديكاليين لبعض النشاط القليلة لصالحهم . وظل نفس هذا الدستور معبولا به — ولكن مع ادخال تعديلات معينة — الى أن تفجرت الثورة الخومينية في عام ١٩٧٩ .

وكان الدستور مصوغا في اطار اسلامي وقد جاء في المادة الأولى أن الجعفرية Jaafari أو المذهب الشيعي الاثنا عشري هو الدين الرسمي للدولة . والشخص الجعفري الشيعي هو فقط الذي يمكنه أن يصبح الملك أو وزيرا أو قاضيا . والمادة رقم ٣٩ أنعمت على العاهل الملك بمهمة القيام « بتدعيم وتنشيط النظرية الجعفرية والسعى الى مساعدة الأرواح المقدسة لتدبىسي الاسلام لكي يقدموا خدماتهم الرامية الى تقدم ايران وازدهارها .. » والمادة ١٨ نصت على توفير التعليم المجاني بشرط ألا يتعارض هذا التعليم مع الشريعة . أما المادة رقم ٢٧ فقد أكدت على حق محاكم الشريعة في التواجد .

وفي السنة التالية جاءت القوانين الأساسية التكميلية المطولة التي حددت ميثاق حقوق للمواطنين وحددت شكلا برلمانيا للحكومة مع تركيز السلطة في الهيئة التشريعية على حساب الهيئة التنفيذية والجدير بالذكر أن المادة رقم ٢ نصت على أن أى مشروع قانون

يصدره المجلس ( البرلمان ) لا يصبح سارى المفعول الا بعد أن تتقوم لجنة مكونة من خمسة من « المجتهدين » — يتم اختيارهم بمعرفة البرلمان من ضمن قائمة تضم عشرين مجتهدا مقدمة من العلماء — بالاقرار بأنه يتلاءم مع الاسلام . وهكذا نرى أنه على الرغم من أن لجنة المجتهدين تمتلك سلطة الفيتو فانها لا يمكن أن تعمل كهيئة خلافة من تلقاء نفسها وعلى النحو الذى كان يريده رجال الدين الراديكاليين بقيادة نوري Nuri وعلى كل حال فاننا نجد من الناحية العملية أن هذه المادة لم تنفذ على الاطلاق . حيث كان القاجار يتجاهلون هذه المادة علاوة على تجاهل البهلويين لها .

والجدير بالذكر أن بعض كبار العلماء المقيمين بالعراق ضد أيدوا هذ الدستور ورأوا أنه بمثابة فرصة للمجلس ( البرلمان ) للعمل على تطبيق الشريعة . وقد قال أحدهم وهو الشيخ اسماعيل المحلاتى Ismail Mahallati ان هذا الدستور يتميز بالتوازن والتوافق المعقول ما بين هدف اقامة حكومة برئاسة الامام المعصوم من الخطأ وهو هدف يتعذر الوصول اليه ، والعبودية غير المقبولة للنظام الملكى المطلق .

وفى عام ١٩٠٩ قاد محمد على شاه ثورة مضادة ملكية ضد الدستور عام ١٩٠٦/١٩٠٧ . ولكن تم احباط هذه الثورة . وبعدئذ أرغم الشاه على التنازل عن العرش لصالح ابنه البالغ من العمر ١٢ عاما والذى يسمى أحمد ولكن لكى يتم احباط مخططات احتلال طهران على 'يدى القوات الروسية قام الملك بحل المجلس (البرلمان) فى نوفمبر ١٩١١ . وكان ذلك بمثابة نهاية الثورة الدستورية وليس نهاية الدستور .

وخلال فترة هذه السنوات الستة أى من ديسمبر ١٩٠٥ الى نوفمبر ١٩١١ كان العلماء منهمكين فى نشاط فى المجالات السياسية



وهو أمر لم يقوموا به مرة أخرى حتى أواخر السبعينات . اذ كانوا يهتمون أساسا بتوسيع نطاق نفوذهم الاجتماعى والسياسى على حساب السلطات العلمانية وعلى حساب المكاسب الاقتصادية وقد كان الكثيرون من كبار رجال الدين يمتون بصلة القرابة للتجار الأغنياء الذين وجدوا أن طموحاتهم نحو انشاء مشروعات تجارية أو صناعية عظمى تندحر أمام تفضيل الشاه للأوربيين فى مجال التنمية الاقتصادية بایران .

وعلى الرغم من وقوف طهران على الحياد خلال الحرب العالمية الأولى فان قوات روسيا القيصرية وبريطانيا وتركيا العثمانية قامت بغزو ايران . وقد حرمت ثورة أكتوبر البلشفية لعام ١٩١٧ فى روسيا شاه ايران من نصير أجنبى كبير . وبعد عامين فرضت بريطانيا بالاكراه معاهدة على الحكومة الايرانية أصبحت ايران بمقتضاها بمثابة محمية واقعة تحت نفوذ لندن الا أن المجلس (البرلمان) رفض التصديق على هذه المعاهدة استجابة للمشاعر الوطنية لجماهير الشعب .

وكانت ايران آنئذ قد أصبحت دولة مهمة من حيث انتاج البترول برأس مال بريطانى وخبرة بريطانية وقد لعب رأس المال والخبرة البريطانية دورا رئيسيا فى هذا الصدد . اذ رأت بريطانيا أن من المهم للغاية أن تكون هناك حكومة قوية فى ايران بهدف تسهيل مهمة استخراج البترول وغير ذلك من أعمال أخرى . فشجعت العقيد رضا خان Reza Khan الضابط بفرقة القوزاق على الاطاحة بالحكومة القائمة وتعيين نفسه وزيرا للحرب ، وبعد أن قام رضا خان بتنفيذ ذلك فى فبراير ١٩٢١ فانه ممل على تدعيم مركزه من خلال قمع الثورات الداخلية . ثم عين نفسه رئيسا للوزراء وراح يتطلع لأن يصبح شاه ايران . وبدأ يتوود الى القيادة الدينية ..

حيث قدم في أبريل ١٩٢٤ بزيارة مدينة قم Qam وهي مدينة مليئة بالأضرحة المقدسة وكان يقيم بها آئذ كبار علماء الشيعة العراقيين المنفيين . وهناك أصدر بيانا جاء فيه : « نظرا لأن هدفى الشخصى ومنهجى منذ البداية كان ولا يزال العمل على المحافظة على جلال الاسلام واستقلال ايران . . فاننى وكافة الناس الآخرين بالجيش قد رأينا من البداية أن الحفاظ على وقار الاسلام وحماية هبة الاسلام هو أحد الواجبات العظمى الملقة على عاتقنا » .

وبعد شهر قليلة صرح كبار « المجتهدين » فى بيان رسمى تأييدهم لحكومة رضا خان . وقد مكن هذا رضا خان من كسب التأييد اللازم للإطاحة بالحاكم القاجارى Qajar الذى يسمى أحمد شاه فى ديسمبر ١٩٢٥ وتعيين نفسه قائما بأعمال الملك فى إيران . وبعد مرور أربعة شهور توج نفسه ملكا على البلاد . . وبعدئذ قام رضا خان — وفقا للقانون الصادر فى ربيع عام ١٩٢٥ الذى ينص على ضرورة أن يحصل جميع الايرانيين على شهادات ميلاد موضح بها اسم العائلة — باختيار أسم لعائلته من بين الأسماء الواردة باللغة الايرانية القديمة فاختر كلمة : بهلوى وهو اجراء يرمز الى تفضيله لايران فى فترة ما قبل الاسلام . .

وبعد أن تربع رضا بهلوى شاه على عرش ايران بدأ يعمل على تقليص سلطات العلماء الدينيين . اذ أصدرت حكومته قرارا مدنيا ينص على وضع المحاكم الشرعية تحت اشراف الدولة علاوة على زيادة نفوذ الادارة الدينية التابعة للحكومة . وبعدئذ صدر قانون الزى الرسمي لعام ١٩٢٨ : الذى ينص على أنه ينبغي على كافة المواطنين الذكور أن يرتدوا الزى الغربى والطاقية المستديرة التى لها حافة ناتئة . وقد نص قانون محاكم الشريعة لعام ١٩٣٠ على أن تقتصر هذه المحاكم على الموضوعات المتعلقة بالزواج

والطلاق والرعاية على أن يتم فقط تحديد ما اذا كان المتهم مذنباً أم بريئاً . أما قاضون تسجيل الوثائق والممتلكات الصادر فى عام ١٩٣٢ فقد أنهى دور المحاكم الشرعية من حيث قيامها بدور تسجيل الوثائق . وكان ذلك بمثابة مصدر كبير للدخل بالنسبة للعلماء . وقانون الأوقاف لعام ١٩٣٤ قد دعم ممتلكات ادارة الأوقاف التابعة لوزارة التعليم . اذ خول لادارة الأوقاف الاستيلاء على كافة الأوقاف الدينية التى ليس لها مديرون أو لها مديرون غير معروفين بالاضافة الى الاشراف على الأوقاف الدينية الأخرى مع الموافقة أو عدم الموافقة على ميزانياتها . ونظرا لأن هذه الأوقاف الدينية كانت بمثابة المصدر الرئيسى للدخل بالنسبة للعلماء فان هذا القانون قد قلص نفوذهم الاقتصادى واستقلالهم الى درجة كبيرة . وفى عام ١٩٣٤ أصدر الشاه أوامره بفتح جميع الأماكن العامة أمام النساء . . وفى السنة التالية أصدر أوامره بالغاء الحجاب وخاصة الشادور وهو ذلك الغطاء الذى يغلف الجسد من جميع الجوانب والذى كان شائعاً بين النساء والفتيات الإيرانيات . وقد اعترض العلماء فى عنف على هذا القرار نظراً لأن الحجاب — من وجهة نظرهم — قد أقره القرآن الكريم وجعله من الأمور التى ينبغى الالتزام بها وذلك وفقاً للآيات الكريمة الآتية :

(( وَكُلُّ الْمُؤْمِنَاتِ يَفْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ . وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْاِرَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلَ الَّذِينَ لَا يَظْهَرُونَ عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يُضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَكُمْ نُصَاحٌ مِنْ رَبِّكَ وَاللَّهُ الْعَظِيمُ .

سورة النور — آية رقم ٣١ .

كما أصدر الشاه أوامره بتغيير الطاقية ذات الحافة التى يرتديها جميع الرجال بالقبعة الباد الأوربية . وقد تعارض هذا مع الطريقة الاسلامية فى الصلاة والتى تتطلب من المسلم أن يلامس الأرض بجبهته أثناء تأدية الصلاة . وفى عام ١٩٣٦ سعى الى منع الحداد الشعبى على الوفاة التى حدثت بالنجف للشيخ ميرزا حسين النينى Mirza Hussein Naini المجلد — من حيث أنه « المرجع المطلق » — لدى الشيعة الايرانيين . وبعد مرور ثلاث سنوات أصدر قرارا يحظر على الناس القيام بجلد أنفسهم علنا أمام الجماهير فى ذكرى وفاة الامام الحسين . وبعدئذ سعى الى منع العرض الجماهيرى الذى يقوم به الناس على شكل مسرحيات عاطفية قبل الحداد ومنع الحج الى مكة . ولكى ينال ما يريده من المجلس ( البرلمان ) فإنه قام بالتلاعب فى الانتخابات وتزويرها . ففى حين كان المجلس السادس ( ١٩٢٦ — ١٩٢٨ ) به ٤٠٪ من النواب من رجال الدين أصبح المجلس الحادى عشر ( ١٩٣٦ — ١٩٣٨ ) لا يضم سوى رجل واحد فقط من رجال الدين المشهورين . وقد لخص لنا نيكى ر . كيدى سيثسات رضا شاه فكتب ما يلى : « لقد أصبحت الطبقة العليا والطبقة المتوسطة متخذة الطابع الغربى بشكل متزايد حتى أنهم نادرا ما كانوا يفهمون الثقافة التقليدية أو الدينية لزملائهم المواطنين من جماهير الشعب . ومن ناحية أخرى ظل الفلاحون والمزارعون والطبقات الفقيرة الحضورية يتبعون العلماء رغم التهديدات السياسية التى كانت تنصب على العلماء . . وكانت هذه الطبقات تتصرف ازاء الأمور بما يتلاءم مع الاسلام وليس بما يتلاءم مع الغرب » .

وعندما أرغمت القوات البريطانية والسوفيتية رضا شاه على التنازل عن العرش لابنه محمد رضا البالغ من العمر ٢٣ عاما فى سبتمبر ١٩٤١ كان العلماء من بين الذين رحبوا بتنازله عن العرش

واحتفلوا برحيله . فهم قد عانوا على مدى ١٥ عاما من الضغوط .  
التي فرضها عليهم الشاه مما أسفر عن تقليص نفوذهم وهيبته .  
الى درجة كبيرة .

وكان محمد رضا شاه صغيرا فى السن للغاية وعديم الخبرة  
بحيث لا يمكنه أن يحكم البلاد حكما أوتوقراطيا حتى لو كان قد  
أراد ذلك . كما كانت القوات الأجنبية تحتل مملكته بالإضافة الى  
أن حكومته كانت مثقلة بالمشاكل الحادة الناجمة عن الحرب العالمية  
الثانية . واستسلم لضغوط رجال الدين التي مارسوها عليه . ثم  
قام بالغاء الحظر الذى فرضه والده على مسرحيات وعروض  
العاطفة الشيعية وعلى الحج الى مكة . بل أصدر تعليماته  
للمكاتب الحكومية لى تراقب تنفيذ الممنوعات الاسلامية اثناء الصوم  
فى شهر رمضان . وكانت هذه خطوة لها أهمية كبيرة للغاية وكان  
يدرك أنه ينقصه العون الفعال من قطاعات المجتمع . لذلك حاول  
أن يكسب تعاطف العلماء نظرا لأن العلماء كانوا على اتصال وثيق  
يومي مع جماهير الشعب .

وفى يناير ١٩٤٨ عندما أصدر ١٥ من المجتهدين قرارا دينيا  
ينص على ضرورة ارتداء النساء للحجاب أثناء قيامهن بشراء  
الحاجات من الأسواق فإن كل ما فعلته الحكومة هو مناشدة آية  
الله محمد موسى البهبهاني Barujerdi زعيم رجال الدين  
بالعاصمة للعمل على وقف الهجوم على النساء غير المتحجبات من  
جانب المتعصبين .

وكان كل من : البهبهاني وآية الله محمد حسين البروجيرودى  
Behbahani المرجع المطلق من المعتدلين . بمعنى أنهما كانا  
يؤكدان على ضرورة أن يبتعد رجال الدين عن السياسات اليومية

وكان رأيهما هذا يلقي المعارضة من جانب آية الله أبو القاسم الكاشاني Kashani وهو من كبار رجال الدين المناهضين للمجاهدين . وكان قد أنشأ عقب الحرب العالمية الثانية حزبا سياسيا تحت اسم « مجاهدي الاسلام » . وقد استود هذا الحزب قوته من صفار التجار والطلبة الذين يدرسون العلوم الدينية وكبار قادة العائلات التجارية التي تمتلك المحلات والدكاكين التجارية . وكان هذا الحزب يطالب بإلغاء جميع القوانين العلمانية التي أصدرها رضا شاه وتطبيق قوانين الشريعة ( على النحو الوارد في دستور عام ١٩٠٦ - ١٩٠٧ ) واعادة تطبيق زى الحجاب على السيدات وتوفير الحماية للصناعات الايرانية .

وكان الكاشاني قد القى القبض عليه في أعقاب المحاولة الفاشلة لاغتيال الشاه التي قام بها مصور فوتوغرافي في ٤ فبراير ١٩٤٩ . وقد تم قتل ذلك المهاجم على الفور في نفس مكان الحادث . ولكن نظرا لأن أوراق تحقيق الشخصية الخاصة به قد أوضحت أنه يعمل في « بارشامي اسلام Parcham-E Islam » ( علم الاسلام ) وهي صحيفة دينية فقد قرر الشاه توجيه ضربة للقوى الاسلامية المجاهدة المناضلة . وبناء على تعليمات وتوجيهات صادرة منه أصدر المجلس ( البرلمان ) قانونا ينص على فرض الحظر على النشاط السياسي . ووقف قادة العلماء المعتدلون الى جانب الحاكم . وتم عقد مؤتمر يضم ٢٠٠٠ من رجال الدين في مدينة قم بدعوة من بوروجيردي Borujerdi في يومى ٢٠ و ٢١ فبراير وأصدر المؤتمر قرارا بحظر النشاط السياسى بالنسبة لرجال الدين والتهديد بفصل أى رجل دين من عمله اذا تحدى ذلك القرار .

الا أن هذا لم يمنح العديد من كبار رجال الدين من اصدار قرارات دينية لصالح تأميم شركة البترول الانجلو ايرانية المملوكة للبريطانيين (AIOC) وهو ذلك الموضوع الذى سيطر على

الانتخابات للمجلس ( البرلمان ) السادس عشر التي أجريت في الفترة من يوليو ١٩٤٩ حتى فبراير ١٩٥٠ . وقال الكاشاني Kashani الذي يؤيد التأميم أنه يحذو حذو المشيخييرازي الذي تنبى « الاحتجاج ضد التبغ » . ووقف آية الله محمد تقى الخنصاري Khonsari في وصف الكاشاني وأشار الى الحديث النبوى الشريف الذى منناه كآلاتى : « ذلك الذى لا يهتم بشئون المسلمين ليس مسلما » . ومثل هذه البيانات والتصريحات أحدثت تأثيرا عليقتاعلى الشباب من المجاهدين الاسلاميين . وفى ٧ مارس ١٩٥١ قام خليل الطحماسيبي Tahmasibi وهو عضو فى منظمة « فدائيين اسلام » السرية بالاعتداء على رئيس الوزراء الموالى للبريطانيين الجنرال على رازمارا Ali Razmara .

وسرعان ما أصدر المجلس ( البرلمان ) مشروع قانون ينص على الاستيلاء على شركة البترول الانجلو ايرانية AIOC . وفى أول مايو ١٩٥١ وافق الشاه على مشروع القانون الخاص بتأميم البترول وعين محمد مصدق زعيم الجبهة الوطنية فى منصب رئيس الوزراء لايان .

وكان الكاشاني واتباعه من أبرز الناس الذين حركوا مشاعر الجماهير لصالح التأميم ولصالح مصدق وكان الكاشاني يتحرك بدافع من المشاعر المناهضة للاستعمار ويدافع من رؤية اسلامية تتعلق باندماج السياسة مع الدين . اذ قال فى هذا الصدد : « ان الأفكار والنظريات الاسلامية تنطبق على الحياة الاجتماعية والحماسة الوطنية وتسيير شئون العدالة وتعارض مع الظلم والطغيان والحكومة الاستبدادية . فالاسلام يحذر المسلمين من الخضوع للاستعباد الأجنبى . وهذا هو السبب فى أن المستعمرين يحاولون تشويش عقول المسلمين من خلال الفصل بين الدين والسياسة » .

وبعد مرور ربع قرن من الزمان عبر عن نفس هذه المشاعر والآراء آية الله روح الله الخوميني الذي فجر الثورة الإسلامية .

وعندما بدأت المقاطعة الغربية لبقول إيران تحدث تأثيرات ضارة للغاية على إيران وتسبب أزمة اقتصادية حادة فان التحالف بين الكاشاني ومصدق بدأ في التوتر والتصددع . اذ انشق الكاشاني — وهو عضو في المجلس (البرلمان) — على مصدق في مارس ١٩٥٣ . الا أن باقي الأعضاء الدينيين الثمانية بالمجلس ظلوا يؤيدون مصدق . وهذه الحركة التي قام بها الكاشاني جعلته مقبولا لدى منظمة « فدائيين اسلام » التي كانت تعتقد أن مصدق قد وقع تحت النفوذ الغربي والتأثيرات اليسارية .

وذهبت منظمة فدائيين اسلام التي أسسها في عام ١٩٤٥ طالب شاب يدرس العلوم الدينية ويسمى : سيد نواب صفوي Sayyid Navab Safavi ( الذي كان يتخذ الاسم المستعار - سيد موجتبا ميرلوحى ) الى ما هو أبعد من مجرد المطالبة بتطبيق الشريعة على النحو الوارد بالدستور . اذ طالبت بفرض حظر على التبغ والكحول ودور السينما والأفيون والقمار بل ارتداء الزى الأجنبي . كما تبنت اعادة ارتداء المرأة للحجاب وغير ذلك من الاجراءات الواردة بالشريعة مثل قطع يد السارق . كما طالبت بتطبيق شامل لمشروع الاصلاح الزراعي وتأميم الصناعة وتطبيق كافة اجراءات الرعاية الاجتماعية . وجذبت أتباعا كثيرين من الطبقات الفقيرة بالمجتمع مثل : البوابين والشـيـاليين والعتالين وصغار العمال بالمحلات والدكاكين والباعة المتجولين . واتخذت منظمة « فدائيين اسلام » من الاغتيالات سـلـاـحـا سياسيا . و قد نفذوا الاغتيال في ضحيتهم الاولى : وهو أحمد كسـراوى Kasravi المؤرخ والمهامي العلماني الشهير في مارس ١٩٤٥ .



كما نفذوا الاغتيال فى ضحيتهم الثانية فى نوفمبر ١٩٤٨ حيث اغتالوا عبد الحسين حزهير Hazhir وهو وزير بالبلاط الملكى وكان يعتبر عميلا للاستعمار البريطانى . وبعدئذ جاء اغتيال الثنرال بازمارا Bazmara مما دنع المجلس ( البرلمان ) الى تأميم البترول .

وبدا مصدق يعتهد بشكل متزايد على تأييد حزب توده Tudeh ( أى حزب الجماهير ) الموالى لموسكو لكى يتمكن من الصمود امام ضغوط حكومتى بريطانيا وأمريكا اللتين تساندان فرض الحظر على البترول الايرانى . وقد أدى ذلك الى ابعاده عن العلماء الدينيين المعتدلين بقيادة البهبهانى Behbahani وبوروجيردى Barujerdi بل أشارت بعض التقارير الى أن بهبهانى قد عمل على حشـر جماهير من العاملين فى الدكاكين والأسواق فى جنوب طهران لكى يتجهروا ضد حكومة مصدق فى ١٩ أغسطس ١٩٥٣ خلال الانقلاب المضاد الرامى الى اعادة الشاه والاطاحة بمصدق الذى قادته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وضباط الجيش الموالون للشاه .

وبعد أن عاد الشاه الى العرش فانه حاول أن يبدو أمام الناس وكأنه منقذ للاسلام اذ دأب على اصطحاب زوجته ثريا على زيارة الأضرحة المقدسة المتواجدة فى مدينة قم Qam ومدينة مشهد Mashhad ومدينة كربلاء . كما قاما بزيارة مكة لأداء فريضة الحج . كما زادت الحكومة من التعليم الدينى والثقافة الدينية بالمدارس . وفى مقابل هذا امتنع القادة الدينيون عن التعليق على القرارات العلمانية التى يصدرها الشاه . ومثال ذلك أنهم لم يعلقوا بأى تعليقات على الاتفاقية المتسمة بالفن والظلم التى أبرمها الشاه مع الاتحاد البترولى الغربى فى أغسطس ١٩٥٤ والتى عارضتها بشدة منظمة فدائيين اسلام . وقام عضو بمنظمة فدائيين بمحاولة

فاشلة لاغتيال رئيس الوزراء الإيراني حسين علاء Hussein Ala  
 مما جعل الشاه يقوم بسحق هذه المنظمة .

وفى حين أن العلما الدينيين قد نقدوا السيطرة على الأجهزة  
 التضامنية والتعليمية فانهم كانوا لا يزالون أقوى الى درجة تجعل  
 الشاه يحترمهم ويستشيرهم كما كانوا متمسكين بالقدر الذى يسمح  
 لهم بتكوين وتبنى وجهة نظر فيما يتعلق بنواح معينة فى السياسة  
 الإيرانية . وكان من بين هذه الأمور حق المرأة فى اعطاء صوتها  
 فى الانتخابات . اذ كرر بروجيردى معارضته لحق المرأة فى  
 التصويت فى أوائل عام ١٩٥٩ .

وعندما قدمت الحكومة مشروع قانون بشأن اصلاح الزراعة  
 للمجلس ( البرلمان ) فى ديسمبر ١٩٥٩ وصف بروجيردى ذلك  
 القانون بأنه ضد الشريعة وضد الدستور . وكان ما يطلقه بصفة  
 خاصة هو أن الاستيلاء على ضيعات وأراضى الأوقاف الدينية  
 — وهى التى تدر الأموال التى تنفق على ادارة شئون المساجد  
 والمدارس والمعاهد الدينية علاوة على الانفاق على احتفالات الشيعة  
 أثناء شهر محرم — سيدمر الاستقلال الاقتصادى للعلماء الدينيين .  
 وقد تضمن مشروع قانون اصلاح الزراعة فى مايو ١٩٦٠ العديد  
 من الاستثناءات من بينها الاستثناء الخاص بأراضى الأوقاف  
 الدينية .

وعندما أصبح جون كنيدي رئيس أمريكا فى يناير ١٩٦١ تزايدت  
 الضغوط على الشاه لى ينفذ اصلاحات على نطاق واسع بالاضافة  
 الى تعيين على أمينى Ali Ammi وهو أرسقراطى إيرانى غنى  
 وصديق شخصى لى كنيدي فى منصب رئيس الوزراء . فاضطر شاه  
 إيران للاذعان لهذه المطالب فى مايو ١٩٦١ . ثم قام الشاه — بناء

على نصائح من أمنيى بجل المجلس ( البرلمان ) ثم شرع فى ادخال  
الاصلاحات .

وقد حدث هذا فى وقت كان يشعر فيه العلماء بأنهم بدون  
قيادة وذلك فى أعقاب موت بوروجيردى فى مارس ١٩٦١ . بعد  
أن ظل هو « المرجع المطلق » على مدى ١٦ عاما متواصلة . وأصبح  
آية الله محسن حاكم Muhsin Hakim هو « المرجع المطلق »  
الجديد وكان يقيم آنئذ فى مدينة النجف . ونظرا لأن حاكم كان  
عربيا بالمولد وكان يعيش فى العراق فإنه كانت تنقصه المعرفة  
الدقيقة بالشئون الإيرانية . وهذا الوضع الجديد قد تلائم مع  
الشاه ولكنه لم يتلاءم مع العلماء الإيرانيين الذين انقسموا بحدة  
فيما بينهم الى ثلاث فئات : فئة المحافظين التقليديين وفئة الوسط  
وفئة الراديكاليين .

المحافظون التقليديون كانوا يؤيدون وجهة نظر بوروجيردى  
من حيث الابتعاد عن النواحي السياسية . وبعد موته تبنى هذا الخط  
الثلاثى آيات الله : محمد رضا جليجاني وشهاب الدين مراشى  
نجافى ومحمد كاظم شريتمدارى وهؤلاء الثلاثة هم أكبر رجال الدين  
فى مدينة قم Qam . وقد عارضوا فكرة استيلاء الدولة على  
الأراضى التى تتخطى كمياتها حدا معيناً وكان ذلك بمثابة جانب  
حاسم فى مشروع الإصلاح الزراعى . وقالوا أن مشروع الإصلاح  
الزراعى يعتبر هجوما على الملكية الخاصة وانتهاكا لها بينما الملكية  
الخاصة هى حق أشرته الشريعة ووافقت عليه وبذلك فهو حق  
لا تنتهك حرمة . أما فئة الوسط فأنهم لم يوافقوا على الأوامر  
الصادرة عن بوروجيردى الخاصة بالابتعاد عن السياسة ولكنهم  
لم يفعلوا سوى القليل من الناحية العملية لكى يتحدوا تلك  
الأوامر . إذ كانوا يميلون الى تركيز اهتمامهم على النواحي

التعليمية والاجتماعية الخاصة بمعاهد ومؤسسات الشيعة . وكان أشهر زعمائهم : آية الله مرتضى مطحاري وآية الله محمد الحسيني بحشتي وكانا يقيمان في طهران العاصمة . وكانا على اتصال مع آية الله محمود طالقاني وهو زعيم الراديكاليين الذي كان يسكن أيضا في طهران العاصمة . وفيما يتعلق بالاصلاح الزراعي أوضح محمود طالقاني أن الأراضي تشتهل على : أراضي القطاع الخاص وأراضي الدولة وأراضي الوقف والأراضي البور . وأشار الى أن الأراضي البور هي فقط التي ينبغي منحها للناس المعدمين الذين لا يملكون أية أراض لكي يقوموا باستصلاحها ولكي نساعدتهم على تخليصهم من الفقر المدقع الذي يعيشون فيه . . وكان الراديكاليون ينادون بمشاركة الجماهير في العملية البرلمانية ووضع حد لسلطات الشاه التي تزايدت بشكل رهيب بسبب حل المجلس ( البرلمان ) .

وفي يناير ١٩٦٢ وافقت الحكومة على مشروع جديد للاصلاح الزراعي به اضافات وتوسعات على القانون السابق عليه ولكنه لم يتعرض أيضا لأراضي الأوقاف وتركها كما هي بدون أن تمس على الإطلاق . وبدأ التنفيذ على الفور . وبعد ستة شهور لم يستطع أميني رئيس الوزراء الحصول على موافقة الشاه على تخفيض الميزانية العسكرية مقدم استقالته . وجاء بعده كرئيس للوزراء أسد الله علم Assadollah Alam الذي نادى بفكرة الديمقراطية المتعددة الطبقات والتي تبدأ بانتخابات المجالس المحلية . ولم ينص القرار الانتخابي الجديد — وذلك على العكس من كافة القرارات الانتخابية السابقة — على أن المرشحين ينبغي أن يكونوا من الذكور المسلمين . فأدرك العلماء أن الهدف من وراء ذلك هو تحرير المرأة نقاموا بشجب القرار الجديد .

ورد الشاه بتصعيد هجومه الشديد على العلماء ووصفهم بالرجعية ومعاداة المفهوم المذهنى الاسلامى عن المساواة . ومنذ ذلك الوقت حتى سقوطه فى أوائل ١٩٧٩ ظل الشاه متخذا موقفا عدائيا من العلماء . وفى أوائل يناير ١٩٦٣ أطلق الشاه « ثورة بيضاء » تتألف من ست نقاط . اذ اشتملت — بالاضافة الى اصلاح الزراعى — على تأميم الثغابات وبيع مصانع القطاع العام حتى يمكن تسديد التمويضات لكبار ملاك الاراضى الزراعية واعطاء حق التصويت للنساء والمشاركة فى الأرباح بالمصانع ومحو الأمية .

وبدلا من أن يصدر الشاه قرارا بشأن انتخابات المجلس ( البرلمان ) فإنه أصدر أوامره بإجراء استفتاء شعبى على « الثورة البفضاء » فى ٢٥ يناير وكانت نتيجة الاستفتاء هى الموافقة بنسبة ٩٩.٩٪ . وفى أوائل مارس قامت هيئة الاستعلامات الموالية للحكومة بطبع سلسلة من النشرات والمطبوعات التى تشير الى أن الاصلاحات التى ادخلتها الدولة كانت متوافقة ومتماشية مع الشريعة . كما أوضحت هيئة الاستعلامات أن الاسلام وغيره من الأديان التوحيدية الأخرى يتسم « بالخلود » وبالتالي « فان الدين هو أمر مختلف تماما عن السياسة . لأن السياسة متقلبة مع الحياة اليومية بينما له طابع الثبات والخلود » .

وكانت مثل هذه البيانات والتصريحات ملموعة من وجهة نظر رجال الدين الراديكاليين وخاصة الخومينى فأدى ذلك الى اشتعال الموقف . اذ تفجرت المظاهرات والمسيرات فى قم وطهران وتبريز ومشهد . وقام جنود المظلات عملاء السافاك Savak ( الشرطة السياسية ) بالهجوم على الكليات والمعاهد الدينية المتواجدة فى قم وتبريز . وأشارت التقديرات غير الرسمية الى مقتل المئات على أيدى قوات الأمن . كما ألقى القبض على الخمينى ولكنهم أطلقوا سراحه بعد فترة قصيرة .

وتصاعدت حدة التوتر في أواخر مايو لدى اقتراب شهر محرم . وفى ٣ يونيو ( الموافق ١٠ محرم ) القى الخميني خطاباً موجهاً للثومنين هاجم فيه الشاه . وجاء في هذا الخطاب ما يلي : « أيها الشاه التعيس البائس ألم يحسن الوقت لك لكي تفكر وتتدبر ملياً وتساؤل نفسك عن المصير الذي تدفعك إليه كل هذه الأمور ؟ » وأشار في خطابه الى عدد من العلماء المشيخين في طهران والذين اقتيدوا الى مكاتب الشرطة السياسية وصدرت لهم الأوامر بالآ يقولوا أى كلام ييسء الى الشاه وآلا يهاجبوا اسرائيل وآلا يقولوا ان الاسلام تحدى به الأخطار . ثم أضاف قائلاً : « ولكن كل خلافاتنا مع الحكومة تتألف على وجه الدقة من هذه النقاط الثلاثة . هل للشرطة السياسية تريد أن تقول لنا أن الشاه رجل اسرائيلى ؟ » .

وفى اليوم التالى ظهرت نسخ من خطاب الخوميني ملتصقة على حوائط ضريح فاطمة وعلى حوائط معهد فايزة الدينى المجاور لضريح فاطمة بمدينة قم . وتجمع الآلاف لى يقرأوا ويناقشوا ذلك الخطاب . وقد أدى هذا الخطاب الى ترسيخ أقدام الخوميني كزعيم جرىء له معتقدات راسخة وقوية وكزعيم على استعداد للهجوم على سياسات الشاه وشخصية الشاه علناً أمام الجماهير وقد حوله هذا الخطات بين يوم وليلة الى بطل قومى بين الجماهير الدينية التى كانت تحتقر الأتوقراطية الملكية ولكنها كانت لا تجرؤ على التعبير عن آرائها أو مشاعرها .

وألقي القبض على الخميني فى الساعات المبكرة من يوم ٥ يونيو ( أو يوم ١٥ من شهر خرداد وفقاً للتقويم الايرانى ) . فأدى ذلك الى تفجر مظاهرات معادية للحكومة فى مدينة قم وغيرها من المدن الكبرى الأخرى . وظهرت المشاعر المناهضة للشاه التى تراكت على مدى السنوات العشرة الماضية فى تفجر هائل وفى

عنف لم يسبق له مثيل . فقام الشاه بنفسه بتولى شؤون الحكومة ومحاولة السيطرة على التمردات . وأعلن قانون الطوارئ في المدن الكبرى التي تجتاحها الثورات وأصدر أوامره للدبابات وقوات الجيش بدخول المدن « وإطلاق النيران بهدف القتل » . ولم تتمكن قوات الجيش من السيطرة على التمرد إلا بعد مرور يومين . وكان بعض كبار العلماء يؤيدون ذلك التمرد ويدعون الناس إلى الجهاد ضد حكومة الشاه غير الإسلامية . وتشير الإحصائيات إلى أن عشرة آلاف من الثائرين قد قتلوا في سماء المدن الكبرى .

وبعد أن فرغ الشاه من القضاء على المعارضة خفف بعض الشيء من حدة قبضته الحديدية . إذ أصدر أوامره باحتجاز الخوميني كسجين في داخل منزله . ثم أصدر تعليمات بإجراء انتخابات للمجلس ( البرلمان ) في سبتمبر . وعندما وجه الخوميني نداء بمقاطعة الانتخابات تم إيداعه في السجن مرة أخرى وظل متواجدا بالسجن حتى أبريل ١٩٦٤ .

وسرعان ما تركز انتباه الجماهير على مسألة قرض بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار من أمريكا من أجل شراء أسلحة ومسالمة منح حصانة دبلوماسية لأطباء أمريكيين — بعضهم من العسكريين والبعض الآخر من المدنيين — يعملون في مشروعات عسكرية بإيران . إذ أثار ذلك ذكريات قديمة تتعلق بالامتيازات التي كانت تمنح للدول الأوروبية . ونظرا لأن الخوميني كان من أشد المتحمسين للاستقلال الإيراني والسيادة الإيرانية فإنه وثق في صلابته شديدة ضد تحول إيران إلى دولة خاضعة للسيادة الأمريكية أو لسيادة ونفوذ أي دولة أخرى . وبعد أن استنكر الخوميني هذه التصرفات التي يقوم بها الشاه تم نقله إلى تركيا في نوفمبر ١٩٦٤ . وبعد أن أمضى عاما في مدينة بورصة Bursa التركية ذهب إلى مدينة النجف بالعراق .

وهناك في مدينة النجف أمضى الخميني أوقاته في الصلاة والتعبد وتعليم أتباعه وتوجيه النصيح والارشاد لهم . وانتهاز فرصة الحج السنوي بمكة المكرمة ( في يناير/فبراير ١٩٧١ ) لكي يوجه خطابات مفتوحة الى مسلمي ايران وإلى المسلمين في جميع أرجاء العالم من خلال مبعوثيه المتمركزين بالنجف . وفيما يتعلق بالاحتفالات التي كان من المقرر أن يقيمها الشاه في شهر أكتوبر بمناسبة ترسيخ النظام الملكي بايران منذ ٢٥٠٠ عام قال الخميني محذرا « ان أي شخص يشارك في هذه الاحتفالات أو يقوم بتنظيمها هو انسان خائن للإسلام وللأمة الايرانية » .

ووجد الخميني أن الاحتفالات الملكية بمدينة برسبوليس Persepolis التي كانت ذات يوم عاصمة للأسرة الملكية الحاكمة الأشمينية Achemenian في يوم ٢٥ أكتوبر ١٩٧١ هي بمثابة فرصة ذهبية له لكي يوجه هجوما على الأنظمة الملكية ، اذ قال : « ان التراث يذكر لنا أن النبي محمدا قال أن لقب ملك الملوك الذي يحمله حاليا ملوك ايران هو أسوأ أنواع الألقاب التي ييغنها الله » وأضاف الخميني : « ان الاسلام يعارض تماما فكرة النظام الملكي .. فالملكية هي أكثر الظواهر الرجعية اتساما بالخزي والعار » .

وكان النظام الملكي هو أحد الموضوعات التي تناولها الخميني بطريقة منهجية في سلسلة المحاضرات التي ألقاها على تلاميذه في عام ١٩٧٠ والتي نشرت في السنة التالية تحت عنوان « حكومة الاسلام : ولاية الفقيه » . ويقول الخميني في هذه المحاضرات ان مهمة العلماء الدينيين ينبغي ألا تقتصر على مجرد تعليم المسلمين ما ينبغي عمله وما لا ينبغي عمله بتلك الطريقة التقليدية ثم الاخلاص الى الانتظار بطريقة سلبية لحين مجيء الامام المختفي . اذ ينبغي



عليهم أيضا العمل على طرد الموظفين الفاسدين والحكومات الاستبدادية الفاسدة واستبدال حكومات رشيدة بها تعمل تحت قيادة القضاة الضالعين في القوانين الإسلامية . كما حدث الطلبة الذين يدرسون العلوم الدينية في مدينة النجف وقم ومشهد « على العمل على إثارة جماهير الناس » . وكان الخميني يطالب بضرورة إخضاع السلطة السياسية للمفاهيم الإسلامية والمعايير والأهداف الإسلامية ويناشد العلماء الدينيين خلق دولة إسلامية والمشاركة في الهيئات التشريعية والتنفيذية والقضائية وتقديم برنامج عمل يهدف إلى إقامة دولة إسلامية .

ويوضح الخميني في كتابه سالف الذكر أن هناك حركة تهدف إلى جعل الإسلام مقصورا على مجرد أداء الصلاة والاطقوس الدينية والابتعاد عن الإيمان الحقيقي . وأشار إلى أن الغرب الاستعماري يشجع هذه الحركة بهدف إضعاف المسلمين ودولهم الإسلامية . وأوضح الخميني أنه مادام الإسلام هو أولا وقبل كل شيء القانون الإلهي فإن الأمر يستلزم تطبيقه من خلال إقامة دولة إسلامية . فالدولة الإسلامية هي فقط التي تستطيع أن تحصل الضرائب الإسلامية مثل : ضريبة الأخماس والزكاة والتي تستطيع أن تنفق الأموال التي تم تحصيلها في أمانة على الفقراء والمحتاجين من أفراد المجتمع . وهي فقط التي تستطيع تنفيذ التعاليم الإسلامية فيما يتعلق بالواجبات الملقاة على عاتق المؤمن ومعاينة المنتهكين المخالفين للتعاليم الإسلامية . وأشار في كتاباته إلى أن : « من الأمور المنطقية أنه ينبغي أن تكون هناك حكومة تقوم بمهمة تنفيذ القوانين الإسلامية ووضعها موضع التنفيذ وتطبيق كافة الإجراءات الإسلامية تطبيقا كاملا » .

والحكومة الإسلامية تتطلب حاكما إسلاميا . وجميع المسلمين يفتنون في الرأي على أن الحاكم الإسلامي ينبغي أن يكون فقيها

عادلا . وينبغي على الفقيه أن يكون دارسا للشريعة بكل دقة وأن يلتزم بالعدل المطلق أثناء التطبيق العملى . وطبقا لمعتقدات الشيعة فقهاء عادلين لأنهم يمتلكون هذه المؤهلات . بل أنهم أكثر من مجرد فقهاء عادلون لأنهم آدميون متفوقون ومعصومون من الخطأ .

وفى غياب الامام — الذى ظل متغيبا على مدى القرون السبعة الماضية — فإنه ينبغي على المسلمين العثور على بديل لى يتجنبوا العيش فى فوضى أو تحت نفوذ وسيطرة حكومة أجنبية ملحدة . وذلك وفقا لأراء الخومينى . كما يذهب الخومينى الى أنه على الرغم من أن الفقيه العادل تنقصه صفة المعصومية من الخطأ التى يتميز بها الامام فإنه مع ذلك مؤهل لأن يقود دولة اسلامية . وهو ينبغي أن يساعد رجال ضالعون فى القانون على كافة المستويات التشريعية والتنفيذية والقضائية . ومهمة البرلمان المنتخب من الجماهير هى العمل على حل الصراعات التى يحتمل أن تنشأ أثناء تطبيق النظريات الاسلامية . وهو يعتقد أن الشئون الادارية ينبغي أن تنفذ بمعرفة موظفين مدنيين على دراية بالقوانين التى تتعلق بالوظائف المحددة الخاصة بهم . وعلى كل حال فان المهام القانونية ينبغي ألا ينسطلع بها سوى رجال ضالعين فى الشريعة . ومثل هؤلاء الرجال الضالعين فى الشريعة ينبغي عليهم أيضا أن يشرنوا على الجهاز التنفيذى والتشريعى . فالإشراف الامام على البرلمان والسلطة القضائية ينبغي أن يتم بمعرفة الفقيه العادل الذى يجب عايه أيضا أن يتأكد من أن السلطة التنفيذية لا تتجاوز السائدات المخولة لها . وأخيرا مادام الهدف الرئيسى من وراء إقامة حكومة اسلامية هو تلبية احتياجات الجماهير فان الضالعين فى القانون ينبغي أن يتأكدوا من عدم تركيز الثروة فى أيدي قلة من الناس من خلال استغلالهم لجماهير الشعب والموارد الطبيعية .

أن ولاية النقيه بمثابة حكم الثانون الالهى على النحو الذى  
تفسره وطبقه الفقيه المعادل . ونظرا لأنه لا يحكم وفقا للارادة  
الخاصة به فان الأسلوب لا يكون ديكتاتوريا .

ونظرا لأن الخومينى ينظر الى الشعب على أنه قوة سياسية  
فان النظام يمكن أن يوصف بأنه نظام جمهورى ولكنه مصوغ فى اطار  
اسلامى . وفى هذا الصدد كتب ما يلى : « ان اعظم حركات الاصلاح  
فى التاريخ لم تكن تمتلك القوة أثناء البدايات الأولى لها . ولكن  
كواثر الحركة الاصلاحية تقوم باثارة انتباه الناس نحو الظلم  
المتواجد وتنبيههم الى الأخطار التى تنجم عن حكم الطغاة وبعدئذ  
يصبح الناس أنفسهم هم القوة الفعالة التى تكتسح كافة العقبات  
التي تعترض سبيلهم » .

ومما يجعل آراء الخومينى جذابة لدى جميع المسلمين هو أنها  
بسيطة ومباشرة وخالية من التأثيرات غير الاسلامية . فهي  
مستوحاة من المبادئ الأساسية للإسلام بالإضافة الى انها تتجنب  
الجدل الدينى المعقد الذى يصيب معظم الناس بالحيرة والارتباك .  
والى جانب ذلك فهي كما أشار سامى زبيد وهو أخصائى  
بريطانى فى علم الاجتماع الاسلامى : « أفكار يتم تناولها ومناقشتها  
فى اطار تقليدى وبدون الاشارة الى أية أفكار سياسية أو  
أيديولوجية غربية أو وحية بأنها غربية » . اذ لا توجد اشارة الى  
مصطلحات مثل القومية أو الديموقراطية أو الاشتراكية .

وقد أحدث كتاب الخومينى أثارا مدمرة على الحكم البهلوى  
بعد مرور بضع سنوات . وعلى كل حال نقد كان الشاه فى عام  
١٩٧١ منهمكا فى تقويض نفوذ رجال الدين التقليديين وتغييرهم  
بمجموعة جديدة من نتائج المؤسسات التابعة لحكومته .

وفى نفس الوقت اتبع الشاه سياسة بث بذور الشقاق بين العلماء الدينيين من خلال استخدام الرشاوى ومعاقبة أولئك الذين يرفضون التعاون معه . وفى أواخر عام ١٩٧٣ قام بنفى ٤٠ من رجال الدين البارزين وابعادهم الى أماكن نائية ومهجورة من ايران كعقاب لهم على تعاطفهم مع الخومينى . إلا أن كل هذه الأعمال لم تحدث أى تأثير على الطابع الدينى التقليدى لجماهير الشعب الايرانى . وعلى كل حال فإن فاشستية الشاه وقمع العلماء الدينيين واندفاعه فى اضفاء الطابع المصرى الحديث على ايران قد أسفر عن زيادة تمسك جماهير الشعب الايرانى بدينهم . وليس أدل على ذلك من الزيادة الهائلة فى أعداد الحجاج الى ضريح الامام على رضا بمدينة مشهد . وفى عام ١٩٦٤ استقبلت مشهد ٢٢٠ ألفا من الحجاج وارتفع الرقم بعد عشر سنوات الى ٣٢٢ مليون من الحجاج . وفى دولة يبلغ عدد سكانها ٣٠ مليون نسمة أو حوالى ٦ ملايين أسرة فإن هذا كان يعنى أن كل أسرة ترسل حاجا واحدا منها مرة كل عامين .

وزاد الشاه من ضغوطه على العلماء الدينيين إذ تم فرض الحظر على طبع الكتب والمطبوعات والنشرات الخاصة بهم عندما أصدرت الحكومة أوامرها بعدم طبع مطبوعات لهيئة الأوقاف . كما قام عملاء حزب البستاخيز Bastakhiz ( بمعنى : الانبعاث الجديد ) وهو الحزب الوحيد الحاكم المتكون فى مارس ١٩٥٧ بفحص حسابات الأوقاف الدينية التى تدار بمعرفة العلماء . وكل هذا قد سار جنبا الى جنب مع محاولات حكومة حزب البستاخيز الرامية الى اظهار الشاه على أنه ليس فقط زعيما سياسيا وإنما أيضا زعيم روحى . بل الأكثر من ذلك أن الحكومة أدخلت التقويم السنوى الملكى الذى يرجع الى أسرة أخمين الملكية الحاكمة فى فترة ما قبل الاسلام بمناسبة انقضاء نصف قرن على حكم أسرة

بهلوى الملكية بحلول ٢٤ أبريل ١٩٧٦ . ونظرا لأن هذا التقويم منفصل عن التراث الاسلامى فقد استقبله العلماء بعداء شديد . حيث هاجم حجة الاسلام أبو الحسن شمسبارى — وهو من مدينة أصفهان — هذا التقويم علنا أمام الجماهير . وبعد أيام قليلة تم اغتياله .

وخلال خريف عام ١٩٧٦ قال جيمى كارتر مرشح الحزب الديموقراطى فى انتخابات الرئاسة الأمريكية أن ايران هى احدى الدول الكبيرة التى ينبغى أن تؤدى لها أمريكا المزيد من المساعدة من أجل حماية الحريات المدنية والانسانية . وبعد أن تولى كارتر الرئاسة فى أمريكا فى يناير ١٩٧٧ غاناه بادر الى الاهتمام بالحقوق الانسانية على أساس أنها جزء لا يتجزأ من سياسته الخارجية . مشيرا الى أن الدول التى تنتهك الحقوق الانسانية ستحرم من الحصول على الأسلحة أو المساعدات الأمريكية أو تحرم منها معا . ومثل هذه التصريحات قد هيات الجو لحدوث تغييرات ثورية فى ايران .

وبدأت أعمال تخفيف القيود فى فبراير ١٩٧٧ بإطلاق سراح ٣٥٧ من المسجونين السياسيين ثم بلغت هذه الأعمال ذروتها فى خلال فصل الصيف . وكان كل تنازل وأذعان من جانب الشاه يجلب المزيد من المطالب من جانب المعارضة . وأصبحت الطبقات الاجتماعية المتوسطة سواء كانت حديثة أو تقليدية أكثر نشاطا ولكن بطرق ووسائل مختلفة . اذ راح الكتاب والأكاديميون ورجال السياسة والمحامون بل القضاة يوجهون خطابات مفتوحة للحاكم البهلوى فى حين راح التجار وأصحاب المحلات الصغيرة وطلبة المدارس والمعاهد الدينية يلجأون للوسائل العنيفة : مثل السير فى الموكب وتنظيم الاضرابات والمظاهرات علاوة على الاصطدام برجال الشرطة . ونظرا لقرب الطبقة الاجتماعية المتوسطة

التقليدية سياسيا وجغرافيا من الفقراء الحضريين فانهم كانوا يقدمون التوجيهات للطبقة الفقيرة الحضرية مما أسفر فى نهاية الأمر عن اتخاذ الشعار الثورى : « الموت للشاه » مع التشبث بذلك الشعار على الدوام . وهن المؤكد أن مطالب الجماهير كان يتم التنسيق لها من الخارج بمعرفة الخومينى .

وظلت العملية الثورية فى تصاعد عبر مراحل عديدة على مدى عامين من فبراير ١٩٧٧ حتى ١١ فبراير ١٩٧٩ .

وكان الخومينى — من خلال ميوله والتدريبات التى تلقاها — أستاذ ومعلم فى النواحي الدينية وليس سياسيا . وهو بالتأكيد لم يكن ثوريا ثوريا ولا طالبا متهردا خطيرا . وعلى الرغم من عدم معرفته بديناميكيات الثورات فانه سرعان ما أدرك القوة الثورية الدافعة الكامنة وراء الاحتجاج الذى بدأ فى أوائل عام ١٩٧٧ . واستخدم فى ذكاء التاريخ الاسلامى والقومية الايرانية بهدف خلق نضال عسكرى ضد الأسرة الملكية . واعتمد اعتمادا كبيرا على الاسلام والعادات والأعياد الاسلامية من أجل تنشيط الحركة الثورية وتدمير الأسرة الحاكمة البهلوية . وكان أسلوب حياته الاسيرطى الملىء بالشجاعة والجلد والصبر سببا فى ازدياد شعبيته بين جماهير الناس الذين سئموا من رجال السياسة الفاسدين الغارقين فى الرفاهية والترف . وكان عميق التدين فمنحه ذلك السلطة الروحية التى يفتقدها الزعماء العلمانيون . هذا بالإضافة الى أن رسالته الى الشعب كانت تتسم بالوضوح الشديد والبساطة .

وكانت المرحلة من يوليو الى ٨ سبتمبر ١٩٧٨ هى أهم المراحل الحاسمة فى الحركة الثورية . اذ بدأت احتجاجات الطبقة العاملة فى رفق فى يونيو ثم اشتدت فى شهر سبتمبر . وعبرت عن نفسها فى شكل اضراب عن العمل علاوة على المشاركة فى المظاهرات

التي تم التوسع فيها عن المظاهرات السابقة . وفى ٢٢ يوليو انضم عشرات الآلاف من العمال الى موكب جنازة أقيمت لرجل دين من مدينة مشهد قتل فى حادث سيارة . وأعقب ذلك قيام الشرطة باطلاق النيران مما أسفر عن مقتل . { شخصا على الأقل . وفى ٧ سبتمبر مشى ١ مليون شخص فى مسيرة شعبية من شمال طهران الى المجلس ( البرلمان ) المتواجد فى قلب طهران مردين هتافات : « الموت للشاه » « الخومينى زعيمنا » « نريد حكومة اسلامية » . وفى اليوم التالى الموافق يوم الجمعة تعرض المتظاهرون لمذبحة فى ميدان جالبه Jaleh بطهران على ايدى قوات الجيش مما أسفر عن استشهاد . . . { قتيل . وكان ذلك الحادث هو الذى حدد مصير الشاه .

وكان آية الله الخومينى يتميز بالحكمة لأنه تمكن من توحيد كافة القوى المتباينة المتفاوتة فى الراى تحت اهم مطلب راديكالى : ألا وهو إلغاء الملكية فى ايران . اذ أبقى على التحالف بين قوى الشعب وتوجيه كافة الناس الى تحالف مناهض للشاه مع الالتزام بالصمت ازاء القضايا التى تثير الخلافات فى الراى والجدل مثل : الديموقراطية والاصلاح الزراعى ودور العلماء الدينيين بالنسبة لمستقبل الجمهورية الاسلامية ومثل وضع المرأة وغير ذلك من أمور . وكان يحىى الآمال بالتححرر والتقدم بين طبقات المجتمع المختلفة المتباينة . فالطبقة المتوسطة التقليدية قد رأت فى الخومينى نصيرا للملكية الخاصة ومدافعا عن صغار التجار ومؤمنا بالقيم الاسلامية والطبقة المتوسطة المعصرية الحديثة قد رأت فى الخومينى رجلا وطنيا راديكاليا متمسكا بالبرنامج الذى سبق أن نادى به الدكتور مصدق من قبل : ألا وهو القضاء على الديكتاتورية الملكية والنفوذ الأجنبى فى ايران . وطبقة العمال الحضرية كانت تساند وتؤيد الخومينى بسبب التزامه بالعدالة الاجتماعية التى لا يمكن أن تتحقق

الا من خلال نقل السلطة والثروة من الماوسرين الى المحتاجين .  
وأخيرا كان الفقراء الريفيون يرون في آية الله الخميني المنقذ  
لهم : فهو الرجل الذي سيقدم لهم الأراضي الصالحة للزراعة  
ووسائل الري والطرق والمدارس والكهرباء .

وحقيقة الأمر أن الخميني فعل أمورا أخرى أكثر من مجرد  
توحيد قوى الشعب في حركة مناهضة للشاه . إذ أنه عمل على  
خلق غليان شعبي متصاعد ومستمر ودفعه الى موجات عالية وذلك  
من خلال تحويل مواكب عاشوراء التقليدية الى مظاهرات لصالح  
الثورة .

ومن انجازاته العظيمة أيضا العمل على تحييد قوات  
الشاه البالغ عددها ٤٤٠ ألف مقاتل . وكان الخميني مدركا  
للاستراتيجية التي تتبعها منظمة « مجاهدين خلق » الاسلامية  
الماركسية وكذلك منظمة « فدائيين خلق » الماركسية اللينينية :  
يقوم الفدائيون بالهجوم على أهداف معينة بهدف تشجيع الحكومة  
على القيام بالمزيد من مع القمع مما يؤدي بالتالي الى اثاره جماهير  
الناس ودفعهم الى المشاركة في كفاح مسلح ضد الحكومة . وقد  
اعترض الخميني على هذه الاستراتيجية وأشار الى أن جماهير  
الناس اذا شنت هجوما مسلحا ضد القوات العسكرية الحكومية  
فان ذلك من شأنه أن يخلق سلسلة من الانتقامات والأخذ بالثأر .  
اذ ان سفك الدماء سيدفع الجيش الى الوقوف في صالح أسرة  
الشاه . ولذلك اختار الخميني استراتيجية « الهجوم المعنوي »  
على الجيش . وقال « ينبغي علينا أن نحارب الجيش من الداخل »  
ينبغي أن نحارب من داخل قلوب وأئدة الجنود . ويجب أن نواجهه  
الجندي بزهرة . يجب أن نقاتل من خلال الاستشهاد لأن الشهيد  
هو جوهر التاريخ . ولندع الجيش يقتل الأعداء التي يريد قتلها  
كما يحلو له الى أن يصاب الجنود بصدمة هائلة من جراء المذابح



التي ارتكبوها . وعندئذ فقط سيصاب الجيش بالانهيار وبذلك يمكن لكم أن تنزعوا سلاح الجيش » . وهذه النصيحة قد تلاعت تملها مع « عقدة الشهيد » التي تكون في أعماق سيكولوجية الشيعة الإيرانيين . وفي نفس الوقت حاول الخميني أن يثنى الجنود عن إطلاق الرصاص على أفراد الشعب موضحا لهم أنهم إذا قاموا بإطلاق النيران على أخوتهم وأخواتهم « فانهم يكونون بذلك قد أطلقوا النيران على القرآن الكريم » ونظرا لأن هذه الكلمات قد صدرت عن آية الله الخميني الذي هو « مرجع التقليد » ونظرا لأن معظم الجنود من الشيعة فانها كان لها تأثير فعال . وخلاصة القول أن الخميني قد ابتكر تكتيكات ثورية تنبع من البيئة الثقافية الدينية لایران الشيعة ومن ثم تقبلها الناس بدون تردد وعلى نحو فعال .

ولقد لعب المسجد دورا حاسما في الثورة . حيث كان يستخدم كمعهد ديني ومكان للصلاة وعقد الاجتماعات . ونظرا لأن الدولة قد اعتادت على عدم التدخل في الأنشطة التي تتم في داخل المساجد العلماء الدينيين على انشاء لجان ثورية محلية بالمساجد . وقد استفاد الخميني من ذلك أعظم استفادة . كما حدث الخميني العلماء الدينيين على انشاء لجان ثورية محلية بالمساجد . وقد ثبت أن هذه اللجان كانت حيوية ومهمة وفعالة للغاية خلال الشهور الأخيرة الحاسمة من الحركة الثورية . اذ تولت هذه اللجان الشؤون الادارية واحتلت مراكز الشرطة عقب رحيل الشاه في ١٦ يناير ١٩٧٩ كما أحكمت من قبضتها عقب قيام الخميني بطرد رئيس الوزراء الذي كان معينا من قبل الشاه والذي يسمى شهوور بختيار في ١١ فبراير .

## بزوغ الدولة الإسلامية والمجتمع الاسلامى :

وعقب عودة الخومينى من المنفى الى ايران فى أول فبراير ١٩٧٩ قام على الفور بتنفيذ الدولة العلمانية التى ورثها وأنشاء دولة اسلامية . فعلى فبراير قام الخومينى بتعيين المهدي بزرگان Mahdi Bazargan - وهو رجل علمانى ورع يتمتع بالاحترام الشديد فى جميع أرجاء البلاد وتم ايداعه فى السجن مرات عديدة أثناء حكومة الشاه - فى منصب رئيس الوزراء فى الحكومة الاسلامية المؤقتة . وأصدر الخومينى تعليمات اليه « بأن يعمل على تغيير النظام السياسى للبلاد الى جمهورية اسلامية » . وقد استمد الخومينى سلطته من دستور السبع عشرة نقطة الذى تمت الموافقة عليه من خلال التصفيق الحاد من جانب اجتماع جماهيرى يضم مليونى مواطن عقد فى طهران فى عاشوراء يوم ١١ ديسمبر ١٩٧٨ وهو الدستور الذى نادى بالقضاء على النظام الملكى والموافقة على اختيار الخومينى زعيما على البلاد بالاضافة الى انشاء حكومة اسلامية .

وكان قد تحدد يوما ٢٩ مارس و ٣٠ مارس لإجراء استفتاء حول مسألة « هل ينبغى أن تصبح ايران جمهورية اسلامية ؟ » . ولكى يشتمل الاستفتاء على الشباب الايرانى الذين شاركوا فى حماسة فى الحركة الثورية وحتى يمكن ادخالهم فى هذه الاجراءات السياسية قامت الحكومة بتخفيض سن التصويت من ١٨ عاما الى ١٦ عاما . وأشارت التقديرات الرسمية الى أن نسبة من ذهبوا للدلاء بأصواتهم وصلت الى ٨٩٪ وهى نسبة عالية للغاية لم تتحقق من قبل . وأن نسبة من صوتوا لصالح اقامة حكومة اسلامية وصلت الى ٩٨٪ وهى تعكس أصوات ١٠٢٥١٠٠٠ من الناخبين الذين

قالوا « نعم » . فأعلن الخميني أن يوم أول أبريل « هو اليوم الأول لحكومة الله » .

وكانت حكومة بزرگان تعمل في خط متواز مع « المجلس الثوري الاسلامي » الذي كان الخميني قد شكله ( أثناء تواجده بالمنفى ) في يوم ١٣ يناير ١٩٧٩ والذي تم تكليفه بعقد مؤتمر جماهيري لوضع دستور للجمهورية الاسلامية واجراء انتخابات ونقل السلطة الى النواب المنتخبين .

والجدير بالذكر أن الخميني كان يعتقد أن الانتخابات والحكومة النيابية هي من صميم الأسلوب السياسي الاسلامي وذلك على النقيض تماما من موقف الملوك بالملكة العربية السعودية .

وأثناء الغليان الثوري كان مساعداو الخميني قد بذلوا جهودا خاصة ترمى الى التقليل من أهمية كتابه الصادر تحت عنوان « الحكومة الاسلامية : ولاية فقيه » . اذ كانوا يرون أن نشر أفكار محددة مما يدور في ذهن الخميني عن ايران في فترة ما بعد النظام الملكي البهلوي من شأنه أن يدمر وحدة القوى المتباينة المناهضة للشاه والتي كان قد صاغها بجهوده الكبيرة .

وحقيقة الأمر أن مشروع الدستور الذي تسرب الى الصحافة بمعرفة المجلس الثوري الاسلامي في أواخر أبريل لم يكن مشتملا على المفهوم الذهني لولاية الفقيه أو حكم الشاخي العادل . بل حتى ذلك الحين كانت وثيقة مشروع الدستور تثير الكثير من الجدل والخلافات في الرأي . اذ عارض بعض قادة رجال الدين فكرة التدخل المباشر من جانب العلماء الدينيين في ادارة شؤون الحكومة اليومية على النحو الوارد في مشروع الدستور . وكان من أبرز

هؤلاء القادة الدينيين : آية الله محمد كاظم شرياتيهدارى وهو من كبار رجال الدين فى مدينة قم المقدسة . كما كانت هناك احتجاجات أيضا من جانب قادة وزعماء الأقليات العرقية مثل الأكراد والعرب والتركمان والبلوش Baluch الذين كانوا يريدون المزيد من النوذ والسلطات للمناطق التى لا يتكلم سكانها اللغة الإيرانية . ودرجة التفاوت تلك قد سببت إحباطا للخومينى الذى كان يتوقع أن تتم الأمور بشكل سلس وسهل . كما أن المشروع الثانى للدستور الذى نشر رسميا فى ١٨ يونيو قد نشل فى ارضاء النقاد . . اذ أراد الاسلاميون الراديكاليون واليساريون العلمانيون ادخال تعديلات كبيرة عليه . وازاء هذه المواقف القلقة قرر زعماء الحزب الجمهورى الاسلامى IRP الذى هو بمثابة القوة الخومينية الرئيسية تجنب مناقشة نظرية « ولاية الفقيه » خلال المناقشات التى تدور حول الدستور . الا أن هذا لم يكن يعنى أنهم قد ألغوا هذه الفكرة تماما .

ووجد قادة الحزب الجمهورى الاسلامى أن نتيجة اختيار اللجنة المكونة من ٧٣ خبيرا فى يوم ٣ أغسطس وهى اللجنة المكلفة بعمل مراجعة على مشروع الدستور كانت مشجعة للغاية . فباستثناء المندوبين الثلاثة الذين يمثلون الأقليات الدينية ( المسيحيين واليهود والزراديشتم ) بالاضافة الى مندوب واحد آخر غير كفء فان هذه اللجنة كانت تضم ٦٩ من الأعضاء المسلمين من بينهم ٤٥ من رجال الدين و ٣٦ منهم اما أعضاء فى الحزب الجمهورى الاسلامى واما متحالفون معه . ومن بين الـ ٢٤ العلمانيين المسلمين كان يوجد ١١ منهم ينتمون للحزب الجمهورى الاسلامى أو الى 'حدى المجموعات المتحالفة معه . أما معظم باقى الخبراء فكانوا من المستقلين . وهكذا نرى أن الحزب الجمهورى الاسلامى والمتحالفين معه كانوا يشكلون غالبية بنسبة ٣ من العدد الكلى وهى النسبة اللازمة لاصدار رأى بشأن بنود الدستور .

وبحلول الوقت الذى اجتمعت فيه اللجنة فى ١٨ أغسطس كانت هناك حملة منظمة يقوم بها العلماء الدينون الاقليميون من أجل تضمين نظرية « ولاية الفقيه » فى الدستور . وساند هذه الفكرة كل من آية الله حسين على منتظرى رئيس اللجنة وآية الله محمد الحسينى بحشتى Beheshti نائب رئيس اللجنة . وقام بحشتى الذى يشغل منصب سكرتير عام الحزب الجمهورى الاسلامى بالدور الرئيسى فى مراجعة الفقرات الحاسمة المهمة الواردة بالدستور والتخطيط لها .

وأدى ادخال نظرية « ولاية الفقيه » فى الدستور الى حدوث جدل ومنازعات وخلافات فى الراى فى داخل اللجنة وخارجها . وأشار آية الله الى أن المفهوم الذهنى عن « ولاية الفقيه » مثير للجدل والخلاف حيث يقوم بعض رجال الدين بتفسيره تفسيراً ضيقاً على أساس أنه بمثابة الوصاية على الأمر والقاصر الذى لم يبلغ سن الرشد بينما آخرون ( مثل الخومينى ) يفسرونه بالمعنى السياسى الواسع ولذلك ينبغى عدم تضمينه فى الدستور . كما أشار يد الله شهابى وهو عضو علمانى الى أن الفقيه يتوقع له أن يكون ضليعاً ليس فقط فى العلوم الدينية والشريعة ولكن أيضاً فى العلوم السياسية والاقتصادية والشئون الادارية وشئون المجتمع اليومية . وأشار الى أنه « ربما يكون بالمستطاع العثور على فقيه له هذه الصفات وتلك المميزات ولكن نجد بوجه عام أن الوسائل التى يتم من خلالها تدريب الفقيه ليست من نوع الوسائل التى تهدف الى غرس مثل هذه الصفات والمميزات . وأشار عضو علمانى آخر الى أنه فى حين أن الخومينى كان مؤهلاً لأن يكون هو الفقيه طوال فترة حياته فإنه بسبب شخصيته الممتازة وصفاته السامية فإنه لا يوجد هناك ما يؤكد لنا أن الخليفة الذى سيجىء بعده سيكون مضاهياً ومتساوياً معه . وهذه النقطة قد وجهت بنجاح عندما اتخذت اللجنة مادة تشيير الى أن قيادة المجلس

ينبغي أن تتكون من ثلاثة أو خمسة أعضاء نظرا لأن قائدا واحدا لا يمكن له « الحصول على الاعتراف من جانب غالبية جماهير الناس » .

ولكن غالبية الخبراء الذين فضلوا « ولاية الفقيه » كانوا ينظرون الى هذه القضية على أنها هي المحور الرئيسى للسياسة الإسلامية وعلى أنها ضرورية تماما لضمان تنفيذ القوانين الإسلامية مع اصفاء الطابع الشرعى على رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والبرلمان . وفى هذا الصدد قال منتظرى « ان الحكومة لن تكون اسلامية الا اذا كان رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ووزير العدل من القضاة أو من المؤيدين من جانب الفقيه والواقعين تحت اثراف الفقيه » والموقف بالنسبة لنظرية « ولاية الفقيه » قد لخصه لنا حجة الاسلام الحسين طاهرى خورامابادى على النحو الآتى : « لقد عهدنا بمنصب نائب الرئيس الى فقيه عادل من أجل أن تصبح حكومتنا اسلامية ولكي ينظر المسلمون الى أنفسهم على أنهم مسئولين أمام الحكومة ولكي ينظروا الى الأوامر الحكومية على أنها أوامر الهية وبالتالي فهي أوامر شرعية وملزمة » .

وعندما تسرب الجدل والخلافات فى رأى من أبواب اللجنة الى الخارج تدخل الخومينى بأن ألقى خطابا جماهيريا فى ٢٢ أكتوبر جاء فيه « أن ولاية الفقيه ليس شيئا من ابتكار واختراع خبراء اللجنة وإنما هي شىء قد أمر به الله » فأدى كلامه هذا الى حسم الأمر بشكل نهائى .

وتألف الدستور من ١٢ فصلا و ١٧٥ مادة وتم استكمالها فى ١٥ نوفمبر . وبعدئذ طرح لكى يتم التصويت عليه يومى ٢ ديسمبر و ٣ ديسمبر . وطبقا لما أوردته المصادر الرسمية فإنه قد تمت

الموافقة عليه بنسبة ٩٩ ٪ من مجموع الأصوات البالغ عددها  
١٥٧٨٥٩٥٦ .

والجدير بالذكر أن وانضى الدستور قد أذعنوا لمطالب  
الأكراد والبلوش والعرب من السنيين بالألا يتم الاعتراف رسميا بأية  
طوائف شيعية تدعى أنها مساوية للذهب الشيعي الاثنا عشرى .  
اذ نصت المادة رقم ١٢ على ما يلى : « الدين الرسمى لايران هو  
الاسلام ومدرسة الشكر بايران هى مدرسة الاثنا عشر الجعفرية  
وسوف يظل هذا الوضع ثابتا الى الأبد وغير قابل للتغيير . أما  
مدارس الفكر الاسلامية الأخرى بما فى ذلك المذهب الحنفى  
والشافعى والمالكى والحنبلى والزيدى فهى تلقى كل التقدير  
والاحترام واتباع هذه المذاهب لهم الحرية الكاملة فى التصرف وفق  
التشريعات الخاصة بهم وتأدية العبادات والصلوات الخاصة بهم .  
وهذه المدارس الفكرية تتمتع بالاعتراف الرسمى بالتعليم الدينى  
الخاص بها وبالأحوال الشخصية التى تتعلق بها ( مثل الزواج  
والطلاق والميراث والتوريث بالوصية ) » .

وتشير المادة رقم ٥ الى أنه نظرا لاحتجاب حضرة والى  
العصر ( وهو الامام الغائب الثانى عشر ) « فان قيادة الأمة تؤول  
الى الفقيه العادل الورع التقى الذى يعرف ظروف العصر الذى  
يعيش فيه والذى يتميز بالاقدام والشجاعة والذى يتميز بأنه فطن  
وواسع الحيلة وذو مقدرة عالية فى النواحي الادارية والذى يكون  
مقبولا ومعترفا به كزعيم من جانب غالبية جماهير الشعب » . وقد  
وردت بالبند رقم ١٠ قائمة بالواجبات والسلطات الخاصة بالزعيم .  
فهو بصفته قائدا أعلى للقوات المسلحة ورئيسا للمجلس الأعلى  
للدفاع الوطنى تكون له سلطة تعيين أو طرد رئيس الأركان العامة  
وقادة الفروع الثلاثة الحربية بالاضافة الى قادة فيالق الحرس

الثورى كما تكون له سلطة اعلان الحرب أو السلام » بناء على توصية صادرة عن المجلس الأعلى للدفاع الوطنى .

كما تكون له سلطة التصديق على المرشحين للرئاسة بالاضافة الى تعيين الرئيس لدى انتخابه أو طرده اذا أقتنع المجلس الأعلى « بأنه فشل فى تحقيق الواجبات القانونية » أو اذا أقر المجلس الاستشارى الوطنى « بأنه تنقصه الكفاءة اللازمة » . وقصارى القول أن الزعيم يجمع بين الذى يقوم به رئيس الدولة والدور الذى يقوم به رئيس العدالة .

والاجراءات التى تتخذ للعثور على خليفة أو خلفاء للخومينى الذى وصف فى المادة رقم ١ بأنه « آية الله الكبير الامام الخومينى » قد وردت فى المادة رقم ١٠٧ على النحو التالى « الخبراء الذين يختارون بمعرفة ارادة الشعب سوف يقومون بدراسة وتفحص أولئك الذين لهم مميزات بارزة والذين هم مؤهلون للقيادة ، ولدى العثور على زعيم سيتم تقديمه للشعب على أنه الزعيم . واذا تعذر ذلك فسيقوم مجلس القيادة العليا بتعيين ثلاثة أو خمسة من المرشحين وتقديمهم للناس » .

وفىما يتعلق بالسيادة وهو موضوع أثار الكثير من الجدل فى عام ١٩٠٦ فقد جاء بالمادة ٥٦ من الدستور الاسلامى ما يلى : « السيادة المطلقة على العالم والانسان هى لله وحده . والله هو الذى جعل الانسان مسئولاً عن مصيره الاجتماعى . ولا أحد بمقدوره أن يحرم الانسان من هذا الحق الذى منحه الله للانسان أو يخضع هذا الحق لمصلحة فرد معين أو مجموعة معينة من الناس » . ولكن كيف يعبر الناس عن سيادتهم ؟ ان المادة رقم ٦ تنص على الآتى : « ان شئون البلاد ينبغى أن تدار وفقاً للرأى العام الذى يتم التعبير عنه من خلال الانتخابات التى تجرى لاختيار رئيس الجمهورية ومن



خلال نواب المجلس الاستشارى الوطنى وأعضاء المجالس أو من خلال الاستفتاءات الشعبية على الأمور التى تم تحديدها فى مواد الدستور » .

ويعد أن نصت المادة ٥٧ على أن السلطات التى تنجم عن الحق فى السيادة الوطنية هى : السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية فأنها تضيف موضحاً أن « هذه السلطات الثلاثة مستقلة عن بعضها البعض وأن رئيس الجمهورية هو الذى سيضمن الربط بين هذه السلطات الثلاث » .

وتشير المادة رقم ١١٣ الى أن أهم شخصية — بعد شخصية الزعيم — هى شخصية الرئيس « فهو المسئول عن تنفيذ مواد الدستور وتنسيق العلاقة بين السلطات الثلاث وهو الذى يرأس السلطة التنفيذية باستثناء الأمور التى تتعلق بالزعامة مباشرة » . والرئيس بعد أن يتم انتخابه بأغلبية مطلقة من الناخبين يصبح هو الرئيس التنفيذى الذى يوقع على القوانين التى يصدرها المجلس ( البرلمان ) ويقوم بتنفيذ تلك القوانين . والرئيس ينبغى أن يكون من رجال الشيعة المسلمين . ويقوم الرئيس بترشيح نائب عنه من الشيعة المسلمين لكى يشغل منصب رئيس الوزراء وبمجرد أن يحصل ذلك المرشح على موافقة المجلس ( البرلمان ) فإنه يقوم بحلف اليمين . والرئيس هو الذى يوافق على أعضاء الوزارة الذين يقترح رئيس الوزراء أسماءهم وذلك قبل أن يتم عرض تلك الأسماء على المجلس ( البرلمان ) من أجل التصويت على منحها الثقة .

ومن أجل ضمان عدم حدوث تناقض بين قرارات المجلس ( البرلمان ) والقوانين الإسلامية والدستور فإن المادة رقم ٩١ قد نصت على إنشاء « مجلس الأوصياء » الذى يضم ١٢ عضواً :

٦ من القضاة العاديين الاسلاميين الذين على وعى  
ودراية بالاحتياجات السائدة ومسائل العصر الجارية يتم اختيارهم  
بمعرفة الزعيم أو بمعرفة مجلس الزعامة

و ٦ من المحامين متخصصين فى جميع فروع القانون  
يتم انتخابهم بمعرفة المجلس الاستشارى الوطنى من بين المحامين  
المسلمين الذين تقدم أسمائهم بمعرفة مجلس القضاء الأعلى » .

وفقرة مجلس الأوصياء هى ست سنوات اما فترة المجلس فهى  
أربع سنوات . وينبغى على المجلس أن يرسل كافة القوانين  
والتنظيمات الخاصة به الى مجلس الأوصياء لكى يقوم اعضاؤه  
الـ ١٢ بفحصها ودراستها لمعرفة مدى توافقها مع المبادئ العامة  
للدستور .

وأحد « المبادئ العامة » الأربعة عشرة الواردة بالفصل الأول  
من الدستور تتناول النظام المتعدد الطبقات الخاص بالحكومة . اذ  
تنص المادة ٧م على أنه « وفقا للأوامر القرآنية الواردة فى الآية :

« وشاورهم فى الأمر » سورة آل عمران آية رقم ١٥٩ .  
والآية « واوراهم شورى بينهم » سورة الشورى آية رقم ٣٨ فان  
المجالس والهيئات الاستشارية — مثل المجلس الاستشارى الوطنى  
والمجالس الاقليمية ومجالس البلديات ومجالس المدن ومجالس  
الاحياء والاقسام ومجالس القرى تنتمى للهيئات الادارية صانعة  
القرارات والمتواجدة بالبلاد .

وبالنسبة للسلطة القضائية فان مجلس القضاء الأعلى هو  
أعلى هيئة قضائية . والمحكمة العليا ينبغى أن تنشأ وفقا لاسس  
المستويات والمعايير التى أرساها مجلس القضاء الأعلى . وينبغى  
أن يكون رئيس المحكمة العليا وكذلك المدعى العام من بين المجتهدين

أى من بين الممارسين للاجتهاد وينبغى أن يتم تعيينهما بمعرفة الزعيم مع استشارة قضاة المحكمة العليا . أما وزير العدل فينبغى أن يتم اختياره بمعرفة رئيس الوزراء من ضمن قائمة بأسماء مقدمة عن طريق مجلس القضاء الأعلى وبعدئذ ينبغى على وزير العدل أن يكون مسئولاً عن « كافة المشاكل التى تتعلق بالعلاقات بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية » . ومن بين المهام البالغة الأهمية التى تضطلع بها السلطة القضائية التى توصف بأنها سلطة مستقلة ، وذلك وفقاً لما هو وارد بالمادة رقم ١٥٦ هـ : « استعادة حقوق الجماهير وتنشيط وتدعيم العدالة والحريات الشريعة القانونية » .

والفصل الثالث الذى يضم ٢٣ مادة يتناول « حقوق الأمة » . فالمادة رقم ٢١ تضمن حقوق المرأة « فى جميع النواحي بما يتمشى مع المعايير الإسلامية » . ويعقب ذلك المواد التى تتناول الملكية الخاصة والحرية الدينية وحرية الصحافة . اذ نصت المادة رقم ٢٤ على أن « المطبوعات والصحافة لهما الحرية فى عرض وتقديم كافة الموضوعات باستثناء تلك الموضوعات التى تلحق اضراراً بأسس الاسلام أو بحقوق الجماهير » . كما نصت المادة رقم ٢٦ على أن « تكوين الأحزاب السياسية والجمعيات المهنية أو الدينية سواء كانت جمعيات اسلامية أو متعلقة باحدى الجماعات الدينية المعترف بها هو أمر مسموح به تماماً بشرط ألا تنتهك مبادئ الاستقلال أو الحرية أو الوحدة الوطنية أو معايير الاسلام أو أسس الجمهورية الإسلامية . ولا يجوز أن يمنع أحد من الاشتراك فى الأحزاب والجمعيات سائلة الذكر أو يرغب على الاشتراك فيها » .

والحق فى الملكية هو حق شرعى مادام لا ينطبق على الثروة التى تكتسب بطريقة غير شرعية . اذ نصت المادة رقم ٤٩ على ما يلى : « الحكومة لها الحق فى مصادرة كافة الثروات الناجمة

عن طريق استخدام الربا أو الاستيلاء على السلطة بأسلوب غير قانوني أو الرشوة أو الاختلاس أو السرقة أو القمار أو سوء استخدام الممتلكات التابعة للأوقاف أو سوء استخدام التعاقدات الحكومية والصفقات الحكومية أو بيع أراض غير مستصلحة وغيرها من الأراضي الأخرى الخاضعة للملكية العامة أو تشغيل منازل سيئة السمعة وغير ذلك من الأمور الشرعية . ولذلك فإن مثل هذه الثروات ينبغي أن تعاد إلى مالكيها الشرعي . وإذا تعذر تحديد المالك الشرعي لهذه الثوات والأموال فإنها ينبغي أن توضع في الخزانة العامة للدولة . وتطبيق هذا المبدأ ينبغي أن يصاحبه تفحص دقيق بما يتمشى مع قانون الاسلام وينبغي أن ينفذ بمعرفة الحكومة » .

والموطن تتوافر له حرية الوصول إلى المحاكم القانونية إذ جاء بالمادة رقم ٣٥ « أن كلا من الطرفين المتنازعين لهما الحق في كافة أنواع المحاكم في اختيار محام . فإذا كانوا غير قادرين على اختيار محام فإنه ينبغي اتخاذ إجراءات نحو تزويدهم بالمشورة القانونية » . كما أن المادة رقم ٣٨ تمنع التعذيب وتضيف موصحة أن عقاب أولئك الذين ينتهكون الحظر « سيحدده القانون » . كما أن المادة رقم ٢٥ تمنع « تفتيش وفحص الخطابات الشخصية أو التجسس على المكالمات التليفونية وتسجيلها أو افشاء اتصالات البرق والتلكس وتعهد عدم توصيلها لأصحابها » .

ومن الناحية العملية نجد أن الكثير من الحقوق المدنية الواردة بالدستور لم تمنح للمواطنين . إذ كانت هناك تقارير كثيرة تفيد بأن الحكومة تقوم بتعذيب المسجونين . نمبدأ حرية تشكيل أحزاب سياسية في نطاق مبادئ « الاستقلال والحرية والوحدة الوطنية ومعانيير الاسلام وأسس الجمهورية الاسلامية » وفقا لما هو وارد

بالمادة رقم ٢٦ لم يترجم الى حقائق واقعية . ومن ناحية أخرى فإنه عندما وصل الأمر الى الطعن فى أول رئيس منتخب للجمهورية وهو أبو الحسن بنى الصدر فى يونيو ١٩٨١ فان الاجراءات الدستورية قد اتبعت فى تدقيق شديد .

وعلى كل حال فان دستور ايران لعام ١٩٧٩ يعتبر دستورا رائدا . فهو مستوحى من المفاهيم الذهنية الاسلامية وقد روعى فيه تلبية احتياجات جماهير الناس الذين يعيشون فى العصر الحديث مع تضمين مفاهيم مثل الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية مع ارتكاز سلطة الفقيه وسلطة الرئيس على ارادة شعبية يعبر عنها اما بشكل مباشر مثلما هو الوضع فى حالة الرئيس واما بشكل غير مباشر من خلال مجلس الخبراء الذى يعقد لاختيار خليفة أو خلفاء للخومينى .

وعقب الاعلان عن تاريخ الاقتراع من أجل اختيار الرئيس فى منتصف ديسمبر ١٩٧٩ أوضح الخومينى للجميع أنه لا يرغب فى أن يحتكر العلماء الدينون السلطة . فادى هذا الى استبعاد آية الله بحشتى Beheshti كمرشح للرئاسة . والتأييد العلنى الذى حصل عليه أبو الحسن بنى صدر — وهو عضو علمانى بالمجلس الثورى الاسلامى ووزير المالية — من جانب أحمد نجل الخومينى ومن جانب شهاب الدين اشراقى قد جعل منه شخصية مفضلة جماهيريا . وفى يوم الانتخابات الموافق ٢٥ يناير ١٩٨٠ حصل على حوالى ٧٥٪ من الأصوات . أما الانتخابات الخاصة بانتخاب ٢٧٠ عضوا للمجلس ( البرلمان ) فقد أجريت فى الفترة من منتصف مارس حتى أوائل مايو . وهذه الانتخابات قد ساعدت على اعطاء الحكومة الاسلامية طابع الشرعية على نحو هائل .

وكان القادة المسلمون يتحركون بسرية كبيرة للخفية . ففى خلال سنة واحدة تمكنوا من إجراء استفتاء لصالح إقامة جمهورية إسلامية بالإضافة الى صياغة مواد الدستور وإجراء انتخابات الرئاسة وانتخابات البرلمان ونشأ لحقوق الانتخابات العلنية . وقد تمكنوا من جذب الإيرانيين العاديين الى الأسلوب والنظام السياسى على نطاق واسع لم يشهروه من قبل . وكان الخومينى هو المصدر الرئيسى لهذا النجاح حيث أصبح زعيما للثورة الإسلامية بدون منازع بعد أن وصل عمره الى ٧٧ عاما .

وأشار الخومينى الى أنه مادام كل من المجتمع والحكومة لهما الطابع الاسـلامى فإنه لا يوجد بهما مكان لأولئك الذين كانوا يعارضون الاسلام أو يشككون فى أهمية الاسلام بالنسبة للحياة العامة . فالاعتزاب السياسية مثل حزب « فدائيين خلق » الذى كان يؤمن بالماركسية ويروج للأفكار المادية اللاحادية كانت أحزابا غير اسلامية . كما كان هناك الذين اتخذوا من الاسلام ستارا أو غطاء بهدف اخفاء معتقداتهم الماركسية وأيديولوجياتهم الماركسية . وهؤلاء من وجهة نظر الخومينى هم أناس منافقون وينبغى كشف مخططاتهم أمام جماهير الناس . وهذه الفئة من المنافقين كانوا أعضاء فى حزب « مجاهدين خلق » . وأخيرا كان هناك المنحرفون وهم أولئك الذين يتصرفون وفق تفسيرات خاطئة للشريعة . وقد اعتبر الخومينى نفسه الحكم أو الفيصل الأخير الذى يوضح من هو الشخص المسلم وما هى الأمور الإسلامية ومن هو الشخص غير المسلم وما هى الأمور غير الإسلامية . ومن ثم كان الأمر يستلزم طرد كافة العناصر غير الإسلامية من الشئون الادارية والعسكرية والقضائية الحكومية وكذلك من مشروعات القطاع العام والقطاع الخاص ومن المؤسسات التعليمية . وكان

الأمر يستلزم تحقيق ذلك من خلال اصدار سلسلة من القرارات الحكومية والائتمارات الشعبية .

واكن تحديد وتحديد العناصر غير الاسلامية كان مجرد مهمة واحدة . فكل من بين مهام الحكومة الاسلامية وشادة الحكومة الاسلامية . اما المهمة الكبرى الأخرى فكانت تتمثل فى تنقية وتطهير المجتمع الذى أفسده النفوذ الأجنبى على مدى القرون القليلة الماضية واضفاء الطابع الاسلامى عليه . اذ كان الأمر يستلزم القضاء على السلوك الفاسد والعادات القديمة الفاسدة . ومن هنا تم على الفور فرض حظر على شرب الخمر ولعب القمار والنوادرى الليلية والأثام الجنسية الفاضحة الداعرة والاستحمام المشترك . اذ كان الأمر يستلزم اضفاء الطابع الاسلامى على المجتمع على نحو إيجابى وبمعنى الكلمة . ولذلك أصبحت تأدية صلاة الظهر فى ايام الجمعة هى النقطة البؤرية أو المركزية فى خلال الأسبوع . وكانت خطبة الجمعة تتم على نحو بحيث يستفيد منها المؤمنون ويتعلمون !نواحى التعليمية والثقافية الدينية . وكان الخومينى يقوم بنفسه بتعيين الأئمة الذين يؤمون المسلمين فى صلاة الجمعة ويلقون خطبة الجمعة وكان يطلب منهم موافاته بالتقارير عن خطبة الجمعة وما تسفر عنه من نواح تعليمية وأخبارية .

وأولئك الذين كانوا يقاومون الحكومة الاسلامية كانوا يعاقبون وفقا للقواعد الواردة بالشريعة الاسلامية . وجرائم رفع الأسلحة فى وجه الدولة الاسلامية أو نشر الفساد فى المجتمع كانت عقوبتها الاعدام .

وكان هذا هو الاطار الايديولوجى الذى أرساه الخومينى . وهو الاطار الذى كان يعمل من خلاله طوال المراحل المختلفة التى شهدها الثورة الاسلامية .

وكان استيلاء الطلبة العسكريين على السفارة الأمريكية بطهران بمن فيها من دبلوماسيين في ٤ نوفمبر ١٩٧٩ بمثابة نقطة تحول في الثورة الإسلامية حيث انها بذلك دخلت في مرحلة مناهضة للأمريكيين . وكان التركيز في إيران آنئذ متجها نحو طرد البقايا المتبقية من النفوذ الأمريكي الذي ظل مسيطرا على إيران منذ ربع قرن بالإضافة الى تعميق صورة الحكومة الإسلامية المناهضة للاستعمار مع جعل الشباب الإيراني يرفض المحاولات التي يقوم بها « مجاهدين خلق » من أجل المزج بين الماركسية والاسلام .

وكان غزو العراق لإيران في ٢٢ سبتمبر ١٩٨٠ بمثابة مرحلة أخرى من مراحل الثورة الإسلامية حيث أصبحت نزعة حب الوطن والاسلام أمرين لا يمكن الفصل بينهما . كما أن المنافسة التقليدية بين العراق وإيران قد ازدادت سوءا عندما بدأت القيادة الدينية الإيرانية عقب تفجر الثورة الإيرانية في مناشدة المسلمين بالعراق الاطاحة بالحكومة البعثية العلمانية التي يرأسها صدام حسين . وكرد على ذلك قام الرئيس العراقي بتشجيع العرب الإيرانيين المتواجدين باقليم خوزستان الغنى بالبترول على التمرد ضد الحكومة الخمينية . وأخيرا تشجع صدام حسين وقرر الهجوم العسكري على إيران بعد أن وصلته تقارير عن انخفاض الروح المعنوية بالجيش الإيراني وعن الصراع الضاري المستمر بين الشادة الإيرانية ومن الآثار التي نجمت عن الحرب العراقية الإيرانية ذلك التوتر في العلاقات الذي ظهر بين الرئيس بنى صدر الذي عينه الخميني قائدا عاما للقوات المسلحة وقادة الحزب الجمهوري الاسلامي IPP الذي كان يسيطر على فيالق الحرس الثوري الاسلامي الذي تشكل في يونيو ١٩٧٩ بهدف « حماية مكاسب الثورة الإسلامية » . اذ راح بنى صدر يوجه اللوم للحزب الجمهوري الاسلامي بسبب اتخاذه اجراءات قمعية وديكتاتورية وتعذيبية ضد



المسجونين السياسيين . واضطر الخوميني الى تكوين لجنة من ثلاثة أعضاء بهدف تقصى الحقائق فيما يتعلق باتهامات التعذيب .

وعندما تم حل مشكلة الرهائن الأمريكيين في يناير ١٩٨١ بمعرفة حكومة رئيس الوزراء محمد علي رجائي وهو تلميذ سابق لآية الله بحشتي بدون استشارة بني صدر على الاطلاق شعر بني صدر بالسخط الشديد وقام بالهجوم في جريدته التي تصدر تحت اسم « انقلاب اسلامي » ( بمعنى الثورة الاسلامية ) على حكومة رجائي بسبب قيامها بعقد تسوية مع أمريكا . فاضطر الخميني الى التدخل لفض هذا النزاع ودعا الجميع الى الالتزام بوحدة الصف الاسلامي .

وبحلول فبراير كان بالمستطاع ادراك العلاقات المتبادلة بين التطورات على جبهة القتال وتلك التطورات التي تحدث في السياسة الداخلية . فالتحسّن على جبهة القتال كان يشجع على حدوث المزيد من الشقاق في الداخل . وبحلول منتصف فبراير ١٩٨١ أصبح الايرانيون اقوياء في جبهة القتال مما مكنهم من صد التوغل الذي يقوم به العراقيون في داخل اراضي ايران . وكانت النتيجة هو تجمّد الموقف العسكري بين الطرفين . وبعدئذ زادت حدة الصراع والشقاق بين بني صدر والحزب الجمهوري الثوري IRP في أوائل مارس . فحاول الخوميني تهدئة الموقف بأن أصدر قرارا بمنع الجانبين من القاء خطب جماهيرية . فساد الهدوء والسلام بين الجانبين لفترة تصل الى حوالي شهرين . وبعدئذ خرق بني صدر الحظر المفروض على الخطب الجماهيرية بأنلقى خطابا على الجنود في المواقع العسكرية المتواجدين بها بالاضافة الى قيامه بالادلاء بأحاديث صحفية لمراسلي الصحف الاجنبية . وادعى في أحاديثه الصحفية أن الحزب الجمهوري

الثوري يقود إيران الى « استبداد ونظام الحكم المطلق والظلميان » كما قال أن حكومة رجائي قد فشلت في احياء الاقتصاد وانعاشه ووقف المجلس ( البرلمان ) في صدر رجائي وزاد من سلطات رجائي على حساب بنى صدر . وفي ٢٠ مايو ١٩٨١ شن رجائي هجوما على بنى صدر بدون أن يذكره بالاسم . اذ قال رجائي في المجلس ( البرلمان ) : « أولئك الذين كانوا يدرسون بالخارج عندما قامت الثورة هنا بايران كان لديهم اتصالات ضئيلة للغاية مع جماهير الشعب الايراني . وهم عكس عودتهم الى ايران طالبوا بالحصول على دور في الثورة الايرانية » . وكان بنى صدر قد درس بنى باريس ثم قام بالتدريس فيها في الفترة من عام ١٩٦٤ حتى أول فبراير ١٩٧٩ وهو اليوم الذي عاد فيه مع الخميني من باريس الى ايران .

ومنذ ذلك الوقت فصاعدا سارت الأحداث بسرعة . اذ قام الخميني في ١٠ يونيو بطرد بنى صدر من منصبه كقائد عام للقوات المسلحة . وبعد مرور أربعة أيام اجتمع المجلس ( البرلمان ) لدراسة ومناقشة مدى كفاءة وصلاحيات بنى صدر كرئيس للجمهورية . وفي ٢٠ يونيو تقرر أن بنى صدر غير صالح لهذا المنصب من خلال ١٧٧ صوتا ضد صوت واحد . وما تلقى الخميني خطابا رسميا بهذا الشأن من المتحدث الرسمي باسم البرلمان وهو حجة الاسلام على أكبر هاشمي رفسنجاني حتى اقال بنى صدر من منصبه على الفور . وبعدئذ قام الخميني بتعيين مجلس رئاسية يضم ثلاثة أعضاء ويتألف من : رئيس الوزراء والمتحدث الرسمي باسم البرلمان ، ورئيس العدل .

ووصف الحزب الجمهوري الايراني طرد بنى صدر بأنه « الثورة الثالثة » على أساس أن الثورة الثانية كانت تتمثل في

الاستيلاء على السفارة الأمريكية . وكانت الفترة التي قضوها بزرجان كرئيس للوزراء حتى أوائل نوفمبر ١٩٧٩ قد أكدت للطلقات المتوسطة العصرية الحديثة وللأقليات العرقية أنهم لن يضطروا للعيش تحت ظل حكومة شيعية عنيدة ومتشددة ومتعصبة . وكذلك نجد أن انتخاب بنى صدر رئيسا قد جعل المواطنين الأقل التزاما يشعرون أن الأصوليين الإسلاميين يرغبون في أن يشركهم في السلطة آخرون . وحقيقة الأمر أن القادة المعتدلين نسبيا كانت لهم قيمة مؤقتة من وجهة نظر الخومينيين . إذ كان يستخدمهم الأصوليون من أجل كسب الوقت اللازم لبناء مؤسساتهم وتقوية قبضتهم على جهاز الدولة والشبكة الدينية .

ومنذ البداية كان هناك توتر بين نوعين من القادة في داخل نطاق المعسكر الإسلامي : أولئك القادة الذين كانوا قد تلقوا تعليمهم في الغرب ومضوا سنوات عديدة في المنفى قبل عودتهم إلى الوطن عقب تفجر الثورة الإيرانية وأولئك الذين ظلوا مقيمين في إيران وقاوموا في همة ونشاط البهلويين وعانوا من أيداعهم في السجون وتعذيبهم . والفريق بين رئيس الوزراء رجائي والرئيس بنى صدر يعطينا صورة مصغرة عن الفرق بين هذين النوعين من القادة . إذ كان رجائي له مظهر متواضع بعض الشيء كما كان سلوكه وتصرفاته تتسم بالتواضع أيضا حيث كان يرفض التحدث باللغة الإنجليزية نظرا لأنها لغة أجنبية بينما كان بنى صدر عالمي النقبض من ذلك تماما حيث كان سلوكه راقيا ومهذبا بالإضافة إلى أنه كان يجد متعة بالغة في التحدث بالطلاقة باللغة الفرنسية .

وكانت هناك فوارق عميقة وتباين شديد بين هذين النوعين من القادة فيما يتعلق بطبيعة الثورة والاتجاه الذي ينبغي أن تتخذه وقد واجه الثوريون الإيرانيون مشكلة سبق أن واجهت كافة

الثورات : من الذى عليه أن يسيطر على النظام الجديد ؟ هل هو الشخص الأيديولوجى المفكر أو هو الشخص الشبير العملى ؟ وكان المقاتلون الاسلاميون يضمون الأيديولوجية فى المقدمة من حيث الأهمية أما بنى صدر فكان يفضّل الخبرات المهنية والاتجاهات العملية .

ومع نشوب الحرب فإن هذا الصراع قد امتد من مجال تسيير الشئون والخدمات المدنية والاقتصادية الى مجال محاربة العراق . ففيلقى الحرس الثورى الاسلامى IRGC والمتطوعون من « هيئة تعبئة المستضعفين » كانوا يهوجون بالحماسة الوطنية أكثر من الخبراء مما جعلهم يندفعون بأعداد هائلة الى جبهة القتال لى يشتركوا فى المعارك . وهم كانوا قد تقبلوا وجهة نظر الخومينى القائلة بأن غزو ايران على يدى الرئيس العراقى صدام حسين لا يعتبر مجرد غزو لأرض ايران فقط وإنما هو غزو أيضا « لحكومة الله » وبالتالي فهو غزو للإسلام . اذ أنشأ الخومينى علاقة بين الواجب الذى يحتم مواجهة عدوان صدام حسين الذى وصفه الخومينى بأنه « شخص كائن فاسد » والكفاح الثورى ضد الشاه . وأوضح الخومينى فى خطاب جماهيرى قائلا : « لسوف نحارب ونقاتل حتى النهاية .. لأنه ينبغى علينا أن نضطلع بواجباتنا الدينية .. فنحن ملتزمون بحماية الاسلام والحفاظ عليه .. وكان ذلك هو نفس المنطق الذى اتبعناه فى قتالنا ضد الحكومة البهلوية الفاسدة .. لقد تعرّضت التعاليم الاسلامية والمبادئ الاسلامية لأخطار الابدادة ومن ثم كان لزاما علينا من الناحية الدينية أن نقاوم بقدر ما نستطيع » . أما الضباط العسكريون الذين تأثروا بدافع الحماسة الوطنية أكثر من دافع الدين الاسلامى فكانوا يشعرون بالاستياء من انططارهم لاشراك أشخاص غير متخصصين فى خططهم العسكرية ، وفى النزاع

الذى نشأ وتطور وقف بنى صدر الى جانب الضباط المتخصصين .  
فأدى ذلك الى القضاء على شعبيته بين عساكر الجيش الذين كانوا  
يتلقون تعليمها سياسيا أيديولوجيا على أيدي العلماء الدينيين الذين  
تزايدت مكانتهم آنئذ من خلال المتطوعين الجدد من الاسلاميين  
واليساريين .

والزيادة الدرامية فى حجم نيالى الحرس الثورى الاسلامى  
IRGC و « هيئة تعبئة المستضعفين » قد سارت ضد مصالح  
بنى صدر الذى لم تكن له سيطرة على هذه الهيئات والكيانات .  
فمنذ أن تم استخدام المساجد كمراكز تجنيد لهذه القوات ثمان وضعها  
وأهميتها ازدادت بشكل كبير ، واهتم العلماء الدينيون بالتدريب  
على الأسلحة فى معسكر خاص بالقرب من مدينة قم بالإضافة الى  
عمل عروض عسكرية فى شوارع المدن بهدف اظهار حماسهم  
الوطنية والاسلامية . هذا بالإضافة الى أن المساجد أصبحت جزءا  
لا يتجزأ من الادارة المدنية عندما قرر الخومينيون الثوريون استخدامها  
لتنفيذ نظام توزيع الجرايات الذى أدخل فى أعقبات الحرب . وبوجه  
عام أظهرت التنظيمات الثورية نفسها على أنها تتسم بالمرونة  
والحيوية فى تلبية مقتضيات ومطالب الحرب . وكل هذا قد عمل  
لصالح قادة الحرب الجمهورى الاسلامى IRP الذين كانوا  
يسيطرون على هذه الهيئات والكيانات .

وكا بنى صدر بصفته خبيرا اقتصاديا محكما يدرك أكثر من  
غيره من المنافسين له الحالة المتدهورة للاقتصاد الايرانى . ويدرك  
مدى الحاجة الملحة لاصلاح هذا الاقتصاد . لذلك كان يلح مرارا  
وتكرارا على انتهاء « المرحلة الهدامة » من الثورة والدخول « فى  
مرحلة البناء والتعمير وإعادة التشييد » . الا أن خصومه كانوا  
ينظرون للأمور من زاوية مختلفة . اذ كانوا يعتقدون أن الجانب

السياسى الدينى للثورة أهم بكثير من الجانب الاقتصادى وكانوا يدركون بالفطرة الفريزية أن جماهير الشعب قد اعتبرت الاطاحة بالشاه بمثابة انتصار هائل روحانى وسياسى مما جعلهم على استعداد لتحمل المتاعب التى قد تنجم عن التدهور الاقتصادى فى أعقاب الثورة . وكان الاسلاميون الراديكاليون يعتقدون أن الثورة لم تستكمل ولذلك كانوا يريدون استكمالها من خلال تفجير الحماسة والفوران السياسى الدائم بين المؤمنين . ونظرا لأن خروج الأغنياء والمتمتعين بالثراء الفاحش قد خفض من الفساد وعدم المساواة الاجتماعية الاقتصادية فقد أراد الأصوليون أن يعتمدوا على هذا ويزيدوا من ايقاع اعادة توزيع الثروة واضفاء الطابع الاسلامى .

وكانت آراء الراديكاليين الاسلاميين فى الاقتصاد مستوحاة من كتاب « الاسلام والملكيات » بقلم آية الله الطلقانى ومن كتاب « اقتصادنا » من تأليف آية الله محمد باقر الصدر . وهذان الكتابان يقدمان الاسلام على أنه له أيديولوجيته الاقتصادية الخاصة به والتى تتميز بالشمول مثل الرأسمالية أو الاشتراكية ولكنها أيديولوجية تتفوق على الرأسمالية والاشتراكية فى آن واحد . بل أنهم يذهبون فى تحليلاتهم الى أنه مادام الاسلام مقترنا بمفاهيم ذهنية مثل العدالة الاجتماعية ومبدأ المساواة بين البشر جميعا ورفع مستوى المهضومين والمظلومين فإنه يمكن أن يستخدم كوسيلة للتغيير الاجتماعى .

والمقدمة المنطقية التى يركز عليها الطلقانى هى أن الله كريم وأن الله قد منح البشر كل هذه الموارد الطبيعية الهائلة الشاسعة ومن هنا فإنه يوجد قدر كاف من هذه الموارد لكل فرد . ومن المهم الكبرى للاسلام هى العمل على وصول هذه الموارد بالتساوى الى جميع أفراد الأمة الاسلامية ، وهى مهمة ينجزها الاسلام من

خلال مناشدة المؤمنين بأن يلتزموا العدالة فى تصرفاتهم وسلوكهم ومن خلال وضع قواعد عامة تتعلق بالتبادل الاقتصادى والنشاط الاقتصادى وتركز على تفضيل الرعاية والرعاية الاجتماعية على المكاسب الفردية مع منح الحكومة الاسلامية السلطات التى تخول لها اتخاذ الاجراءات التى تضمن تحقيق العدالة والمساواة .

وتأكيد الطلقانى على أن الملكية الخاصة تنبع فقط من العمل قد أوقعه فى مشكلات فيما يتعلق بالتعامل مع القوانين الاسلامية التى تتناول الميراث والتعاقبات . إذ أن المفهوم الذهنى عن الميراث يتناقض تماما مع آراء الطلقانى فى الملكية . ولذلك فهو يحاول اصلاح هذا التناقض من خلال القول بأن قوانين الميراث تساعد على اعادة توزيع الثروة وهو يحاول تخفيف قوانين التعاقد الواردة بالشريعة مثل القوانين التى تتعلق بالايجار والمشاركة فى المحاصيل ومكافأة العاملين سواء على أساس الانتاج أو على أساس أجور ثابتة محددة أو على أساس المشاركة بغلاف المساواة بين البشر بأن قال أن العامل المسلم له الحق فى الاختيار ما بين الدخول فى المشاركة فى الأرباح أو الحصول على أجور ثابتة محددة .

وبالنسبة للضرائب الاسلامية التقليدية التى تتمثل فى : الخمس والزكاة نجد أن الطلقانى على استعداد لأن يضيف شرطا وهو أن الحكومة الاسلامية لها الحق فى فرض ضريبة على الأراضى الزراعية وفق أى مستوى تراه ملائما للصالح العام لجميع الفلاحين والمزارعين .

والعقبة الكبيرة الأخرى التى كان على الطلقانى أن يتغلب عليها من أجل أن يتمكن من تحقيق فكرة المساواة الواردة بالاسلام

كانت تتمثل فى مواجهة مجموعة التفسيرات التى تراكمت عبر القرون والتى كانت تتخذ الطابع الرأسمالى على نحو حاسم . وهو قد تغلب على هذه العقبة بأن أشار الى أن التفسيرات الماضية التى سارت وفق خطوط رأسمالية كانت تتعلق بالأوضاع القائمة والظروف المتواجدة فى تلك الأوقات ولكنها تفسيرات لا تتماشى مع الروح العامة للإسلام . ويشير الطلقانى الى أن الروح العامة أو النغمة العامة التى تسود القرآن هى العدالة والمساواة : فالقرآن يعتبر الثروة مجرد وسيلة لتنفيذ مشيئة الله وإرادته لأن الثروة من وجهة نظر القرآن ليست هدفاً فى حد ذاتها ووجهة النظر الأخلاقية هذه يجب أن تنفذ الى داخل التفسيرات التى تقدم عن الشريعة بمعرفة الضالعين فى القانون المعاصرين فى الموضوعات التى تتعلق بالملكية الخاصة والعقائد والضرائب والميراث . وعلى كل حال فإن الحكومة الإسلامية تتواجد من أجل أن تخلق مجتمعا تسوده المساواة والعدالة ولذلك فإن الزعيم الإسلامى أو الفقيه هو المسئول عن الإشراف على اكتساب وتوزيع الملكيات فى ظل توفير المصلحة العامة للجميع . ومن هنا تبرز سلطة الفقيه فى وضع حدود لحق المؤمن فى استغلال هذه الموارد التى هى بمثابة ممتلكات للأمة الإسلامية .

ويشير الطلقانى الى أن الحكومة الإسلامية التى تشاهد السيوف المخترقة التى يوجهها الملوك وملك العبيد الى أجساد العبيد والغالحين سوف ترفض مساندة كبار ملاك الأراضى والرأسماليين . فالمجتمع الذى تهدف الحكومة الإسلامية الى خلقه هو مجتمع مشعب ومتواز مع ذلك المجتمع الذى كان متواجدا أثناء تواجد النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة .

» نفى هذه المدينة النموذجية التى يمكن الاقتداء بها كانت تعطى نسبة من الثروة الخاصة التى يمتلكها الأنصار ( أهالى



المدينة المنورة الذين ساعدوا النبي محمدا ) للمهاجرين ( أى الذين هاجروا من مكة المكرمة الى المدينة المنورة ) وبإستثناء نسبية ضئيلة من الثروات الخاصة فان الثروة كان يتم ادارتها والاشراف عليها بمعرفة الدولة . وبإستثناء تلك الحصص الخاصة التى تمنح لأولئك المشاركين فى الجهاد أو الكفاح الدينى المسلح فان الثروة كانت توزع بين الجميع بالتساوى كل بحسب حاجته . ولم تكن هناك مميزات أو فوارق خاصة بين الأفراد لا فرق بين حاكم ومحكوم الا من حيث وضعهم كحكام ومحكومين اذ لم تكن هناك أية فوارق فى مساكنهم وملبسهم » .

أما كتاب « اقتصادنا » بقلم باقر الصدر فكان أكثر عمقا من كتاب الطلقانى . فبدلا من تقديم تفسيرات راديكالية لقوانين الشريعة التقليدية مثلما فعل الطلقانى نجد أن الصدر قام بمحاولة منهجية لتقديم الاسلام كنظام اقتصادى متميز ومستقل ومتمتع بالكمال فى حد ذاته . ولكى يفعل ذلك فانه قام بوضع المفاهيم الاقتصادية الأساسية مثل : العمل وتراكم القيمة والربح والايجار والأجور والبنية التحتية والبنية الفوقية فى مصطلحات اسلامية . واعتمد فى مجادلاته فقط على الاحكام الاسلامية ومجموعة الكتابات القانونية الاسلامية حيث كان يشير الى أحكام عديدة ويختار منها حكما واحدا مع ذكر الأسباب التى دعت الى ذلك الاختيار . وهكذا نرى أنه قد طبق فى مجال الاقتصاد ذلك المنهج الذى استخدمه كبار العلماء الدينيين فى مجالات الحياة الأخرى .

وهو يقدم تفسيرات راديكالية للقوانين الاسلامية التى تتناول الصفقات والتعاقدات الاقتصادية والأنشطة الاقتصادية من خلال تضيق تعريف الملكية الخاصة . اذ يرى أن الملكية الخاصة تعنى « علاقة خاصة بين الفرد والممتلكات مما يحرم الآخرين من

استخدام هذه الممتلكات « ولا شيء أكثر من ذلك . ولكي يرسخ ناظر الصدر هذا التعريف في الاسلام نمائنه يشير الى الطريقة التي كانت تضم بها الأراضي التي يتم الحصول عليها من خلال الغزو والفتح الاسلامي الى اراضي دار الاسلام أثناء الفترات المبكرة الأولى من التاريخ الاسلامي : فالأراضي كانت مملوكة للأمة الاسلامية والفرد كان يمنح فقط حق استغلال الأرض وهو حق يمكن أن يلغى أو يسحب من الفرد . ولكن ماذا عن تلك الحالات التي تمت خلال تلك الفترة عندما منح أوائل الناس الذين اعتنقوا الاسلام حق ملكية الأراضي ؟ وهنا يشير المصدر الى أن هذا الحق لم يكن حقاً مطلقاً : اذ كان يشترط في هذا الحق أن يقوم المالك بزراعة الأرض مما يساعد بوجه عام في تدعيم المجتمع ورفاهيته . ونفس هذا الشرط ينطبق على استغلال الموارد الأخرى التي منحها الله للناس .

ويدعم باقر الصدر وجهة نظره هذه من خلال الرجوع الى الحظر الاسلامي على الزيادة في الاستهلاك والخسائر التي تنجم عن سوء الاستغلال بالاضافة الى الحظر المفروض على وضع السياج حول الممتلكات . فأي واحدة من تلك الأمور أو حتى مجرد سوء الاستغلال العام للثروة من جانب صاحبها كفيل بحرمان المالك من حقوق الملكية . ويتوسع الصدر في هذه النقطة حيث يضيف قائلاً أن الحكومة الاسلامية لها الحق في تحديد الملكية الخاصة بهدف العمل على توفير مستوى معين من المعيشة للمجتمع ككل والحفاظ على التوازن الاجتماعي .

ويشير باقر الصدر الى أن التهديد يقع على التوازن الاجتماعي عندما يكسب رأس المال الخاص اتجاهها استبدادياً في مجال التجارة والصناعة . ويوضح ذلك في كتابه مشيراً الى أن النشاط الاقتصادي بالقطاع الخاص في الدولة الاسلامية سوف .

يظل محصورا في نطاق حدود معقولة .. بحيث لا تنجم عنه قوارق في الطبقات الاجتماعية . ونتيجة لذلك فان خلق مشروعات صناعية كبرى سيقع في مجال اختصاص وسلطة ونشاط الحكومة .

والحكومة الاسلامية من خلال السيناريو الذي يقدمه باقر الصدر سوف يرأسها رجل ضليع في القانون يسمى ولي الأمر ويكون في نفس مرتبة الفقيه أو معادلا للفقيه وسوف يكون هو المسئول الرئيسي عن اعادة بناء المجتمع من الناحية الاقتصادية والاجتماعية وسوف يكون هو الشخص الذي يحل المشكلات الشائكة التي تظهر أثناء تطبيق النظرية الاسلامية . ويوجد بالاسلام مجال للمرونة في تلك النواحي المتعلقة بالأعمال الانسانية والتي تقع في نطاق فئات الأعمال « الالزامية الواجب اتباعها وفئات الأعمال المحظور اتباعها » : أي الأعمال الموصى باتباعها والمسموح باتباعها والأعمال غير المحددة والأعمال غير المرغوب فيها وهي كلها تشكل جزءا من الشريعة ولكنه جزء متروك لحرية التصرف والاختيار . وفي هذا المجال يكون للفقيه أو ولي الأمر الحق في اصدار احكام ثانوية . فهو بإمكانه أن يصنف الأعمال « غير المحددة » على أنها أعمال « غير مرغوب فيها » أو أعمال «ممنوعة» أو « أعمال موصى باتباعها » أو حتى أعمال « اجبارية ملزمة » وذلك ونفا للظروف . ونظرا لأن معظم القوانين الاسلامية المتعلقة بالأنشطة الاقتصادية والصفقات والتعاقدات الاقتصادية تقع في داخل نطاق مجال حرية التصرف والاختيار بحيث يكون للفقيه الحق في اصدار احكام ثانوية فانه يمكن القول بأن الشريعة تتضمن في ثناياها قدرا عظيما من المرونة . ولذلك تكون للفقيه الفرصة لأن يحدث توافقا في العلاقات بين الأفراد والمجتمع والموارد الاقتصادية

فى مواجهة الخلفية البيئية الآخذة فى التغير باستمرار اجتماعيا وثقافيا وتكنولوجيا .

ومما لاشك فيه أن كتاب باقر الصدر قد أصبح هو المصدر الرئيسى الذى ينهل منه القادة الاسلاميون فى ايران ليس فقط فى مجال القرارات الاقتصادية والمالية التى اتخذوها فى خلال الايام الاولى من الثورة ولكن أيضا فى مجال صياغة واعداد الدستور . وأكبر دليل على ذلك هو ذلك الفصل الوارد بالدستور الذى تناول الشؤون المالية والاقتصادية . اذ تشير المادة رقم ٤٣ الى أن اقتصاد الجمهورية الاسلامية ينبغى أن يرتكز على « منع قروض بدون فوائد ( للمواطنين ) أو اللجوء الى أية وسائل قانونية ومشروعة أخرى لا ينجم عنها تركيز الثروة فى أيدي عدد قليل من الأفراد أو تداول الثروة بينهم ولا ينجم عنها أيضا تحويل الحكومة الى صاحب عمل رئيسى ومهيمن » كما ينبغى أن يرتكز الاقتصاد الاسلامى على « منع الاسراف والتبذير والاتلاف فى جميع الأمور التى تتعلق بالاقتصاد بما فى ذلك الاستهلاك والاستغلال والانتاج والتوزيع والخدمات » . والمادة التالية تصف النظام الاقتصادى للجمهورية الاسلامية على أساس أنه نظام يتألف من ثلاثة قطاعات : قطاع الدولة والقطاع الخاص والقطاع التعاونى . وقطاع الدولة يشتمل على « كافة الصناعات الكبرى التى هى نطاق واسع والتجارة الخارجية وموارد التعدين الكبرى والبنوك والتأمين والطاقة والخزانات والسدود وشبكات الرى الكبرى والراديو والتليفزيون وأنظمة البريد والتلفراف والتليفون والطيران والشحن والطرق والسكك الحديدية وما شابه ذلك » . أما القطاع التعاونى فيشتمل على « الشركات والمؤسسات التعاونية التى تهتم بالانتاج والتوزيع والتى تقام فى المدن الكبرى وفى الارياف بما يتمشى مع المعايير الاسلامية » . أما القطاع

الخاص فيشتمل على « تلك الأنشطة التي تتعلق بالزراعة وتربية الحيوانات والصناعة والتجارة والخدمات التي تعتبر مكملة لأنشطة قطاع الدولة والقطاع التعاوني » .

وبينما كان القادة الاسلاميون يدرسون هذه المواد الواردة بالدستور وغيرها من المواد الأخرى ويتشاورون بشأنها في صيف عام ١٩٧٩ كانت الدولة قد واجهت مشاكل اقتصادية هائلة ناجمة عن الحركة العنيفة المناهضة للشاه والتي تمثلت في الاضرابات عن الأعمال المبررة الطويلة التي قام بها العمال في مجال الصناعة والخدمات والنواحي المدنية الادارية . ومع هروب حوالي ١٣٠ ألفا من المديرين والفنيين العاملين في الصناعات المحلية والأجنبية أغلقت مئات المصانع والورش والمحلات أبوابها أو هبط انتاجها بشكل خطير . كما أن النقص في المواد الخام زاد من ارتباك المسؤولين عن الادارة الذين لهم خبرات ضئيلة . وكان نتيجة كل ذلك هي انخفاض عدد العمالة التي بلغت في فترة ما قبل الثورة رقما يصل الى ١٠٠ مليون عامل . حيث ترك العمل ٢٠ مليون عامل . هذا بالإضافة الى انخفاض اجمالي الدخل القومي بنسبة ٢١٪ .

وأعلن رئيس الوزراء بزرجان في ٨ يونيو أن الحكومة قد حصلت على ٢٢ بنكا مملوكة للقطاع الخاص . كما صدر قراران آخران من قرارات التأمين خلال الشهور الأربعة التالية شملا ١٥ شركة من شركات التأمين بما في ذلك ثمان شركات مملوكة للأجانب بالإضافة الى المصانع التي تنتج قطع الغيار للطائرات ومراكب الشحن والسيارات . وكل ذلك قد ساعد الحكومة على احكام قبضتها وسيطرتها على الاقتصاد بالبلاد بالإضافة الى أن تلك الاجراءات كانت متلائمة مع اتجاهات العدالة والمساواة التي

تنادى بها الحكومة . وفى أوائل يوليو نجد أن « قانون حماية الصناعة والتوسع فيها » قد أدى الى تأهيم الصناعة الثقيلة وتأهيم المصانع التى حققت ثروات طائلة من خلال وسائل غير مشروعة بالإضافة الى تأهيم الشركات الصناعية التى تزيد ديونها على قيمة الأصول الخاصة بها . وفى خلال الشهر التالى اتخذت اجراءات لتأهيم شركات الأدوية ومستودعات التبريد ومستودعات السلع والبضائع ومشروعات النقل بالشاحنات .

وبطول ذلك الوقت كان قد تم انشاء « مؤسسة المستضعفين Muscuzafin » فى أوائل مارس بقرار من الخومينى بهدف توحيد ممتلكات ٦٣ فردا من الأسرة البهلوية الملكية والأصول التى جمعها آخرون بطرق غير شرعية واستغلال الدخل الناجم عنها لصالح المستضعفين (بمعنى المحتاجين أو المظلومين) فأدى ذلك الى بزوغ أكبر كيان اقتصادى بالبلاد . وبدأ ذلك التجميع أو الكيان الاقتصادى الكبير بداية قوية عقب استيلائه على « المؤسسة البهلوية » التى كانت تمتلك ٢٠٪ من أصول كافة الشركات المطوكة للقطاع الخاص . وعلى مدى الشهور امتلك هذا التجميع الاقتصادى الأصول الخاصة بعشرات الآلاف من الإيرانيين الأغنياء الذين هربوا من البلاد قبل وبعد قيام الثورة الإيرانية . أو الذين تم تنفيذ حكم الاعدام فيهم . وهكذا نرى أن « مؤسسة المستضعفين » أصبحت تمتلك أكثر من مائة شركة تضطلع بأنشطة مختلفة ومتنوعة مثل الفنادق وأعمال البناء والعمار والأطيان الزراعية وصناعة البضائع الخاصة بالشئون المنزلية وإطارات السيارات وصناعة الورق والطبع والنشر وتعليب الأغذية . وقد تدعمت الحكومة من الناحية الاقتصادية عقب انشاء « مؤسسة المستضعفين » واتخاذ اجراءات التأهيم .

ومن بين أولئك الذين أبدوا فكرة سيطرة الدولة على الاقتصاد رئيس الوزراء رجائي الذي شغل منصب رئيس الوزراء عقب الاطاحة ببنى صدر في يونيو ١٩٨١ والذي أصبح مرشح الحزب الجمهوري الاسلامي لكي يشغل منصب رئيس الجمهورية . ونظرا لانه رجل علماني تقى وورع وذو حلفية متواضعة فقد أحرز شعبية هائلة في حملة الانتخابات . وطبقا للتقارير الرسمية التي صدرت عن نتائج الانتخابات فانه قد حصل على ٨٨٪ من مجموع الأصوات وقد حلف اليمين الدستورية في ٢ أغسطس . الا أن فترة رئاسته كانت قصيرة للغاية . ففي ٣ أغسطس انفجرت قنبلة في اجتماع لمجلس الأمن القومي مما أودى بحياته وحياة رئيس الوزراء محمد جويد بحونار Javed Baanar .

وقد أعلن حزب « مجاهدين خلق » مسؤوليته عن القاء تلك القنبلة . وكان زعيم ذلك الحزب : مسعود رجاوى قد أعلن شن حرب العصارات ضد الحكومة عقب طرد بنى صدر . وراحت منظمة « مجاهدين خلق » تعمل على احباط الخطط الخاصة باجراء انتخابات على منصب الرئاسة في ٢ أكتوبر . ففي ٢٧ سبتمبر قام مئات من كوادر مجاهدين خلق بالاصطدام مع الحرس الثوري بالقرب من الحرم الجامعي في جامعة طهران الواقعة في قلب مدينة طهران . ودارت معركة بين الطرفين استغرقت سبع ساعات وراح ضحيتها ١٧ من القتلى علاوة على ٤٠ من الجرحى وكانت تلك هي أكبر معركة تدور في داخل العاصمة منذ قيام الثورة . ولكن الخوميني لم يتخاذل أمام هذه الأحداث وقال « هذه الفوضى لا تعنى أن الحكم الاسلامي يتسم بالضعف . فالاسلام يتم تجديده واعيائه من خلال هذا النوع من سسفك الدماء » . وبعدئذ واجهت الحكومة تحديات حزب مجاهدى خلق بالجوء الى

القمع الشديد . وفى خلال ثلاثة أشهر عقب طرد بنى صدر قامت الحكومة باعدام ما يزيد على ألف شخص .

وفى انتخابات الرئاسة فاز حجة الله على حسين خمائنى Khamanei بالحصول على أكثر من ١٦ مليون صوت من بين المجموع الكلى للأصوات البالغ عددها ١٦٨٤٧٠٠٠ . ومما ساعده على احراز هذا الانتصار هو انه كان سكرتيرا عاما للحزب الجمهورى الاسلامى بالاضافة الى انه كان الممثل الشخصى لآية الله الخومينى فى المجلس الاعلى للدفاع . وفى اواخر أكتوبر وافق المجلس ( البرلمان ) على ترشيح خمائنى للسيد مير حسن موسى لشغل منصب رئيس الوزراء .

ونظرا لأن كلا من موسى وخمائنى كانا من زعماء الحزب الجمهورى الاسلامى منذ البداية فانهما كانا متلائمين للعمل فى توافق مع بعضها البعض . ونظرا لأن كلا من هاشمى رفسنجانى المتحدث الرسمى باسم البرلمان وآية الله عبد الكريم موسى اردبيلى كانا عضوين فى الحزب الجمهورى الاسلامى فان هذه المجموعة أصبحت مسيطرة تماما على الأجهزة التنفيذية والتشريعية والقضائية بالدولة . أما تسيير الشؤون الادارية اليومية فكان فى أيدي الصف الثانى من العلماء الدينيين الذين كانوا اما أعضاء فى الحزب الجمهورى الاسلامى واما من المتعاطفين مع الحزب . وهكذا نرى أن الخومينى قد تمكن فى أقل من ثلاث سنوات من تثبيت أقدام الحزب الأصولى ( الحزب الجمهورى الاسلامى ) فى السلطة بالجمهورية .

وقامت حكومة موسى بحملة تطهير مكثفة شملت كافة المؤسسات الحكومية والثورية . حيث شمل التطهير . . أولئك الذين لهم معتقدات اسلامية غير كافية ( على حد تعبير رئيس



الوزراء ) . كما زادت الحكومة من سرعة اضعاف الطابع الاسلامى على البلاد . اذ اصدرت قرارا بطرد كافة العاملين بفيلق الحرس الثورى الاسلامى الذين اتضح أن لهم أبناء منضمين لحزب « مجاهدى خلق » وتم تنفيذ ذلك بكل حزم وقسوة . كما تم تطهير وطرد القضاة الثلاثين الذين تقبلوا الرشاوى من أجل تحويل عقوبة الاعدام الى عقوبة السجن مدى الحياة . كما تم تنفيذ القانون الصادر بشأن ارتداء السيدات للزى الاسلامى فى الأماكن العامة . كما تم تعيين قضاة من أجل القيام بمهام محددة وفقا لتوجيهات حجة الاسلام مرتضى حسين « من أجل محاربة الاعمال العاقبة » التى تشتمل على : الزنا والشذوذ الجنىسى والتمار والنفاق والتعاطف مع الملحدين والمنافقين والخيانة » .

وهذا الفصل من تاريخ الجمهورية الاسلامية كان دمويا بصنة خاصة . فرغم التدابير الامنية المشددة التى اتخذتها الحكومة أعلن « مجاهدى خلق » فى أوائل فبراير ١٩٨٢ أن أعضاءها قاموا باغتيال ما يزيد على ١٢٠٠ من القادة الدينيين والسياسيين التابعين للحكومة . وفى المقابل قامت الحكومة باعدام ٤٠٠٠ من رجال العصيانات الذين ينتمى معظمهم لحزب « مجاهدين خلق » . ويبدو أن مسعود رجاوى زعيم الحزب قد بالغ فى أرقام الناس الذين أعدموا وجعلها ضعف الرقم الرسمى . ومهما كان العدد الحقيقى للناس الذين أعدموا فإن اجراءات الحكومة كانت قوية وفعالة ما لم يأت ذلك شك .

لماذا قامت الحكومة الاسلامية بالضرب بيد من حديد وفى وحشية بالغة بقدر ما تستطيع ؟ لقد جاء الرد على لسان هاشمى رفسنجانى فى مقابلة أجرتها معه مجلة « العربية » Arabia التى تصدر من لندن . اذ قال « كان لزاما علينا أن نتخذ اجراء

حاسما على الفور . . والا أصبحت ايران لبنان أخرى فالاسلام  
يُهمنا بحسم الموقف على الفور « وهو بالطبع يشير الى الحرب  
الأهلية اللبنانية التي تفجرت فى ابريل ١٩٧٥ وظلت تتفاقم  
وتتصاعد على مدى السنوات التسع التالية . وأثناء المرحلة  
النشطة من الحرب الأهلية اللبنانية والتي انحصرت بين ابريل  
١٩٧٥ واكتوبر ١٩٧٦ فقد لبنان ٨٠ ألف قتيل من بين مجموع  
السكان البالغ عددهم آنذ ٣ ١/٢ مليون نسمة . ولذلك فإنه يمكن  
القول بأنه اذا حدثت حرب أهلية فى ايران البالغ تعداد سكانها  
٤ مليون نسمة والتي تشترك فى حدود طويلة مع الاتحاد  
السوفيتى فان النتائج كانت ستصبح أسوأ مما كان عليه الحال فى  
الحرب الأهلية اللبنانية .

وفى ربيع عام ١٩٨٢ بدأت تتجه حرب الخليج لصالح ايران .  
اذ قام الايرانيون بهجوم مضاد شامل فى شهر مايو وتمكنوا من  
استعادة ٥٣٨٠ كيلومترا مربعا من الأراضى الإيرانية المحتلة بما فى  
ذلك ميناء خورامشاهر الذى استولت عليه العراق فى بداية  
المعارك . وفى شهر يونيو رفضت طهران العرض الذى تقدمت  
به العراق بشأن الاتفاق على وقف اطلاق النار على الفور ورددت  
طهران مطلبها السابق الذى يتمثل فى الاطاحة بالرئيس العراقى  
صدام حسين « المالحد الفاسد » الذى يعتبر هو المسئول عن شن  
العدوان على حكومة ايران الاسلامية . وفى ٩ يوليو هددت  
الحكومة الايرانية بنقل ساحة الحرب الى داخل العراق اذا لم يتم  
معاقبة صدام حسين على غزوه لايران علاوة على دفع مبلغ ١٠٠  
بليون دولار كتعويض عن الدمار الذى لحق بايران بسبب الحرب .  
وبعد مرور أربعة أيام نفذت ايران بالفعل تهديداتها وتحركت  
للاستيلاء على ميناء البصرة العراقى . الا أنها فشلت فى الاستيلاء  
على البصرة . وعلى كل حال فان هذه الأحداث قد اظهرت أن

حرب الخليج قد دخلت فى مرحلة أصبح فيها زمام المبادرة فى  
أيدى طهران وذلك فى حد ذاته يعتبر دليلا على قوة الثورة  
الاسلامية فى ايران .

وبينما كانت الحكومة ماضية فى سحق « مجاهدى خلق »  
اكتشفت وجود مؤامرة مناهضة للحكومة فى ابريل ١٩٨٢ . وكانت  
المؤامرة بقيادة صادق قطب زاده الذى كان عضوا فى المجلس  
الثورى الاسلامى كما كان وزيرا للخارجية قبل أن تطويه ظلال  
النسيان فى سبتمبر ١٩٨٠ وكان يشاركه فى قيادة هذه المؤامرة :  
أحمد عباس وهو زوج ابنة آية الله شريعت مدارى . وكانت  
المؤامرة تقضى بقتل الخومينى بضرب منزله المتواجد فى حى  
جمرام بطهران بالصواريخ مع اغتيال أعضاء مجلس الدفاع الأعلى  
ثم القضاء بالتهمة على حزب توده Tudeh ثم الاستيلاء على الحكم  
من أجل الانتقام من أجل هؤلاء القتلى . فقامت السلطات  
الحكومية بالقضاء القبض على ١٧ شخصا بما فيهم ٧ من الضباط  
العسكريين . وتم محاكمة الضباط محاكمة سرية ولكن قطب زاده  
قد حوكم أمام محكمة عسكرية أديعت على شاشات التليفزيون فى  
منتصف أغسطس . وصدر عليه الحكم بادانته وتأمرة للاطاحة  
بالحكومة الاسلامية من خلال استخدام الأسلحة وبعدئذ نفذ فيه  
حكم الاعدام فى ١٥ سبتمبر .

وخلال تاريخه السياسى الطويل الذى قضى معظمه بالخارج  
كان قطب زاده قد اتخذ سياسات نشطة مناهضة للشاه . وأثناء  
اقامته فى باريس لسنوات عديدة كان قطب زاده زعيما « لجمعية  
الاسلاميين » . وكان اعدامه بمثابة نهاية درامية لاختيار الحكومة  
الاسلامية لمثقفين إيرانيين علمانيين ممن كانوا نشطاء فى الحركة  
الاسلامية المناهضة للشاه بالخارج . فهذه العملية كانت قد بدأت

فى نوفمبر ١٩٧٩ وشملت بنى صدر . فهذه السنوات الطويلة التى قضاهما مثل هؤلاء الزعماء بالشرب قد أضغت عليهم طابعا وأسلوبا غربيا . وهذا الطابع لم يكن متلائما مع الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامى الذى يتم تشكيله تحت القيادة النشطة للخومينى .

ورغم هذا الجو المشحون بالأحداث الدرامية ، مثل أعمال عصابات مجاهدى خلق والتآمر ضد الحكومة الإيرانية وشحن الحرب عليها من جانب العراق فان الحكومة الإيرانية مستمرة فى برنامجها الرامى الى اضعاء الطابع الإسلامى على المجتمع . اذ وافقت الحكومة فى ٣٠ مايو على خطط شاملة تهدف الى جعل كافة القوانين : مثل قانون العقوبات والقانون المدنى والقانون التجارى وتسجيل وثائق الاراضى متمشية فى خط واحد مع الشريعة الإسلامية . علاوة على فرض الزى الإسلامى على النساء بكل حزم ودقة . وفى أغسطس أعلنت الحكومة إلغاء كافة القوانين العلمانية . ثم أصدر المجلس ( البرلمان ) قانونا بشأن المخالفات الأخلاقية فى ٢١ سبتمبر .

وبعد مناقشات داخلية مطولة قررت الحكومة فى نهاية الأمر أن تواجه مشكلة الخلافة التى ستعقب الخمينى عقب وفاته . وفى ٢٠ ديسمبر أعلنت الحكومة اجراء انتخابات فى ٢٠ ديسمبر من أجل اختيار « مجلس خبراء » يضم ٨٢ عضوا تكون مهمته بحث مسألة الزعيم التالى أو الزعامة التالية عقب وفاة الخمينى . وتقرر أن يكون « مجلس الخبراء » مجلسا دائما ولا يدخل فى عضويته سوى العلماء الدينيين فقط . وتم انتخاب ١٣ عضوا من طهران ليكونوا أعضاء فى « مجلس الخبراء » وكان على رأس هؤلاء الأعضاء الـ ١٣ كل من : خامنئى وهاشمى رفسنجانى

وموسوى أردبيلى وكان ذلك دليلا على شعبيتهم وشعبية الحكومة التى يقودونها .

وبالغاء حزب توده Tudeh فى مايو ١٩٨٣ أصبحت جميع الأحزاب التى كانت متواجدة فى فترة ما قبل الثورة ملغاة باستثناء « حركة التحرير » بزعامة مهدي بزرگان . وأصبحت بذلك الحياة السياسية محتكرة فى أيدي الحزب الجمهورى الاسلامى وبعض الكيانات الصغيرة المتحالفة مع هذا الحزب الجمهورى الاسلامى .

وفى الجيش تمت سلسلة من أعمال التطهير مما أسفر عن طرد أو استقالة جميع الضباط الذين ينتمون لفترة ما قبل الثورة باستثناء ألف ضابط فقط منهم . كما اتخذت الحكومة المزيد من الاجراءات الرامية الى غرس القيم والانكار الاسلامية فى اذهان أفراد القوات المسلحة . بل تم انشاء قسم أيديولوجى سياسى فى داخل الجيش . وغالبا ما كان يتولى شئون ذلك القسم الشباب من العلماء الدينيين الذين يتميزون بالولاء الشديد للجمهورية الاسلامية الايرانية . حيث كانوا يقومون بتدريس التاريخ الاسلامى والايديولوجية الاسلامية للضباط وأفراد القوات المسلحة . وكان ذلك القسم يعمل على خلق التأييد للأعمال والسياسات التى تقوم بها الحكومة بالاضافة الى مراقبة الأفراد الذين من المحتمل أن يكونوا من المنشقين أو المنحرفين . هذا بالاضافة الى أنه كانت توجد فى داخل الجيش « جمعيات اسلامية » وهى جمعيات تطوعية مهتمة بتدعيم الوعى الاسلامى لأعضائها علاوة على توفير الأمن والرعاية للوحدات العسكرية الخاصة بها .

وكان من بين الدوافع المهمة لانشاء «فيلق الحرس الثورى الاسلامى» خلق قوة مضادة للجيش الذى يقوده ضباط لهم

ولاء مزدوج ازاء الحكومة الاسلامية . ولذلك نجد أنه عقب انشاء فيلق الحرس الثورى الاسلامى من شباب الحزب الاسلامى الذى بزغ الى الافق أثناء الحركة المناهضة للشاه أصبح الانضمام لهذا الفيلق يخضع لشروط دقيقة وصارمة اذ ينبغي على من يريد الالتحاق بفيلق الحرس الثورى الاسلامى أن يجتاز الاختبارات التى تعقد له فى القرآن الكريم وفى كتاب « نهج البلاغة » بقلم الامام على وفى كتاب « الحكومة الاسلامية » بقلم الخومينى .

وفى بادىء الأمر كان الراغبون فى الالتحاق بفيلق الحرس الثورى الاسلامى يخضعون لتدريبات لمدة ستة شهور . ولكن بعد أن نشبت الحرب مع العراق تم تخفيض مدة التدريب الى ثلاثة شهور . ومع ذلك نجد أن مستويات التدريب العسكرية والايديولوجى والسياسى كان آخذاً فى التحسن باستمرار حيث كان العلماء الدينيون يلعبون دوراً رئيسياً فى التدريب السياسى الايديولوجى . وقد شارك فيلق الحرس الثورى الاسلامى فى القتال فى جبهة الحرب منذ اليوم الأول الذى تفجرت فيه الحرب . ثم اكتسب هذا الفيلق وحدة جوية خاصة به عقب التوسع فى امكانياته . وأصبح هذا الفيلق بمثابة القوة التى يعتمد عليها قادة الحزب الجمهورى الاسلامى . وعقب طرد بنى صدر بدعم التعاون بين فيلق الحرس الثورى الاسلامى والجيش وتحسن على نحو درامى . وكان فيلق الحرس الثورى الاسلامى يستخدم تكتيكات مبتكرة وغير تقليدية بشكل ناجح للغاية أثناء القتال فى الجبهة مما اثار اعجاب ضباط الجيش بشجاعتهم ومرونتهم وابتكاراتهم . الا أن القتال فى الجبهة كان مجرد مهمة واحدة من المهام الكثيرة الملقاة على عاتق فيلق الحرس الثورى الاسلامى . اذ كان مسئولاً عن الحفاظ على الأمن الداخلى ومقاومة الأعمال التخريبية والتمردات العرقية .

وفى نوفمبر ١٩٨٢ تم انشاء وزارة للحرس الثورى الاسلامى وسرعان ما تم انشاء قسم مخصوص فى داخل فيلق الحرس الثورى الاسلامى له مهمة محددة وهى حماية العاصمة من أى انقلاب عسكرى متوقع . وفى أوائل عام ١٩٨٣ أصبح هذا الفيلق يضم ١٧٠ ألف مقاتل بالاضافة الى اشتماله على قوات جوية وبرية . وهو حاليا بمثابة أقوى قوة حربية فعالة تعتمد عليها الحكومة الاسلامية فى ايران .

وعقب الاستيلاء على السفارة الأمريكية فى نوفمبر ١٩٧٩ — مما جعل الغزو الأمريكى لايران أمرا متوقعا — نادى الخومينى بضرورة انشاء « جيش يضم ٢٠ مليون مقاتل » . فادى هذا الى تدريب الطلبة على استخدام السلاح بالمساجد المحلية عقب انتهاء ساعات الدراسة بالمدارس أو الجامعات . وفى أوائل عام ١٩٨٠ أنشأ فيلق الحرس الثورى الاسلامى رسميا « وحدة تحريك المستضعفين » . فجذبت هذه الوحدة الكثير من المتطوعين من الشباب ممن هم أقل فى السن من ١٨ عاما . وكان من بينهم فتيات ورجال فى متوسط العمر وقد جاء معظمهم من الأحياء الفقيرة . وقد استخدمت المساجد المحلية كمراكز للتطوع والتدريب وفى مارس ١٩٨٢ سمح للمتطوعين فى وحدة المستضعفين لأول مرة بالدخول فى الحرب على جبهة القتال . وفى خلال السنة التالية كان ١/٥ مجموع القوة البالغ عددها ٢ ١/٢ مليون مقاتل متمركزين فى جبهات القتال أو بالقرب منها . وهؤلاء الأشخاص الذين هم تحت سن العشرين والذين عاشوا فى بيئة تضطرم بالغليان الثورى قد أصبحوا متحمسين لقضية الاسلام أكثر من معظم الأشخاص الأكبر سنا .

وقد أكدت الحكومة أن عائلات أولئك الناس الذين يستشهدون في الحرب من أجل الاسلام سيتم تقديم كافة الرعاية لهم . وعهد بهذه المهمة « لمؤسسة الشهداء » التي أنشأتها الحكومة لهذا الغرض ومولتها باعتمادات مالية ضخمة من أموال الاوقاف الدينية . ونظرا لأن المساهمة في الصراع ضد البهلويين قد اعتبره الخميني واجبا اسلاميا فان الخميني كان قد أنشأ « مؤسسة الشهداء » في بادئ الامر من أجل تقديم الرعاية لعائلات أولئك الايرانيين الذين استشهدوا خلال الحركة الثورية ضد الشاه والذين تقدر أعدادهم بحوالى ٤٠ ألف إيراني كحد أقصى و ١٠ آلاف إيراني كحد أدنى . وعقب نشوب حرب الخليج تزايد حجم ميزانية «مؤسسة الشهداء» عدة أضعاف .

وعلى العكس من المؤسسات سألفة الذكر نجد أن « منظمة الشباب الخميني الثوري الاسلامي » لم تتشكل رسميا بقرار صادر عن الخميني . وانما بزغ هؤلاء الشباب أثناء احتدام الكفاح الثوري . وبعد الثورة أصبحوا يقومون بحراسة الأمن الداخلي . وبعدئذ كلفوا بمهمة تطبيق الأخلاقيات الاسلامية . وأصبح لهم الجناح العسكري الخاص بهم . وعقب نشوب الحرب تم تكليفهم بالاشراف على توزيع الجرايات وحصص الطعام . ومن خلال هذا العمل أصبحوا على صلة وثيقة بحياة كل عائلة وكل أسرة . وصارت الوحدة المحلية من منظمة الشباب الخميني تعمل في تعاون وثيق مع الوحدة المحلية التابعة لفيلق الحرس الثوري الاسلامي ومع الجمعيات الاسلامية التي تتواجد في كافة الورش والمصانع والمدارس والجامعات والمستشفيات والأحياء السكنية والقرى .

وعقب نشوب الثورة الاسلامية تم ادخال تغييرات جذرية على الجهاز القضائي والقوانين . وتم ادخال المحاكم الثورية



الاسلامية فى القطاع المدنى والقطاع العسكرى . وفى بادئ الامر كانت المحاكم الثورية الاسلامية تتعامل مع الأنشطة المناهضة للثورة علاوة على المخالفات الخطيرة مثل الجاسوسية والخيانة العمدى . وبعدئذ مع انتشار عمليات اصفاء الطابع الاسلامى على المجتمع كلفت هذه المحاكم بالتعامل مع المخالفات الأخلاقية علاوة على الانحرافات التى توصف بأنها « نفاق » .

ولكن بعد أن واجهت الحكومة التحدى السياسى « لجاهدين خلق » غير الخوهمنى اتجأه الى العكس . فبعد أن أصدر قراره عن الحريات المدنية فى ديسمبر ١٩٨٢ قام بنقل قضايا المخالفات الأخلاقية من المحاكم الثورية الاسلامية الى المحاكم العامة التى تدار بمعرفة وزارة العدل . وبعد مرور عام أصدر « المجلس القضائى الأعلى » قرارا بالغاء وظيفة الرئيس الثورى للعدل علاوة على الغاء وظيفة المدعى العام بالاضافة الى وضع المحاكم الثورية تحت اشراف وزارة العدل التابعة للدولة . وتحت اشراف المدعى العام التابع لوزارة العدل بالدولة . وربما تكون الخطوة التالية هى الغاء المحاكم الثورية نهائيا . ويبدو أن عملية اصفاء الطابع الاسلامى قد تدعمت كثيرا من خلال الغاء كافة القوانين العلمانية بحلول عام ١٩٨٢ علاوة على اصفاء الصيغة الاسلامية على القوانين المدنية والتجارية وقوانين العقوبات .

وقد خلقت الثورة الاسلامية مجمعا اقتصاديا شاسعا من خلال اثناء « مؤسسة المستضعفين » . وفى ربيع عام ١٩٨٣ أصبحت هذه المؤسسة تمتلك - بشكل جزئى أو كلى - ٤٩٥ شركة تشمل ٢٠٠ شركة تصنيع و ٢٥٠ شركة تجارية و ٤٥ شركة تصنيع زراعى . بل أصبحت « مؤسسة المستضعفين » تضم ٨٥ ألفا من العاملين بها مما جعلها بمثابة الكيان الوظيفى الرابع بعد

الخدمة المدنية والجيش وفيلق الحرس الثورى الاسلامى . وبناء على توجيهات الخومينى بضرورة تلبية احتياجات المستضعفين قررت « مؤسسة المستضعفين » فى أوائل عام ١٩٨٣ انشاء ٥٠ ألف وحدة سكنية فى خلال عام ١٩٨٤/١٩٨٥ من أجل تأجيرها بسعر منخفض للمحتاجين . وقامت بادماج خططها مع الخطط الخاصة بوزارة الاسكان وخطط « مؤسسة الاسكان » التى انشئت عقب قيام الثورة .

وبينما أعطيت « مؤسسة الاسكان » مهمة محددة تتمثل فى بناء المساكن والمنازل فان المهام التى أقيمت على عاتق « حملة التعمير Reconstruction Crusad » التى انشئت فى يونيو ١٩٧٩ كانت تتمثل فى سد الثغرة ما بين المدينة الصغيرة والقرية . ونظرا لأن نصف تعداد سكان ايران يعيشون فى ٦٥ ألف قرية فانه يمكن لنا أن ندرك مدى الأهمية البالغة للأعمال الملقاة على عاتق « حملة التعمير » . اذ كان ذلك يعنى العمل على زيادة التنمية الاقتصادية بالمناطق الريفية وزيادة أعداد الناس الذين يعرفون القراءة والكتابة ونشر الثقافة الاسلامية والثورة الاسلامية بين الفلاحين الايرانيين وتحسين الاتصالات بين القرويين وسكان المدن المتعلمين وتوفير فرص العمل لخريجي المعاهد والجامعات العاطلين الذين لم يتمكنوا من الالتحاق بأى عمل . ولذلك قامت « حملة التعمير » بانشاء فروع لها فى المدارس العليا والكليات والجامعات . وقام أعضاء « حملة التعمير » ببناء الأعمال الهندسية : الطرق والكبارى والرى والحماسات العمامة المدارس والمراكز الصحية . بالإضافة الى قيامهم بتوزيع السماد والمخصبات والبيدات الحشرية ومضخات المياه والجرارات علاوة على منح القروض والسلف لصغار المزارعين . وفى فبراير ١٩٨٤ تم تحويل « حملة التعمير » الى وزارة حكومية .

ولكى تساعد الحكومة المحتاجين المتواجدين بالمناطق الريفية فانها أنشأت فى أوائل عام ١٩٧٩ « لجنة الامام الخومينى للاغاثة » وخلال السنوات الخمس الأولى تكنت هذه اللجنة من انشاء ٥٣٠ فرعاً لها تغطى ٤٠ الف قرية بالاضافة الى تقديم مساعدات فى مجال الخدمات الاجتماعية والطبية والتعليمية لـ ١١ مليون أسرة . وفى نفس الوقت بذلت جهود مكثفة لخفض نسبة الأمية بالقرى . وفى هذا المجال عيلت « حملة التعمير » بالتعاون مع « الحركة الخاصة لتنمية وتطوير التعليم بين الناس المحرومين » التى أنشئت فى عام ١٩٨٠ .

وكل هذه الاجراءات قد نبعث من وجهة النظر القائلة بأن الحكم الاسلامى يهتم اهتماماً بالغاً بمفاهيم الرعاية الاجتماعية ورفع مستوى المحرومين والفقراء والمعدمين .

وفى أعقاب الثورة الثقافية التى أطلقها الخومينى فى يونيو ١٩٨٠ تكونت « الحملة الجامعية University Crusade » . وكانت مهمتها العمل على تطهير الجامعات من الأيديولوجيات غير الاسلامية علاوة على تطهير الجامعات من الطلبة والاساتذة غير الاسلاميين . وكان « الطلبة المسلمون الملتزمون » هم القوة الرئيسية التى تعتمد عليها « الحملة الجامعية » فى انجاز مهامها . وقبل انشاء « الحملة الجامعية » كان هؤلاء الطلبة المسلمون الملتزمون يوجودون بالحماسة والتدفق الاسلامى مما كان يدعمهم للدخول فى معارك ضارية ضد زملائهم من الطلبة العلمانيين واليساريين .

وما أغلقت كافة الجامعات والكليات البالغ عددها ٢٠٠ أبوابها فى شهر يونيو ١٩٨٠ حتى قامت السلطات الحكومية — وذلك بناء على التقارير التى أعدتها « الحملة الجامعية » —

بطرد جميع المدرسين والأساتذة المؤمنين بأيديولوجيات شرقية أو غربية مثل : الماركسية والرأسمالية والقومية والليبرالية والديمقراطية . وفى نفس الوقت لم يسمح للطلبة الإيرانيين بالحصول على الوثائق التى تمكنهم من السفر الى الدول الأجنبية كما لم يسمح لهم بالالتحاق بالجامعات الغربية .

وتشكلت « لجنة الثورة الثقافية » من سبعة أعضاء من رجال الدين والعلمانيين . وكانت مهمة هذه اللجنة هى مواجهة الاستعمار الثقافى سواء أكان شرقيا أم غربيا علاوة على بث القيم الإسلامية فى داخل الجامعات . وقامت هذه اللجنة بوضع مناهج جديدة وكتب دراسية جديدة أو تعديل الكتب الموجودة بالفعل فى ضوء التعاليم الإسلامية بالإضافة الى مساعدة هيئات التدريس على الحصول على فهم أفضل وأعمق للإسلام مع تغيير المفاهيم الغربية فى التعليم بمفاهيم إسلامية .

وبذل العلماء الدينيون جهودا نشطة على جميع المستويات من أجل تقديم يد العون والمساعدة « للجنة الثورة الثقافية » . وشاركوا على الفور فى ادارة شؤون « مركز الكتب المقررة الجامعية » وهو المركز الذى أنشأته « لجنة الثورة الثقافية » . وبحلول ربيع عام ١٩٨٣ أنتج هذا المركز ٣٠٠٠ كتاب مقرر على الطلبة سواء كان كتابا أصليا أو مترجما . ومعظم هذه الكتب كانت فى مجال العلوم والطب والهندسة وهى كتب لا يوجد بها تعارض مع العقائد الإسلامية أما الكتب الأخرى التى تتناول العلوم الاجتماعية فقد تم تزويدها بالقيم والمفاهيم الإسلامية .

وذلك هو السبب فى أن إعادة فتح الجامعات والكليات التى بدأت فى منتصف سبتمبر ١٩٨٢ قد تمت بشكل تدريجى ، وعندما تم فتح جميع المؤسسات التعليمية العليا بالكامل فى أكتوبر

١٩٨٣ فانها أصبح بها أعداد أقل من الطلبة والأساتذة عن ذى قبل . ولكن فى خلال ثلاث سنوات ارتفعت الأرقام الى المستوى الذى كانت عليه قبل قيام الثورة .

اما المدارس فقد تم بث الطابع الإسلامى بها فى مزيد من اليسر والسهولة . ففى خلال ثلاث سنوات عقب قيام الثورة كانت جميع المدارس المشتركة التى تضم البنين والبنات فى آن واحد قد تحولت الى مدارس تضم تلاميذ فقط أو تلميذات فقط . هذا بالإضافة الى تطهير حوالى ٤٠ ألف مدرس . وعقب مرور ستة شهور على قيام الثورة أصبحت الكتب الإسلامية متاحة فى جميع المدارس الابتدائية . وبنفس السرعة تم أيضا تزويد المدارس الثانوية بالكتب المقررة الإسلامية . وأعطى اهتمام خاص بتدريس اللغة العربية التى هى لغة القرآن الكريم ( بل تم بذل جهود لنشر اللغة العربية بين جماهير الناس من خلال اعطاء دروس فى اللغة العربية عبر برامج التلفزيون ) وماج الأولاد الصغار بالحماسة الشديدة للدين الإسلامى واللغة العربية وذلك هو السبب فى تطوعهم للحرب على جبهة القتال ضد العراق . وفى أعقاب الثورة ظهرت الجمعيات الإسلامية فى جميع المدارس . . وكانت هذه الجمعيات تعمل على كشف النقاب عن المدرسين غير الإسلاميين وتراقب المنشقين من الطلبة وخاصة بعد أن قام « مجاهدى خلق » بشهر السلاح ضد الدولة .

وبالإضافة الى بذل الجهود الرامية الى اضعاف الطابع الإسلامى على المؤسسات الشعبية مثل المدارس والكليات والكيانات العسكرية فقد بذلت جهود فى نفس الوقت من أجل معالجة أمراض أخلاقية معينة مثل الدعارة والمخدرات . اذ تشكل فى أعقاب الثورة مباشرة « مكتب نشر الفضيلة ومنع الرذيلة »

وقام هذا المكتب بمحاربة الانحلال الأخلاقى . حيث قام فى مايو ١٩٨٠ بهدم حى الأضواء بطهران وتقويم أخلاق ألف من المومسات .

كما قامت حملة أخرى للقضاء على تعاطى المخدرات بأنواعها الخفيفة والقوية . اذ كان تعاطى الهيرويين منتشرًا فى أيام حكم الشاه بشكل كبير حيث وصلت أعداد المدمنين الى رقم يتراوح ما بين ٥٠٠ ألف و ٨٠٠ ألف مدمن . وقد تم تكليف حجة الاسلام صادق خلخالى بمهمة حل مشكلة المخدرات . فأصدر قرارًا بتنفيذ حكم الاعدام فى أى تاجر يثبت تورطه فى الاتجار فى المخدرات . وفى الفترة من ٢١ مايو الى ١٨ يوليو ١٩٨٠ أصدر أوامره بتنفيذ حكم الاعدام فى حوالى ٢٠٠ تاجر ممن يتاجرون فى المخدرات . وكان ذلك الاجراء قويا وفعالا للغاية . حيث هبط تعاطى المخدرات على نحو حاسم . الا أن المشكلة لم تختف نهائيا .

وكل هذه الأعمال التى قامت بها الحكومة كانت جزءا من عملية ذات شعبتين تهدف الى صبغ المجتمع بصبغة اسلامية : التطهير والتنوير . وكان التطهير بمعنى تنظيف الروح من كافة الرذائل أما التنوير فكان بمثابة ازالة كافة الآثار السلبية السيئة التى نجمت عن كافة الخطايا التى ارتكبها المواطن . اذ كان الهدف الشامل الذى تسعى اليه الحكومة الاسلامية هو خلق بيئة اجتماعية تدفع المؤمن الى زيادة الاقتراب من الحياة الفاضلة المليئة بالورع والتقوى .

فى المجتمع الذى يكون فيه نساء محجبات وأخريات غير محجبات ( مثلما كان عليه الحال أثناء الحكم البهلوى ) فان النساء غير المحجبات يعملن على اثاره الفتنة والمفريات وينفثن الفساد فى الحياة العائلية . ولذلك ينصح الاسلاميون بضرورة أن ترتدى

كافة النساء الحجاب على الأثقل ، ويتمثل فى جلباب فضفاض يخفى تفاصيل جسد المرأة علاوة على وضع غطاء على الرأس . وإذا ذهبت بعض النساء الى ما هو أبعد من ذلك بحيث يرتدين الخمار الذى يخفى كل شئ من جسدهن فهذا يكون أنضل .

وانتهزت الحكومة فرصة تواجد ذلك الجو الروحى الدينى الذى ساد خلال شهر رمضان ( الذى بدأ فى أواخر يونيو ١٩٨٠ ) فأصدرت قرارا فى ٥ يوليو ينص على أنه ينبغى على جميع السيدات العاملات فى الحكومة وغيرها من المكاتب العامة ارتداء الحجاب وفى خطبة الجمعة فى طهران قال حجة الاسلام على خمائنى : « ان الحجاب هو واجب اسلامى ينبغى أن تلتزم به كافة السيدات . وارتداء الحلى والزينة واللجوء الى تسريحات الشعر اللافتة للأنظار مع وضع المساحيق والمكياج هى تصرفات غير اسلامية » . وبعد مرور عام أصدر المجلس ( البرلمان ) قانون الزى الاسلامى : وينص هذا القانون على فرض الزى الاسلامى على جميع النساء فى ايران سواء كن مسلمات أو غير مسلمات . وانتهاك هذا القانون عقوبته الحبس لمدة سنة كحد أقصى .

وقبل قيام الثورة كان يوجد « قانون حماية الأسرة الصادر فى عام ١٩٦٧ » والذى استمر حتى ١٩٧٥ وقد نص هذا القانون على منع تعدد الزوجات مع اعطاء المرأة الحق فى البدء فى اتخاذ اجراءات الطلاق . ولكن عندما قامت الثورة اوقفت الحكومة العمل بهذا القانون لفترة معينة ثم أصدرت قرارا بالفائه نهائيا . ولكن تطبيق المرأة لزوجها قد اعيد مرة أخرى فى أواخر عام ١٩٨٣ . ثم صدر قرار بالغاء وسائل منع الحمل على أساس أنها غير اسلامية . كما كانت هناك مئات من حالات الجلد أمام الجماهير أو تنفيذ حكم الاعدام علنا تنفيذا للعقوبات التى نص عليها الاسلام لمن يرتكب جريمة الزنا .

كما نفذت أيضا عقوبة الاعدام وغيرها من العقوبات الأخرى كعقاب على ارتكاب جريمة الشذوذ الجنسي . وكانت كل تلك العقوبات متمشية مع الآيات القرآنية التي قدمت وصفا للعلاقات الجنسية المسموح بها ونصت على العقاب لمن ينتهك القوانين الإسلامية في هذا الصدد .

والعلاقات بين الرجال والنساء ينبغي أن تتوافق مع النصوص الوارد بالقرآن في هذا الشأن :

(( الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن وأهجروهن في المضاجع وأضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا )) سورة النساء آية رقم ٣٤ .

(( يوصيكم الله في أولادكم • للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس )) سورة النساء الآية ١١ .

(( وإن كانوا أخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم )) سورة النساء الآية رقم ١٧٦ .

(( واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا ياب الشهداء إذا ما دعوا )) سـور البقرة آية رقم ٢٨٢ .

وهناك اهتمام كبير منسب على النساء من حيث هن أمهات . وهذا يتلاءم مع الخطة بعيدة المدى للحكومة الإيرانية ألا هي تربية



جيل جديد من المسلمين الأنقياء من خلال تقديم أطفال حصلوا على تعليم اسلامى بالمدراس ونبعوا فى بيئة اسلامية فى بيوتهم ومنازلهم ملتفين حول الام المتميزة بالتواضع والحشمة فى سلوكها المخلصة لزوجها المرتدية دائما ملابس محتشمة امام الناس .

والمبادئ الاسلامية يتم تطبيقها أيضا بشكل متزايد على النواحي الاقتصادية فى الحياة . فالأموال التى يضعها المودعون فى البنوك لم تعد تخضع لمعدل فائدة ثابت حيث حل معدل الربح أو الخسارة من خلال معاملة المودعين كشركاء فى الأعمال المالية التجارية محل معدل الفائدة الثابت .

ومع ذلك فقد اتضح وجود بعض المشكلات الاقتصادية الصعبة . ومن بين هذه المشكلات مشكلة الإصلاح الزراعى (\*) . اذ نجد أن جهود حكومة موسوى الرامية الى تنفيذ اصلاح زراعى راديكالى قد واجهت معارضة من جانب « مجلس الأوصياء » . . وكان المجلس ( البرلمان ) قد وافق فى أواخر عام ١٩٨١ على مشروع قانون تضمن أمورا من بينها فرض حد أقصى على ملكية الأراضى بحيث يصبح الحد الأقصى متراوحا ما بين خمسة هكتارات وثلاثين هكتارا وفقا لنوعية الأرض وبعض الفصول الأخرى . ولكن قسم العلماء الدينيين فى مجلس الأوصياء أعلنوا أن مشروع القانون هذا يعتبر غير اسلامى . وعارضوا البند الوارد بهذا القانون الذى يخول للدولة أن تشتترى الأراضى الزائدة على الحد الأقصى . وقالوا أن هذا الاستيلاء الشامل على الأراضى الزائدة على الحد الأقصى يعنى أن الدولة سوف تشتترى

---

(\*) الإصلاح الزراعى : توزيع الأراضى الزراعية بموجب قانون حكوى  
توزيعا أكثر عدالة .

الأراضي التي حصل عليها فرد بطريقة شرعية . وهذا من شأنه أن يقوض حق الفرد في امتلاك الممتلكات والعقارات وهو حق لا ينتهك ونمقا لما هو وارد في نصوص القرآن الكريم . وكان رأى « مجلس الأوصياء » نهائيا ولا رجعة فيه . فبسبب هذا رأى الاحتياط لأولئك الذين كانوا متحمسين لفكرة إعادة توزيع الثروات تحت حماية ومظلة الاسلام ، وبالطبع رحب بذلك كبار ملاك الأراضي الذين كانوا يمتلكون ويديرون ممتلكات شاسعة كما رحب به أولئك التجار الذين كانوا قد اشتروا أراضي زراعية بهدف تدعيم وتعزيز وضعهم الاجتماعى . وعلى كل حال فان قرار « مجلس الأوصياء » لم يحدث تأثيرا على سياسة الحكومة الخاصة باستصلاح الأراضي البكر المملوكة للدولة بهدف تخصيصها وتوزيعها على الفلاحين المعدمين الذين لا يملكون أراضي على الإطلاق .

وبينما كانت هذه التغييرات تشق مجراها في الحياة الإيرانية فان جهودا أخرى كانت تبذل بشكل مستمر بهدف خلق جو اسلامى وبيئة اسلامية في الشارع وفي وسائل الاعلام الكبرى وفي جبهة القتال ومن بين هذه الوسائل كتابة الشعارات على الحوائط بالشوارع . وكان ذلك يتم على نطاق واسع في جميع المدن الكبرى والصغرى الإيرانية بمعرفة الشباب الخومينى الثورى المحلى من خلال قائمة شعارات حكومية طويلة . وكانت هناك ثلاثة أنواع من الشعارات : شعارات سياسية وشعارات دينية وشعارات المجهود الحربى . وكانت الشعارات السياسية تشجب أعداء الحكومة في داخل ايران وخارجها : الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى واسرائيل والمنافقين ( بمعنى مجاهدى خلق ) . أما الشعارات الدينية فتعبر عن الشكر والثناء والاحلال لشخصية دينية أو تقتبس آيات من القرآن الكريم أو تقتبس عبارات من أقوال الخومينى أو تشجب سلوكا معينا . ومن أمثلة الشعارات الدينية :

« الإمام الحسين شهيدنا الثالث هو الأنوار الأمامية فى سفينة انقاذنا » . وكانت شموعات حرب الخليج مليئة بالثقة مثل : « الحرب والحرب حتى النصر » أو « الاسلام هو الانتصار » .

وكانت أجهزة الاعلام الكبرى تساعد على خلق الجو الاسلامى والبيئة الاسلامية من خلال الاكثار من المناسبات الدينية الاسلامية المهمة على مدار السنة ناهيك عن اذاعة الصلاة اليومية عبر الراديو والتليفزيون . وبالإضافة الى شهر رمضان بأكمله توجد العشرة الأيام من شهر محرم والأيام الستة الخاصة بالحج ومولد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ومولد الأئمة الاثنى عشر علاوة على احتفالات عيد الفطر المبارك وعيد الأضحى المبارك . هذا بالإضافة الى أحداث الثورة الاسلامية : وتشمل : ١٠ أيام من الاحتفال بالثورة والاحتفال لمدة أسبوع بذكرى حرب الخليج والاحتفال بالأيام التى تم فيها انشاء الجمهورية الاسلامية والحرس الثورى الاسلامى وحملة التعمير وغير ذلك من مناسبات أخرى .

وأتاحت الفرصة للفرد المؤمن أن يدخل نفسه فى العملية الاسلامية من خلال الالتحاق بالجمعية الاسلامية الموجودة فى داخل المصلحة الحكومية التى يعمل بها أو الموجودة فى الحى السكنى الذى يسكن فيه . وكانت هذه الجمعيات الاسلامية تضطلع بمهام عديدة من بينها تحديد ومعرفة العناصر غير الاسلامية المتواجدة فى داخل المجتمع والمساعدة فى المجهود الحربى وتدعيم الثقافة الاسلامية وتشجيع الناخبين على المشاركة فى الانتخابات والاستفتاءات .

وكان العلماء الدينيون متواجدين فى مقدمة كل هذه الأنشطة . وكانت أعدادهم قد تزايدت كثيرا عن ذى قبل . اذ تشير التقديرات

الى أن عددهم يتراوح من ٩٠ ألفا الى ١٢٠ ألفا عالم . هذا بالإضافة الى أنه توجد أعداد غير محصورة من الوعاظ والأئمة ومدرسي الدين الاسلامي بالمدارس ومنظمي المواكب الدينية في جميع أنحاء القرى . وعلاوة على الكليات الدينية المتواجدة في مدن قم ومشهد وتبريز وأصفهان وشيراز و Yazd فقد أنشئت أيضا في عام ١٩٨٣ جامعة الامام صادق الدينية في مدينة طهران . وقد تزايدت أعداد الطلبة الدينيين الى ثلاثة أضعاف العدد السابق الذي كان في فترة ما قبل الثورة والذي كان في حدود ١٠ آلاف طالب .

كما وصلت أعداد المساجد الى ٢٢ ألف مسجد في عام ١٩٨١ مع تضاعف عدد المساجد بالمدن عما كان عليه في فترة ما قبل الثورة والتي كان يوجد خلالها ٥٦٠٠ مسجد فقط . وبالإضافة الى ممارسة الأنشطة الدينية بالمساجد فانها أصبحت مراكز لتوزيع الطعام والوقود ومخازن تعاونية للمستهلكين ومراكز التطوع من أجل الالتحاق بفيلق الحرس الثوري الاسلامي وغيره من المنظمات الاسلامية الأخرى ومراكز لجمع التبرعات من أجل المجهود الحربي ومراكز لتعليم اللغة العربية وتقديم سلف وقروض بدون فوائد للمحتاجين . وفي أوقات الانتخابات كانت المساجد تستخدم عادة كجان انتخابية .

واقترء بالنبى محمد أنشأ الخومينى محل إقامته ومكاتبه الادارية بجوار مسجد في جمران Jamran وهى حى سكنى يقع في شمال طهران العاصمة . ومن حيث هو « المرجع الأقصى » فانه كان يتربع على قمة الشبكة الدينية التى يكون فيها قائد الصلاة المحلى في يوم الجمعة شخصية رئيسية مهمة . وفي كل يوم الجمعة يقوم رجل الدين هذا بالقاء خطبة الجمعة الرئيسية التى

تتناول ليس فقط الموضوعات الدينية ولكن أيضا المسائل السياسية والاجتماعية . وهو يساند بالدرجة الاولى القرارات الرسمية ويحفز الراى العام لى يؤيد الحكومة الاسلامية . كما تذاع بعض المقتطفات المهمة من خطبة يوم الجمعة عبر شاشات التلفزيون الوطنى . ووفقا لتوجيهات الخومينى واشرائه أصبحت لخطبة الجمعة أهمية سياسية بالغة . كما أن الخومينى الذى له سلطة تعيين أو فصل الخطيب الذى يلقي خطبة الجمعة كان يتلقى تقارير دورية من هؤلاء الوعاظ عن الحالة النفسية السائدة فى المدن الكبيرة أو الصغيرة التى يعيشون فيها .

والخومينى من حيث هو « المرجع المطلق » يصدر من وقت لآخر أحكاما دينية فى الموضوعات التى تكون لها أهمية كبيرة . وهو أيضا يشرف على تقديم الرعاية الدينية للمؤمنين . مثال ذلك أنه أصدر تعليماته « للجنة الحج » فى عام ١٩٨٣ لى تقدم أموالا للمسلمين الفقراء الذين يرغبون فى الحج ولا يملكون الأموال اللازمة لتغطية نفقات الرحلة الى مكة المكرمة والمدينة المنورة . ومنذ تفجر الثورة الاسلامية ارتفع عدد الحجاج بشكل كبير . فى عام ١٩٨٤ وصل عدد الحجاج الى حوالى ١٥٠ ألف حاج فى مقابل ٦٩٢٣٩ منذ ثمانى سنوات .

وعملية الأسلمة ( اضعاء الطابع الاسلامى ) هذه وازدهار المنظمات الاسلامية قد أحدث تأثيرا عظيما على حياة جميع الايرانيين . اذ أصبح معظمهم يؤيدون فى حماسة ذلك التفسير الاسلامى الذى اصطبغت به الحياة . أما الاقلية التى تتألف أساسا من الطبقات الاجتماعية فوق المتوسطة والعليا فكانوا يبدون تذمرهم من القيم الاسلامية والسلوك الاسلامى وتشير التقديرات الى أن هذه الاقلية تشمل حوالى نصف مليون أسرة . وهم على علاقة

مستقرة مع حوالي ١ ١/٢ مليون إيراني يعيشون بصفة دائمة في الغرب . وهم قد فضلوا البقاء في إيران ليس بسبب انهم متعاطفون مع الثورة الاسلامية ولكن لانهم يرغبون في حماية ممتلكاتهم وعقاراتهم المالية الثمن . فمادام يوجد في إيران أخ أو أخت أو ابن أو ابنة فان ممتلكات الأسرة كلها تكون في مأمن وبعبدة عن التهديد بمصادرتها .

وعقب الفترات الأولى من تفجر الثورة الاسلامية قررت الحكومة عدم الاستثمار في ممارسة الضغوط على الأغنياء العلمانيين لأسباب عديدة . منها أنهم قد حرموا من الاستمتاع بالسلطة السياسية التي كانوا يتمتعون بها أثناء العهد البهلوي وتقبلوا الى حد ما أقدارهم ومصائرهم التي تغيرت . وأية ضغوط شديدة تمارس عليهم من شأنها أن تبطل مفعول الجهود الحكومية الرامية الى اجتذاب الإيرانيين المهرة المدربين الذين يعيشون بالخارج . هذا بالإضافة الى أن الحكومة الثورية الإيرانية كانت واثقة من أنها من خلال ادخالها للتعليم الاسلامي قد بذرت بذورا من شأنها أن تحدث صراعا بين أطفال المدارس وآبائهم غير الاسلاميين . ومن ثم فقد كان الزمن أو المستقبل في غير صالح أولئك الذين يرفضون الخضوع للطابع الاسلامي .

وعلى نحو مؤقت وجدت الطبقات الاجتماعية فوق المتوسطة من الأمور ما يجعلها تشعمر بالاغتراب والابتعاد عن الحكومة الثورية : مثل القيود المفروضة على زى النساء بالشوارع ومثل كمية الدعاية الهائلة التي تبثها الصحافة والإذاعة والتلفزيون ومثل الحظر المفروض بشكل مستمر على الموسيقى والرقص في الأماكن العامة علاوة على عدم توافر المطاعم الفاخرة وأماكن اللهو الممتازة بالإضافة الى خوفهم المستمر من الانتقام منهم اذا عبروا

عن استيلائهم بصوت مسموع . وفى نفس الوقت منهم أغفلوا حقيقة مهمة وجوهرية : وهى أن الحكومة الإسلامية تساند حق الملكية على أساس أنه حق لا يمكن انتهاكه على الإطلاق . وكان ذلك يعنى أن الأغنياء لهم مطلق الحرية فى تأجير الشقق والمنازل وشراء وبيع الممتلكات والحصول على الأرباح التى تنجم عن الاستثمارات والودائع بالبنوك .

واتخذت الحكومة التدابير التى تضمن انتقال السلطة فى سلاسة وهدوء فى حالة وفاة الخومينى . وفى نوفمبر ١٩٨٥ أصدر « مجلس الخبراء » قرارا بأغلبية ساحقة ينص على الآتى : « ان آية الله حسين على منتظرى مقبول لدى الأغلبية العظمى من الناس لكى يصبح هو زعيم الأمة مستقبلا عقب وفاة الخومينى » . ومن بين العوامل التى ساعدت على اختيار منتظرى لكى يشغل أعلى منصب فى البلاد هو أنه كان يعارض شاه ايران معارضة عنيفة وقوية وعانى من السجن والتعذيب وهو أمر لم يكابده شخصيات أخرى من كبار رجال الدين مثل آية الله مراشى نجفى . Marashi-Najafi وآية الله جلبيجانى Golpaygani . لقد ولد منتظرى فى عام ١٩٢١ . وهو أصغر فى السن من الخومينى بـ ١٩ عاما . وكان تلميذا للهومينى فى مدينة قم وكانت قد بدأت حملة فى ربيع عام ١٩٨٢ تهدف الى تعميق شعبية منتظرى فى قلوب الناس . وفى خلال عام واحد بدأ وجهه يظهر مرارا وتكرارا على شاشات التلفزيون مثلما يظهر وجه الخومينى . وفى جميع الدواوين والمصالح الحكومية أصبحت صور منتظرى توضع الى جوار صورة الخومينى . اذ كان القادة الايرانيون يرغبون فى حسم مسألة الخلافة أثناء تواجد الخومينى على قيد الحياة بهدف ضمان الحصول على تأييد ومباركة الخومينى على ذلك الترشيح مما يسد الطريق أمام ظهور خلافات فى رأى لها طابع التدمير .

عقب وفاة الخوميني . وفى نوفمبر ١٩٨٥ نجد أن قرار « لجنة الخبراء » قد نظر اليه على أنه خطوة مهمة للغاية نحو ترسيخ أقدام الحكومة الاسلامية . ومنذ أكتوبر ١٩٨١ كانت الدولة تحكم بمعرفة نفس القادة الكبار : خمائني رئيسا للجمهورية وموسوى رئيسا للوزراء وهاشمى رفسنجاني المتحدث الرسمى باسم البرلمان ، مما أدى الى تدعيم الاحساس بالاستقرار والاستمرارية والنظام بين رجل الشارع الايراني .

وقد أظهرت الحكومة الايرانية الاسلامية دلائل تشير الى رغبتها فى توليد علاقاتها مع دول الخليج المجاورة باستثناء العراق فقط .

### السياسة الخارجية للثورة الايرانية الاسلامية :

ان سياسة ايران الخارجية تسير وفق المبادئ الواردة فى ثلاثة مواد بالدستور . اذ تنص احدى هذه المواد الثلاثة وهى المادة رقم ١٠ على أن « جميع المسلمين يشكلون أمة واحدة » وذلك وفقا للآية القرآنية : ( ان هذه أممكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ) سورة الانبياء الآية رقم ٩٢ .

وحكومة جمهورية ايران الاسلامية تدرك أن من الواجب عليها أن تشكل سياساتها العامة على نحو يضمن تحقيق ادماج واتحاد كافة الشعوب المسلمة . ومن ثم ينبغى على الحكومة الايرانية أن تناضل وتكافح باستمرار من أجل أن تخلق وحدة سياسية واقتصادية وثقافية للعالم الاسلامى . أما المادة رقم



١٥٢ نهى أكثر تحديدا حيث تشير الى أن السياسة الخارجية للجمهورية ايران الاسلامية ترتكز على « الدفاع عن حقوق جميع المسلمين مع الالتزام بعدم الانحياز فيما يتعلق بالدول العظمى المهيمنة والمسيطرة على دول أخرى » . أما المادة رقم ١٥٤ فهي تتناول الالتزام المقدس بضرورة تصدير الثورة. اذ تنص هذه المادة على أن « جمهورية ايران الاسلامية ترى أن تحقيق الاستقلال والحرية والحكم العادل هو حق لكافة شعوب العالم . ومن ثم فان جمهورية ايران الاسلامية تقوم بحماية الكفاح العادل الذى يقوم به المحرومون والمظلومون فى كل ركن من أركان الكرة الأرضية » .

وقبل نشر وإذاعة الدستور بشهور عديدة كانت حكومة الخومينى قد أعلنت أن من واجبه الاسلامى المقدس أن « تعمل على تدعيم ومساندة حركات التحرر الوطنية التى تقوم بها الشعوب المحرومة فى أى مكان فى العالم » ، وقد أوضح ابراهيم يزدى Yazdi وزير خارجية ايران فى يوليو ١٩٧٩ « أن حركات التحرر هذه قد نبعت من ظروف داخلية وطبيعية وهى قد أرادت فقط الاستفادة من تجربة ايران فى مجال التحرر الوطنى والحصول على القوة من خلال التأييد الايرانى لها » .

وبعدئذ لدى تزايد المحاولات الرامية الى الاطاحة بالحكومة الخومينية التى تقوم بها قوى فى داخل ايران وخارجها أقر القادة الايرانيون بأن الآراء المتعلقة بتصدير الثورة الايرانية لم تكن مجرد أفكار أيديولوجية وانما كانت متسمة بالطابع البراجماتيقى العلى : اذ كان ذلك بمثابة وسيلة فعالة للدفاع عن الثورة من خلال اتخاذ موقف هجومى ومد تأثيرات الثورة الى خارج ايران . وقد أوضح الرئيس خمائنى هذه النقطة فى شهر نوفمبر ١٩٨٣ حيث قال :

« لو ظلت الثورة محصورة فى داخل نطاق الحدود الايرانية فانها سوف تتعرض للسقوط تحت ضغط هجوم الأعداء » .

ولكن كانت هناك أضرار واضحة تنجم عن اتباع هذا الأسلوب . فالجهود الايرانية الرامية الى تدعيم أى منظمة ثورية فى دولة أجنبية كانت تفسد العلاقات بين حكومة تلك الدولة وطهران مما زاد من عزلة ايران فى المجتمع الدولى . ومن ثم فان هذا الأسلوب لم يرحب به موظفو وزارة الخارجية برئاسة على أكبر ولاياتى وهو معتدل نسبيا اعتبارا من نوفمبر ١٩٨٠ فصاعدا .

وتم حسم هذا الصراع من خلال انشاء ادارة مستقلة فى داخل وزارة الخارجية تكون مهمتها التعامل مع حركات التحرر الوطنى . وبعدئذ أوكلت هذه المهام لهيئة مستقلة تماما من وزارة الخارجية تسمى . . المنظمة العالمية لحركات التحرير الاسلامية » . وكان مقر هذه المنظمة فى مدينة قم Qom وكانت تعمل تحت رئاسة آية الله منتظرى . ومن بين الأعضاء البارزين المنتسبين لهذه المنظمة : حزب الدعوة الاسلامية الذى له نشاط ملحوظ فى العراق والكويت وجبهة التحرير الاسلامى بالبحرين والمنظمة الثورية الاسلامية لشعب الجزيرة العربية المتمركزة فى داخل العربية السعودية وحزب الله ومنظمة أهل الاسلام فى لبنان ، وجيش الحراس ومنظمة النصر فى أفغانستان .

ووجدت الأحزاب الثورية الاسلامية المتواجدة فى دول الخليج نفسها فى حالة من التوافق مع أفكار الخمينى وأعماله . ووافقوا على تفسيره للقرآن الخاص بأن السلطة الوراثية هى أمر لا يجيزه الاسلام ولا يقره . كما أنهم وافقوا على شجبه لحكام الخليج من حيث هم رجال فاسدون يتبنون ما يسميه الخمينى « بالاسلام الأمريكى » أو « اسلام الذهب » . وكان الخمينى ينتقد فى قسوة

سيلاستهم الرامية الى استنزاف ،وارد البترول الغالية الخاصة  
ببلادهم من أجل تلبية المطالب الأمريكية الآخذة فى التمسيد والتزايد  
باستمرار ، وكان يصنف أمريكا دائما بأنها بشاية الشيطان الأعظم  
والمصدر الرئيسى للفساد على وجه الكرة الأرضية . وكان  
الخمينى يشجبهم ويستنكرهم لأنهم يحرمون رعاياهم من القيام  
بأى دور فى عمليات صنع القرار فى الدولة . وكان لخطى نلام  
برلمانى فى ايران أثر كبير فى جعل النظام الجمهورى جذابا من  
وجهة نظر الكثيرين الذين يعيشون فى دول الخليج التى تتبع  
النظام الملكى .

وكانت رسالة الخمينى جذابة بصفة خاصة من وجهة نظر  
جماهير الناس الشيعة والعلماء الشيعة فى دول الخليج . وقد  
جعل هذا البحرين أكثر الدول تعرضا للفران الثورى . فرغم أن  
الشيعة بالبحرين يشكلون ٦٠٪ من السكان البالغ عددهم  
الاجمالى ٤٠٠ ألف نسمة فان أسرة خليفة السنية هى التى  
تحكم البلاد منذ عام ١٩٨٣ . وكان حاكم البحرين الحالى الشيخ  
عيسى بن سلمان آل خليفة قد حل الجمعية الوطنية المنتخبة وعلق  
العمل بالدستور فى أغسطس ١٩٧٥ وأطاح بكل أفراد المعارضة .  
عقمت الثورة الايرانية فى أوائل عام ١٩٧٩ بمساندة وتدعيم  
المعارضة فى البحرين . ونظرا لأن الحاكم بالبحرين كان يدرك  
مدى الشعبية الكبيرة التى يتمتع بها الخمينى والثورة الاسلامية  
الايرانية بين الشيعة الذين يشكلون غالبية واكثرية بين السكان  
فانه فرض حظرا على كافة الأنباء التى تتعلق بالخمينى أو الثورة  
الايرانية . وقامت قوات الأمن بغض مظاهرة أقيمت فى ذكرى يوم  
القدس ( ١٥ مايو ) مع القاء القبض على ٩٠٠ من المتظاهرين .  
وفى شجاعة باسلة قام أربعون من كبار علماء الدين باصدار

دستور يضم ١٢ بندا يطالبون فيه بأمر كثيرة من بينها إقامة جمهورية إسلامية في البحرين . فما كان من الحاكم إلا أن قام بقمع المظاهرات التي نظمها الطلبة وآخرون تأييدا لذلك الدستور علاوة على طرد السيد هادي المدرسي وهو أحد زعماء الشيعة البارزين .

ومع احتجاز الرهائن الأمريكيين في طهران في نوفمبر ١٩٧٩ تزايد التوتر السياسي بالمنطقة . فعقد وزراء الاعلام لدول الخليج اجتماعا في الرياض وقرروا السير في خط اعلامي موحد فيما يتعلق بالثورة الإيرانية مع التركيز على « التقليل من أهمية الأنباء الواردة من طهران والتقليل من شأن الثورة الإيرانية ووصفها بأنها ليست ثورة إسلامية شاملة وإنما هي مجرد ثورة شيعية محضة لا أكثر ولا أقل . ثم بعدئذ التقليل أكثر من أهميتها ووصفها بأنها ثورة مقصورة على الشيعة في إيران فقط » .

والجدير بالذكر أن العربية السعودية كانت هي المحرك الرئيسي في الدعوة إلى هذا المؤتمر وصياغة التوصيات الصادرة عنه . إذ كانت قد شهدت توا مظاهرات لصالح الخوميني وتجردات من جانب المواطنين الشيعة السعوديين المقيمين في إقليم الحساء Hasa المنفى بالبترول ناهيك عن الاستيلاء على المسجد الحرام بمكة بمعرفة أصوليين عسكريين . وقد جعل هذا القادة السعوديين متيقظين للغاية من الناحية الأمنية مما دفعهم إلى السعي إلى إبرام اتفاقيات أمن داخلية مع الكويت والبحرين وقطر ودولة الامارات العربية المتحدة وعمان . وقد اتخذ هذا الموضوع أهمية خاصة لدى تفجر حرب الخليج في سبتمبر ١٩٨٠ . وقد نصحت بريطانيا وفرنسا السعوديين بخلق كيان يتخطى الحدود القومية ويتألف من دول الخليج ويقوم هذا الكيان بمناشدة

الغرب من أجل مساعدته عسكريا فى حالة وقوع أى تهديدات خطيرة نابعة من الداخل أو الخارج ضد دولة أو أكثر من الاعضاء فى هذا الكيان . وهكذا نرى أنه فى أعقاب نشوب الثورة الايرانية وحرب الخليج بزغ الى الوجود « مجلس التعاون الخليجى GCC » فى مايو ١٩٨١ بهدف تنسيق الأمن الداخلى وجلب الأسلحة والاقتصاد الوطنى للدول الأعضاء الستة بالمجلس وهى : العربية السعودية والكويت والبحرين وقطر ودولة الامارات العربية المتحدة وعمان .

وبلغت المشاعر المناهضة لايران قممها بالمنطقة فى يناير ١٩٨٢ عندما ألقت حكومة البحرين القبض على ٦٠ شخصا اتهموا بالتآمر لقلب نظام الحكم . وأدعت حكومة البحرين أن هؤلاء المتمردين كانوا قد تلقوا تدريبات عسكرية على ايدى السيد هادى المدرسى الذى استقر به المقام فى ايران عقب طرده من البحرين بسببب تزعمه لجبهة التحرير الاسلامية للبحرين . وقال رئيس الوزراء البحرينى : « ان الحكومة الايرانية تقوم باثارة وتحريض الشيعة بالبحرين والخليج وتبث فيهم شعارات ثورية اسلامية . . بل تدريبهم على استخدام الأسلحة وأعمال التخريب ثم ترسلهم الى بلادهم الاصلية لى ييئثوا الفوضى ويدمروا الأمن والنظام » . وسارع الأمير نايف وزير الداخلية السعودى بالذهاب الى المنامة عاصمة البحرين وعرض على السلطات فى البحرين امدادها بقوات سعودية . وقال : « ان خطة التخريب هى من تدبير الحكومة الايرانية وهى كانت موجهة ضد العربية السعودية » . وكان من الواضح أن ملوك الخليج بدأوا يقتربون أكثر من بعضهم البعض لمواجهة التدمير الذى تبثه وتشجع عليه القيادة الثورية الايرانية وذلك بهدف الحفاظ على حكمهم الفاشستى الاستبدادى . كما كانوا يدركون أيضا أن أية دلائل تشير الى موافقتهم على اشراك

رعاياهم فى الحكم سينظر اليها على أنها دليل على ضعف موقفهم ولذلك أصروا على مداومة احتكار السلطة والافراد بها وعدم اشراك شعوبهم فى الحكم .

ومع ذلك كان ينبغى عليهم أن يضعوا فى الاعتبار توازن القوى فى المنطقة : وكان ذلك أمر يتوقف على تطورات أحداث الحرب الإيرانية العراقية . وعندما بدأت ايران تحرز انتصارات عسكرية على جبهة القتال فى ربيع عام ١٩٨٢ أخذ أعضاء مجلس التعاون الخليجى GCC يهتمون كثيراً بالأقوال أو الأفعال التى تصدر عن طهران . وكان الهدف الرئيسى الذى تسعى اليه الجمهورية الاسلامية الإيرانية هو ابعاد ملوك الخليج عن المعسكر الأمريكى بحيث يتوقفون عن الرضاة من ثدى المعسكر الأمريكى . ووجه الخومينى نداء لدول الخليج لى تتوقف عن طاعتها العمياء للفاشين النهائيين الأمريكان وغيرهم من الهباشين الدوليين الذين ينبهون الثروات فى ضراوة ووحشية . وقال فى خطاب موجه لشعب الخليج : « ان حكومة وشعب ايران يرغبون فى تحريركم من هذا العبء المخزى الذى يثقل كاهلكم بسبب وقوعكم تحت نفوذ وسيطرة الدول الكبرى . وهذه الدول الكبرى تريد أن تخرج بالقوة الذهب الأسود ( البترول ) من أفواهكم » .

وبسبب الخوف من احراز انتصارات أخرى إيرانية فى الحرب وما يترتب على ذلك من نتائج ضارة بالنسبة لاستقرار حكوماتهم سارع وزراء مجلس التعاون الخليجى الى عقد اجتماع بالرياض فى ٢ يونيو ١٨٨٢ أسفر عن طرح خطة سلام : وقف لإطلاق النار على الفور وانسحاب الطرفين المتحاربين الى حدود معاهدة ١٩٧٥ ودخول المتحاربين فى مفاوضات تهدف الى حل المشاكل الرئيسية وانشاء « صندوق الخليج لاعادة التعمير »

بمحوال من دول مجلس التعاون الخليجي بهدف تعويض كل من ايران والعراق عن الخسائر المادية التي لحقت بهما من جراء الحرب . الا ان هذا الجهد قد ضاع هباء وسدى مع الغزو الاسرائيلى للبنان بعد مرور ايام قليلة .

وتسبب تقدم ايران فى داخل اراضى العراق فى شهر يوليو علاوة على تهديدات ايران بغلق مضيق هرمز فى خلال الشهر التالى فى شعور دول مجلس التعاون الخليجي بالهم والقلق والاحباط الشديد . وفى سبتمبر تبنت الجامعة العربية التى تضم ٢٢ دولة عربية خطة السلام التى سبق أن عرضها مجلس التعاون الخليجي ولكن طهران رفضت خطة السلام هذه واستمرت فى حربها ضد العراق التى كانت آنئذ تحصل على مساعدات مالية من السعودية والكويت . وظل الخومينى يوجه نداءات لدول الخليج باسم الاسلام والعقيدة الاسلامية اذ قال فى مقابلة أجريت معه وأذيعت فى راديو طهران من اذاعة راديو الخليج الموجهة من ايران لدول الخليج فى يونيو ١٩٨٣ : « ان ايران الاسلامية على استعداد لتقديم يد العون والمساعدة لدول المنطقة لتحريرها وانقاذها من القوى الاجنبية . ونحن نؤمن بأن الدول الكبرى بقيادة الولايات المتحدة الامريكية تحاول منع قيام أى وحدة بين الدول الاسلامية وخاصة فى منطقة الخليج التى تعتبر منطقة مهمة وحساسة فى العالم » .

ولكن أسباب التصدع الذى يحدث بين صفوف المسلمين فى الخليج وفى غيره من الأماكن الأخرى بالعالم يرجع الى التصرفات والأعمال التى تقوم بها طهران وذلك من وجهة نظر الحكومة السعودية ووسائل الاعلام السعودية . اذ أثارت جريدة « المدينة » اليومية السعودية فى يوليو « الى أن هذه الحكومة

الايروانية قد حاولت بث المذهب الشيعى بين المسلمين ليس فقط من خلال سياساتهم ولكن أيضا من خلال مساجدهم . والحكومة الايروانية الخومينية تبعت بعملاء لها فى كل مكان بهدف اثاره الفوضى والاضراب » .

وهنا نجد أمانا دولتين أصوليتين تستقى كل منهما مفاهيمها من نفس الكتب الاسلاميه المقدسة وتؤسس كل منهما شرعيتها على الاسلام وتتبادلان النقد الساخر العنيف ، اذ تتهم الدولة الأحدث وهى ايران الدولة الأقدم ( السعوديه ) بالانحراف عن العقيدة الاسلاميه بينما الدولة الأقدم تتهم ايران الثورية بمحاولة خلق الفوضى فى داخل الدول الاسلاميه تحت ادعاء تدعيم قضية الاسلام .

ولدى دخول حرب الخليج عامها الرابع فى أواخر سبتمبر ١٩٨٣ أعلن راديو الرياض أن تدريبات حربية مشتركة لدول مجلس التعاون الخليجى مستتم فى صحراء دولة الامارات العربيه المتحدة فى أوائل أكتوبر وهو إجراء ضرورى نابع عن « الأحداث المعقدة المثيرة للقلق الناجمة عن الحرب العراقية الايروانية وعن الموقف فى لبنان » . وقد أشارت التقارير فى كل مكان الى أن القوات المشاركة فى التدريبات العسكرية ستكون بمثابة نواة « لقوة العمل السريع العسكرى لمجلس التعاون الخليجى » . وتسأل راديو طهران فى اذاعته الموجهة باللغة العربيه وذلك فى ٩/٢٦/ ١٩٨٣ « ومن الذى سيواجه قوة العمل السريع العسكرى لمجلس التعاون الخليجى ؟ » وأضاف الراديو « تماما مثلما أن تشكيل مجلس التعاون الخليجى كان يقصد به مواجهة المد الاسلامى فإن هذه المناورات تتم أيضا لنفس الهدف » .

ولكن ترد ايران على ذلك بأنها لم يكن أمامها سوى اللجوء الى زيادة تدعيمها لحركات التحرر الاسلاميه فى دول مجلس التعاون



الخليجي . وعلى كل حال كانت هناك تقارير تصدر من وقت لآخر تتعلق بنزول بعض العملاء الايرانيين على شواطئ البحرين والكويت سرا حيث يوجد بهما ٣٠٪ من السكان من الشيعة والعدد الاجمالي للسكان بهما ٧٠٠ ألف نسمة . وتعتقد الاغلبية السنية التي تعيش في الكويت أن كلمة الشيعة أصبحت مرادفة لكلمة ايران : فكلتا الكلمتين تنطويان على الخطورة وعدم الاستقرار . وقد أشار وزير كويتي في أواخر ديسمبر « الى أن الثورة الايرانية لا يبدو أنها تتقبل شرعية نظام حكومتنا . فالثورة الايرانية تصدر المذهب الشيعي تحت ستار البان - اسلام Pan-Islam » وبدأت الحكومة الكويتية تطرد الشيعة الذين يعملون في المراكز المهمة والحساسة بالشرطة والجيش .

وفي ١٢ ديسمبر انفجرت قنابل في سفارة أمريكا وسفارة فرنسا وفي مبنى سكني يضم خبراء الصواريخ الأمريكيين وفي مطار الكويت . فقامت الحكومة الكويتية بالقبض على ١٨ من المقيمين بالكويت ممن يحملون جنسيات عراقية ولبنانية . وأشارت التقارير الى أنهم ينتمون « لمنظمة الدعوة » العراقية وهي المنظمة التي لها روابط وعلاقات بـ « المنظمة العالمية لحركات التحرير الاسلامية » التي تتخذ من مدينة قم Qom مقرا لها . وافترضت العراق أن هذه الانفجارات قد تمت بناء على أوامر صادرة عن الحكومة الايرانية ومن ثم قامت بضرب خمس مدن ايرانية بصواريخ أرض/أرض . الا أن هذا الهجوم الصاروخي زاد من تصميم ايران على مواصلة الكفاح المسلح .

ونظرا لأن ايران لم تظهر أية دلائل تشير الى موافقتها الى وقف الحرب فان العواصم الخليجية بدأ تبوح بالزيد من الرعب والخوف اليأس . كما أن استيلاء ايران على جزر مجنون

Majnoon العراقية الخفية بالبتزول في خلال هجومها الشامل الذي شنته في فبراير ١٩٨٤ قد جعل أعضاء مجلس التعاون الخليجي يدركون أن الوقت ليس في صالح العراق . وعقد وزراء مجلس التعاون الخليجي اجتماعا في الرياض في منتصف مارس وبذلوا محاولة أخرى ترمي الى التدخل والوساطة لانهاء الصراع المحتدم بين ايران والعراق . ولكن محاولاتهم باءت بالفشل شأنها شأن المحاولة السابقة .

وعلى طول تلك الفترة ظلت خطوط الاتصالات مفتوحة بين طهران والرياض . والسبب الرئيسي في ذلك هو أن العربية السعودية كانت ملتزمة بالسماح للحجاج الايرانيين بالمجيء الى السعودية لتأدية فريضة الحج في كل عام . وكانت هناك خلافات في الرأي بين الرياض وطهران فيما يتعلق بحق الحجاج في الصياح بشعارات لصالح الوحدة الاسلامية وضد أعداء الاسلام : أمريكا والاتحاد السوفيتي واسرائيل حيث كانت الرياض تصر على أن استخدام الحج في أغراض سياسية يتعارض مع تعليمات النبي محمد للمسلمين بأن يحجموا عن الأخلاق السيئة والعنف أثناء تأدية فريضة الحج المقدسة . وبعد مناقشات حامية ومطولة وبعد تسبب حالات من العنف بين الحجاج الايرانيين وقوات الأمن السعودية تم تسوية الموقف في عام ١٩٨٣ عندما سمحت الرياض للحجاج الايرانيين بحمل شعارات ضد أعداء الاسلام في أياديهم معينة في داخل مكة والمدينة المنورة . وبعد أن قدم السعوديون هذا التنازل ظنوا أن الفرصة قد أصبحت سانحة وملائمة لتحسين العلاقات مع طهران . وفي منتصف يوليو قام مكتب الحج السعودي بتوجيه الدعوة لهاشمي رفسنجاني لأداء فريضة الحج في شهر سبتمبر المقبل . فوافق الزعيم الايراني على هذه الدعوة . وعلق قائلا : « قد تكون مثل هذه الرحلات مفيدة ومثمرة » .

وبعد أسابيع قليلة أعلن الخميني عن شعوره بالحزن والاحباط بسبب العزلة الشديدة التي تعيش فيها ايران . وقال :  
« لم يعد لدينا سوى عدد قليل من الأصدقاء لا يزيد عددهم على عدد أصابع اليد الواحدة » وبعد شهرين أعلن أن عدم تكوين علاقات مع معظم الدول « يعتبر أمرا متعارضا مع المنطق والعقل والشريعة الاسلامية » .

ويبدو أن الخميني قد أدرك أن ايران بحاجة الى توجيه كل طاقاتها من أجل هدف واحد الا وهو الاطاحة بالرئيس العراقي صدام حسين وبالتالي ينبغي عليها فض النزاعات بين ايران ودول الخليج . ومن العوامل الأخرى التي دفعت الخميني الى اتخاذ موقف براجماتيقى عملى هو أن الحكومة الايرانية بدأت تدرك أن هناك ميزة كبيرة فى تخفيف التصلب والعناد فى جبهة القتال مع اللجوء الى المرونة فى العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع جيران ايران .

هذا بالاضافة الى ظهور فتور فى الحماسة الثورية فى ايران بينما ثقة حكام الخليج فى استمرار أسرههم الملكية الحاكمة فى حكم البلاد والتي كانت قد اهتزت كثيرا فى خلال الفترات الأولى من الثورة الايرانية قد تم احيائها ودب فيها العزم والقوة . هذا علاوة على أن ملوك الخليج بعد أن نجوا من العاصفة التى اكتنفت الفكر الجمهورى الاسلامى بدأوا يشعرون بالأمن بعض الشيء . وأصبحوا يميلون الى تطبيع العلاقات مع طهران . بالاضافة الى أن ملوك الخليج شعروا بالارتياح الكبير عندما لم يتحقق ذلك الكابوس الرهيب الخاص باغلاق مضائق هرمز . والأكثر أهمية من ذلك أنهم اعتقدوا أن خليج هرمز لن يغلق على الاطلاق . حيث بدا عليهم أنهم يثقون فى ايران وبصدقون كلامها عندما قالت أنها ترغب فى استمرار فتح هذا الممر المائى المهم .

وكانت تلك هي الخلفية التي شجعت وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل على زيارة طهران في مايو ١٩٨٥ ومقابلة الرئيس خمائني . ورغم أن مساعيه الرامية الى وقف اطلاق النار في حرب الخليج خلال شهر رمضان لم تنجح فان مبادرته قد رسخت الحوار على أعلى المستويات .

وفي ديسمبر ١٩٨٥ قام ولاياتي وزير الخارجية الإيراني بزيارة السعودية ردا على الزيارة التي قام بها سعود الفيصل لطهران . وتقابل في الرياض مع سعود الفيصل وزير الخارجية السعودي كما تقابل مع الملك فهد . وطبقا لما أوردته وكالة الأنباء الإيرانية الإسلامية فان الملك فهد أشار الى أن بلاده تحترم الأمة الإيرانية وزعماءها وقادتها كما أشار الى أن الحكومة السابقة ( حكومة شاه ايران ) كان تهمل النواحي الإسلامية . وأوضح الملك فهد أهمية تحقيق الوحدة بين المسلمين وأشار الى أن ايران والسعودية يمكن لهما أن تلعبا دورا مهما للغاية في مجال تدعيم الوحدة الإسلامية . ثم ألقى ولاياتي وزير الخارجية الإيراني كلمة أوضح فيها أن التعايش السلمي مع الجيران هو من المبادئ البالغة الأهمية في السياسة الخارجية الإيرانية . وبعدئذ وقفت ايران والسعودية الاذاعات المعادية بينهما التي كانت تبث عبر الراديو في كلتا الدولتين مما أدى الى المزيد في التحسن في العلاقات بين الدولتين .

وبدأت ايران في تحسين علاقاتها مع جميع دول الخليج باستثناء الكويت . بل ان علاقات طهران مع الكويت ازدادت سوءا ومرارا في مايو ١٩٨٥ عندما قامت مجموعة من الأصوليين الاسلاميين الذين هم من أصل لبناني وعراقي بمحاولة فاشلة لاغتيال الحاكم الكويتي . وانكرت ايران تورطها في هذا الحادث

ومع ذلك أصبح الإيرانيون المقيمون بالكويت هدفا رئيسا حيث دأبت الحكومة الكويتية على ترحيلهم من الكويت .

وشنت إيران هجوما ناجحا في فبراير ١٩٨٦ على شسبه جزيرة الفاو Fao التابعة للعراق والواقعة في أقصى الجنوب من العراق فآثار ذلك القلق الشديد لدى الكويتيين . وشجبت الكويت الهجوم الإيراني ووضعت قواتها في حالة من الاستنفار والطوارئ القصوى وراحت تزيد من تقوية علاقاتها مع العراق .

وبينما كان الإيرانيون يستعدون للاحتفال بالعيد السابع لقيام الجمهورية الإسلامية في أول أبريل ١٩٨٦ وجه الخميني نداء قويا من أجل حشد وتعبئة كافة الرجال القادرين على القتال بهدف الاستمرار في القتال والحرب الى أن يتم إسقاط صدام حسين . وقال الرئيس موسوي أن أمريكا هي العدو الرئيسي لإيران ووصفها بأنها الشيطان الأعظم وأشار قائلا : « ولستوف نستمر في الكفاح ضد التواجد الأمريكي في إيران وفي منطقة الخليج وفي جميع أرجاء العالم » .

وفي مواجهة مثل هذا التصميم رأت السعودية أن من الحكمة أن تستمر في علاقاتها الهادئة مع إيران . وأصبح هذا الاتجاه واضحا أثناء اجتماع منظمة الدول المصدرة للبترول ( أوبك OPEC ) في أغسطس . اذ وثقت العربية السعودية الى جوار إيران فيما يتعلق بالخطة الرامية الى تخفيض الحصص بالنسبة لكافة الأعضاء متخلية بذلك عن سياستها التي اتبعتها منذ فترة طويلة وهي الوقوف بمعزل عن إيران في اجتماعات الأوبك . وقبل اجتماع الأوبك في أكتوبر ١٩٨٦ قام وزير البترول الإيراني بزيارة الرياض وأجرى محادثات ودية مع الملك فهد . ونتيجة لذلك

تم التوسع فى الحد الأقصى لانتاج البترول الايرانى اثناء مؤتمر الأوبك . والأهم من ذلك أن الملك فهد قام بطرد الشيخ أحمد زكى اليمانى وزير البترول السعودى الى الأمريكان والذى استمر شاغلا لهذا المنصب على مدى ٢٤ عاما متواصلة بسبب فتوره ازاء الاستراتيجية الايرانية الرامية الى رفع سعر البترول من خلال تخفيض انتاج البترول .

وبعد ذلك بفترة قصيرة قام الملك فهد بحركة رمزية أيديولوجية بالغة الأهمية بهدف ترضية طهران اذ أطلق على نفسه اسم « خادم الحرمين » بدلا من لقب « صاحب الجلالة » . ويقصد بالحرمين هنا : مكة المكرمة والمدينة المنورة . وقد استقبلت طهران ذلك بترحاب شديد .

وكانت ايران تود أن تؤيدها الرياض فى مطلبها الخاص بنقل اجتماع القمة القادم لمنظمة المؤتمر الاسلامى من الكويت نظرا لأن الكويت متحالفة بعمق مع عدوها فى حرب الخليج . ولكن الرياض لم توافق على ذلك . وتم عقد اجتماع القمة فى الكويت فى أواخر يناير ١٩٨٧ تحت اجراءات أمن مشددة للغاية . وأصدر مؤتمر القمة توصية بوقف إطلاق النار فى حرب الخليج بين ايران والعراق ولكن المؤتمر لم يرسل وفدا الى العاصمتين : بغداد وطهران بعكس ما كان يحدث عادة من قبل مما جعل ايران ترفض هذه التوصية .

ونظرا لأن الكويت كانت تقدم العون المالى والغذائى والطبى للعراق بهدف تدعيمه فى حربه ضد ايران فقد حرصت ايران على جعل السفن الكويتية هدفا رئيسيا اثناء هجماتها فى الخليج . ولكى تحمى الكويت منشأتها البترولية وناقلات البترول الضخمة التابعة لها فانها لجأت الى الدول الاعضاء الخمس التى لها عضوية دائمة

فى مجلس الأمن : أمريكا والاتحاد الاسوفيتى وبريطانيا وفرنسا والصين . ووافق السوفيت على تأجير ثلاث من ناقلات البترول التابعة لها للكويت وبعدئذ وافقت أمريكا على عقد اتفاقية تنص على اعادة تسجيل عدد ١١ ناقلة بترول كويتية على أنها أمريكية مع توفير الحماية لها بمعرفة البحرية الأمريكية . وسقط صاروخ عراقى بطريق الخطأ على فرقاطة أمريكية فى أواخر مايو ١٩٨٧ فأتخذت واشنطن ذلك ذريعة لتدعيم تواجدها العسكرى فى الخليج فزادت من سفنها الحربية الى ١٥ سفينة بعد أن كان عددها أربع سفن فقط علاوة على وضع خطط ترمى الى زيادة العدد الى ٤٠ سفينة حربية . وفسرت ايران هذه الحركة من جانب أمريكا على أن أمريكا ترغب فى التدخل عسكرى لصالح العراق لكن تحرم ايران من الانتصارات التى حققتها فى حرب الخليج . وهذا الثواجد البحرى الأمريكى الآخذ فى التزايد بشكل درامى قد جعل ملوك الخليج الموالين للغرب يشعرون بالمزيد من الثقة فى أنفسهم وخاصة ملك العربية السعودية . واستنكرت طهران هذه التصرفات الأمريكية فى عنف شديد وراحت تردد موقفها ورأيها السابق : وهو أن أمن الخليج هو مسئولية دول منطقة الخليج ولذلك ينبغى على كافة الدول الأجنبية أن تنسحب من الخليج على الفور . وتصاعد التوتر بين طهران ووشنطنون عندما اصطدمت ناقلة بترول أمريكية كويتية رافعة العلم الأمريكى فى ٢٤ يوليو بلفم بحرى ( يفترض أن تكون ايران هى التى بثت ذلك اللغم ) أثناء اتجاهها نحو الكويت .

وأثناء هذا الجو المشحون بالتوتر وصل الى مكة ١٦ مليون مسلم أجنبى من بينهم : ١٥٥ ألف حاج ايرانى من أجل تأدية فريضة الحج السنوية — وهى فريضة تستغرق طقوسها ستة أيام — ابتداء من ٣١ يوليو . وقبل ذلك بأيام قليلة كان الخومينى قد التى

خطاباً مطلوباً أشار فيه الى بعض التوجيهات التى ينبغى أن يلتزم بها الحجاج . وربط فى خطابه بين الرسالة السياسية للوحدة الاسلامية التى تواجه الدول الكبرى والفكرة الاسلامية التى تنادى باستنكار الكفرة والملاحدين وهى احدى الأفكار الرئيسية التى يركز عليها التوحيد فى الدين الاسلامى والتى يمارسها المؤمن أثناء تأدية طقوس فريضة الحج . وحث الخومينى الحجاج على استنكار الكفرة والملاحدين الذين ترأسهم أمريكا المجرمة على هيئة مظاهرات ومسيرات . وأذيع خطاب الخومينى مرات عديدة يومياً فى المنطقة النضاء الشاسعة التى تضم الحجاج الايرانيين فى داخل مكة .

ومثلما كان يحدث فى الماضى قام وزير الحج السعودى بالتباحث مع قائد الحجاج الايرانيين حجة الاسلام مهدي كروبي Karoubi فى التفاصيل المتعلقة بالمظاهرة الايرانية والموكب الايرانى بالإضافة الى المراجعة على مضمون الشعارات والعبارات المكتوبة على الاعلام الايرانية . وكما كان عليه الحال من قبل كانت هناك ثلاثة شعارات موجهة ضد الدول الشيطانية : أمريكا والاتحاد السوفيتى واسرائيل وثلاثة شعارات أخرى من أجل المسلمين المظلومين : أولئك المتواجدين فى أفغانستان وفلسطين ولبنان . وتقرر أن تبدأ المظاهرة فى فترة ما بعد الظهر لمدة ساعتين فى مقر بعثة الحج الايرانية بمكة ويعتقب ذلك مسيرة لمسافة نصف ميل الى أن تصل الى ميدان يقع على مسافة ميل من المسجد الحرام ثم ينصرف المشاركون فى المسيرة مع غروب الشمس فى حوالى الساعة ٧:١٥ مساء .

وفى يوم ٣١ يوليو الموافق يوم الجمعة سارت المظاهرة فى هدوء وسلام . ولكن عندما أصبحت طليعة المسيرة التى تتألف من ١٠٠ ألف ايرانى و ١٠٠ من غير الايرانيين بقيادة نساء وحجاج



معوقين وجالسين فى كراسى متحركة على مسافة ٥٠٠ ياردة من نقطة النهاية المنفق عليها من قبل تبين للحجاج أن تلك النقطة قد سدت الشريعة السعودية . فتصاعدت مشاعر الغضب ونشب التمرد . وعندما حاول المشاركون فى المسيرة التفتقر والعودة من حيث أتوا اكتشفوا أن أماكن الخروج قد سدت الشريعة السعودية أيضا . واستمر الحصار المفروض على المشاركين فى المسيرة لمدة ساعة . وخلال فترة الساعة هذه تعرض المشاركون فى المسيرة للضرب بالعصى من جانب رجال الشريعة علاوة على فتح الغاز المسيل للدموع عليهم وإطلاق وإبل من الرصاص المطاطى عليهم . كما سمعت طلقات صادرة عن مدافع وبنادق فحدث هرج ومرج وفوضى مما أسفر عن موت المئات من الحجاج تحت الأقدام بسبب الزحام .

وطبقا لما قالته الرياض فان الإيرانيين قادوا مظاهرة سياسية فيها انتهاك للمقدسات وبعدئذ قروا مذعورين مما تسبب فى موت ٤٠٢ حاج بينهم : ٢٧٥ إيرانيا و٤٢ غير إيراني و ٨٥ سعوديا بسبب الاختناق والانسحاق تحت الأقدام أثناء الهلع والذعر . وكان طهران أبادت أن الشريعة السعودية المسلحة فتحت النيران على الحجاج فى هجوم مفاجئ وغير متوقع مما أسفر عن موت ٣٢٢ إيرانيا حيث مات الكثيرون منهم بسبب الإصابة بطلقات الرصاص .

وصدر بيان رسمى إيراني تعقيا على مأساة مكة حيث قال هاشمى رئيسـنجانى « نحن من حيث 'ننا جنود الله والمنفذون للمبادئ المقدسة نتعهد بأن ننتقم لموت هؤلاء الشهداء بأسرع ما يمكن » وأضاف معلنا أن إيران « ستقوم بتحرير الأماكن المقدسة من الوهابيين العابثين الأشرار البغضاء » . واعتقد الخومينى أن أمريكا هى التى تقف وراء هذه الأحداث التى نفذها « أولئك الناس

المنحرفون زعماء الفتنة فى العربية السعودية أولئك الخونة للأماكن المقدسة » . وشنت القيادة الايرانية حملة شعواء ضد الحكام السعوديين مع انشاد الناحبين المرتدين لثياب الحداد « اقطعوا يدى الملك فهد » . وقام مراسلو وكالة الانباء الاسلامية الجمهورية بعقد لقاءات مع عشرات من الحجاج غير الايرانيين لدى عودتهم الى بلادهم عقب انتهاء مراسم الحج فيما يتعلق بأحداث « يوم الجمعة الدموى » التى حدثت فى مكة بهدف البرهنة على أن الحجاج الايرانيين كانوا يتصرفون بطريقة سلبية للغاية وأن الشرطة السعودية هى التى شنت الهجوم المدبر عليهم ، كما أرسلت طهران وفودا الى العديد من الدول الاسلامية لاقناع رؤساء تلك الدول بأن اللوم يقع على القادة السعوديين فيما يتعلق بمأساة مكة .

وذكرت السلطات السعودية أن الحجاج الايرانيين هم الذين تسببوا فى هذه المأساة لأنهم لجأوا الى السلوك العنيف أثناء أيام الحج ولأنهم حاولوا أيضا أن ينقلوا صورا للخميين الى داخل المسجد الحرام الذى ظل خاليا تماما من الصور والتماثيل منذ أن قام النبى محمد بتخطيم الأصنام والتماثيل المتواجدة حول الكعبة . وكانت هناك تلميحات عن وضع خطة ايرانية تهدف الى الاستيلاء على المسجد الحرام وعلان الخومينى زعيما لكافة المسلمين فى العالم .

ومهما يكن من أمر فإن أحداث مكة المؤسفة قد أنهت فترة التقارب فى العلاقات بين طهران والرياض التى دامت ثلاث سنوات . وأصبحت هاتان الحكومتان الأصوليتان تبديان مشاعر العداء لبعضهما البعض علنا وتنافسان علنا على قيادة العالم الاسلامى .

وقامت منظمة المؤتمر الاسلامى ICO بمحاولات عديدة ومتكررة من أجل التوسط لانهاء الحرب بين العراق وايران . ولكن دون جدوى . اذ كان الخومينى يصر فى كل مرة على ضرورة معاقبة المعتدى بحيث يصبح ذلك مبدءا يحتذى به جميع الاعضاء فى منظمة المؤتمر الاسلامى وبحيث لا يتوهم احد الاعضاء فى هذه المنظمة بالاعتداء على دولة اسلامية مستقبلا .

وفى يونيو ١٩٨٢ فى أعقاب الغزو الاسرائيلى للبنان أشارت العراق الى أنها على استعداد للتوقف عن القتال فى حرب الخليج وتوجيه أسلحتها ضد اسرائيل التى هى العدو المشترك لكل من ايران والعراق . ولكن الخومينى رفض فى ازراء هذا الاقتراح وأشار الى أن العراق يستخدم نفس التكتيكات التى تستخدمها اسرائيل ، الا وهو احتلال الاراضى الأجنبية أولا ثم السعى بعدئذ الى التوصل الى وقف لاطلاق النيران .

ونظرا للموقف المتشدد من جانب طهران نجد أن الاجتماع الرابع عشر لوزراء خارجية منظمة المؤتمر الاسلامى الذى عقد فى دكا Dhaka بينجلاديش فى ديسمبر ١٩٨٣ قد فشل فى اتخاذ قرار بشأن حرب الخليج . وقد قاطعت ايران مؤتمر القمة الاسلامى الرابع المنعقد فى كازابلانكا بالمغرب فى يناير ١٩٨٤ لأن منظمة المؤتمر الاسلامى لم تبعث بوفد الى ايران لمشاهدة الدمار الناجم عن ضرب العراق للأماكن المدنية بايران بالقنابل .

وعندما فشلت اللجنة التى تقوم بالتخضير لعقد اجتماع القمة الخامس فى تغيير المكان الذى سيعقد فيه الاجتماع من الكويت الى أى دولة أخرى قاطعت ايران الاجتماع مرة أخرى وناشأت الأعضاء الآخرين بمقاطعة ذلك الاجتماع فاستجابت الدول المتعاطفة

مع ايران لهذا النداء واكتفت بارسال مندوب على مستوى اقل من رئيس الدولة الى ذلك المؤتمر .

وهذه الحركات التى تقوم بها ايران كان يستتر وراءها شىء ما أكثر عمقا يتعلق بالسياسات الايرانية تجاه الدول الاسلامية الأخرى . اذ كان القادة الايرانيون يعتقدون أن ايران هى الدولة الوحيدة التى يتم فيها تطبيق الشريعة الاسلامية على النحو الوارد فى القرآن الكريم . أما باقى الدول الاسلامية الأخرى فلا يوجد بها تطبيق للمبادئ الاسلامية . مثال ذلك أن العربية السعودية تحكمها أسرة ملكية حاكمة وهو أمر يتعارض مع المبادئ الاسلامية . تماما هذا بالإضافة الى أن معظم أفراد هذه الأسرة لا يلتزمون بالمبادئ الاسلامية اذ يعكفون على شرب الخمر وتعدد الزوجات . بما يفوق الحد الاقصى القرآنى وهو أربع زوجات ويمارسون لعب القمار وغير ذلك من الأمور . ولذلك يمكن القول بأن العربية السعودية هى دولة مسلمة — نظرا لأن شعبها من المسلمين — ولكنها ليست دولة اسلامية . وعلى العكس من ذلك قام الملايين من المؤمنين فى ايران بالاطاحة بالحكومة غير الاسلامية الفاسدة واحلت محلها حكومة الله . ومن هنا فان ايران هى بمثابة نموذج تحتذى به كافة الدول المسلمة الأخرى .

ومثل هذا التقويم لثورتهم وبلدهم جعل القادة الايرانيين يعتقدون أنهم أقوم أخلاقا من الآخرين . وذهبوا فى تقديراتهم الى أنه اذا كان هذا قد عزل ايران عن مجموعة الدول المسلمة فانه ينبغى على الايرانيين الا يشعروا بالاكئاب والهم وضعف العزيمة . اذ ينبغى على المؤمن أن ينظر الى حياة الامة على . فقد كان رجلا مسلما بالفا حد الكمال . ومع ذلك تم تجاهله مما جعله يعاني ويقاسى من ذلك التجاهل . الا أن الأمة الاسلامية فى نهاية الأمر

أدركت قيمته العظيمة وانتخبته خليفة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم . ولذلك ينبغي على الجمهورية الإسلامية الإيرانية — شأنها في ذلك شأن المسلم الصادق — أن تظل واقفة في حزم على الطريق الإسلامي الصحيح . وفي نهاية الأمر ستتضرر الدول المسلمة الأخرى إلى تصحيح سياساتها وتحذو حذو إيران .

ويعتقد الزعماء الإيرانيون أن إيران هي القدوة في مجال إعادة تشكيل مجتمع إسلامي نموذجي . ويرون أن تقدمهم في هذا المضمار له أهمية كبرى بالنسبة للمسلمين في جميع أرجاء العالم وبصفة خاصة بالنسبة لأهالي وسكان الـ ٤٣ دولة إسلامية التي هي أعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي . وأشاروا إلى أنهم من خلال تنجير الثورة الإسلامية تمكنوا من طرد الحكومة الفاسدة الإيرانية وتحرير إيران من سيطرة الدول الكبرى عليها وتدعيم الاستقلال الوطني . وأفادوا أن كل هذه الانجازات العظيمة تلقى تقديرا كبيرا من جانب عواصم العالم الثالث . وقد أوضحت إيران للدول الإسلامية المنتمة للعالم الثالث مدى أهمية تطبيق النظرية الإسلامية في معزل تماما عن الأيديولوجيات الشرقية أو الغربية . وإذا ارتبطت النظرية الإسلامية بالتشدد في الالتزام الأخلاقي، والمناهضة الراديكالية للاستعمار على النحو الذي قدمه الخميني فإن ذلك يصبح أمرا جذابا للغاية للشباب المتعلم في الكثير من الدول الإسلامية واتباع الخطوط التي سار عليها الخميني فإن ذلك يعني ليس فقط رفض الرأسمالية ومفاسد الرأسمالية وإنما أيضا رفض الماركسية الملحدة . وهذا يوضح لنا السبب في أن « الخمينية » لها أتباع في كل مكان في جميع أرجاء العالم الإسلامي .

وحاولت إيران الإسلامية تدعيم التأيد لها بين المسلمين بالخارج . وقد استخدمت سكرتارية قادة صلوات الجمعة في

مدينة قم Qum لاجراء اتصالات مع العلماء الدينيين المتواجدين في جميع أنحاء العالم . وثد أصبح أحد رجال الدين المحليين بمدينة قم زعيما دينيا سياسيا بالخارج في الستينات : ألا وهو الامام موسى الصدر . وكان قد أوفد الى لبنان في عام ١٩٥٧ لكي يقدم الارشاد الديني للشيعة اللبنانيين الذين كانوا أكثر الناس فقرا وتعرضا للاستغلال في داخل لبنان . ونتيجة لاستنكاره لأعمال القمع التي مارسها شاه ايران ضد تمرد يونيو ١٩٦٣ بإيران فقد صدر قرار من الشاه بحرمانه من الجنسية الايرانية . وأصبح موسى الصدر مواطنا لبنانيا . وبعد مرور أربع سنوات تمكن من تشكيل « المجلس الأعلى لطائفة الشيعة Higher Shio Communal Council » برئاسته . ثم أنشأ « حركة المحرومين » التي جذبت الشيعة الذين كانوا ساخطين على قاداتهم التقليديين . ونظرا لأن الشيعة في لبنان يشكلون ما يزيد على ٣٠٪ من العدد الكلي للسكان الذي يبلغ ٣٦ مليون نسمة فانهم كانوا بذلك بمثابة أكبر طائفة في لبنان بل يزيد عددهم على عدد المسيحيين المارون البالغ عددهم ٩٠٠ ألف نسمة . الا أن الميثاق الوطني National Pact اللبناني المرتكز على احصائية عام ١٩٣٢ لم يمنح الشيعة سوى ١٩ مقعدا في البرلمان بينما أعطى للمارونيين ٣٠ مقعدا في البرلمان الذي يضم ٩٩ مقعدا . وفي الثلاثينات كان الشيعة متركزين في جنوب لبنان حيث كانوا قد وصلوا الى لبنان قادمين من دول عديدة مجاورة منذ عدة قرون . بضت هربا من الاضطهاد الذي وقع عليهم عقب انهيار الخلافة الفاطمية . ثم حدثت اضطرابات سياسية في لبنان في الخمسينات فاضطر الشيعة الى التحرك شمالا الى صيدا Sidon وببيروت وهو اتجاه ازداد ترسخا بسبب الحرب العربية الاسرائيلية لعام ١٩٦٧ . ومن خلال الاضرابات والمظاهرات جعل موسى الصدر الشيعة يدركون مدى أهميتهم وقوتهم السياسية . ولكن عندما

تفجرت الحرب الأهلية بين المسيحيين المارونيين اليمينيين والتحالف الذى يضم اللبنانيين اليساريين والفلسطينيين فى لبنان وجد الشيعة أنفسهم فى موقف ضعيف لأنهم لم يكن لهم ميليشيا عسكرية خاصة بهم . ولكن موسى الصدر تمكن فيها بعد من انشاء ميليشيا شيعية تسمى « أمل Amal » وذلك من خلال المساعدات التى قدمتها منظمة التحرير الفلسطينية .

وطوال فترة اقامة موسى الصدر بلبنان كان على اتصال مستمر بالخميينى الذى كان صديقا حميما له . ومما لاشك فيه أن الشيعة اللبنانيين قد اهتموا اهتماما بالغاً بتفجر الحركة الاسلامية الثورية فى ايران بقيادة الخمينى الا أن موسى الصدر مات قبل أن يشاهد بنفسه النجاح الذى حققته هذه الثورة . اذ «اختفى» موسى الصدر أثناء رحلة قام بها الى ليبيا وايطاليا فى أغسطس ١٩٧٨ .

وعقب موت موسى الصدر انتقلت الزعامة على « المجلس الأعلى لطائفة الشيعة » الى الشيخ محمد مهدي شمس الدين . وقام مؤتمر « أمل » المنعقد فى أبريل ١٩٨٠ بانتخاب مجلس قيادة جديد واختيار المحامى نبيه برى سكرتيرا عاما لذلك المجلس . وتحت قيادة نبيه برى توسعت « أمل » وأصبحت من أكثر القوى الحربية المهمة . وفى أكتوبر ١٩٨١ قام وفد من « أمل » بزيارة طهران وعقدوا لقاء مع الرئيس خمينى .

ولكن سياسات نبيه برى كانت متخذة للطابع الدستورى أكثر من اللازم وذلك من وجهة نظر رفاقه وخاصة حسين موسى وهو شاب يعمل مدرسا . فانشق موسى وانشأ «أمل الاسلاميه» وجعل مقرها الرئيسى فى بعلبك التى تقع فى وادى البقاع الخاضع للاشراف السورى ، وكانت بعلبك أيضا هى مقرا « لحزب الله

اللبناني الذي يعمل تحت قيادة كل من : الشيخ محمد حسن فضل الله والشيخ راغب حرب . وبعدئذ أصبحت بعلمك هي المكان الذي انشأ فيه الحرس الوطني الثوري الايراني مكاتب له بهدف صد الغزو الاسرائيلي للبنان لعام ١٩٨٢ .

وأشارت التقارير الى أن بعلمك أصبحت مركزاً « للجهاد الاسلامي » وهي منظمة غامضة سبق لها أن ادعت مسئوليتها عن ضرب الثكنات الأمريكية والفرنسية في بيروت بالقنابل في أواخر عام ١٩٨٣ كما أعلنت مسئوليتها عن هجوم مماثل على مركز القيادة الاسرائيلي في Tyre في ٤ نوفمبر ، فقامت الطائرات الاسرائيلية والفرنسية بالانتقام والاغارة على بعلمك في ٢٠ نوفمبر . فقتل ٤٤ رجلاً من بينهم ١٤ من الحرس الثوري الايراني .

وأدى هذا الى سلسلة من العنف والعنف المضاد علاوة على تكثيف هجمات « الضرب والجرى » ضد القوات الاسرائيلية المتواجدة في جنوب لبنان الذي توجد به نسبة ٦٠٪ من الشيعة من مجموع الاهالي البالغ عددهم مليون نسمة . وقامت الطائرات الاسرائيلية بالقاء القنابل على بعلمك وعلى قريتين مجاورتين لها مما أسفر عن مقتل ١٠٠ وجرح ٤٠٠ من الأشخاص معظمهم من المدنيين . وبعد يومين قام حسين شيخ الاسلام نائب وزير الخارجية الايراني بزيارة بعلمك . وأشارت التقارير الى أنه امتدح الهجوم الانتحاري بالقنابل على القوات الأمريكية والفرنسية والاسرائيلية . فأكد ذلك ما أشارت اليه تقارير المخابرات الأمريكية والفرنسية والاسرائيلية القائلة بأن إيران هي العقل الموجه للهجمات الانتحارية بالتعاون مع سوريا .

وأكدت طهران هذه الاتهامات وقالت أن الدول الغربية واسرائيل تتلمس الاعذار في فشلهم في سياساتهم في لبنان : لبنان



الدولة التي يسكنها غالبية من المسلمين ويحكمها أقلية من المارون المسيحيين المتحالفين مع الغرب واسرائيل . وقام آية الله هادي خسروشاهی Khosrowshahi السفير الإيراني لدى الفاتيكان بتوضيح الظروف المحدقة بالهجمات الانتحارية . وأشار الى أن الشعوب المسلمة في إيران وأفغانستان وفلسطين ولبنان كان لها الحق في الدفاع عن « حرياتها وعقيدتها وشرفها واستقلالها عن المعتدين بأية وسيلة يرونها ملائمة » . فهذا الدفاع الشريف هو حق لكل انسان حر والموت في سبيل هذه القضية النبيلة من وجهة نظرنا هو استشهاد في سبيل الله » .

وسرعان ما أظهر الشيعة اللبنانيون أنهم على دراية عظيمة بفنون القتال التقليدية . وعندما أصدر الرئيس أمين الجميل أوامره للجيش اللبناني بتدمير الأحياء التي يسكنها الشيعة في جنوب بيروت وتسويتها بالأرض وتم ذلك بالفعل في ٣ فبراير ١٩٨٤ بادر نبيه البري الى اصدار أوامره لمليشيات أمل لكي تهاجم الجيش اللبناني . وتمكنت مليشيات « أمل » بمساعدة من مليشيات الحزب الاشتراكي التقدمي الدرزي من الاستيلاء على غرب بيروت علاوة على تسديد ضربة قوية لجيش أمين الجميل ومكاتب شؤونه الادارية . وتفكك بالفعل الجيش اللبناني وسقطت الحكومة . وهذا النجاح الذي أحرزته القوات المسلمة من خلال التعاون مع سوريا على حكومة الجميل التي تساندها أمريكا واسرائيل قد ابتهجته له طهران ودمشق .

ورأت طهران في هذا النصر الذي أحرزه المسلمون اللبنانيون في منطقة بيروت أنه بمثابة خطوة الى الأمام نحو طرد الاسرائيليين من الجنوب اللبناني . وكان للهجمات المتلاحقة التي قام بها أعضاء في منظمة « أمل » ومنظمة « أمل الاسلامية » وحزب الله على

القوات الاسرائيلية المتواجدة فى جنوب لبنان اثر كبير مى انسحاب اسرائيل من لبنان فى يونيو ١٩٨٥ ، تشجعت ايران وحلفاؤها اللبنانيون وقرروا مواصلة الكفاح المسلح الى ان يتحقق هدفهم النهائى الا وهو تحرير القدس فهى مدينة الصخرة المعلقة وهى المكان الذى صعد منه النبى محمد الى السماء برفقة جبريل لى يتلقى التعاليم الالهية التى ينبغى نقلها الى اتباعه المسلمين وهو ذلك الحدث المهم الذى بشر بنبوته رسولا للعالمين .

وتحرير القدس من المقتصبين الصهاينة هو هدف تسمى أكدته وفود أكثر من أربعين دولة اسلامية ممن يحضرون المؤتمر العالمى لأئمة الصلاة فى أيام الجمعة الذى يعقد سنويا فى ايران . وأثناء زيارة هذه الوفود لجمهورية ايران الاسلامية يتم اصطحابهم لمشاهدة الانجازات الاسلامية للحكومة الثورية ويتم اطلاعهم على كافة الأعمال الأخرى المجيدة التى تقوم بها الحكومة . وفى حين أن السعودية ترى وفود المؤتمر الاسلامى التى هى اتصال بالدول المسلمة على المستوى الرسمى نجد أن ايران تفضل اجراء اتصالات خارج الدوائر الرسمية الحكومية . ومن خلال المؤتمر العالمى يحاول الزعماء والقادة الايرانيون الابقاء على الصورة المشرقة لوجه ثورتهم الاسلامية فى عقول المجتمعات المسلمة بالخارج .

وهذه المثابرة التى التزمت بها ايران فى حربها ضد صدام حسين كانت بمثابة تدعيم للعناصر الموالية لايران بين المسلمين فى كل مكان . ودائما ما تضمنى الحكومة الايرانية طابعا اسلاميا على كفاحها ونضالها . اذ تشير دائما الى قواتها المسلحة على أنها « جنود الله » أو « جنود الاسلام » . والفيالق الجديدة التى كونتها أثناء الحرب تسمى بهذه الأسماء : النبى محمد والخمينى . بل

دائماً تعطى أسماء لشخصيات اسلامية أو أماكن اسلامية أو طقوس اسلامية للعمليات العسكرية التي تقوم بها مثل : عاشوراء و كربلاء و مسلم بن عقيل ورمضان المبارك وبيت المقدس و طريق الأقصى ( أى الطريق المؤدى الى القدس ) .

ودائماً ما تؤكد طهران أن كفاحها المسلح ضد حكومة بغداد غير الاسلامية ليس سوى خطوة نحو تحرير القدس وفلسطين من المحتلين الصهاينة . وهى بقولها هذا تحث الدول العربية المسلمة على تعميق مساعيها نحو الاطاحة بالصهيونية الجاثمة على فلسطين هذا بالاضافة الى أن ايران تسعى دائماً الى اثاره القضية الفلسطينية على نطاق العالم الاسلامى وليس فقط فى داخل الاطار العربى بالشرق الأوسط .

ومما لاشك فيه أن ايران اذا نجحت فى التسبب فى الاطاحة بصدام حسين فان الضغوط على الدول العربية المدعمة بمعرفة ايران المنتصرة قد تتصاعد بحيث تصل الى درجة المواجهة العسكرية مع اسرائيل .

واذا كانت ايران قد انهكت فى مشكلات السياسة الخارجية على طول حدودها الغربية والى ما وراء تلك الحدود فانها لم تهمل أبدا حدودها الشرقية . اذ كانت تساعد فى نفس الوقت الفدائيين الافغان المسلمين فى حربهم ضد الحكومة الماركسية فى كابول منذ أوائل عام ١٩٨٠ .

\*\*\*



## الفصل السابع

---



## أفغانستان :

### الأقدار المتغيرة للأصوالية

وفق ظروف خاصة جغرافية وتاريخية تشكلت أفغانستان على هيئة مجتمع يحاط بالأرض اليابسة من جميع الجهات وهو مجتمع متشبث بالسلام العصور الوسطى ويقاوم بشدة انضمام الطابع العصري الحديث باستمرار بل حتى خلال الربع الأخير من القرن العشرين . والشكل الحالي لأفغانستان ( أرض الأفغان ) قد نجم عن خلق أقطاعات قبلية عديدة في منتصف القرن التاسع عشر بمعرفة بريطانيا الاستعمارية وروسيا القيصرية بحيث تكون حاجزا أرضيا بين روسيا والهند البريطانية وإيران .

أما بالنسبة لأفغانستان التاريخية فإنها أصبحت جزءا من دار الإسلام مع ظهور الخلافة العباسية في عام ٧٥٠ ، وبعد مرور قرن من الزمان ضعفت الخلافة العباسية فادى ذلك الى ظهور أسرات ملكية حاكمة شبيهة مستقلة وهى الأسرات التى مارست الحكم على إيران وأفغانستان وأجزاء من أواسط آسيا . وكان

أشهر هذه الأسرات : الأسرة الغورية Ghori ( ١٠٠٠ - ١٢١٥ ) التي كانت تحكم الباكستان الحالية وأجزاء كثيرة من أفغانستان والأجزاء الشرقية من إيران . وفى خلال الربع الأول من القرن السادس عشر نجد أن زهير الدين محمد بابر وهو من سلالة جانكيز خان وتيمور لك قد استولى على أراضى فى أفغانستان واتخذ من كابول مقرا للحكم . وفى عام ١٥٢٥ تجرأ وقام بمغادرة فى داخل أراضى الهند وأنشأ الأسرة المغولية Mogul الحاكمة . ومنذ ذلك الوقت فصاعدا راحت إمبراطورية المغول وإمبراطورية الصفويين Safavids تتنافس من أجل السيطرة على أفغانستان . وفى عام ١٧٢٩ نجد أن نادر شاه أفشار Afshar قد طرد القبائل الأفغانية من إيران وواصل جهوده لاختصاص منطقة قندهار Qandhar الواقعة فى جنوب أفغانستان . وبعدئذ تم اغتياله فى عام ١٧٤٧ على أيدي العبدالى الأفغان Abdali Afghans من المتمركزين حول قندهار والذين اختاروا أحمد شاه عبدالى زعيما لهم . ولدى تقلده للسلطة اتخذ لنفسه لقب «در الأدران Durr-e-Durran» بمعنى لؤلؤة العصر وهو اللقب الذى تحول الى كلمة دورانى Durrani . ثم استولى على أراضى من إمبراطورية : الصفويين والمغول المتدهورتين . وأضاف إليها أجزاء من أراضى طاجق Tajik التى تقع فى الشمال . وفى عام ١٧٧٦ نقلت العاصمة من قندهار الى كابول . وهذا الكيان السياسى الجديد قد هزمته حرب أهلية استمرت من عام ١٨١٨ حتى عام ١٨٢٦ .

وبعدئذ امتدت المنافسة بين بريطانيا وروسيا القيصرية مما أسفر عن نشوب حربين بين أفغانستان والهند البريطانية : الحرب الأولى من عام ١٨٣٩ حتى عام ١٨٤٢ والحرب الثانية من عام ١٨٧٨ حتى عام ١٨٨٠ . وقد قاوم الأفغان الاحتلال الذى شهدته



الأجزاء الشرقية من أفغانستان والذي جاء في أعقاب الحرب  
الإنجلو أفغانية الأولى . وفي أعقاب الحرب الثانية غادر  
البريطانيون تلك الأجزاء المحتلة ولكنهم ظلوا مهيمنين على  
العلاقات الخارجية لأفغانستان . وقد نجم عن هذه الصراعات  
احساس بالكيان الأفغانى علاوة على عزل أفغانستان سياسيا  
ودبلوماسيا . هذا بالإضافة الى أن التجربة الديموية اللعينة جعلت  
القادة الاسلاميين والقبليين التقليديين ينظرون الى كافة الإصلاحات  
وكافة أنواع اضماء الطابع العصري الحديث على أنها بدع غريبة  
ينبغي مقاومتها .

وفي ظل هذه الخلفية وهذه الظروف تقلد عبد الرحمن السلطة  
في عام ١٨٨٠ . وبدأ عبد الرحمن باحكام السيطرة على كابول  
والمناطق المحيطة بها ثم قام بشن هجمات عديدة لاختضاع قبائل  
البوشتون Pushtun المتواجدة في الشمال والجنوب الشرقي  
وبعدئذ من أجل اخضاع قبائل الأزيك Uzbek وقبائل التركمان  
Turkoman المتواجدة بالشمال . وفي عام ١٨٨٨ عندما  
تمرد الشيعة الحزارا Shia Hazaras الذين كانوا قد دنعوا  
عبر القرون الى جبال حزارجات Hazarjat القاحلة القاسية  
قام عبد الرحمن بحشد قبائل البوشتون وقبائل الأزيك وقبائل  
التركمان وتجميعهم تحت راية الاسلام السنن وتمكن من اخضاع  
الحزارا في عام ١٨٩١ . وبعد مرور أربع سنوات تمكن من  
الاستيلاء على كافرستان ( أي أراضى الكافرين ) الواقعة شرف  
كابول والتي توجد بها بعثات تبشيرية مسيحية وحول سكانها الكفار  
الى مسلمين سنيين وسمى المنطقة باسم جديد : « نورستان »  
بمعنى أرض النور والضياء ، وقد أدى ذلك الى رفع نسبة المسلمين  
في أفغانستان الى ٩٩٪ : حيث أصبح ٨٠٪ منهم من السنيين

التابعين للمذهب الحنفى والباقي من الشيعة التابعين للمذهب  
الجعفرى .

وقد كان الاسلام فى أفغانستان مزيجا بين خط الخلفاء  
الراشدين والصوفية الاسلامية . وفى داخل المدن الكبرى والصغرى  
كان يوجد علماء دينيون مدربون تدريباً جيداً . ولكن فى معظم  
القرى البالغ عددها ٢٦ ألف قرية والتي يعيش بها ٨٥٪ من  
الشعب الأفغانى فان العلماء الدينيين المحليين المعينين ( الملا  
Emullahs ) فكانوا غالباً حاصلين على تدريب بسيط بعد أن تعلموا  
على أيدي عالم دينى يقوم بالتدريس فى مدرسة دينية . إذ لم يكن  
يوجد سوى عدد ضئيل للغاية من المعاهد العليا الدينية الاسلامية  
الراسخة فى أفغانستان . ومن أجل التدريب السليم على المذهب  
السنى فان الأمر كان يستلزم إيفاد العالم الدينى أما الى الأزهر  
الشريف بالقاهرة وأما الى المعهد العالى الدينى المتواجد فى دوبانده  
Deoband التى تقع على مسافة ٦٠ ميلاً شمال دلهى بالهند .  
ورغم أن هذا المعهد العالى كان يمارس تقديس الأضرحة فانه  
كان متساهلاً مع بعض الطرق الصوفية مثل الطريقة النقشبندية .  
أما بالنسبة للمذهب الشيعى فان الدراسات العليا المتعلقة به  
كانت تتم إما فى مدينة مشهد الواقعة فى شرق إيران وإما فى  
مدينة النجف بالعراق .

وكان مدرس الدين بالقرية ( الملا ) جزءاً لا يتجزأ من عليه  
القوم الريفيين بالقرب سواء من خلال الزواج أو المولد بل غالباً  
ما يكون هو نفسه من كبار ملاك الأراضى بالقرية . وهو علاوة  
على أدائه للطقوس الدينية كان يقوم بتدريس الدين والمواد  
التعليمية الأخرى لأطفال القرية بالاضافة الى قيامه بالعلاج .

الروحي للناس الذين يعانون من بعض الأمراض والمتاعب الصحية .

ورغم اعتناق القبائل الأفغانية للدين الاسلامى فانهم نم يستطيعوا التلخص تماما من القوانين والقيم التقليدية القبلية الخاصة بهم والتي كانت سائدة فى فترة ما قبل الاسلام . مثال ذلك « عادات البوشتون Nang-ePusyun » المنتشرة بين قبائل البوشتون التى تشكل نصف سكان أفغانستان . وعادات البوشتون تسمى أيضا باسم : بوشتونوالى Pustrunwali . والبوشتونوالى هى أيدولوجية وهى فى نفس الوقت بمثابة مجموعة القوانين العامة التى لها تأسيساتها وجزاءاتها وعقوباتها . ومن بين الملامح المهمة للبوشتونوالى ما يلى : « أن تثار للدماء ، وأن تقاتل حتى الموت دفاعا عن شخص انتهى بك بغض النظر عن نسله وذريته ، وأن تدافع حتى النهاية عن أية ممتلكات ائتمنت عليها ، وأن تكون كريما ومضيافا وأن تقدم الحماية للضيوف وممتلكاتهم ، وأن تتسامح ازاء الاهانات أو الاساءات ( باستثناء القتل والاغتيل ) لدى تدخل امرأة من ذرية الشخص الذى ارتكب الاساءة ، وأن تعاقب الزانية والزانى بعقوبة الموت ، وأن تحجم عن قتل رجل قد انتهى بالدخول الى مسجد أو ضريح مقدس » . وهناك الكثير من المواد الواردة بالقانون البوشتونوالى والتى تتعارض مع أحكام الشريعة الاسلامية . مثال ذلك أن الشريعة تنص على ضرورة توافر أربعة شروط حتى يمكن تنفيذ عقوبة الاعدام بالنسبة للزانى المتزوج أما فى قوانين البشتونوالى فيكفى أن تحوم الشائعات حول ارتكاب الزنا . وكذلك نجد أن الطلاق هو أمر سهل فى الشريعة الاسلامية وخاصة بالنسبة للزوج أما الطلاق فى قوانين البشتونوالى فيكاد يكون أمرا مستحيلا . والنساء لهن الحق فى الميراث وفق ما ورد بالشريعة الاسلامية ولكن قوانين

البشتونوالى لا تسمح بتوريث النساء . والثواب والعقاب هو أمر مؤكد وشامل بالنسبة للشريعة الاسلامى ولكنه أمر محدود فى قوانين البشتونوالى . ومن ناحية أخرى نجد أن قوانين البشتونوالى قد تسببت فى استمرار الصراع والنزاعات بين القبائل ولكنها من جهة أخرى أثبتت أنها ملائمة وكافية من حيث هى مظهر للقانون والنظام بين القبائل المتناحرة المتحاربة .

والطرق الصوفية السائدة فى أفغانستان هى : الطريقة القادرية والطريقة النقشبندية . وكانت القادرية قد وصلت الى قبائل البوشتون المتواجدة فى شرق أفغانستان قادمة من الهند حيث كانت قد أصبحت راسخة فى الهند فى خلال القرن السادس عشر . وعقب الحرب العالمية الأولى وصل نقيب الجيلانية الى منطقة البوشتون قادمة من بغداد التى تعتبر هى المنبع الأصلى للطريقة القادرية من أجل ممارسة المزيد من الاشراف على الاخوان فى الطريقة . وعلى العكس من ذلك نجد أن الطريقة النقشبندية قد نفذت الى أفغانستان أثناء انتشارها من مدينة بخارى وهى المدينة التى كان يعيش فيها مؤسس الطريقة النقشبندية بحيث شملت قبائل البوشتون وقبائل أخرى غير بوشتوية وفى أواخر الثمانينات من عام ١٨٨٠ نجد أن أشخاصا من سلالة الشيخ أحمد سيرهندي Siryindi وهو زعيم نقشبندى بارز يسمى « مجدد الألف الثانى » وقد وصلوا قادمين من الهند لكى يقيموا فى منطقة بازار Bazaar بكاپول . وأثناء ذلك نجد أن الشيخ الجليل لأسرة « المجدد » أصبح يسمى حضرة شور بازار Hazrat of Shor Bazaar وكان الشيخ الأول يسمى قيوم جحان Qayum Jahan . وهاتان الطريقتان الصوفيّتان كانتا تضمّان أعضاء من كافة الأنواع مثل كبار المرشدين والمريدين والعلمانيين علوة على مجموعة من المحافل والأضرحة المقدسة

مع القيام بالحج الى هذه الأضرحة المقدسة حيث يقوم المؤمنون بالاستنجاد بشفاعاة الشيخ المدفون فى داخل الضريح . ورغم أن العلماء الدينيين الراشدين الأنقياء ينظرون الى مثل هذه الممارسات على أنها من تبيل البدع والهرطقات الا أن رأيهم لم يكن له أى تأثير على شعبية هذه الممارسات واقدام الناس عليها فى حماسة شديدة .

وفى ظل هذا الجو وهذه البيئة كان عبد الرحمن يمارس حكمه الذى استقاه — وفقا للتفكير الأفغانى التقليدى — من المجلس القبلى أو الجيرجا Jirga التبليية . وكان عبد الرحمن يعتقد أن « الهدى والارشاد الالهى » وحده هو الذى يضمن قيام الاهالى باختيار الحاكم العادل الصادق الشرعى . وذهب فى تحليلاته الى أن العرش هو من ممتلكات الله الذى يعين الملوك لكى يقوموا بدور رعاة الأغنام الذين يرشدون قطعان الأغنام التابعة لهم . ومن هنا يمكن القول بأن الملوك هم مندوبون عن الله ويستقون واجباتهم ومسئولياتهم من الارادة الالهية . ومن بين الواجبات والمسئوليات التى رأى نفسه مضطعا بها : الدفاع عن قضية الاسلام وتحرير تربة وأرض الأفغان من سيطرة القوى الأجنبية الكافرة . وقد قام باسم الاسلام باخضاع القبائل غير المتجانسة عرقيا وتأسيس دولة لها حكومة مركزية وهى نفس الاستراتيجية التى استخدمها فيما بعد عبد العزيز بن سعود فى منطقة نجد بشبه الجزيرة العربية . اذ أنشأ عبد الرحمن مجلسا تنفيذيا علاوة على انشاء لوييا جرجا Loya Jirga أو المجلس الوطنى العمومى الذى يتألف من أعضاء أرستقراطيين منتمين للعائلة الملكية أو العشيرة الملكية علاوة على أعضاء من الوجهاء بالقرى وكبار ملاك الاراضى والعلماء الدينيين . ونظرا لأنه لم يكن يهدف أساسا الى

أن يشاركه أحد في السلطة فإن هذه الهيئات كانت مجرد هيئات استشارية .

وانشأ أعضاها وزارية من بينها قسم العدل وقسم التعليم . وكان العجل بهذين القسمين مقصورا على العلماء الدينيين الى درجة كبيرة . ومن ثم دخل في صراع مباشر مع المؤسسة الدينية . وبعدئذ حسم ذلك الصراع بأن قام بدور مزدوج : دور قائد المجتمع الاسلامي ودور المفسر الوحيد للشريعة . وتلك هى نفس الطريقة التى سبق أن لجأ اليها الامبراطور أكبر Akbar فى الهند المغولية فى أواخر القرن السادس عشر . ثم راح بعدئذ يشن الهجوم والانتقادات على العلماء الدينيين لقيامهم ببث نظريات غريبة لم تكن فى أى وقت من الأوقات جزءا من تعاليم النبى محمد صلى الله عليه وسلم . ثم حرمهم من حق اعلان الجهاد وأكد أنه لا يمكن شن الجهاد الا بناء على أوامر صادرة من الحاكم . ونظرا لأنه قد أعلن عن نفسه بأنه « مجتهد » وأنه مفسر للشريعة فقد قام بطبع ونشر العديد من الكتيبات والنشرات التى تناول أسس الاسلام والجهاد والنصائح الدينية . ولكى يدعم مركزه كزعيم للأمة الاسلامية فإنه استولى على « الأوقاف » الدينية مما أدى الى تدمير الاكتفاء الذاتى الاقتصادى للعلماء الدينيين . وقلل من أهمية رجال الدين وحولهم الى مجرد بيروقراطيين حكوميين . بل أمر بضرورة عقد امتحانات رسمية لهم من أجل التأكد من مدى صلاحيتهم لتقلد الوظائف الحكومية . وبحرمائه العلماء من حق تفسير الشريعة وتحولهم الى مجرد موظفين حكوميين يعتمدون على خزائنه المالية والتحكم فى أعدادهم من خلال ادخال أسلوب الامتحانات الرسمية التى تعقد لهم فإن عبد الرحمن قد هدم بذلك مركزهم وهيبتهم الى درجة خطيرة . بل أضفى الطابع العقلانى على النظام القانونى حيث قام بتقسيمه الى : الشريعة والقانون

« بمعنى القانون الادارى والقانون المدنى ) ثم القانون القبلى .  
وأوكل مهمة الفصل فى المنازعات المالية والتجارية الى « مجلس  
التجارة » . وعين نفسه فى منصب قاضى القضاة أو القاضى  
الأعلى .

وكان من المحتم أن يؤدي تركيز السلطة على هذا النحو الى  
أثارة مطالب تعويضية . وبزغت تلك المطالب أثناء فترة الحاكم  
الذى جاء بعد عبد الرحمن والذى يسمى : حبيب الله ( ١٩٠١ -  
١٩١٩ ) . الا أن المطالبة بتطبيق نظام ملكى دستورى لم تصدر  
عن رجال الدين وانما صدرت عن العلمانيين الليبراليين الذين  
كانوا منبهرين ومعجبين بالثورة الدستورية فى ايران . وكانت  
نتيجة ذلك أن قام الحاكم بتنفيذ حكم الاعدام فى بعض قادتهم علاوة  
على ايداع الكثيرين منهم فى السجون .

واتبع حبيب الله فكرة التحالف الثلاثى الذى يضم الامبراطورية  
العثمانية وايران وأفغانستان لى يكون هذا التحالف بمثابة حاجز  
ضد التوسيع الروسى وهى نفس الفكرة التى آمن بها الحاكم  
السابق عليه . ومنذ عام ١٩١١ فصاعدا عاشت  
تجربة الجامعة الاسلامية أو البان اسلام **Pan-Islmism**  
أو تحالف الشعوبية الاسلامية التى دعمها وعمقها حبيب الله فى  
همة ونشاط . اذ وجد فى البان اسلام مفهوما ذهنيا مفيدا يحمل  
على توحيد رعاياه الذين تجتاهم الخلافات العرقية علاوة على  
تقوية وتدعيم الاستقلال الوطنى . وفكرة البان اسلام قد لقيت  
اعجابا من جانب التقليديين ومن جانب ذوى الآراء العصرية على  
حد سواء . اذ وجد فيها ذوى الآراء العصرية فرصة ذهبية لاضفاء  
الطابع العقلانى والتجديد من حيث هو وسيلة لتدعيم الملكية  
والدفاع عن أفغانستان وعن الاسلام . الا أن حبيب الله رفض

الوقوف الى جانب تركيا العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى مما أدى في النهاية الى اغتياله في عام ١٩١٩ .

وجاء بعده الحاكم أمان الله ( ١٩١٩ — ١٩٢٩ ) . وبدأ أمان الله حكمه مبدئياً حماساً شديدة لفكرة البان اسلام . فشن حرب جهاد ضد البريطانيين على طول الحدود مع الهند بهدف استعادة أراضي البوشتون التي كانت بريطانيا قد ضمتها الى الهند وبهدف استعادة الحق في تسيير شؤون العلاقات الخارجية لدولته مما أدى الى تدعيم الروابط الاسلامية بينه وبين القبائل المتواجدة في مناطق الحدود . وقد فشلت حملته من الناحية الحربية ولكنها حققت نجاحاً سياسياً : اذ أصبح له الحق في تسيير دفة الشؤون الخارجية لأفغانستان . وفي مارس ١٩٢١ أبرم معاهدة مع تركيا تقضى باعتراف أفغانستان بأن تركيا هي المرشدة للسلام والراعية للخلافة الاسلامية . وبعد ثلاثة شهور قام بالتوقيع على معاهدة مع ايران متحرراً بذلك نحو التضامن والتماسك الاسلامي وفقاً للمبادئ التي سبق أن أرساها جمال الدين الأفغاني منذ عشرات السنين . وقد أدت هذه الأعمال والاجراءات التي قام بها أمان الله الى توحيد العلماء الدينيين والعلمانيين المجددين والوقوف صفاً واحداً وراءه .

ولكن أمان الله كان يدرك تماماً أن أفغانستان مغلقة وتحوطها الأرض اليابسة من جميع الجهات وتنقصها الموارد المالية الخاصة بها ومن ثم فهي بحاجة لأن تكون لها علاقات طبيعية وحميمة مع جيرانها غير المسلمين الأقوياء : الهند البريطانية وروسيا البلشفية . لذلك قام بالتوقيع على معاهدة مع بريطانيا في نوفمبر ١٩٢١ عقب مرور ٩ شهور على توقيعها على معاهدة شاملة مع روسيا السوفيتية .



وفى الداخل لم يستطلع الاحتفاظ بتأييد العلماء الدينيين والعلمانيين هـى آن واحد وبشكل مستمر . فعندما افتتح مدارس حكومية لتدريب الاداريين والمهنيين المستقبليين علاوة على تحريره لوضع المرأة من خلال فرض حظر على زواج الفتيات الصغيرات اللاتى لا تسمح سنهن بالزواج بالاضافة الى نقل تنظيمات الشؤون العائلية من رجال الدين الى الدولة واجه معارضة عنيفة من المؤسسة الدينية . وجاءت أولى دلائل الاستياء والتمرد عندما حدث تمرد قبلى فى المنطقة الشرقية فى مارس ١٩٢٤ . وتمكن أمان الله من سحق ذلك التمرد بنجاح كامل ولكن استنجره لطيارين من الروس والالمان من أجل الطائرة التى استخدمت فى الحملة العسكرية قد أثار الاستياء الشديد وخاصة من جانب الناس التقليديين المحافظين : اذ رأوا أن تدخل الكفار الملحدين فى الخلافات الداخلية الخاصة بالمسلمين يعتبر أمرا لا يطاق ولا يمكن التسامح بشأنه . واستكمل أمان الله انتصاره بأن فرض حظرا على الاتصال بين القوات المسلحة ورجال الدين المحليين علاوة على فرض الحظر على انضمام أفراد الجيش الى الطرق الصوفية . وهكذا يمكن القول بأنه قد توسع فى نفوذه وسلطانه على حساب العلماء الدينيين .

وأعطى طابعا رسميا للأوضاع بأن قدم للأمة دستورا مكتوبا فى عام ١٩٢٣ يتمشى مع الخطوط والأفكار الواردة بالدستور الايرانى لعام ١٩٠٦/١٩٠٧ . وأشار فى ذلك الدستور الى أن الاسلام هو الدين الرسمى لأفغانستان وأن اسم الحاكم ينبغى أن يذكر فى المراسم الدينية .

وبعد أن اطمأن أمان الله على تدعيم مركزه وسلطانه على ذلك النحو قام برحلة طويلة استغرقت تسعة شهور ( من أكتوبر ١٩٢٧

الى يوليو ١٩٢٨ ) الى الهند والشرق الأوسط وأوربا وهى الرحلة التى بذرت البذور التى أدت فى النهاية الى خلعها والاطاحة به .  
فى حفلات الاستقبال التى أعدت له فى أوربا ظهرت زوجته ثريا بدون أن تكون مرتدية الحجاب وبدأت الصور الفوتوغرافية التى التقطت لثريا تتداول فى كابول .

ولدى عودة أمان الله الى أفغانستان أصدر أوامره ببعث اجتماع للمجلس الوطنى العمومى Loya Jirga ووافق هذا المجلس على الاقتراح الذى تقدم به أمان الله بشأن انشاء حكومة نيابية تركز على أصوات جميع الناس كما وافقوا على اقتراحه الذى يقضى بتنفيذ التجنيد الاجبارى للجيش بالنسبة لجميع الرجال .  
الا ان المجلس عارض ادخال نظام التعليم الحديث بالنسبة للفتيات وعارضوا فكرة وضع حد أدنى للسن بالنسبة لزواج الفتيات .  
وعندما حاول أمان الله تنفيذ اصلاحات تشريعية ومالية اعترض العلماء الدينيون وأشاروا الى ان الشريعة الاسلامية التى هى مستقاة من الله كافية تماما وليست فى حاجة الى ادخال تحسينات عليها أو تطويرها .

ولكن أمان الله لم يكن بالشخص الذى يشيه أحد عن عزمه .  
اذ أصدر قرارات تحرم تعدد الزوجات بين الموظفين الحكوميين وتنص على السماح للنساء بخلع الحجاب علاوة على مطالبة جميع الأفغان المقيمين فى كابول أو الذين يقومون بزيارتها بارتداء الزى الغربى والقبعة الأوربية ابتداء من مارس ١٩٢٩ فصاعدا .  
ورأى رجال الدين أو الأوامر الخاصة بارتداء الزى الأوربى وخاصة القبعة الأوربية تعتبر نوعا من الكفر والالحاد . ثم أصدر الملك أوامره بمنع الطلبة الدينيين من الالتحاق بجامعة ديوباند Deoband بل منع العلماء الدينيين الذين تلقوا تدريبات خارج

أفغانستان من التدريس . ومما زاد الطين بلة أن الملكة ثريا ظهرت في احتفال رسمي بكاپول في أكتوبر ١٩٢٨ بدون ارتداء الحجاب بل ظهرت معها مائة أخرى من نساء غير محجبات . وهنا قال أحد رجال الدين معلقا في سخريه لاذعة « عندما تدخل الإصلاحات يخرج الاسلام » .

وعندما بدأ فضل محمد مجددى Mujaddidi في جمع توقيعات الناس الذين يعارضون الإصلاحات قام الملك أمان الله بالقضاء القبض عليه . فتفجرت الثورات في كابل . وفي نوفمبر انضمت قبائل شنواري Shinwaris المتواجدة بالأماكن الشرقية الى قبائل بوشتونية أخرى في تمرد ضد الملك ، فأوفد أمان الله قوات ملكية حربية الا أن هذه القوات تخلت عن ولائها للملك وانضمت الى القبائل . وهذا التمرد الذي تفجر في داخل القوات الملكية قد نبع من الاستياء من الحركات الإصلاحية التي أصدرها هذا الحاكم العلماني علاوة على الاستياء من تعيين مستشارين عسكريين أوروبيين .

وفي أوائل يناير ١٩٢٩ قامت قوات عسكرية بقيادة باشا ساقو Pacha-e Saqqao (والجيشي المعروف هو : ابن السفنا) وهو رجل من قطاع الطرق ومتمركز في سهل شمالي Shamali الذي يقع الى الشمال من كابل والذي يعتبر معقلا للأصاوين بفرض حصار عسكري على كابل . وكان قد حصل على تأييد فعال من جانب العلماء الدينيين الذين كانوا بدورهم قد كسبوا الرأي العام لصالحهم . وتحت الضغوط التي مارسها باشا ساقو اضطر أمان الله للوفاقة على اغلاق مدارس البنات والغاء قراره السابق بشأن خلع النساء للحجاب بالاضافة الى الغائه للزى الأوربي والسماح للطلبة الدينيين باستكمال تعليمهم العالي في

جامعة ديوبند والغاء الامتحان الذى ينبغى أن ينجح فيه العلماء لكى يسمح لهم بمزولة مهنة التدريس والذى كان قد صدر بقرار من عبد الرحمن . ثم وعد بتعيين « محتسبين » أو مشرفين دينيين فى الاقاليم لكى يتم التأكيد من أن المفاهيم والمبادئ الاسلامية يتم مراعاتها وتنفيذها . والأهم من ذلك كله أنه وائق على الالتزام بالشرعية ونقا للتفسيرات التى يقدمها العلماء الدينيون بالاضافة الى موافقته على أن يحكم البلاد من خلال مشاورات مع مجلس يضم ٥٠ من البقادة والزعماء الدينيين والقبليين .

ومع ذلك فان كل هذه التنازلات لم تكن كافية لانتقاد عرش أمان الله ، فعفى ١٤ فبراير استولى باشا ساقو على كابول وورد بأن ينفذ حكم الشريعة . وبعد أن استولى على السلطة أكد على جميع الالفاءات التى أعلن عنها أمان الله وحل وزارتى العدل والتعليم وكلف رجال الدين بنسيير شؤون العمل فى المحاكم والمدارس .

وإذا كان باشا ساقو هو الذى قام بمهمة الاطاحة بأمان الله فان نجاحه فى مهمته قد ارتكز أساسا على مساندة العلماء الدينيين له علاوة على المساندة الحاسمة من جانب الجماهير . وقصصارى القول أن العلماء الدينيين كانوا هم السبب الرئيسى فى اسقاط الملك فى أفغانستان الدولة السنية ، وهو انجاز قد كرره مرة أخرى العلماء الدينيون بعد مرور خمسين عاما عندما اسقطوا النظام الملكى فى ايران الشيوعية . وكان هذا الحادث غريبا لأن معظم رجال الدين كانوا موظفين حكوميين . والقادة الصوفيون واتباعهم هم فقط الذين كانوا يشكلون قوة اسلامية مستقلة . ولم يكن من قبيل المصادفات أن عائلة المجددى فى كابول هى أول من قامت بالتعبير عن العاطفة الاسلامية وتحريكها ضد الملك . . وعلى العكس من رضا بهلوى شاه فى

ايران الذي صعد الى السلطة كقائد عسكري وشيد جيشا قويا قبل تحديه لرجال الدين فان امان الله كانت تقصه قوة علمانية على هيئة جيش مدرب ومنظم ومخلص . ولم يتمكن الجيش في افغانستان من الاستيلاء على السلطة الا في عام ١٩٥٣ وكان آنئذ تحت قيادة محمد داوود خان .

وقد فشل باثا سابقو في تدعيم منصبه . اذ تغلبت عليه واكتسحته النوضى السياسية والازمات الاقتصادية الحادة . وفي اكتوبر ١٩٢٩ تم الاطاحة به على ايدي محمد نادر خان وهو ابن عم امان الله وشقيق الزوجة الثانية للملك حبيب الله ، وذلك بمساعدة : فضل عمر مجددي المتواجد في كابل وشير اغا نجيب الزعيم الديني المتواجد بالمدينة الشرقية لجلال اباد .

وتعتبر الفترة القصيرة التي قضاها الملك نادر شاه هي قمة ازدهار الاصولية الاسلامية في افغانستان . اذ أنشأ « جماعة العلماء » او جمعية العلماء ومنحها السلطة اللازمة لكي تقوم بتفسير الشريعة واصدار كافة القوانين والتشريعات الحكومية بما يتمشى مع الشريعة الاسلامية . واصدر نادر شاه اوامره بضرورة أن تكون كافة القوانين المدنية والجنائية مبنية ومرتكزة أساسا على الشريعة الاسلامية . وأنشأ « ادارة الاحتساب » او ادارة المراقبة الدينية من أجل الاشراف على الالتزام بالدين الاسلامي والتمسك بمبادئه مع اعطاء التعليمات بتنفيذ القيود الاسلامية بكل دقة وخاصة فيما يتعلق بالخمر والكحوليات . كما كان يستشير العلماء في كافة المسائل المهمة المتعلقة بالنواحي الاجتماعية والتعليمية والسياسية . وكان الاسلام والتراث هما العمودين اللذين ساندوا في ثبات وقوة حكومة نادر شاه .

وفى دستور عام ١٩٣١ أضفى نادر شاه الطابع الرسمى على الدور الذى يقوم به الدين ومشايخ رجال الدين . اذ جاء بالمواد الأربع الأولى : أن الدين الرسمى للدولة هو الاسلام على المذهب الحنفى وأن الملك ينبغى أن يكون مسلما حنفيا وينبغى أن يذكر اسم الملك فى صلاة الجمعة وأن يلتزم الملك بعدم تعيين أشخاص غير مسلمين فى مناصب الوزراء بالحكومة . واضفت مواد أخرى الطابع الدستورى على السلطات التى كان نادر شاه قد منحها للعلماء الدينيين وللمحاكم الشرعية كما اعترف رسمياً بسيادة المذهب الحنفى على باقى المذاهب الاسلامية الأخرى . كما أشارت احدى الفقرات الى منح المواطنين الأفغان الحق فى تعليم العلوم المدرسية الاسلامية أو العلوم الأخلاقية الاسلامية سواء فى جلسات خاصة أو فى مؤتمرات وحلقات دراسية علنية . وهذا قد دعم حق رجال الدين فى تعليم الأطفال المسلمين وبذلك عادت الى الملا. مهمة التدريس الدينى بالمدارس الابتدائية واصبح بذلك التثقيف والتعليم الدينى هو الاهتمام الرئيسى للنظام التعليمى .

وتضمن الدستور النصائح القرآنية فيما يتعلق بأهمية استشارة جماهير الناس : « وشاورهم فى الأمر » صدق الله العظيم . « وأمرتهم شورى بينهم » صدق الله العظيم . وأشار الدستور الى ضرورة انشاء « مجلس استشارى » يركز على أصوات جميع الأفغان الذكور .

واجتمع البرلمان الأول فى عام ١٩٣١ ولكن نادر شاه لم يبق على قيد الحياة لكى يشهد بنفسه البرلمان الثانى الذى تكون عقب مرور ثلاث سنوات : اذ تم اغتياله فى نوفمبر ١٩٣٣ . وذهب العرش الى ابنه محمد زاهر شاه الشاب البالغ من العمر ١٩:

عاما . وقد مارس السلطة نيابة عنه ثلاثة من أعمامه حيث أصبح واحد من أعمامه الذى يسمى محمد هاشم خان رئيسا للوزراء وظل متقلدا هذا المنصب حتى ١٩٤٦ .

وخلال هذه السنوات بذلت الكثير من الطاقات الذهنية فى محاولة تشخيص الأسباب التى أدت الى تخلف أفغانستان والى الحالة المتدهورة الفقيرة للمسلمين فى أفغانستان بوجه عام . وألقى المفكرون التقليديون الدينيون المتسمون بالورع والتتوى باللوم على الحكام المسلمين وأشاروا الى أن الحكام المسلمين هم المسؤولون عن الحالة المسفة التى وصلت اليها البلاد وأن كل ذلك يرجع الى انحراف الحكام المسلمين عن اتباع طريق الاسلام الحقيقى والشريعة الاسلامية الحقة . ولكن دعاة التجديد الوطنيين لم يوافقوا على ذلك الرأى الذى أبداه المماء الدينيون وأشاروا الى أنه لا يوجد تناقض داخلى ما بين الاسلام والتقدم . وأضافوا أن الاسلام يحث المؤمنين على السعى لتحصيل العلم والمعرفة والعلوم الحديثة . بل ذهبوا فى تقديراتهم الى أن الشريعة تقدم الارشاد نحو تحقيق الرفاهية والسعادة والخير لجاهير الناس علاوة على تحقيق التقدم والعدالة وأن مثل تلك المبادئ ممكنة ادراكها من خلال اعمال العقل والمنطق وذلك لن يتأتى الا من خلال التعليم والدراسة . وبكلمات أخرى فانهم وجهوا الدعوة الى ممارسة « الاجتهاد » أو التفسير الخلاق الذى ساد فى العالم السنى منذ قرون عديدة .

بل من وقت لآخر كانت جريدة « الفلاح Falah » التابعة « لجماعة الأمة » تنشر مقالا فى هذا الشأن . وأشار أحد كتاب هذه المقالات الى أن المفاهيم الأخلاقية للاسلام والقرآن كانت دائما صادرة الالهام نحو اصلاح الاجتماعى . وأشار كاتب آخر وهو

عبد الرزاق خان توليمشار الى أن المسلمين في العصور الحديثة باستطاعتهم الحفاظ على مجتمعاتهم وتراثهم الروحي من خلال انشاء قوة عسكرية . وهذه القوة العسكرية لا يمكن تحقيقها الا من خلال العلم الحديث والتكنولوجيا الحديثة . وأشار في مقاله الى أن الاسلام بحاجة للعلم الحديث والتقدم التكنولوجي من أجل أن يتمكن من الدفاع من نفسه .

ومع ذلك فقد كانت كل تلك الآراء تشكل أقلية ضئيلة بين غالبية ساحقة من رجال الدين الذين ينظرون الى اضماء الطابع الحديث على أنه متناقض مع القيم الاسلامية والتقليدية والتراثية . وكان مشايخ القبائل يؤيدون وجهة نظر العلماء الدينيين . ومع رسوخ اقدام هذين المركزين للقوى : العلماء ومشايخ القبائل في نية الأوضاع الراهنة أصبحت الحكومة الملكية جامدة وغير قادرة على اتخاذ أية اجراءات نحو الإصلاح .

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية التي ظلت أفغانستان واقفة على الحياد بشأنها تأكدت تماما أهمية العلم الحديث والتكنولوجيا . مما جعل الأسرة الملكية الحاكمة تدرك أن الأمر يستلزم سرعة العمل على ادخال الإصلاحات واضفاء الطابع الحديث حتى يمكن لها أن تحافظ على كيانها وعلى استقلال الأفغان علاوة على حل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية المتصاعدة .

وتزايد التعليم الحديث ولكنه كان يسير بخطوات بطيئة للغاية إذ بدأت جامعة كابول التي تأسست في عام ١٩٣٢ بإنشاء كلية للطب تابعة لجامعة ليونز بفرنسا تضم كلية للعلوم وأخرى للحقوق وثالثة للعلوم السياسية وذلك خلال العشر السنوات التالية ،



الا أن التعليم الدينى ظل يحظى بالاهتمام الرئيسى والاسبقية الأولى . فمناهج الدراسة بالمدارس الابتدائية والثانوية التى وضعت بمعرفة العلماء الدينيين كانت تركز تركيزا شديدا على الاسلام والتاريخ الاسلامى والمفاهيم الذهنية الاسلامية والقوانين الاسلامية والكلاسيكيات الفارسية . وفى عام ١٩٤٤ أنشأت الحكومة « مدرسة الارشاد فى الشريعة » ثم رفعت درجة هذه المدرسة بعد مرور ست سنوات لكى تصبح « كلية العلوم الدينية اللاهوتية » بجامعة كابول بالاتحاد مع جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة . وهكذا نرى أن الحكومة الملكية قد أنشأت نظاما يدار بمعرفة الدولة بحيث يمكن للمواطن الأعانى أن يصبح عالما دينيا بدون أن يغادر البلاد وكان ذلك بمثابة أسلوب جديد لتخريج أكاديميين دينيين بدون الحاجة لأن يلتحقوا بجامعات فى خارج أفغانستان .

وبوجه عام كان أنصار التجديد الوطنيون يكسبون أرضا على ما يبدو على حساب الزعماء الدينيين التقليديين على نحو تدريجى . ومن بين الدلائل التى تشير الى ذلك ظهور « حركة الشباب المتيقظ » فى عام ١٩٤٧ ، وهى حركة تضم المثقفين الذين يطالبون بادخال اصلاحات دستورية . وقام رئيس الوزراء شاه محمود بالسماح بحرية نسبية للناخبين فى الانتخابات البرلمانية التى كانت نتائجها فى الماضى تحدد مسبقا بمعرفة الاسرة الملكية . وفى البرلمان السابع ( ١٩٤٩ — ١٩٥٢ ) كان يوجد ٤٥ عضوا من الليبراليين من بين مجموع الأعضاء البالغ عددهم ١٢٠ عضوا . وكان لهؤلاء الليبراليين دور فعال فى السماح بدرجة من الحرية فى مجال الصحافة . فأدى هذا الى زيادة حدة التوتر بين المعسكر الدينى التقليدى والمعسكر الاصلاحى الوطنى . ورفضت السراى

الملكية مطالب الليبراليين التى تنادى بالمزيد من التوسع فى حرية الكلمة وحرية الصحافة علاوة على المناداة بتكوين أحزاب سياسية .

وقد أدى هذا الى زيادة قوة الليبراليين وخطورتهم . وأصبحت مجالات المعارضة الثلاث تتسم بالجرأة والصوت العالى علاوة على مهاجمة رجال الدين ووصفهم بالتعصب والجهود . كما قام الطلبة بجامعة كابول التى تعتبر معقلا للاصلاحيين الوطنيين بتكوين « اتحاد الطلبة » وراحوا يتناشون فى موضوعات تجديدية مثل الشيوعية والماركسية والاحاد . بل قام الطلبة الراديكاليون بعرض مسرحيات على خشبة المسرح تتسم بالسخرية من العائلة الملكية وبعض كبار الشخصيات الاسلامية . وأدرك رئيس الوزراء محمود أن هذه التطورات شديدة للغاية ، ولا يمكن التسامح بشأنها . فقام بإلغاء «اتحاد الطلبة » فى عام ١٩٥١ وبعدئذ ألغى منظمة « الشباب المتيقظ » . ثم سارع الى إلقاء القبض على زعماء المعارضة قبل حلول الانتخابات البرلمانية لعام ١٩٥٢ .

وأدركت الأسرة الملكية وهى صاحبة السلطة العليا النهائية فى البلاد أن القادة الاسلاميين والقبليين الذين يميلون الى الاتجاه التقليدى المحافظ على نحو غير واضح يشكلون حاجزا منيعا أمام التقدم الحضارى واضفاء الطابع الحديث . وهى فى نفس الوقت كانت تدرك أن المجموعة المنافسة التى تضم المجددين الدستوريين تشكل تهديدا على سيادتها فى المجال السياسى . ولكن من حسن حظ أفراد الأسرة المالكة أن هذا الصراع المتصاعد بين التقليديين والتجديدين قد أدى الى اصابة كلا المعسكرين بالضعف والوهن . ومن ثم أصبحت الفرصة سانحة أمام الأسرة الحاكمة الملكية أن تدخل فى الدراما السياسية الملاعب النشاط الخاص بها ألا وهو :

الجيش .

ففى سبتمبر ١٩٥٣ قام محمد داود خان قائد الثوات المركزية الحربية بكابل وهو فى نفس الوقت ابن عم الملك زاهر شاه بانقلاب ضد رئيس الوزراء محمود بعد الحصول على موافقة القصر الملكى وأصبح رئيسا للوزراء . وقد اعتهد فى انقلابه هذا على تأييد الاتحاد السوفيتى — وهو الجار القوى الذى كونت معه كابل علاقات وثيقة عقب الثورة البلشفية — وذلك لأسباب تاريخية وأخرى معاصرة . فمع إبرام معاهدة مع الاتحاد السوفيتى فى أوائل فبراير ١٩٢١ أصبحت أفغانستان تحت حكم أمان الله هى أول دولة تعترف بالحكومة الثورية الروسية . وعقب وقوع حادثين مهمين فى عام ١٩٢٥ عند الحدود بين البلدين قامت الدولتان بالتوقيع على معاهدة حياد وعدم اعتداء وهى المعاهدة التى تجددت وتدعمت عقب مرور خمس سنوات . وظلت العلاقات قوية بين الدولتين مع حلول الحرب العالمية الثانية بسبب موقف الحياد الذى التزمت به أفغانستان خلال الصراع الدائر فى هذه الحرب . ومما يثير الدهشة أن خلق دولة الباكستان — وهى دولة مسلمة — فى أغسطس عام ١٩٤٧ قد استقبلته كابل فى استياء شديد . إذ أن جلاء بريطانيا عن شبه القارة الهندية قد أدى الى احياء مطالبة الأفغان بأراضى قبائل البوشتون المتواجدة فى داخل حدود دولة الباكستان . وهى المطالب التى ظلت غير منفذة وغير مستجابة منذ عام ١٨٩٣ عندما قام عبد الرحمن بالتوقيع على اتفاقية مع الهند البريطانية لتخطيط الحدود التى تسببت فى تقسيم قبائل السوشتون العديدة بالاقليم . وتبنت أفغانستان حركة تنادى بخلق دولة بوشتونستان Pushtunistan المستقلة بحيث تضم قبائل البوشتون التى تعيش فى شرق حدودها السابقة على عام ١٩٤٧ مع الهند البريطانية . وعارضت الباكستان بشدة الحركة الداعية لإنشاء دولة بوشتونستان ، مما أدى الى تدهور

العلاقات بين أفغانستان والباكستان . ونظرا لأن الباكستان كانت تميل في علاقاتها الى المعسكر الغربى علاوة على تعميق روابطها الرسمية مع أمريكا من خلال عقد اتفاقية أمن مشتركة مع أمريكا . فى عام ١٩٥٤ تم عقد اضطرت كابول الى الميل فى اتجاه موسكو . ورفضت أمريكان بيع أسلحة لأفغانستان لكيلا تزعج حليفها الباكستان . وقد أدى ذلك الى قيام داوود خان بجلب مستشارين عسكريين سوفيت لكي يعملوا فى الأكاديميات العسكرية الأفغانية بالإضافة الى ايفاد ضباط عسكريين من الأفغان الى الاتحاد السوفيتى لتلقى المزيد من التدريبات العسكرية هناك . ونظرا لأن أفغانستان كانت حريصة فى نفس الوقت على تنمية البلاد اقتصاديا فانها اجتذبت الأموال والخبراء من أمريكا وغيرها من الدول الغربية من أجل تنفيذ المشروعات الاقتصادية .

وكان داوود خان شخصية أوتوقراطية ولذلك أراد أن يركز سلطة الدولة من خلال الجيش مع العمل على تنفيذ التقدم الاجتماعى والاقتصادى من خلال اصدار قرارات تنفيذية وليس من خلال المناقشات الديمقراطية والاتفاق الجماعى فى الرأى . وكان لا يتسامح مع مراكز القوى المستقلة فى الرأى مثل «جماعة الأمة» وسلب منها السلطات التى سبق أن منحها لها نادر شاه . وبدا فى تعيين رجال الدين المتخرجين حديثا فى كلية الدين بجامعة كابول فى وزارة العدل ووزارة التعليم لكي يحلوا محل العلماء الدينيين القدامى . كما حاول أيضا تحرير المرأة متخذا فى ذلك خطوات بطيئة متسمة بالحرص والحذر . وفى عام ١٩٥٧ استخدم راديو كابول أصوات مذبذبات وأصوات مخفيات . وأعقب ذلك احتجاجات خفية من الناس الا ان الاحتجاجات لم تستمر فترات طويلة . وفى السنة التالية أوفدت الحكومة وفدا نسائيا الى الأمم المتحدة بنيويورك وكان ذلك اجراء لم يسبق له مثيل فى أفغانستان

كما استخدمت شركة طيران آريانا الافغانية المملوكة للدولة فتيات استقبال ومضيفات جويات وذهبن الى عملهن بدون ارتداء الحجاب كما تم توظيف فتيات أخريات غير محجبات فى مكاتب البرق والبريد . وفى هذا الجو من التحرر النسبى ظهرت فى احتفالات الاستقلال التى أقيمت فى ٢٥ أغسطس ١٩٥٩ زوجات كبار الموظفين الحكوميين وكريماتهم بدون ارتداء الحجاب فوق منصة العرض : وهو اجراء ذكر كبار التقليديين بما حدث فى أيام أمان الله منذ ٣١ عاما . واحتج العلماء الدينيون فى عنف شديد مثلما فعلوا من قبل . ورد عليهم داوود خان قائلا لهم انهم اذا عثروا على دليل واضح تماما بشأن ضرورة ارتداء الحجاب فانه سيفرض زى الحجاب على جميع النساء والفتيات . وعلى الرغم من أن العلماء فشلوا فى العثور على دليل يؤكد على ضرورة ارتداء الحجاب فانهم استمروا فى معارضتهم لخلع الحجاب . وسرعان ما راحوا يلقون الخطب الموجهة ضد الحكومة ويشيرون فى خطبهم الى أن داوود خان قائد مناهض للإسلام لأنه يسمح للشيوخيين الملحدين وللمسيحيين الفرييين بتقويض وهدم أسلوب الحياة الاسلامية . وكانوا متضايقين بصفة خاصة من تواجد المستشارين الروس الحربيين منهم والمدنيين فى داخل أفغانستان حيث كانوا يدركون أن الروس سيعملون على ابعاد الأفغان عن الدين الاسلامى حيث سبق لهم أن فعلوا ذلك فى السكان المسلمين المتواجدين فى جمهوريات أواسط آسيا التابعة للاتحاد السوفيتى . وردت الحكومة الأفغانية بأن ألقت القبض على ٥٠ من قادة رجال الدين ووجهت لهم تهمة الخيانة والهـرطقة فى الدين . وأدت هذه الاتهامات الخطيرة الى تخويف العلماء وتخفيض روحهم المعنوية حيث كانوا يدركون مدى القبضة الحديدية التى يحكم بها داوود

خان البلاد . وتم الافراج عن رجال الدين المحتجزين بالسجون بعد أسبوع وبعدئذ اختفى الاحتجاج على النساء غير المحجبات . وكان ذلك على النقيض تماما مما حدث أثناء حكم أمان الله . وكان السبب الرئيسى فى ذلك هو أن داوود خان كان يمتك جيشا حديثا مدريا ومنظما تنظيما جيدا ولم يكن أمان الله لديه مثل هذا الجيش .

وخرج داوود خان من منصب رئيس الوزراء لم يغير الحقيقة التى مفادها أن الجيش كان هو أهم مركز للسلطة فى البلاد وأنه كان يدين بالولاء الشديد للعائلة الملكية . وقد أدى هذا الى طهانة الملك زاهر شاه الذى كان متواريا وراء الكواليس بسبب تقلد أعماله للسلطة وبسبب تقلد ابن عمه داوود خان للسلطة بعد أعماله . والآن قرر الملك أن يبرز فى الأفق ويصبح فى المقدمة . ونظرا لأنه كان يدرك أن الأمر يستلزم ادخال اصلاحات سياسية ثمانية أعلن فى أكتوبر ١٩٦٤ عن اعداد دستور ليبرالى جديد . ويعتبر هذا الدستور بداية للنظام الملكى الدستورى . ويسمى هذا الدستور فى أفغانستان باسم « الديمقراطية الجديدة » وهو يعتبر الفصل الأخير من التاريخ الطويل للنظام الملكى فى البلاد . اذ شهدت هذه المرحلة تغييرات جوهرية فى تكوينات القوى الإسلامية .

وكان الدستور الجديد — شأنه شأن الدستور السابق عليه — يفرد للإسلام أولوية أولى فى المجتمع . اذ نصت المادة الأولى على أن الإسلام هو الدين المقدس لأفغانستان وأن الملك ينبغي أن يكون مسلما على المذهب الحنفى . والمادة ٦٤ تنص على إلغاء أى قانون « يتناقض مع المبادئ الأساسية للدين الإسلامى المقدس » . وتنص مادة أخرى الى أنه فى حالة عدم تواجد قانون فإنه ينبغي تطبيق النصوص الواردة فى المذهب الحنفى .

وفى عام ١٩٦٤ أسفر الدستور عن تكوين برلمان يتألف من :  
مجلس للشعب يتألف كل أعضاء من نواب منتخبين ومجلس  
للنبل يتألف جزئيا من أعضاء منتخبين . ومجلس الشعب الذى  
عقد اجتماعا فى أكتوبر ١٩٦٥ كان يتألف من أربع مجموعات  
رئيسية : رجال الدين بقيادة أسرة المجددين والمعلمين الوطنيين  
الذين يتطلعون لأن تقوم الملكية بتنفيذ سياسات تشهيدية  
والديمقراطيين الذين يرغبون فى تنفيذ ديمقراطية وفقا للأسلوب  
الغربي والماركسيين .

وبالنسبة لرجال الدين كان البرلمان بمثابة منبر على المستوى  
القومى وهو وضع أفضل مما كان عليه الحال فى الماضى حيث  
كانوا يعملون على المستوى الاقليمى أو المحلى . الا أنهم مع ذلك  
أصبحوا يفقدون نفوذهم وسلطتهم تدريجا حيث كان يتم تعيين  
الخريجين الجدد فى كلية الدين التابعة لجامعة كابول فى المناصب  
الادارية والدينية المهمة التى كانوا يشغلونها منذ أيام أن كان  
داود خان رئيسا للوزراء . أى كان يتم استبدال الخريجين  
الجدد بهم . هذا بالإضافة الى أن جامعة كابول — شأنها شأن  
البرلمان الجديد — كانت تعذر الاتصالات والعلاقات الداخلية بين  
القبائل وكذلك العلاقات الداخلية بين الاقاليم نظرا لأن نصف عدد  
الطلبة بجامعة كابول ( العدد الكلى ٣٠٠٠ طالب وفق احصاء  
١٩٦٢ ) كانوا من الاقاليم .

وكانت كلية الدين التى يبلغ عمرها الزمنى ١٢ عاما برئاسة  
البروفسور غلام محمد نيازى الذى انضم الى جماعة الاخوان  
المسلمين فى مصر أثناء فترة دراسته بالأزهر الشريف . وفى وقت  
معين كان يقوم بالتدريس فى هذه الكلية اثنان من الاساتذة المصريين  
وأستاذ واحد هندى من اتباع المفكر الاسلامى أبو الأعلى

المودودي Maududi (١٩٠٣ - ١٩٧٩) . وتقد قام هؤلاء الاساتذة الثلاثة بالاشتراك مع مجموعة من المنقذين المحليين بقيادة صبغة الله المجددي بترجمة مؤلفات سيد قطب ومؤلفات المودودي الى اللغة الفارسية بحيث أصبحت متاحة أمام طلبة الدين وغيرهم من الطلاب الآخرين . وهذه المؤلفات التي كتبها سيد قطب قدمت الاسلام من حيث هو ايدولوجية حديثة ومعاصرة وليس على هيئة عقيدة غامضة مرتبطة بالعلماء الدينيين التقليديين وعلماء الملا بالقري . وقد اتضح أن « مجلة الشريعة » التي تصدرها كلية الدين مفيدة ومثمرة للغاية من حيث فتح باب المناقشات حول النشء الجديد من الأصوليين الاسلاميين .

وبحلول عام ١٩٦٥ شعر الطلبة الاسلاميون بأنهم أصبحوا اقوياء بما فيه الكفاية وعلى نحو يسمح لهم بتنظيم مظاهرة وتوزيع منشور صادر تحت عنوان « نشرة دينية عن الحرب المقدسة » . وكانت « منظمة المسلمين الشباب » هي الواجهة العامة للأصوليين الاسلاميين الذين كانوا يعملون في الخفاء تحت اشراف وتوجيه مجلس برئاسة البروفسور نيازي . وفي عام ١٩٧٠ قرر المجلس الخروج عن نطاق الحرم الجامعي وانشاء خلايا في داخل الجيش . وبعد عامين غيروا هدفهم من الاحياء الروحي للمجتمع الى اكتساب السلطة السياسية والاستحواذ عليها . وعقب العمل بالدستور انتخب الأصوليين البروفسور برهان الدين رباني رئيسا والبروفسور عبد الرسول سيف Sayyaf نائبا له .

وقامت مجلة جاهايز Hahiz ( بمعنى الصباح ) وهي موالية ومناهضة للماركسية وقد أسست في أكتوبر ١٩٦٨ بتقديم برنامج سياسي « للمسلمين الشباب » وغيرهم من الأصوليين الآخرين . وكان هذا ناجما عن قانون الصحافة الذي أقره البرلمان



فى عام ١٩٦٥ وصدق عليه الملك زاهر شاه . ولكن عندما أصدر البرلمان مشروع قانون بشأن الأحزاب السياسية رفض الملك الموافقة على ذلك المشروع . وفعل نفس الشئ بالنسبة للتشريع الخاص بالمجالس الاقليمية والمحلية .

وبحلول أواخر الستينيات من عام ١٩٦٠ كان التعليم فى المرحلة الثانوية قد انتشر بسرعة حتى أنه لم يتمكن من الالتحاق بجامعة كابل سوى عدد ضئيل من الذين تدموا بطلبات الالتحاق بها . وغالبا ما كانت تتخذ احتجاجات الطلبة بشأن التدريس وغيره من التسهيلات والخدمات الأخرى اتجاها سياسيا ومنعظفا سياسيا حتى أن جامعة كابل أصبحت بؤرة من الماركسيين والأصوليين الاسلاميين . وكان الأصوليون الاسلاميون يعارضون كثيرا أنوثراطية وفساد العائلة الملكية علاوة على معارضتهم لموجة الماركسية المتصاعدة . وفى داخل المدارس الثانوية وكليات التربية والمعاهد الفنية تزايدت الخلافات فى الرأى بعد أن أصبحت تضم أعدادا كبيرة من الطلبة علاوة على تزايد الخريجين العاطلين الذين يلقون باللوم على الملكية الفاسدة ويتهمونها بأنها السبب فى المشاكل التى يعانون منها وبذلك يقومون بتأييد الحلول الراديكالية التى يقدمها الماركسيون أو الأصوليون الاسلاميون .

وأدركت الأسرة الملكية الحاكمة أن الماركسيين بصفة خاصة يشكلون تهديدات خطيرة نظرا لأن الطلبة اليساريين قد دأبوا على التحالف مع عمال المصانع والائتراك معهم فى الاضرابات التى يقومون بها . لذلك اتخذت الحكومة الاجراءات التى تضمن لها الحاق الهزيمة بالمرشدين الماركسيين فى الانتخابات البرلمانية لعام ١٩٦٩ . وفى ابريل ١٩٧٠ صدرت فى مجلة برشماس Parcham (بمعنى : العلم ) الماركسية قصيدة تحت عنوان

« لينين عليه السلام » وتعبير « عليه السلام » عادة لا يطلق إلا على محمد صلى الله عليه وسلم وقد نشرت تلك القصيدة فى ذكرى مولد لينين فانتهزت الحكومة هذه الفرصة ودفعت العلماء الدينيين لكى يمارسوا ضغوطا ضد الماركسيين . وشجعت العلماء وأتباعهم على تنظيم مظاهرات ضد هذه المجلة اليسارية . ففعلوا ذلك . ولكنهم لم يشفوا عند هذا الحد . أذ راحوا يهاجمون الحكومة أيضا نظرا لانسيانها وراء العلمانية ووراء التواجد المتصاعد للطالبات بالمدارس الثانوية والمؤسسات والمعاهد التعليمية العليا وأشاروا الى أن ادخال جرعات كبيرة من التعليم غير التقليدى فى النظام كان له آثار رهيبية فى تدمير أخلاق الشباب وتقويض القيم الاجتماعية التقليدية . وفى عام ١٩٧٢ أشرت الصحف الصادرة فى كابول الى حدوث مجاعة فى الأقاليم ناجمة عن عدم سقوط الأمطار على مدى عامين متواصلين مما أدى الى وفاة ١٠٠ ألف مواطن . فقام الاسلاميون بتنظيم مظاهرات ضد التجار الجشعين الذين يخبئون الحبوب فى مخازن سرية وطالبوا بتحديد الثروات وفرض قيود على الثروات الشخصية .. ولذلك كان هناك فى أوائل السبعينات احساس عام بوجود فوضى فى البلاد وقال الاسلاميون أن الأسرة المالكة هى المسؤولة عن تلك الفوضى وذلك الهياج .

وفى ١٧ يوليو ١٩٧٣ وبينما كان الملك زاهر شاه متواجدا فى إيطاليا من أجل العلاج قام محمد داود خان بالاستيلاء على السلطة وقام فى هذه المرة بإلغاء النظام الملكى وأنشأ نظاما جمهوريا . وأعلن أنه استولى على السلطة بهدف إعادة أفغانستان الى وجهها الإسلامى ومبادئها الإسلامية . ولكنه بدلا من إصدار أوامره بالتطبيق الفورى الشامل للشريعة الإسلامية نجده قد أعلن تحديد الملكية الزراعية بحد أقصى ٢٠ هكتارا للأرانسى المروية و ٤٠

هكتارا للأراضي غير المروية . وتوقع من خلال هذا الاجراء أن يكسب شعبية فى المناطق الريفية بأفغانستان . ولكى يتوسع فى قاعدته الشعبية وخاصة فى المناطق الحضرية فانه ضمن التعاون من جانب مجموعة البرشامى Parchami التى كانت قد انشقت على مجموعة خلقى Khairi الراديكالية المناهضة فى ١٩٦٦ عقب مرور عام على التأسيس الرسمى للحزب الشعبى الديموقراطى لأفغانستان ( ماركسى ) فى يناير ١٩٦٥ . وقد رأت مجموعة البرشامى أن انشاء الجمهورية على يدى داود يعتبر خطوة لتحسين الأوضاع وازالة الملكية الاتوقراطية الفاسدة بينما مجموعة خلقى لم تعتقد فى صحة هذا الراى .

وحاول داوود خان احتكار السلطة مثلما فعل من قبل ومع تأييد الماركسيين « البرشام » لحكومته لم يعد هناك شىء يعرقل نفوذه نحو السلطة الشاملة سوى الاسلاميين الأصوليين الذين ترسخوا فى جامعة كابول وأصبحوا يشكلون أقوى نفوذ فى داخل الجامعة . وفى عام ١٩٧٢ نجد أن جماعة « المسلمين الشبان » تحت قيادة قلب الدين حكمتيار وهو طالب بكلية الهندسة قد حصلوا على غالبية المقاعد فى مجلس الطلاب أو « اتحاد الطلبة » وكان المسلمون الشبان يسمندون معظم التأييد لهم من خريجى المدارس الثانوية بالمناطق الريفية الذين كانوا يشعرون بالاحباط الشديد فى كل خطوة يقومون بها : من حيث الالتحاق بالجامعة أو التقدم للحصول على وظيفة والترقى فى الحياة المستقبلية . وهم بوجه عام كانوا أكثر تدينا من زملائهم الذين هم من أهالى كابول العاصمة . وبدأ « المسلمون الشبان » يكسبون أعضاء جددًا من الضباط العسكريين بالجيش .

وبينما ظل كبار القادة الأصوليين على علاقة وثيقة مع العلماء الدينيين التقليديين نجد أن « المسلمين الشبان » كانوا رافضين

لهم . وقد ترتب على ذلك عدم ظهور جبهة موحدة تربط الأصوليين القدامى مع الأصوليين الشبان . وقد ساعد هذا الوضع داوود خان عندما مارس المزيد من الضغوط على الاسلاميين . ففى حركة انفضاض واحدة فى يونيو ١٩٧٤ ألقت حكومته القبض على ٢٠٠ من الأصوليين الاسلاميين فى كابول لدى قيامهم بعقد اجتماع لمناقشة برنامج عمل لجمهورية اسلامية بحيث يمكن تطبيق الشريعة الاسلامية فى جملتها . وتمكن حكمتيار من الهرب الى الباكستان . ولكن نيازى وكذلك ربانى قاما بمحاولة أخرى لاقناع داود خان بقطع علاقاته مع البرشام . ولكنهما فشلا فى هذا الشأن . ثم هرب ربانى الى الباكستان ولكن نيازى القى القبض عليه وأودع فى السجن .

وفى المفى اقترح ربانى من حيث هو زعيم للاخوان المسلمين أو المسلمين الشبان اتخاذ استيراتيجية بعيدة المدى تعتمد على التغلغل الى داخل الجيش ثم الاستيلاء على السلطة من خلال القيام بانقلاب عسكرى فى كابول . أما حكمتيار فكان له رأى آخر : اذ كان يفضل الدخول فى كفاح مسلح على الفور . وقد أيد رئيس الوزراء الباكستانى ذو الفقار على بوتو وجهة نظر حكمتيار . لأن ذو الفقار كان يريد شن هجوم عسكرى على داود خان نظرا لأنه كان قد أثار من جديد مسألة افئمة دولة جديدة مستقلة تحت اسم بوشتونستان تضم أراضى قبائل البوشتون وأبدى بوتو استعداداه التام لتقديم المساعدة لحكمتيار وأعوانه علاوة على منحهم الأسلحة وتوفير التدريبات العسكرية لهم . ثم تحدد شهر يوليو ١٩٧٥ كموعده يتم فيه تنظيم تمرد على المستوى القومى . ولكن لم يحدث سوى أمور ضئيلة للغاية باستثناء تلك الاحداث القى وقعت فى الشمال الشرقى . وبعد وقوع تلك المصادمات المسلحة التى قام بها الأصوليون شدد داوود خان من

قبضته الحديدية على الدولة والمجتمع . فأصدر قرارا بحظر كافة المطبوعات التى تصدرها مطابع القطاع الخاص . ثم أنشأ حزبا سياسيا خاصا به تحت اسم « الحزب الثورى الوطنى » بل أصدر قوانين نجارية ومدنية لها الطابع العلمانى مما أغضب العلماء الدينيين وبذلك يكون قد ألغى الأعمال التى أنجزها الملك نادر شاه ويكون قد تخلى عن ادعائه السابق بأنه قد استولى على السلطة بهدف احياء الاسلام .

وبعد أن فشل الاسلاميون فى ثورتهم فانهم لجأوا الى منطقة پشاور Peshawar بالباكستان . وهنا أصبح الانقسام ما بين ربانى وحكمتيار نهائيا وحاسما فى عام ١٩٧٦ وكان ذلك بمثابة الموت النهائى للاخوان والمسلمين الشبان . واصبح لكل من هذين الزعيمين الحرية فى أن يكون كل منهما حزبا خاصا به . وهذا هو ما حدث بالفعل . ونظرا لأن حكمتيار لم يكن قد حصل على تعليم دينى كلاسيكى فانه فشل فى كسب احترام وتأييد الغالبية العظمى من العلماء الدينيين . وهو من ناحية أخرى كان شخصية جذابة ومنظما بارزا أمضى سنوات عديدة فى الانخراط فى السياسة عندما كان طالبا بجامعة كابول . وقام بتكوين « الحزب الاسلامى » الذى ينادى بأن تقوى المؤمن ينبغى أن ينظر اليها بالدرجة الاولى على أساس أعماله السياسية أما سلوكه الدينى والأخلاقى فله اهمية ثانوية . أما ربانى وهو خريج فى جامعة الأزهر الشريف فكان ينال احترام وتقدير العلماء الدينيين وكبار مشايخ الطرق الصوفية . وكون ربانى حزبا تحت اسم « جماعة اسلامى أو المجتمع الاسلامى لأفغانستان » . وذلك على نمط جماعة اسلامى التى كان قد أسسها المودودى Maududi بالهند فى عام ١٩٢١ وألتى تكونت بعدها جماعة اسلامى فى الباكستان عقب مرور ست سنوات . وكان المودودى وحزبه مشهورين فى الاوساط

الاسلامية بكابل ومن خلال مجلة جحيز Gahiz بذلت جهود في أوائل السبعينيات بمعرفة الاسلاميين الأفغان لانشاء علاقات رسمية مع الحزب الباكستاني . وكان المودودي قد بزغ حينئذ كأهم مفكر اسلامي غير عربي وأهم داعية في العالم الاسلامي السنّي : اذ كانت مؤلفاته التي كتبها باللغة الأردية قد ترجمت الى العربية والفارسية والانجليزية .

لقد ولد أبو الأعلى المودودي في الهند في عام ١٩٠٣ في أسرة دينية وبدأ حياته العملية كرئيس تحرير في جريدة دينية . وكان يؤمن أن طبيعة النظام الاجتماعي تنساب من أعلى لأسفل . ومن ثم فإنه لكي يتم تغيير المجتمع فإنه ينبغي أولاً تغيير التفكير النظري لزعماء وقادة هذا المجتمع ، ثم أسس « جماعة اسلامي » من أجل تكوين كادر من المسلمين المخلصين المنظمين القادرين على جلب الانتصار للإسلام في الهند . وعندما تم تقسيم الهند في عام ١٩٤٧ فإنه ذهب الى باكستان .

وقد ألف المودودي ستين كتاباً وأدخل تطويراً على الاسلام من خلال « الاجتهاد » بحيث أصبح الاسلام بمثابة أيديولوجية حديثة تقدم الاجابات على كافة المشاكل الفردية والاجتماعية . وهو على العكس من العلماء التقليديين الذين بددوا طاقاتهم وجهودهم في دراسة أمور تفصيلية ليست لها علاقة بالظروف الراهنة حيث واجه الحياة الحديثة المعاصرة وهو مسلح بسلاح الشريعة . وهو قد لجأ الى « الاجتهاد » ولكن بما يساير أسس الشريعة الاسلامية وروحها

ومما جعل المودودي جذاباً بصفة خاصة لدى الشباب الأفغانى التقى الجسرى الواقع في جبال التاثيرات الثقافية

الغربية والروابط التجارية والعسكرية مع السوفيت ، قوله ان الاسلام به اكتفاء ذاتى وأن الاسلام منفصل تماما عن — بل فى الواقع متعارض مع — أسلوب الحياة الاجتماعية فى كل من الغرب والشرق على حد سواء . وقال المودودى أن الغرب فاسد أخلاقيا وأشار الى « أن الحضارة الاسلامية والحضارة الغربية مختلفتان تماما من حيث أهدافهما ومن حيث مبادئ التنظيم الاجتماعى » . وكان يرغب للمسلمين أن يعكفوا على تحصيـل المعرفة العلمية والتكنولوجيا من أجل تحقيق المنافع والمصلحة للاسلام .

وأشار الى أن الحكومة فى عهد النبى محمد والخلفاء الراشدين الأربعة كانت حكومة نموذجية يحدى بها حيث كانت مكتسبة الطابع الديموقراطى . وقال أن زعيم أى دولة اسلامية فى هذا العصر الحديث ، الذى يرأس فيه الأجهزة التشريعية والقضائية والتنفيذية ينبغى أن يتم انتخابه بمعرفة المؤمنين وكذلك ينبغى أن يتم انتخاب أعضاء المجلس الاستشارى (البرلمان) وأعضاء البرلمان يجب أن يكونوا قادرين على الحكم بما اذا كان الزعيم يتبع السياسات الاسلامية أم لا . ولم يكن لدى المودودى اعتراض على دخول المرشحين للانتخابات البرلمانية وفقا لترشحات من أحزابهم لهم . ولكنه أشار الى أنه ينبغى على المرشحين بمجرد الفوز بمقاعد فى البرلمان أن يتخلوا عن انتماءاتهم الحزبية الضيقة ويتجهوا بكل ولائهم من أجل رفعة شأن الدولة الاسلامية ويدلوا بأرائهم فى الموضوعات التى تطرح للمناقشة وفقا للرأى الحقيقى. النابع من أذهانهم .

الا أن الآراء التجديدية التى نادى بها المودودى قد فشلت. عندما كان الأمر يتعلق بتناول المسائل العائلية والاجتماعية . إذ كان يؤيد فكرة الفصل بين البنين والبنات فى مجالات التعليم.

وغيرها من المجالات الأخرى كما كان ينادى بضرورة ارتداء المرأة للحجاب . وكان يصر على ضرورة أن تغطي المرأة وجهها عندما تخرج من منزلها . ومع ذلك فإن آراء المودودي كانت بوجه عام تقدم تفسيراً حديثاً للإسلام من حيث هو البديل عن الأيديولوجيات اللاحادية التي كانت آخذة في التفشي في داخل أفغانستان .

ولكن رباني لم يكن يريد إدخال أفكار المودودي إلى داخل منظّمته التي تسمى « جماعة إسلامي » إذ كان يدرك أن إنشاء حزب سياسي حديث هو أمر لا يتلاءم مع الأوضاع الاجتماعية السائدة بالمناطق القبلية في أفغانستان وبذلك كان يريد أن يوائم « جماعة إسلامي » مع العادات والتقاليد القبلية .

كما برهن الرئيس داوود خان على أنه متسم أيضاً بنفس القدر من المرونة . فهو بعد أن سحق التمرد الذي حدث في المنطقة الشمالية الشرقية عاد إلى إثارة مسألة بوشتونستان بطريقة هادئة . وعندما عرض شاه إيران التوسط لتحسين العلاقات الأفغانية الباكستانية رحب داوود خان بذلك على الفور . وتم عقد اجتماع بالفعل بين داوود خان وبوتو وكان ذلك بمثابة حدث تاريخي مهم حيث كان الأول من نوعه في تاريخ العلاقات بين هاتين الدولتين المتجاورتين . وفي عام ١٩٧٦ وعد شاه إيران بالموافقة على تقديم حوالى نصف التمويل المالى اللازم للخطة السبعية لأفغانستان التي يبلغ حجمها ٢٣٩٢ مليون دولار أمريكى . وكان ذلك بمثابة عرض سخى وكريم للغاية من جانب الشاه مما جعل داوود خان يرد على هذا الجميل بأن يجعل السياسة الخارجية لكابل تميل قليلاً لصالح الغرب .

وفي الداخل اتخذت السياسة الداخلية لداوود خان منعطفاً يمينياً . إذ قام بتطهير حكومته من الموظفين البارشام Parcham



وبعدئذ قام باضطهادهم علاوة على اضطهاده للخلقيين Khalqi وتحت هذه الظروف اضطرت مجموعات الخلق ومجموعات البرشام الى الاندماج معا فى كيان واحد فى يوليو ١٩٧٧ وبذلك أعادوا تأسيس الحزب الديموقراطى الشعبى . واستمر داوود خان فى سياساته السابقة الرامية الى تدعيم وتقوية سلطاته ومواصلة اضطهاده للأصوليين . اذ أصبح الدستور الجديد الذى أعلن عنه فى يناير ١٩٧٧ يضمن تواجد رئيس قوى وتشريع ضعيف . ومنح ذلك الدستور المرأة حقوقا متساوية تماما مع الرجل ولم يخصص سوى دور ضئيل للغاية للإسلام . وفى شهر ديسمبر عقب الاعتراف باغتيال وزير التخطيط : أحمد على خورام قامت الحكومة بالقاء القبض على ٥٤ شخصا من الأصوليين بتهمة التآمر على اغتيال الرئيس داوود خان وأعضاء حكومته . وفى تلك الأثناء كان اضطهاد الماركسيين قد اتخذ شكل اغتالات لزعمائهم على أيدي عملاء تابعين للحكومة . وقد أثار ذلك الكثير من القلق والانعاج بين صفوف اليساريين الذين لم يعرفوا كيفية الرد والانتقام من هذه الممارسات .

الا أن اغتيال مير أكبر خيبر Mir Akbar Khyber — وهو رئيس نقابة تجارية يحظى بالاحترام كما كان رئيس تحرير جريدة « برشام » فى ١٧ ابريل ١٩٧٨ قد غير الموقف . اذ قام زعماء « الحزب الديموقراطى الشعبى » بتنظيم مظاهرات شعبية ضخمة ضد الحكومة فى كابول . فأصدر داوود خان أوامره بالقاء القبض على جميع زعماء الحزب الديموقراطى الشعبى وايداعهم فى السجون . ولكن نور محمد طراقي Nur Muhammad Taraki رئيس الحزب لم يلق القبض عليه . فقام ببث النشاط فى الشبكة اليسارية المتواجدة فى داخل الجيش والتي كانت قد أنشئت على مدى السنوات الماضية . وكانت النتيجة هى حدوث انقلاب

عسكري قام به ضباط الجيش اليساريون في ٢٧ أبريل ١٩٧٨ وهو الحدث الذي يسمى رسمياً باسم « ثورة أبريل » . وقد قتل داوود خان أثناء القتال الذي دار عند قصر الرئاسة وآل منصبه الرسمي كرئيس للجمهورية ورئيس للوزراء إلى طراقي Taraki وقد حدث ذلك الانقلاب العسكري نتيجة للجهود التي بذلها الماركسيون لفترات طويلة من أجل تجنيد ضباط عسكريين على مدى سنوات عديدة ونتيجة أيضاً للسياسة التي اتبعتها حكومة كابول ( التي بدأها داوود خان في منتصف الخمسينات ) بإرسال ضباطها للحصول على المزيد من التدريبات العسكرية إلى الاتحاد السوفيتي . ونظراً لأنهم كانوا يتلقون تلك التدريبات العسكرية في الأكاديميات العسكرية المتواجدة بجمهورية أواسط آسيا التابعة للاتحاد السوفيتي فانهم كانوا يشعرون بالآفة في هذه الأماكن من الناحية الثقافية والعنصرية وبالتالي راحوا يقرنون بين التقدم الاقتصادي والاجتماعية والتعليمي للسكان المسلمين في هذه الجمهوريات الإسلامية والتخلف الذي يعيش فيه أهالي أفغانستان ، ولذلك فان هذه التجارب جعلتهم موالين ومناصرين للسوفييت مما سهل من تجنيدهم لصالح الشبكة الماركسية المتواجدة في داخل الجيش الأفغاني .

### الثورة الماركسية وما بعدها :

وما صعد « الحزب الديموقراطي الشعبي » إلى السلطة حتى بزغ على السطح العنصران اللذان يتألف منهما هذا الحزب . وكان عنصر خلقي Khalqi أو جناح خلقي وهو بقيادة تراكي Taraki وحزب الله أمين Hafizullah Amin يرغب في ادخال تغييرات سريعة على المجتمع أما جناح برشامي Parchami وهو بقيادة ببراك كارمال Babrak Karmal فكان يفضل ادخال

الاصلاحات بطريفة هادئة وتدرجية . ولقد وصف تركى : Taraki حكومته بأنها ليست حكومة اشتراكية وإنما هى « حكومة ديموقراطية وطنية » تركز على تحالف العمال والفلاحين والبرجوازية الوطنية المتصارعة ضد الاقطاعيين والطبقة البرجوازية الكومبرادورية الخاضعة فى اذلال لرأس المال الأجنبى . ونظرا لأن هؤلاء القادة الثوريين كانوا يمصرفون جيّدا التاريخ الوطنى لبلادهم وثقافته الشعبية فانهم راحوا يكررون القول بأنهم يؤمنون بعقيدة الاسلام وحرصوا فى جميع الخطب الجماهيرية التى يلقونها على الناس على البدء فى الكلام بـ : « بسم الله الرحمن الرحيم » وكذلك بالنسبة لكافة البيانات الرسمية التى تعلنها الحكومة وفى الاذاعات التى يبثها الراديو والتلفزيون . كما كان تراكى Taraki وغيره من قادة « الحزب الديمقراطى الشعبى » يحرصون على تأدية صلاة الجمعة فى المساجد المختلفة المتواجدة بالعاصمة كابول . وراحوا يكررون للجماهير باستمرار أن كافة الاصلاحات التى ستتم ستكون متمشية مع الشريعة الاسلامية .

وقد أحدثت الاصلاحات التى قدموها للأمة من مايو الى نوفمبر ١٩٧٨ تأثيرات مباشرة أو غير مباشرة على حياة معظم الأفغان . وكان الهدف من وراء هذه الاصلاحات هو تدعيم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للغالبية العظمى من جماهير الشعب وهو أمر بدا متمشيا تماما مع الخط الإسلامى .

وفى مايو أعلنت الحكومة « الجهاد » ضد الأمية وراحت تطبق التعليم الأولى الإلزامى على الجنسين : الذكور والإناث . إذ كان حجم التعليم بالنسبة للفتيات منخفضا للغاية . حيث لم يكن يذهب للمدارس سوى ٥٪ من عدد الفتيات فى مقابل ٣٠٪ من عدد البنين . وسارت الحملة التعليمية على نحو جيد فى

المناطق الحضرية ولكنها كانت متعثرة فى الأماكن الريفية . إذ كانت الأماكن الريفية تشهد معارضة قوية للغاية للتعليم المختلط وخاصة بالنسبة للتعليم المختلط فى المرحلة الاعدادية أو الثانوية . ومما زاد الموقف سوءاً قلة عدد المدرسات مما كان يؤدى الى تكليف مدرسين للتدريس فى مدارس البنات وهم مدرسون قد جاءوا من المدن الصغيرة والكبيرة . فكان هذا من وجهة نظر الأهالى الريفيين أمراً متسماً بالفسق والفجور . هذا بالإضافة الى أن الكتب المدرسية المقررة كانت تمتدح أسلوب الحياة بالمدن وتشجع عليها كما كانت هذه الكتب تشوبها مسحة من الماركسية . وعلاوة على ذلك قامت حملة محسارية الأمية بطرد مدرسى الدين المحليين « الملا » من النظام التعليمى المحلى . ونتيجة لذلك ظهرت حالات من الاغتيالات للمدرسين الثوريين العلمانيين على أيدي الاصوليين . ولقد وصلت « حملة مكافحة الأمية » الى ذروتها فى أوائل عام ١٩٧٩ وبعدئذ بدأت فى الهبوط والتدهور السريع .

والخطوة الكبيرة التالية التى اتخذت فى أوائل يوليو كان يراد بها تحقيق الاستفادة للفلاحين المثقلين بالرهونات العقارية وبسعر الفائدة المرتفع الذى يتم على أيدي كبار الملاك ومقدى السلف والقروض . إذ صدر القرار رقم ٦ الذى يلغى كافة الرهونات والديون السابقة على عام ١٩٧٣ مع تخفيض سعر الفائدة تخفيضاً هائلاً عن ذى قبل ( عادة كان سعر الفائدة يصل الى نسبة ١٠٠٪ سنوياً ) على السلف والقروض الجديدة . وذهبت الحكومة فى تقديراتها الى أن هذا الإصلاح سوف يستفيد منه ٤/١ من مجموع عائلات الفلاحين . الا أن هذا القرار — فى ظل عدم تواجد بيروقراطية ملتزمة اجتماعياً — قد خلق مشكلات جديدة غير مسبوقه للحكومة الجديدة . كما عتم على تأثيراته المفيدة على الحياة الريفية . فرجال الدين المحافظين ( الملا ) الذين

تربطهم علاقات دم وقربانة مع كتار ملاك الارانسى مقدمى السلف . والقروض أفتوا بأن الغاء الديون السابقة ما هو الا نوع من السرقة وبالتالي فهو اجراء غير اسلامى ( ومن ناحية أخرى نجد أن الأقلية من علماء الدين الموالين للحكومة أشساروا الى الآيات القرآنية التى تناهض الربا ) . وبدأ الكثير من رجال الدين المحليين ( الملا ) يلقون خطبا موجهة ضد الحكومة فى جو كانت فيه المقاومة المسلحة ضد الحكومة قد اتخذت طابع الاغتيالات للمدرسين . الماركسيين والموظفين المدنيين الماركسيين . وردت السلطات الحكومية على ذلك بأن ألقت القبض على رجال الدين المحليين أو فصلتهم من أعمالهم ، بل قامت الحكومة فى سبتمبر ١٩٧٨ — بعد أن شجعتها الفتوى الصادرة عن مجموعة من العلماء الدينيين والموالين للحكومة فى كابول وغيرها من الأماكن الأخرى — باعلان « الجهاد » ضد « الاخوان » وهو الاسم العام الذى يستخدمه الناس للإشارة الى الأصوليين العسكريين .

وبحلول ذلك الوقت كان الصراع المتواجد فى داخل الحزب الحاكم قد حسم لصالح « جناح خلقى » Khalqi ومن ثم زاد ايقاع الإصلاحات مع اضاء الطابع العلمانى . ففى منتصف أكتوبر قامت الحكومة بالغاء العلم الوطنى الذى له ثلاثة ألوان : الأسود والأحمر والأخضر ووضعت بدلا منه علما أحمر اللون مشابها لأعلام جمهوريات أواسط آسيا التابعة للاتحاد السوفيتى . وقد أثار اختفاء اللون الأخضر الإسلامى من العلم الوطنى شكوك الناس فى أن الدولة قد سارت فى طريق الالحاد والكفر . وقد تدعم هذا الشك عندما لم يعد القادة السياسيون يذكرون عبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » فى بداية بياناتهم وخطبهم السياسية وعندما توقف ذكر هذه العبارة أيضا لدى افتتاح البرامج الإذاعية والتليفزيونية . فهاتان الخطوتان قد أبطلتا مفعول كلمة ما قالته

أجهزة الدعاية الحكومية على مدى شهور من أن الحكومة الجديدة تزعم إيماننا صادقا بالدين الاسلامي وتتمسك به . حيث تزايد الاعتقاد بين رجال الدين بأن الدولة أصبحت غير اسلامية : وكان هذا يكفي لقيامهم بالدعوة الى مقاومة الحكومة واستقاطها .

وحقيقة الأمر أن هاتين الخطوتين قد حيدتا التأثير المباشر الناجم عن القرار رقم ٧ الذي يتعلق بالزواج والعلاقات العائلية والذي صدر في نفس ذلك الوقت تقريبا . وقد نص ذلك القرار على منح المرأة حقوقا متساوية مع الرجل علاوة على منع ارغام البنتاة على الزواج بالاضافة الى تحديد حد أدنى للزواج : ١٦ سنة بالنسبة للفتيات و ١٨ سنة بالنسبة للفتيان . وحدد القرار سعر العروس بـ ٧ دولارات وكان متوسط السعر آنئذ في حدود ١٠٠٠ دولار . وكانت تلك الفقرة يقصد بها مساعدة العرسان الفقراء الذين يرغبون في الزواج . الا أنه كان من الصعب للغاية تنفيذ ذلك القرار في القرى . وعلى كل حال فان ذلك القرار لم يتدخل في مسألة المهر الذي اقترته الشريعة الاسلامية .

وأخيرا في أواخر نوفمبر ١٩٧٨ حدث أهم أنواع الاصلاحات على الاطلاق . اذ كان اصلاحا يتعلق بملكية الأراضي الزراعية . والأراضي الزراعية تشكل المصدر الرئيسي للدخل في أفغانستان التي تعتبر معظم أراضيها ريفية زراعية . وكان ٤٠٪ من الفلاحين بأفغانستان من المعدمين الذين لا يمتلكون أية أراضى زراعية على الاطلاق وكان ٤٠٪ آخرون يمتلك كل فرد منهم مساحة تتراوح ما بين ١/٢ فدان الى ٦ أفدنة . أما كبار ملاك الأراضي الزراعية الذين يشكلون نسبة ٢٢٪ فكان يمتلك كل فرد منهم ٣٠ فداناً أو أكثر ويمتلكون كلهم ٤٢٪ من مجموع الأراضي الزراعية التي تتراوح ما بين ٢٥ و ٢٩ مليون فدان . وقد قسم القرار رقم

٨. الأراضي الزراعية الى ثلاث فئات : وحدد الملكية بـ ٣٠ فداناً كحد أقصى بالنسبة للأراضي التي تروى بمياه الري الدائم و ٣٠٠ فدان كحد أقصى للأراضي الجافة التي لا يتوفر لها رى دائم . وتوقعت الحكومة أن ينجم عن تطبيق هذا القرار توافر عدد من الفدادين يتراوح ما بين ٢ و ٣ ملايين فدان من أجل أن توزع على الفلاحين المعدمين الذين لا يمتلكون أراضي على الإطلاق . ولكي تنفذ الحكومة قرار الإصلاح الزراعي فانها شكلت لجاناً للأراضي تتألف أساساً من أعضاء بالحزب الديمقراطي الشعبي وبدأت هذه اللجان عملها في يناير ١٩٧٩ مع توفير حماية لها من رجال الشرطة وشرعت في زيارة القرى لكي تقوم بتسليم سندات الملكية للفلاحين المعدمين . وكانت الحكومة الثورية تهدف من وراء تطبيق نظام الإصلاح الزراعي الى كسر شوكة النفوذ الاجتماعي الاقتصادي الذي تتمتع به الطبقة العليا التقليدية الدينية التي ظلت تحكم المجتمع الريفي منذ قرون عديدة . واحتج كبار ملاك الأراضي الأغنياء بينما راح حلفاؤهم من رجال الدين يصعدون الفتاوى القائلة بأن أخذ أراضي أي شخص يعتبر سرقة وجريمة وان أولئك الفلاحين الذين يوافقون على استلام هذه الأراضي ينتهكون الشريعة الإسلامية . وبسبب هذه الفتاوى وبسبب خوف الفلاحين المعدمين من الانتقام العنيف من جانب كبار ملاك الأراضي نجد أن عدداً كبيراً من الفلاحين المعدمين رفضوا استلام شهادات الملكية التي تقدمها لهم لجان الأراضي الحكومية الزائرة . ومع ذلك فقد أشارت الحكومة — بحلول مارس ١٩٧٩ — الى أنها قد قامت بالفعل بتوزيع ٥١٢ ألف فدان على ١٠٤ آلاف من العائلات .

وعلى مستوى العلاقات الخارجية قامت الحكومة الماركسية بثقوية روابطها مع الاتحاد السوفيتي من خلال التوقيع على معاهدة

صدانة وتعاون فى ديسمبر ١٩٧٨ . وكانت تلك المعاهدة على غرار تلك المعاهدات التى سبق أن أبرمتها موسكو مع كل من : أثيوبيا وانجولا ونييتنام حيث كانت تنص على الروابط الوثيقة بين الدولتين والتعاون بينهما فى النواحي العسكرية والسياسية والاقتصادية . ونصت المادة ٤ من هذه المعاهدة على أن الموقعين على هذه المعاهدة « سوف يتشاورون مع بعضهم البعض ويتخذون الاجراءات اللائمة التى تضمن أمن واستقلال ووحدة اراضى كل من الدولتين » . وكانت هذه الفقرة بالذات هى التى نفذتها كابول فيما بعد عندما وجهت الدعوة لقوات سوفيتية للمجىء الى افغانستان .

وكان التأثير الاجمالى لهذه التطورات هو الاستقطاب فى داخل المجتمع علاوة على تزايد حدة المعارضة واكتسابها المزيد من الانصار والمؤيدين . وقامت شخصيات اسلامية بارزة مثل محمد ابراهيم المجددى بشجب الاصلاحات ووصفها بأنها غير اسلامية وراحوا يلغون الخطب الموجهة ضد الحكومة وبعد فترة من التردد تحركت الحكومة ضد المعارضة الدينية فى يناير ١٩٧٩ حيث استولت الحكومة على المكاتب التابعة للشيخ محمد ابراهيم المجددى مع القاء القبض على جميع الافراد الذكور فى عائلة المجددى . بل تامت الحكومة بتنفيذ حكم الاعدام فى بعض الشخصيات الدينية ولكنها لم تعلن عن تلك الحالات من الاعدام . وتسببت هذه الاجراءات الحكومية فى بث الرعب والخوف فى الدوائر الدينية . مما ادى الى فرار كبار القادة الاسلاميين والصوفييين الى خارج افغانستان ثم انضموا الى مجموعات المعارضة المتمركزة فى بشاور Peshawar . واصبحت منطقة الحدود الافغانية الباكستانية بمثابة مركز نشيط للمقاومة والأعمال التخريبية .



وتزايدت حدة المقاومة ضد الحكومة الماركسية خلال شتاء ٧٨ — ١٩٧٩ مع تعذر الوصول الى اقليم نورستان Nuristan وبعثان الحكومة المركزية السيطرة عليه ( موسميا ) وسقوطه في أيدي « جبهة نورستان الاسلامية » . كما حدث موقف مماثل في مرتفعات حذاراجات Hazarajat التي أصبحت تحت حكم « المجلس الثوري للاتحاد الاسلامي لأفغانستان » .

ولكن الحدث الذي سبب الكثير من المتاعب لكابل وسبب تغيرا في ميزان القوى في داخل الحزب الديمقراطي الشعبي كان يتمثل في ذلك التمرد الذي حدث في حيرات Herat التي تقع على مسافة ٦٥ ميلا من الحدود الإيرانية والذي تم في منتصف مارس ١٩٧٩ اذ عاد عشرات من الأصوليين الأفغان الى حيرات قادمين من إيران في أعقاب الثورة الاسلامية التي تفجرت في إيران في أوائل فبراير ١٩٧٩ . وقام بعض هؤلاء الأصوليين الأفغان بإجراء اتصالات مع الضباط الموالين للإسلام المتواجدين في الحامية العسكرية المحلية بينما قام آخرون بتجنيد وحشد المؤمنين المتواجدين بالقرب المجاورة حول رأي موحد ازاء قيام المدرسين بالتدريس في مدارس البنات .

وفي يوم الجمعة الموافق ١٦ مارس قام القرويون المتظاهرون باغتيال مدرسين حكوميين وبعدهم تجمعوا في « حيرات » على هيئة سلسلة من المسيرات المسلحة . وهنا وجدوا تأييدا من أهالي المدن ومن الحامية العسكرية المحلية . ثم انطلقوا جميعا في ثورة عارمة وراحوا يقتلون كوادر الحزب الديمقراطي الشعبي والضباط العسكريين علاوة على قتل المستشارين السوفيت وعائلاتهم . واستولى الثائرون على منطقة حيرات . وبعد أيام قليلة عندما وجدوا طابورا من الحربات المدرسة تقترب في اتجاه قندهار

**Qandhar** ملوحة بعلم أخضر وبنسخة من القرآن الكريم اعتقدوا بطريق الخطأ أن هذا الطابور من السيارات المدرعة قد انضم للثوار وتم السماح لهذا الطابور بالمرور . الا أن هذه السيارات والعربات كانت فى حقيقة الأمر تابعة للقوات الحكومية وما دخلت هذه العربات الى حيرات حتى تلقت غطاء جويًا من الطائرات الحكومية وبدأ الهجوم على الثوار المتمردين وتمكنوا من الاستيلاء على المدينة حيرات واستمرت المعارك على مدى خمسة أيام مما أسفر عن سقوط ٥٠٠٠ شخص بين قتل وجريح بما فى ذلك عدة مئات من الجنود التابعين للحكومة وموظفى الحزب الديموقراطى الشعبى . وقد ألفت كابول باللوم فى ذلك على طهران الاسلامية وأشارت الى أن طهران هى السبب فى ذلك التمرد المسلح . وحتى يمكن تجنب الأخطار المتصاعدة للثورة المضادة فانه تم تشكيل « حكومة انتقاذ وطنى » فى أول ابريل مع تكليف أمين Amin لكى يشغل منصب رئيس الوزراء فى حكومة الانتقاذ الوطنى .

وكان حفيظ الله أمين متشددا ومتعصبا وتسببت سياسته الرامية الى تطهير الادارة الحكومية من البارشامى **Parchami** فى الاصطدام بالرئيس تراكى **Taraki** . وحدث صراع على السلطة تمكن خلاله أمين رئيس الوزراء من الاستيلاء على وزارة الدفاع وبالتالي تمكن من السيطرة على العمليات المناهضة للتمرد . وفى منتصف سبتمبر حدث تبادل اطلاق النيران بين الضباط المرافقين لأمين والضباط المرافقين لتراكى . وفى يوم ٦ أكتوبر قامت وسائل الاعلام الكبرى بالاعلان عن أن الرئيس تراكى قد مات عقب تعرضه لـ « مرض خطير » .

والزمراء السوفيت الذين سبق لهم السماح لكبار قادة البرشامى من أمثال كرمال **Karmal** باللجوء السياسى الى موسكو

قد نصحوا أمين باتخاذ خطوات استرضائية بهدف تهدئة المشاعر العدائية التي يشعر بها الناس تجاه الحكومة . ونظرا لأن أمين كان يدرك أن كابول تعتمد على المساعدات السوفيتية فى المجالات الاقتصادية والعسكرية فإنه بادر الى الموافقة على تلك النصائح الموجهة اليه . فقام باطلاق سراح آلاف عديدة من المسجونين السياسيين . وأعاد ادخال عبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » فى مستهل البيانات الرسمية وبداية البث فى الراديو والتلفزيون بل أصدر أوامره باصلاح المساجد على نفقة الدولة . وفى حين أنه كان يكرر القول بتوفير « الحرية الكاملة للدين والاحترام العميق للاسلام والدعم الشامل للاسلام » فإنه أقسم أنه سيحارب « التعصب الدينى » . وحاول التودد الى الزعماء الصوفيين وأصدر تعليماته للجنة المشكلة لاعداد المشروع الجديد للدستور « بأن تولى اهتماما خاصا بالاسلام » . ثم أعلن العفو العام عن حوالى ربع مليون من اللاجئين ووجه لهم الدعوة بالعودة الى بلادهم أفغانستان . وكان هذا العفو العام عديم الجدوى ولا طائل تحته . اذ كانت المشاعر المناهضة للحكومة بين اللاجئين قد وصلت الى درجة كبيرة حتى أن أعضاء « حزب اسلامى » قد بدأوا فى برنامج يهدف الى اغتيال زعماء الحزب الديموقراطى الشعبى المتواجدين بالعاصمة كابول .

وكانت الأعمال الارهابية التى يقوم بها « حزب اسلامى » فى كابول تدل تماما على الأنشطة المناهضة للحكومة على طول الحدود الأفغانية الباكستانية . بل أصبحت منطقة باكتيا Pakiya الشرقية معقلا للمتمردين والثوار ولقد اضطر أمين لاستدعاء السوفيت لكى يساعدوه فى محاربة الثوار . وتمكنت القوات الحكومية والسوفيتية من الحاق الهزيمة بالمتمردين فى باكتيا . وبعد ذلك قام المارشال ايثن بفلونسكى رئيس القوات

البرية السوفيتية بجولة فى أفغانستان لى يقوم باعداد خطط  
شاملة لمقاومة المتمردين . وكان ذلك بمثابة بداية للعملية التى  
أسفرت عن مجيء عشرات الآلاف من الجنود السوفيت الى  
أفغانستان .

وابتداء من أواخر أكتوبر ١٩٧٩ فصاعدا بدأت فرق أواسط  
آسيا السوفيتية بالاضطلاع بواجبات الحراسة نيابة عن القوات  
الأفغانية لى تتمكن القوات الأفغانية من محاربة المتمردين . وفى  
منتصف ديسمبر وصلت كتبتان سوفيتيتان الى قاعدة بگرام  
Bagram الجوية القريبة من كابول والتى أصبحت واحدة  
تحت السيطرة السوفيتية . وعقب الهجوم على أسد الله أمين  
رئيس البوليس السرى فى المقر الرئيسى للرئيس أمين اضطرب  
الرئيس الأفغانى الى نقل مقره الرئيسى الى قصر دارولامان الذى  
يقع عند مشارف العاصمة . وبحلول ٢٤ ديسمبر أصبح يوجد  
حوالى ٨٠٠٠ جندي سوفيتي و ٤٠٠٠ مستشار عسكري  
سوفيتي فى أفغانستان . وبعد مرور ثلاثة أيام سيطرت القوات  
السوفيتية على المنشآت العسكرية فى كابول ثم قامت بمهاجمة  
قصر دارولامان مما أسفر عن مقتل أمين . ثم وصل بعدئذ بيرا  
كارمال Babrak Karmal الذى كان مبعدا فى موسكو منذ أكثر  
من عام ، الى أفغانستان لى يرأس الحكومة الجديدة . وسرعان  
ما أصبح يوجد فى أفغانستان حوالى ٥٠ ألف جندي . وكان حجم  
القوات العسكرية الأفغانية فى ذلك الوقت فى حدود ٩٠ ألف  
جندي . وكان وصول قوات سوفيتية بهذه الأعداد الكبيرة بهدف  
تدعيم الدولة الأفغانية بمثابة اعتراف بأن الحكومة الماركسية  
المحلية قد أغضبت ونفرت قطاعات كبيرة من المجتمع الأفغانى  
وأن الحكام الأفغان قد فشلوا فى تقويم الحالة النفسية لجماهير  
الناس وفشلوا بالتالى فى تقويم سرعة ايقاع الإصلاح وطبيعته .

ومنذ ذلك الحين نجد أن القيادة المعتدلة للحزب الديمقراطي الشعبي راحت تحاول بوسائل عديدة في اصلاح الدمار الذى لحق بموقف الحكومة نتيجة للتجاوزات التى ارتكبت بمعركة قطاع خلقى Khalqi المتحمس بقيادة أمين الذى مارس السلطة الفعلية من أغسطس ١٩٧٨ حتى ديسمبر ١٩٧٩ .

وبعد أن تقلد كارمال مقاليد الحكم أعلن على الفور إطلاق سراح جميع المسجونين السياسيين علاوة على إلغاء « كافة التنظيمات المناهضة للديموقراطية والمناهضة للإنسانية والإغناء القبض على الناس وإلغاء الاضطهاد التعسفى وتفتيش البيوت والاستجوابات » كما أعلن عن « الاحترام الكامل للهداية المقدسة الإسلامية » وحماية الحياة العائلية والحفاظة على « الملكية الخاصة القانونية » . وكان من الواضح بعد كل التجاوزات التى ارتكبتها أمين أن كارمال Karmal كان يرغب فى اللجوء الى أعمال استرضائية تهدف الى تهدئة النفوس والمشاعر وليس مجرد أعمال تتعلق بالمجال الدينى . وقد حصل فى هذا الشأن على مساعدة كاملة من الكرملين الذى كان ايضاً له لقوات سوفيتية لأفغانستان نابعا من المادة رقم ٤ بمعاهدة الصداقة الافغانية السوفيتية التى تم التوقيع عليها منذ عام واحد فقط وهى المعاهدة التى وصفها كارمال بأنها بمثابة البدء فى « المرحلة الثانية » من ثورة ساؤور Saur أو ثورة أبريل .

وكان تدخل موسكو العسكرى هو أيضا بمثابة المرحلة الثانية فى المقاومة المسلحة الافغانية . اذ كان وصول القوات السوفيتية بهذه الأعداد الكبيرة بمثابة لطمة قاسية للعزة القومية الافغانية مما أدى الى ترك آلاف الناس المحبين لوطنهم أفغانستان منازلهم بهدف الانضمام الى المقاومة النشطة بالأماكن الريفية أو

الالتحاق بمجموعات وأحزاب المقاومة المتمركزة في الباكستان أو إيران . واستمرت المنظمات التي تعمل من داخل الباكستان في التواجد من حيث هي كيانات مستقلة عقب فشل محاولة ادخالها في مجلس المائة عضو الذي اقترحت الجمعية الوطنية الكبرى تشكيله في اجتماعها الذي عقد في مايو ١٩٧٩ في بشاور Peshawar . وقد وصف قادة أحزاب المقاومة الجمعية الوطنية الكبرى ( أو اللويا جرجا Jirga Loya ) بأنها غير شرعية كما رفضوا الدستور الذي أعدته اللويا جرجا من أجل جمهورية أفغانستان الإسلامية .

وبحلول ربيع عام ١٩٧٩ كانت هناك ستة أحزاب إسلامية سنية أفغانية متمركزة في الباكستان وكانت لديها اهتمامات شديدة بالبقاء على نفسها من حيث هي كيانات أو هيئات مستقلة . وكانت الحكومة الباكستانية قد قررت توصيل الصدقات الإسلامية إلى اللاجئين الأفغان من خلال هذه الأحزاب وليس من خلال البيروقراطية التابعة لها . وهذه الأحزاب الستة كان من بينها ثلاثة أحزاب أصولية :

١ - الحزب الإسلامي بقيادة حكمتيار .

٢ - جماعة إسلامي بقيادة رباني .

٣ - الحزب الإسلامي المنفصل بقيادة مولوي يونس خالص  
Maulavi Yunus Khalis

أما الأحزاب الثلاثة الأخرى فكانت أحزاباً دينية تقليدية وهي :

١ - الجبهة الإسلامية الوطنية لأفغانستان بقيادة سيد أحمد الجيلاني .

٢ — جبهة التحرير الوطنية لأفغانستان بقيادة صبيغة الله  
مجددى Sibghatullah Mujaddidi

٣ الحركة الثورية الاسلامية بقيادة وللاوى محمد نبى محمدى .

وهذه الأحزاب الأخيرة الثلاثة كانت تريد العودة بأفغانستان  
الى فترة ما قبل عام ١٩٧٣ واعادة الملك زاهر شاه Zahir Shah  
كملك دستورى . وكانوا يستمدون العون والتأييد من رجال الدين  
القرويين ( الملا ) ومشايخ القبائل وكبار ملاك الأراضى ومشايخ  
الصوفية .

وفى عام ١٩٨١ وصل عدد الكوادر النشطة فى داخل هذه  
الأحزاب الستة الى ٧٣ ألف شخص بينما الأصوليون يشكلون ٣  
مجموع هذا الرقم . وكان الحزب الاسلامى بقيادة حكمتيار هو أكثر  
الأحزاب الستة عددا ولكن الأحزاب النازئة الدينية التقليدية كانت  
من مصادر القوة أيضا .

وليس من الغريب أن حكومة كارمال Karmal قد وجهت  
نيرانها العسكرية والايديولوجية ضد الأحزاب الأصولية الثلاثة مع  
وضع الحزب الاسلامى بقيادة حكمتيار كهدف رئيسى لها . إذ أن  
الحزب الاسلامى وكذلك الحزب السابق عليه الذى كان يسمى  
« الإخوان المسلمين » كانا يستلهمان أيديولوجيتهما من حزب الإخوان  
المسلمين المصرى . إذ كان حكمتيار غير معجب برجال الدين الأفغان  
التقليديين ( الملا ) لأنهم فشلوا فى تقديم حافز ذهنى ثقافى للمؤمنين  
كما فشلوا فى أن يكونوا من أنفسهم قوة مستقلة قوية قادرة على  
مواجهة حاكم غير اسلامى . كما كان حكمتيار ينتقد بشدة مشايخ  
الصوفية الذين كان يصفهم دائما بأنهم يتسمون بالتدهور والانانية  
والخضوع للخرافات مما تسبب فى أفسادهم للدين الاسلامى .

وكان حكميتار يعتقد أن إعادة أفغانستان الى طريق الاسلام الحقيقى يتطلب أولا اصلاح المؤسسة الدينية والقضاء على الصوفية والطرق الصوفية وتنفيذ الشريعة الاسلامية بكل تفاصيلها وحذافيرها . وهذا المطلب الأخير لا يمكن تحقيقه الا من خلال الغاء القوانين التقليدية مثل قوانين البوشنوالى على سبيل المثال . بالاضافة الى فرض ارتداء الحجاب على النساء بالاماكن الريفية التى لا تلتزم فيها النساء بارتداء الحجاب عادة . وقد أشارت نشرة صادرة من الحزب الاسلامى الى أن « اصلاح الأخلاقى والدينى يشتمل على احياء دور المسجد واهياء التعليم الاسلامى واهياء مراكز تدريب الدارسين التى تقدم التعليم الدينى وبناء شخصية الفرد فى ضوء الاسلام .. ورفع مستوى الملا من خلال مساعدات الدولة » .

وهذه الانتقادات التى وجهها حكميتار للعلماء الدينيين التقليديين قد أسفرت فيها بعد عن تشاجره وتصادمه مع أحد زملائه المشتركين معه فى قيادة الحزب : ألا وهو مولاوى يونس خالص وهو رجل دين تلقى دراسته فى جامعة ديوبانده Deoband علاوة على أنه كان زعيما قديما فى نفس الوقت . وكان السبب الرئيسى فى هذا الشقاق والنزاع هو اصرار خالص على الدخول فى صراع مسلح على الفور وانضمامه للتمرد الذى تفجر فى باكثيا Paktiya فى ربيع عام ١٩٧٩ وهو الأمر الذى كان حكميتار يعارضه . اذ كان حكميتار يريد انشاء شبكة واسعة فى داخل أفغانستان قبل أن يوجه ضربته الى الحكومة . وكان خالص تنقصه العقلية التنظيمية الفذة والجاذبية التى يتمتع بهما حكميتار . وكان القسم الذى أنشئ بقيادة خالص هو مجرد شريحة من الكيان الأم للحزب .

وكان حكميتار الذى يدير حزبا متقسما بالاتساق الشديد لا يرغب فى عمل تعديلات على بنيان الحزب من أجل أن يضم الحزب الواقع الاجتماعى للقبائل الأفغانية والطرق الصوفية وعلية القوم



من الطبقة العليا الريفية التقليدية . وعلى العكس من ذلك نجد أن رباني قائد « جماعة اسلامى » فتح المجال فى داخل حزبه لى يضم أعضاء لا ينتمون انتماء كاملا لأيدولوجية الحزب التى كانت تتركز أساسا على كتب ومؤلفات كل من : المودودى وسيد قطب . بل ان الاتجاه المرن الذى اتخذه ربانى قد امتد ليشمل الشيعة : فهو الوحيد بين الزعماء السنيين الذى وافق على مطلب الشيعة بضرورة أن يطبق المذهب الجعفرى على المسلمين . وخلال السنوات التى أمضاها كأستاذ للعلوم الدينية فى جامعة كابول كان يركز كثيرا على تخليص المجتمع الأفغانى من التأثيرات غير الاسلامية ولا يهتم كثيرا بالهجوم على التقليديين الاسلاميين . ولذلك أصبح الآن قادرا على الاستفادة من الشبكات المتواجدة من رجال الدين والطرق الصوفية والاسلاميين الجدد الذين ظهروا فى الأفق مؤخرا — ولم يهمل سوى الشبكة القبلية — من أجل تقوية وتدعيم حزبه . وكانت نقطة الضعف عنده هى أنه كان من أصل طاجيكستائى Tajik وليس من البوشتون مثل حكمتيار . وكان الطاجيكيون يشكلون نسبه ١٠٪ من مجموع السكان الأفغان البالغ عددهم ١٩ مليون نسمة وكان عدد البوشتون يساوى ضعف عدد الطاجيكيين .

وفى حين كان كل من : ربانى وحكمتيار ملتزمين بالتطبيق الكامل للشريعة الاسلامية لدى انشاء دولة اسلامية مستقبلا نجد أن ربانى كان يفضل نظام تعدد الأحزاب وفقا لآراء المودودى بينما حكمتيار لم يكن يفضل ذلك . اذ كان حكمتيار يميل الى الأسلوب الفاشستى وكان يفضل اقامة دولة اسلامية تتركز على نظام الحزب الواحد . وقد هاجم فى عنف منائسبه ووصفهم بأنهم اما من أنصار النظم الملكية واما أنهم يتسمون بالفساد الدينى أو الانحراف أو الموالاة للغرب . وكان يركز على أن حزبه هو حزب يؤمن بالنظام الجمهورى والنقاء الدينى واتخاذ سياسة لا هى غربية ولا هى

شرقية . وفى حين كان الهدف الرئيسى الذى تسعى اليه الأحزاب الأخرى هو تحقيق انسحاب القوات السوفيتية من أفغانستان واستعادة الاستقلال الأفغانى نجد أن الحزب الاسلامى كان يتحدث عن نقل غارات الفدائيين الى ما وراء نهر اكسوس Oxus فى داخل أواسط آسيا السوفيتية وضد الشيوعية هناك وتحرير أراضى المسلمين فى كل من : بوخارى Bukhara وطشكند Tashkent ودوشاب Dushabe .

وكل من حكمتيار وربانى وصف حكومة كابول بأنها ملحدة وكافرة وحث المؤمنين على شن حرب مقدسة ضد هذه الحكومة والاستشهاد فى سبيل ذلك اذا اقتضت الضرورة ذلك . ونظرا للطموح العقائدى لدى حكمتيار علاوة على مقدرته التنظيمية الخارقة فإن الحزب الاسلامى أصبح الى حد بعيد هو أقصى الأحزاب جميعا حيث صارت قيادته مبتدئة لمسافات بعيدة تصل الى حيرات Herat علاوة على تواجد شبكة من مراكز التطوع والتجنيد ومعسكرات التدريب والخدمات الطبية ومستودعات السلع والبضائع ومكاتب الشئون الادارية . وقد ادعى حزبه أنه قد أنشأ حكومة أخرى فى المناطق التى سيطر عليها الحزب فى داخل أفغانستان . وفيما يتعلق بربانى فإن حليفه أحمد شاه مسعود المتواجد فى وادى بنجشير Panjshir القريب من كابول قد برهن على أنه أعظم القادة الفدائيين . فهو أثناء مقاومته الناجحة للحكومة المركزية تمكن فى نفس الوقت من إنشاء بنية سياسية وادارية فى الوادى . وقد أدى هذا الى تدعيم هيبه وثقوته وصدائفة حزب جماعة اسلامى .

وفى داخل أفغانستان نجد أنه بالإضافة الى المناطق الواقعة تحت سيطرة الأحزاب المتمركزة فى بشاور Peshawar كانت توجد أراض أخرى فى أواسط مرتفعات حذاراجات Hazarajat واقعة

تحت حكم منظمات شيعية لها مكاتب فى داخل المدن الكبرى  
اليرانية حلاوة على مكاتب أخرى فى مدينة كويتا Quetta  
بالباكستان . وكان المجلس الثورى للاتحاد الاسلامى لأفغانستان  
الذى أقام شؤونه الادارية فى إقليم حاذراجات فى سبتمبر ١٩٧٩  
يتألف من شيعة مسلمين معتدلين وراديكاليين . وفى ربيع عام  
١٩٨٤ نجد أن ائتلاف سازمان النصر Sazman-Nasr الموالى  
لايران والسبجاه بسداران ( جيش الحرس ) قد أطاح بالمجلس  
الثورى وسيطر على الاقليم مما دعم بذلك دور ايران فى الحل  
النهائى للأزمة الأفغانية .

وكانت الأحزاب الأصولية تستقى المجندين بها أساسا من  
الشباب المتعلم المتخرج من الجامعات والكليات ومن نبعوا فى الريف  
والمدين الصغيرة من عائلات الموظفين الحكوميين أو المدرسين أو  
التجار . وكان معظمهم من الراديكاليين والدوجماتيين والمتساحين  
وكانوا بمثابة صورة طبق الأصل من الكوادر الشابة للحزب  
الديموقراطى الشعبى .

وكان المعسكر الاسلامى التقليدى ينبع من المؤسسة الدينية  
لأفغانستان التى كانت وثيقة الصلة بالملك زاهر شاه . وكان  
صبغة الله المجددى زعيم جبهة التحرير الوطنية لأفغانستان NFIA  
خريجا فى جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة وكان أستاذا ومدرسا  
للعلوم الاسلامية وكان ابن أخت هزرات أوف شور بازار  
Hazrat of Shor Bazaar . ونظرا للعلاقات الودية بين  
أسرة المجددى والملك فان جبهة التحرير الوطنية لأفغانستان قد  
جذبت العديدين من الموالين للملك . وحقيقة الأمر أن جبهة التحرير  
الوطنية لأفغانستان قد استخدمت رمز أو شعار الملكية كشعار  
وإلى واسلامى . وقد كان أحمد جيلانى Gailani زعيم جبهة

التحرير الوطنية لأفغانستان ورئيس الطريقة القادرية الصوفية مستشارا مقربا من الملك زاهر شاه . وكان أقل الزعماء الأفغان المتمركزين بالباكستان تدينا وكان شخصا متنسها بالواقعية وكان يعترف ويدرك أن الاتحاد السوفيتي كانت له اهتمامات دائمة في أفغانستان وكان ينصح بالتعايش مع الاتحاد السوفيتي . أما نبي محمدى Nabi Muhammadi زعيم الحزب الثوري الاسلامي فكان أستاذًا في العلوم الدينية وكان يدير كلية اسلامية في لوجار Logar التي تقع جنوب كابول كما كان زعيما قياديا في الطريقة الصوفية القادرية . وكان حزبه يضم رجال الدين المحليين ( الملا ) ويضم أيضا الشباب الذين حصلوا على التعليم الحديث . وكان على علاقة طيبة مع كل من الشخصيات الدينية والشخصيات العلمانية وكذلك مع الشخصيات المتخذة الطابع الحديث أو الشخصيات التقليدية . وهو كان على نحو ما بمثابة حلقة اتصال بين المعسكر التقليدي والمعسكر الاصولي .

والصفة المشتركة التي تشترك فيها كل هذه الأحزاب هي انها بان اسلامية Pan-Islamic ومناهضة للماركسية علاوة على استخدامها للاسلام من حيث هو الصيغة الوحيدة التي يمكن أن تحشد المسلمين وتحرك مقاومتهم الشعبية ضد الحكومة اليسارية . وبمعنى آخر يمكن القول بأن الاسلام قد لعب دورا حاسما في خلق الهدف من وراء تكوين كل هذه المنظمات أو الأحزاب . الا أن ذلك لم يكن كافيا لتوحيدهم تحت مظلة واحدة وتحت زعيم واحد .

وبعد فشل اللويا جرجا Loya Jirga المؤقتة في مايو ١٩٧٩ بذلت محاولات في اجتماعات وزراء خارجية منظمة المؤتمر الاسلامي التي تمت في يناير ومايو ١٩٨٠ بهدف تشكيل جبهة موحدة للأحزاب

التواجدة في المنفى . الا أن هذه المحاولات باءت بالفشل . ولكن الذي حدث هو أن الزعماء من أمثال : حكمتيار ورباني قد أحرزوا نجاحا في الحصول على أموال طائلة من دول الخليج الغنية بالبتروول . وبعد أن تدعم « الحزب الاسلامى » بقيادة حكمتيار عقب حصوله على تلك المساعدات المالية فإنه حاول توسيع المنافسة وتوسيع حلقة السباق الى داخل المناطق التى تسيطر عليها أحزاب أخرى وقبائل أخرى . فأدى ذلك بالطبع الى تدمير العلاقات الداخلية بين الأحزاب المختلفة . فسارح ٣٠٠ من رجال الدين المحليين ( الملا ) بالمجئ من الاقاليم الأفغانية الى بشاور فى أبريل ١٩٨١ للعمل على تعزيز وتدعيم الوحدة بين الأحزاب . وتحت هذه الضغوط قام كل من : الجيلانى والمجددى والنبي محمدى بانشاء مجلس مشترك . وقامت الأحزاب الأصولية الثلاثة بتشكيل منظمة شاملة تسمى : التحالف الاسلامى لأفغانستان تحت زعامة ورئاسة البروفيسور : عبد الرسول السيف . وقد تلقى عبد الرسول السيف تعليمه فى جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة وجامعة المدينة المنورة بالسعودية وكان يجيد اللغة العربية ويتحدث بها فى طلاقة مما كان يؤدى الى استقباله استقبالا حارا فى عواصم دول الخليج . وانشاء هذه الائتلافات قد ساعد على التنسيق فى مجال توزيع الأسلحة المرسله من كل من : أمريكا والعربية السعودية ومصر والتى كانت فى صيف عام ١٩٨١ تصل بمعدل حمولة طائرتين أسبوعيا . وقد استخدم السيف منزلته الرفيعة فى كسب العديد من الأشغان غير المنتمين لحركات المقاومة وذلك من خلال تزويدهم بالأسلحة . كما قام بتحويل التحالف الاسلامى لأفغانستان الى حزب خاص به وهو اجراء أدى الى نبث الخلاف والشقاق مرة أخرى بين الأحزاب .

الا أن هذا لم يشبط من عزيمة العربية السعودية ولم يمنعها من مواصلة ضغوطها على الأحزاب الاسلامية لكى تتحد مع بعضها

البعض . وفى أوائل عام ١٩٨٣ حاولت الأحزاب الإسلامية بذل كل ما فى جهدها من أجل خلق تنظيم شامل ومنظمة شاملة تجمع بينها وذلك خوفاً من أن يتم استبعادها من المفاوضات التى هى بصدد التنفيذ تحت رعاية واششرف الأمم المتحدة بين كل من : كابول وموسكو وإسلام أباد وطهران من أجل حل مشكلة أفغانستان . وقد أسفرت تلك المحاولات عن انشاء « التحالف الإسلامى للأحزاب السبعة للمجاهدين الأفغان » فى مايو ١٩٨٣ تحت رئاسة السياف مع تعيين المجددى Mujaddidi نائباً للسياف .

وتجاهلت حكومة كابول الجماعات الإسلامية التقليدية وركزت هجومها على الجماعات الأصولية وخاصة « الحزب الإسلامى » ( كلا القسمين اللذين يتألف منها الحزب ) و « جماعة إسلامى » . مع اظهار نفسها فى نفس الوقت على أنها الراعية والحامية للإسلام . وكان الرئيس كرمال Karmal هو أول من اتخذ خطوة فى هذا الصدد . وبعد أن ألغى العلم الأحمر بالنسبة للحزب الديوقراطى الشعبى أعاد العلم الوطنى الذى يضم ثلاثة ألوان فى اليوم السابق على الاحتفال بالذكرى الثانية لثورة ساقور ( أبريل ) فى شهر أبريل . وقال : « ان الألوان الثلاثة للعلم قد تأسست فى داخل وجدان مجتمعا وهى دائما ما كانت مرتبطة بحالات الفاح المتعاقبة هيوطا وارتفاعا التى خاضها شعبنا » . وكان كرمال يحرص على تأدية الصلاة فى المساجد مع الجماهير بشكل منتظم كما كان يبدأ خطبه وبياناته بعبارة : « بسم الله الرحمن الرحيم » . وكان جماهير المستمعين اليه يتجاوبون ويرددون صيحات « الله أكبر » من وقت لآخر أثناء لقائه ببياناته . كما أنشأ « مكتب التعاليم الإسلامية » ووضع تحت إشرافه المباشر . كما أصدر أوامره بإعادة اذاعة القرآن الكريم وبث ترتيله

على موجات الراديو وعلى شاشات التلفزيون . وفى الخطاب الذى ألقاه فى منتصف يونيو أكد مرة أخرى على أن احترام الإسلام هو جزء من السياسة الرسمية للدولة . واتخذ خطوات عديدة للتعبير عن ذلك . إذ أعطى مزيداً من الاهتمام بوزارة الشؤون الدينية والأوقاف مع اذاعة أنشطتها على نطاق واسع من خلال وسائل الاعلام الكبرى التى تضم الاذاعة والصحافة والتلفزيون . ومن بين الاهتمامات الأخرى أنه أصدر أوامره بزيادة مرتبات العلماء الدينيين وتدعيم هيبته ونفوذه . وفى مقابل ذلك أصبح العلماء الدينيون يعطون المزيد من الاهتمام بشرح السياسات الحكومية الرسمية والاصلاحات التى تقوم بها الحكومة أمام حشود الناس الذين يؤدون الصلاة بالمساجد . كما شرعت وزارة الشؤون الدينية والأوقاف بتنفيذ خطة طموح لبناء المزيد من المساجد والمدارس والمعاهد الدينية . كما وضعت هذه الوزارة برنامجاً لتبادل الوفود الاسلامية مع جمهوريات أواسط آسيا التابعة للاتحاد السوفيتى . وكان الهدف من وراء ذلك هو طمأنة المسلمين الأفغان على أن الاسلام والمؤسسات الاسلامية مازال متواجداً فى هذه الجمهوريات السوفيتية . كما أن البرامج الاذاعية التى تبثها هذه الجمهوريات باللغة الفارسية والاذريجانية **Azeri** والطجكية **Tajik** والازبكستانية **Uzbek** والتركمانية كانت تؤكد أن الاسلام فى حالة من الأمن والأمان فى ظل النظام السوفيتى وأن الخطر الذى يتهدد الاسلام يجىء من جانب أمريكا وبريطانيا والصين واسرائيل .

أما بالنسبة للاسلاميين فقد حاولت الحكومة أن تكسر الاحتكار الذى يمارسونه على الاسلام مع اتخاذ التدابير اللازمة نحو منع الفدائيين من التحرك فى حرية من أفغانستان الى الباكستان والعكس . وشنت الحكومة حملة لتصوير المقاومة

المسلحة على أنها غير اسلامية واستعانت في حملتها هذه ببعض كبار رجال الدين البارزين من أمثال بهاء الدين جان عتبا Baha el Din Jan Aqa . بل حاولت الحكومة كسب رضا القبائل المتواجدة على طول الحدود مع الباكستان من خلال تقديم الرشاوى والوعد بمنحها الحكم الذاتى الاقليمى . وقد تمكنت الحكومة من تحقيق بعض النجاح في هذا الصدد لأسباب عدة من بينها : أن العلاقات بين الأحزاب الأصولية كانت تتم أساسا بمعزلة شخصيات تنقصها المكانة التقليدية بالإضافة الى أن القبائل المتواجدة عند الحدود كانت ضعيفة وغير محددة المعالم . وتلك القبائل التي حولت ولاءها تجاه كابول — عقب حصولها على الرشاوى والأموال والسلاح وتلك هي الوسائل التقليدية للرشوة في العالم القبلى — بدأت تسبب الارهاق والمضايقات للمجاهدين لدى محاولتهم العبور الى داخل الاراضى الأفغانية أو الخروج منها .

وكثفت حكومة كرمال من جهودها الرامية الى توسيع قاعدتها الشعبية . ففي أوائل عام ١٩٨١ قامت بإنشاء « الجبهة الوطنية National Fatherland Front » مع الوضع في الاعتبار تكون خصائص ومميزات القوميات المختلفة والقبائل والعشائر المختلفة التي تتألف منها الأمة الأفغانية . وكانت هذه « الجبهة الوطنية » تضم « جماعة العلماء » والعديد من المجالس القبلية . وكان الهدف الرئيسى من وراء إنشاء « الجبهة الوطنية » هو نشر وشرح السياسات الحكومية الرسمية لجماهير الناس . وبحلول مارس ١٩٨١ زعمت هذه الجبهة أنها تضم ١٠٠ ألف عضو ينتمون لـ ٤٠٠ مجلس محلى . وكان العدد الرسمي لأعضاء الحزب الديموقراطى الشعبى هو ٩٠ ألف عضو . ومع ذلك نجد أن أنشطة هاتين المنظميتين الحكوميتين كانت مقصورة أساسا على



المراكز الحضرية نظرا لأن أجزاء كبيرة من المناطق الريفية كانت قد تمكنت من الامتلاك من سيطرة السلطات المركزية .

ويمكن معرفة مدى انتشار أعمال المتاعبة من خلال البيانات الرسمية الصادرة في أوائل ١٩٨٣ التي أنشأت بأن الثوريين الفدائيين قد دمروا حوالي نصف المدارس والمستشفيات ( عدد المدارس ١٨١٤ وعدد المستشفيات ٣١ ) علاوة على تدمير ١١١ وحدة صحية و ٣ خطوط المواصلات و ٨٠٠ عربة نقل ثقيلة و ٩٠٦ جمعيات تعاونية زراعية .

وكانت الخسائر البشرية آخذة في التصاعد أيضا . ففي أوائل عام ١٩٨٤ صدر بيان يفيد بأن عدد القتلى أو الجرحى من الجنود الأفغان قد وصل الى ١٧ ألف شخص ومن الفدائيين وصل الى ٤٠ ألف شخص . أما الخسائر من الجنود السوفيت فكانت تتراوح ما بين ١٣٥٠٠ الى ٣٠٠٠٠ شخص .

وأصبحت المعاليم التي تحدد موقف الجانبين واضحة . إذ صارت حكومة كابول التي تعتمد على ١١٥ ألف جندي سوفيتي علاوة على المساعدات العسكرية الهائلة من موسكو ملتزمة باخضاع المقاومة المسلحة المنتشرة بالمناطق الريفية بأفغانستان . وعلى الجانب الآخر أصبحت الأحزاب الأفغانية التي تتخذ من الباكستان مقرا لها والتي تتلقى الأسلحة والأموال من كل من : أمريكا والعربية السعودية ومصر والصين — وهي أهوال في حدود ٥٠٠ مليون دولار سنويا — ملتزمة أيضا بمواصلة الجهاد ضد الحكومة الماركسية الى أن يتم طرد القوات السوفيتية وسقوط الحكومة الأفغانية العميلة الكافرة الملعونة .

وفى ظل هذا الجو المشحون بالتوتر الشديد تبنت الأمم المتحدة عقد محادثات بين الطرفين المتنازعين تتناول موضوعات مثل : الجدول الزمني الانسحاب للقوات السوفيتية ووقف المساعدات الأجنبية للمجموعات الأفغانية وعودة اللاجئين الأفغان الى بلدتهم أفغانستان . وكان أهم هذه النقاط وأصعبها هو الانسحاب السوفيتي من أراضي أفغانستان . وعرض فريق كابول وموسكو أن يتم الانسحاب بعد مرور أربع سنوات على وقف المساعدات العسكرية الأجنبية للمجاهدين الأفغان . ولكن محور اسلام اباد واشنتون حدد فترة تتراوح من ثلاثة الى أربعة شهور . أما الأحزاب الأفغانية فكانت تريد انسحابا سوفيتيا فوريا بدون قيد أو شرط .

وبعد أن أصبح ميخائيل جورباتشوف سكرتيرا عاما للحزب الشيوعي بالاتحاد السوفيتي في مارس ١٩٨٥ بدأ الكرملين يظهر المزيد من المرونة حول مشكلة أفغانستان . ووصف جورباتشوف الصراع الدائر في أفغانستان بأنه « جرح دام » وعبر عن رغبته في تخفيض التعهد السوفيتي ازاء كابول . وظهرت نوايا الكرملين الجادة عندما عرض محور كابول/موسكو تخفيض الفترة التي يتم فيها الانسحاب السوفيتي من ٤٨ شهرا الى ١٨ شهرا . وبدأت موسكو تبدي اهتمامها بأن تقوم القوات الأفغانية المناهضة للماركسية بالتفاوض مع حكومة كرمال من أجل التوصل الى مصالحات وطنية . وعندما أدركت موسكو أن قيادة المقاومة في داخل أفغانستان وخارجها لا يرغبون في التعامل مع كرمال . فانها لجأت الى بعض الوسائل السرية الرامية الى طرده من الحكومة . وتم بالفعل طرده من الحكومة في مايو ١٩٨٦ وحل محله الدكتور محمد نجيب الله . ثم أعلنت موسكو بعد ذلك أنها سوف تسحب ٦٠٠٠ جندي سوفيتي بحلول شهر أكتوبر مما أكد أنها ترغب بالفعل في تسوية الأزمة الأفغانية .

ويبدو أن هذه الحركات التي قام بها الكرملين قد نظرت إليها أمريكا والأحزاب الإسلامية على أنها دلائل تشير إلى ضعف الكرملين . ولكي تحرر موسكو خصوصاً من مثل هذه التفسيرات الخاطئة فإنها زادت من أنشطتها ضد المقاومة في أفغانستان . حيث بدأت تستخدم القوات الخاصة بدلاً من القوات النظامية بهدف قطع خطوط الامدادات الواردة من الباكستان . وفي عملية مشتركة قامت بها القوات الأفغانية والسوفيتية في نوفمبر ١٩٨٦ نجد أنها تمكنت بالفعل من الاستيلاء على داما داما Dama Dakka وهي منطقة تتجمع فيها الأسلحة الغربية والصينية التي تصل عن طريق الباكستان . بل قاموا أيضاً بحملة لتقديم الرشوة للقبائل المتواجدة في مناطق الحدود لكي تقوم بعرقلة مرور الأسلحة والفدائيين إلى داخل أفغانستان على طول الحدود الأفغانية الباكستانية الممتدة على مسافة ١٥٠٠ ميل .

وكان المسلمون والأمريكان في حالة من النشاط أيضاً . فبعد أن أرغبوا بحور كابول موسكو على اتخاذ موقف التسوية والمصالحة بشكل علني بدأوا يعملون على رفع نسبة الخسائر التي تترتب على استمرار التواجد السوفيتي في أفغانستان . وكانوا يدركون أن ميزان القوى لا يمكن حسمه الا فوق أرض المعارك . ولجأت موسكو الى نشر الطائرات الهليكوبتر على مسافات طويلة مما جعل القوات السوفيتية والأفغانية تتفوق على خصومهم المسلمين . ولكي تحيد واشنطن السيادة الجوية لكابول فإنها قررت تسليح الفدائيين بصواريخ بلوبايب Blowpipe الانجليزية الصنع وصواريخ ستينجار Stinger الأمريكية الصنع التي تحمل فوق الكتف وهي كالمها صواريخ مضادة للطائرات . وتم بالفعل شحن ١٥٠ صاروخ ستينجار الى المنطقة في أواخر ربيع عام ١٩٨٦ وأعقب ذلك شحن ٣٠٠ صاروخ بلوبايب بعد شهر

عديدة . وتم استخدام هذه الصواريخ بشكل مكثف فى تمصّل الخريف وقد أتضح أنها أكثر فاعلية من صواريخ سام ٧ السوفيتية الصنع . وقد أُنشِرت بمصادر أفغانية فى بشاور الى أنه تم إسقاط ٦٠ طائرة هليكوبتر حكومية خلال الشهور الثلاثة الأخيرة من عام ١٩٨٦ .

وفى ظل هذه التطورات بدأ قادة المقاومة يعتقدون أن وقف إطلاق النار من جانب واحد والذى أعلنه نجيب الله فى ١٥ يناير لمدة ستة شهور قد نبع أساسا من الضعف المتزايد الذى أصاب حكومته من جراء عناد الاسلاميين ومشارتهم . أما بالنسبة لنجيب الله فانه أشار الى أن قراره الخاص بوقف إطلاق النار من جانب واحد هو بمثابة مقدمة للانسحاب السوفيتى الشامل وتكوين حكومة مصالحة وطنية يشارك فيها بعض زعماء الفدائيين .

ورفض التحالف الاسلامى للأحزاب السبعة للمجاهدين الأفغان المرض الخاص بوقف إطلاق النار وقرروا تشكيل حكومة مؤقتة لكى تتولى السلطة بدلا من حكومة نجيب الله .

وبمديئذ قام نجيب الله بتكوين « لجنة المصالحة الوطنية » التى قامت بدورها بانشاء مئات الفروع لها فى البلاد بهدف حث المعارضة على الكف عن المقاومة المسلحة والمشاركة فى الحياة السياسية الطبيعية وتوقفت وسائل الاعلام الكبرى عن الإشارة الى الفدائيين على أنهم « عصابات » وأخذت تتحدث عنهم وتصفهم بأنهم مجرد « اخوان مضللين » . وبذلت جهودا للتقليل من أهمية وراдикаلية ثورة سaur أو ثورة ابريل حيث أشار عبد الرحيم هاتف رئيس لجنة المصالحة الوطنية فى حديثه عن هذه الثورة قائلا : « اننا نسميها ثورة ولكنها فى حقيقة الأمر ليست سوى نوع من التطور » .

وشرعت المقاومة الإسلامية في القيام باغتيالات قادة لجنة المصالحة الوطنية . وفي أواخر مارس انهار وقف إطلاق النيران بالفعل . ومهما كانت المكاسب التي حققتها الحكومة فإنها كانت مكاسب متواضعة . إذ ادعت الحكومة أن ٤٤ ألف لاجئ أفغاني قد عادوا الى وطنهم وأن ٦١ ألفا من المجاهدين الأفغان قد توثقوا بالفعل عن أعمال العنف . وبناء على ذلك فإنه كان لا يزال هناك مليون لاجئ و ١/٢ مليون من الفدائيين مما جعل وقف إطلاق النيران من جانب واحد ليس له أدنى تأثير .

ومع استقرار الرأي على نحو غير رسمي على أن الانسحاب السوفيتي سوف يستغرق حوالى احد عشر شهرا أصبحت النقطة المهمة التي ينبغي معالجتها خارج إطار الأمم المتحدة هي تشكيل حكومة في كابول تكون مقبولة لدى المعارضة الإسلامية والمساندين لها . وفي يونيو أعلن نجيب الله أنه على استعداد للتفاوض مع مؤيدى الملك محمد زاهر شاه المتواجدين بالمنفى بروما من أجل تشكيل حكومة ائتلافية . وكان هذا بمثابة دعوة مفتوحة للأحزاب الإسلامية التقليدية المنضمة للتحالف الإسلامى للمجاهدين الأفغان لكي تتفاوض بشأن دخولها في الحكومة الأفغانية وهي خطوة من شأنها أن تحدث انقساما داخليا في داخل التحالف ومن شأنها أيضا أن تضى طابع الشرعية الدولية على حكومة كابول . ولكن زاهر شاه رفض أن يتقاسم السلطة معه نجيب الله . وفي نفس الوقت استمر في رفض الخطط الرامية الى تشكيل حكومة في المنفى حوله . وما كان زاهر شاه يريده هو استعادة تلك التقاليد التي كانت سارية في أفغانستان والتي لم يكن من المتوقع أن يوافق عليها الحزب الديموقراطى الشعبى . اما بالنسبة للأحزاب الأصولية والحزب الديموقراطى الشعبى الماركسى فكانت الخلافات بينها عميقة للغاية بحيث يتعذر تفاديها وتجنبها . إذ كان

الحزب الديمقراطي الشعبى يؤمن تماما بضرورة الفصل ما بين الاسلام الدينى والاسلام السياسى . وهذا أمر ملعون دينيا ، من وجهة نظر الأصوليين الذين يعتقدون أن الأيديولوجية الاسلامية تخترق كافة مظاهر الحياة : الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية .

ولم تكن كابول أو موسكو على استعداد للتخلى عن الوضع التسيدى أو موقف الهيمنة الذى يتخيله لنفسه الحزب الديمقراطى الشعبى الماركسى فى أية حكومة ائتلافية مستقبلية . ففى خلال السنوات التسع التى قضاها ذلك الحزب فى الحكم تمكن من تكوين جمهور الناخبين الخاصين به : ألا وهم الفلاحون المعدمون الذين يحصلون على أراض علاوة على النساء المتحررات اللاتى كن يخشين من العودة الى حوائط المنزل الأربعة والعودة الى الحجاب بالإضافة الى جميع أولئك الذين قد استفادوا من حملة محو الأمية .

وعلى الجانب الآخر كانت الأحزاب الاسلامية التقليدية قد تهيأت للحفاظ على الشبكات التى كان زعماءها يتراأسونها قبل ثورة سaur أو ثورة أبريل وكانت الأحزاب الأصولية الأربعة هى التى قد خلقت — شأنها فى ذلك شأن الحزب الديمقراطى الشعبى — كيانات جديدة سواء فى داخل أفغانستان أو خارجها . ونلنا لأن هذه الأحزاب الأصولية كانت هى المستفيد الرئيسى من المساعدات التى تقدمها الدول الأجنبية — وهى مساعدات وصلت فى عام ١٩٨٧ الى مبلغ ٦٤٠ مليون دولار من أمريكا علاوة على مبلغ مماثل من العربية السعودية — فانها كانت لديها الوسائل التى تعينها على الإبقاء على شبكات على نطاق واسع تعمل على تدعيم القضية الأصولية فى المجالين السياسى

والعسكري . وبكلمات أخرى يمكن القول بأن الثورة الماركسية وكذلك الموارد التي تقدمها الباكستان وإيران ودول الخليج ومصر وأمريكا كانت هي الأسباب الرئيسية للزيادة السريعة المناجئة في تفجر الأصولية الإسلامية بين الأفغان .



ومع ذلك لم يكن أحد يتصور أن الأحزاب الأصولية قد تتمكن في يوم ما من الاستيلاء على السلطة في أفغانستان . وذلك لأسباب عديدة من بينها :

١ — أنه كانت هناك خلافات عميقة بين هذه الأحزاب بشأن مسائل مهمة وحيوية مثل حق النساء في الإدلاء بأصواتهن في الانتخابات وما إذا كانت جمهورية أفغانستان الإسلامية سوف ترتكز على نظام الحزب الواحد أو نظام تعدد الأحزاب .

٢ — أن هذه الأحزاب كانت تتصادم مع الأحزاب الإسلامية التقليدية بشأن مسائل حيوية مثل نظام الحكم الملكي . فالتقليديون كانوا يميلون للنظام الملكي بينما الأصوليون يعتقدون أن السلطة الوراثية هي سلطة غير إسلامية .

٣ — فيما يتعلق بمسألة التعايش مع موسكو فإن التقليديين من أمثال الجيلاني Gailani كانوا على استعداد لتقبل المصالح الاستثنائية التي كان يتمتع بها الاتحاد السوفيتي في أفغانستان . ولكن على النقيض من ذلك كان الأصولي حكرتار يعتقد أن جمهورية أفغانستان الإسلامية ينبغي أن تصبح مستقبلا

بمثابة نقطة انطلاق لتصدير الثورة الإسلامية الى الدول الجنوبية الواقعة فى داخل نطاق الاتحاد السوفيتى . ولم يكن هذا الاعتقاد من قبيل الدعايات الخطابية المليئة بالفصاحة اللغوية . اذ حاول بالفعل الحزب الاسلامى فى أبريل ١٩٨٧ الاستيلاء على نقطة حرس حدود تقع بالقرب من بيانج بجمهورية طاجيكستان السوفيتية .

وبوجه عام فان أفغانستان تقدم لنا صورة معقدة عن الاسلام والقوى الإسلامية . اذ أن أفغانستان لا يوجد بها ذلك التجانس الذى نشاهده — على سبيل المثال — فى المجتمع الاسلامى المصرى . فالمجتمع فى أفغانستان متغير الخواص والعناصر الى درجة كبيرة علاوة على انه متخلف اقتصاديا بشكل حاد . وفى المرحلة السابقة على ثورة ( أبريل ) كانت الدولة قد حققت قدرا ضئيلا للغاية من الانتهاكات فى حياة الفرد أو الحياة الاجتماعية للأفغان . وعلى نحو ما فان المقاومة التى قام بها الأفغان القرويون ضد الحكومة المركزية هى بمثابة ثورة ضد الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى السريع بقدر ما هى ثورة ضد الدولة فى حد ذاتها .

ولقد شهد المسلمون التقليديون ذروة مجدهم فى الثلاثينات والأربعينات . وظل نمو الأصولية الإسلامية ضئيلا وعلى فترات متباعدة الى أن حدث ذلك التفجر الهائل فى الفترة من أبريل ١٩٧٨ حتى ديسمبر ١٩٧٩ حيث أصبحت الأصولية بعدئذ تشكل جزءا بالغ الأهمية من الحياة السياسية والعسكرية فى البلاد . والأكثر من ذلك أنها دخلت فى عملية الصراع المتعلقة بتوازن القوى بين الدول الكبرى . ونظرا لأنها أصبحت جزءا من الجانب الأمريكى فان مستقبلها أصبح يتوقف أساسا على ما تتخذه واشنطن وحياها ويتوقف أيضا على الموقف الذى تتخذه اسلام اباد . ولذلك فان



الأصولية في أفغانستان — على العكس مما عليه الحال في إيران — ليس لها قاعدة قوية موحدة وآمنة في الداخل تتسم بالاكتمال الذاتي والديناميكية الخاصة بها . وعلى العكس من إيران مرة أخرى فإن الأصوليين الأفغان لا يتبعون من الناحية العملية النظرية التي يلعبون عنها والتي تفيد أنهم يتخذون سياسة « لا ننحاز إلى الشرق أو الغرب » .

وقصارى القول انه لا يوجد نموذج واحد للأصولية الإسلامية سواء كان ذلك النموذج متقلدا السلطة أو متخذا موقف المعارضة .

\*\*\*



## نقد

من هذه الدراسة يمكن لنا أن نجد استنتاجين واضحين بذاتهما:  
ألا وهما الاحياء والاصلاح • وقد ظل الاحياء والاصلاح ظاهرتين  
متكررتين في التاريخ الاسلامي • وما يظهران على نحو مختلف  
وفقا للظروف المتغيرة المختلفة •

والاحياء الاسلامي وثيق الصلة بالحركة الداعية الى العودة  
الى الكتب الاصولية للعقيدة : القرآن الكريم وممارسات النبي  
محمد على النحو الوارد في الأحاديث النبوية الشريفة وهما يشكلان  
معا بما يسمى الشريعة الاسلامية • وعندما يصل الأمر الى  
تطبيق الشريعة على الحياة اليومية للمسلمين يظهر الاختيار ما بين :  
التقليد بمعنى الاعتماد على آراء وتفسيرات العلماء التي  
أدلو بها في الماضي والاجتهاد بمعنى التفسير المستقل • وبوجه  
عام نجد أن المصلحين الاسلاميين قد كرروا القول بأن الشخص  
المؤمن له الحق في ممارسة الاجتهاد • وهذا الأمر ينطبق على السنيين  
أكثر مما ينطبق على الشيعة • ولكن المصلحين الاصوليين - بغض  
النظر عن معتقداتهم الطائفية وكانوا متفقين في الرأي على أن القرآن

الكريم هو نهائى وفريد من نوعه وحقيقى تماما وأنه لا مجال فى الاسلام للتوليف بين رسالة القرآن وأى نظرية أو ممارسة غير اسلامية على الاطلاق .

ومن ثم فان الاصلاح الأصولى يعنى العودة الى الشريعة والتفسير الخلاق للقوانين الالهية فى بيئة الظروف المتغيرة ورفض اية اضافات غير اسلامية الى الاسلام .

وديناميكية المذهب الأصولى أو الأصولية الاسلامية تنشأ عن الصراع الذى يتواجد بين رسالة القرآن التى تنادى بالمساواة بين البشر جميعا . . والاستغلال والظلم المتواجد فى الحياة الواقعية . . بين مطالب الحياة الفاضلة التى تطلبها الشريعة من الشخص المؤمن وواقعية الحياة التى تكتنفها الاغراءات والرذائل .

وكان الالتزام بالقرآن والحياة المتسمة بالتقوى والورع هو الذى دفع شيعية على أو اتباع الامام على الكفاح ضد أعدائه . ومن ذلك المنطلق يمكن القول بأن الشيعة هم أول الناس الأصوليين الذين ظهروا فى التاريخ الاسلامى . وبعدئذ نجد أن ظهور الأمويين المتسمين بالطابع البرجماتيقى العملى المشوب بالطابع الاستبدادى قد اعتبره المؤمنون الصادقون بمثابة اهانة وتحد لتعاليم الاسلام بحيث أصبح الاطاحة بهؤلاء الأمويين هو هدفاً أسمى يسعى لتحقيقه الأصوليون . ثم نجحوا فى ذلك بالفعل .

وفى خلال القرون التالية أصبح المجتمع الاسلامى ممتداً وشاسعاً ومعقداً وذلك بسبب انتشار العقيدة الاسلامية فى كثير من أجزاء آسيا وافريقيا وأوروبا وبسبب ترسخ وتعمق الشقاق بين الشيعة والسنة علاوة على تصنيف الشريعة الاسلامية الى

أربعة مذاهب سنية ومذهب واحد شيعي بالإضافة الى ظهور الصوفية كوسيلة أساسية لتبسيط الاسلام واعطائه الطابع الشعبى . وقد اشتملت الصوفية على هرطقة العلاج مثلما اشتملت أيضا على نقائية الغزالي الذى حاول أن يضع التجربة الصوفية فى داخل نطاق الشريعة بحيث تكون متوافقة مع الشريعة ، وهو موقف قد حرصت على اتخاذه طرق صوفية أخرى مثل الطريقة النقشبندية .

وكان هناك توتر شديد بين الاسلام الشعبى على النحو الذى قدمته بعض الطرق الصوفية . . والاسلام الرسمى على النحو الذى قدمه العلماء الدينيون . والصوفية فى حد ذاتها كانت تشهد تواجدا قلما يتراوح ما بين الاسلام النقى الخالص والمحاولات التلفيقية والتوفيقية التى يضيفها بعض الصوفيين على الاسلام . وعندما أطلق الامبراطور المغولى أكبر Akbar الذى كان وثني الصلة بالطريقة الصوفية الشيستية Shisti « دين الله » فى أواخر القرن السادس عشر فان ذلك كان بمثابة قيام شخص ما بتقديم اسلام تليفيقى الى العالم وهو اجراء أثار هجوما شديدا مباشرا من جانب الباقي بالله Baqibullah وهو زعيم نقشبندى . وهو موقف تبناه بشدة تلميذه سيرهندي Sirhindi الذى أكد مرة أخرى أن الصوفية النقية تقضى بضرورة أن يوائم المؤمن الحقيقى بين تجاربه الذاتية الصوفية والشريعة الاسلامية . وقد قامت شخصية نقشبندية أخرى وهو شيخ يسمى ولى الله بالهجوم على كل من : الاسلام التليفيقى والاسلام الرسمى ودعا الى ضرورة اللجوء باستمرار الى « الاجتهاد » من أجل التمكن من مواجهة المشكلات المعاصرة .

الا أن الفضل فى الهجوم فى وقت واحد على الاسلام الشعبى والاسلامى التليفيقى والاسلام الرسمى يرجع الى محمد بن

عبد الوهاب في منتصف القرن الثامن عشر . اذ قام بشجب واستنكار الصوفية علاوة على استنكاره الممارسات ومعتقدات القبائل في نجد لفترة ما قبل الاسلام ودعم وسائد حق المؤمن في ممارسة « الاجتهاد » . وقد نجم موقفه المتصلب العنيد عن الأوضاع الاجتماعية والجغرافية لمنطقة نجد . اذ كان يمارس مهامه في مجتمع قبلي متواجد في الصحراء الوسطى لشبه الجزيرة العربية القليلة السكان حيث لم يكن الاسلام بحاجة لأن يتنافس مع أى عقيدة دينية أخرى متطورة ، وهى بذلك تعتبر بيئة مختلفة تماما عن بيئة شبه القارة الهندية المزدهمة بالسكان والتي بها حضارة هندوسية راسخة تركز على فكرة وحدة الوجود .

وكان محمد بن عبد الوهاب وكذلك المصلحون الاسلاميون بالهند يحكمون السيطرة على المشكلات النظرية للعقيدة الاسلامية في بيئة كان الاسلام فيها اما هو الدين الوحيد المنظم ( كما هو الحال في نجد ) واما هو القوة الادارية والسياسية السائدة ( كما هو الحال في الهند ) ولكن ابتداء من منتصف القرن الثامن عشر وبعد أن أصبح العالم الاسلامي خاضعا في اذلال للغرب على نحو متصاعد وأصبح معرضا للأفكار والممارسات والنماذج السياسية العلمانية الغربية فان الموقف تغير تغيرا شديدا . وهنا أصبحت الإصلاحات الأصولية تتطلب تحقيق هدفين في آن واحد : تحرير الاسلام من التقليد المذهبي القانوني الذي يتسم به القانونيون المنتحجون علاوة على تطهير الاسلام من المفاهيم الذهنية العلمانية التي اخترقت الاسلام تحت عباءة النزعة الى العصرية او روح العصر أو التحديث .

ويعتبر جمال الدين الأفغانى هو زعيم الحركة الإصلاحية الاسلامية الحديثة ويرجع اليه الفضل في تنبيه الناس الى الأزمة الشاملة التى تحتاج الاسلام مع تقديم الحلول اللازمة للخروج من

تلك الأزمة • ونظرا لأنه قد عاش في جميع الدول المهمة بالعالم الاسلامي علاوة على العيش في كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا فانه قد اكتسب آفاقا عربية في فهم الأمور على نحو لم يسبق له مثيل • وراح يبت وينشر الأفكار التي تهم جميع المسلمين أو الافكار البان اسلامية علاوة على مناداته بشن الجهاد ضد بريطانيا وروسيا وهما أهم دولتين استعماريتين في ذلك الوقت • وتبنى فكرة فتح ابواب « الاجتهاد » التي ظلت مثقلة لفترات طويلة وركز في دعوته على النظام البرلماني على أساس أنه النظام أو الأسلوب الذي يتمشى مع العقائد الاسلامية • بل راح يحث المسلمين على دراسة العلوم والتكنولوجيا والمناهج العلمية • ونظرا لأنه كان ينشر أفكاره وتعاليمه هذه خلال فترة التدهور النهائي للامبراطورية العثمانية فان رسالته وجدت أذانا مصغية واهتماما شديدا من جماهير المسلمين ، وفي عام ١٨٧٦ أصبح الامبراطور العثماني هو أول حاكم مسلم في تاريخ الاسلام يتخذ دستورا مكتوبا وان كان ذلك قد تم تحت ضغوط سياسية من جانب مجموعة قوية تسمى « العثمانيين الشبان » •

وقد قام الشيخ محمد عبده — وهو أحد تلاميذ جمال الدين الأفغاني — بتفسير المفهوم الاسلامي عن الشورى على أنه بمثابة الديمقراطية البرلمانية • • والاجماع على أنه بمثابة الرأي العام • • والمصلحة على أنها بمثابة مذهب المنفعة العامة • وأخيرا نجد محمود رشيد رضا — وهو تلميذ الشيخ محمد عبده — يقدم لنا برنامج عمل للدولة الاسلامية المعاصرة الحديثة • وقد أشار الى أن « المجتهد » الذي يتم اختياره بمعرفة ممثلين عن كافة الطوائف الاسلامية هو فقط الذي يصلح لأن يحكم الدولة الاسلامية • وهو يكون بحاجة لمساعدة من النواب الشعبين الذين يضعون القوانين التي تتمشى مع الروح الشاملة للتعاليم الاسلامية • وينبغي

على المؤمنين اطاعة الحاكم ما دامت أعماله وتصرفاته تتمشى مع المفاهيم الاسلامية وتخدم الصالح العام . أما اذا اتضح أن قراراته تتعارض مع المبادئ الاسلامية أو مع المصلحة العامة فإن النواب الشعبيين ينبغي عليهم ممارسة حقهم الدينى فى الوقوف ضده وتحديه . وهنا نجد تصورا عن ديموقراطية اسلامية تتوافق تماما مع جميع الأزمنة المختلفة .

وما كان المصلحون الاسلاميون يقدمون تفسيرات سياسية للشريعة تضع فى الاعتبار الظروف المعاصرة حتى تبادر أجهزة الدعاية ونشر الأفكار التابعة لهؤلاء المصلحين الى العمل فى نشاط .

مثال ذلك أن حسن البنا قد ذهب الى ما هو أبعد من مجرد تأليف النشرات والكتيبات والكراريس واحتذاب العون والتأييد من جانب عليّة القوم بالدول الاسلامية وغير ذلك من الوسائل التى لجأ اليها كل من : جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده . إذ راح حسن البنا - فى نوع من التوافق مع روح العصر الذى تسوده مشاركة جماهير الناس العاديين فى الحركات السياسية - يجذب انتباه وطاقت المسلمين العاديين وينشئ فى أواخر العشرينات جماعة الاخوان المسلمين التى هى بمثابة حزب شعبى له شعار جذاب « القرآن دستورنا ومحمد مرشدنا والموت فى سبيل الله اسمى أمانينا » وكان الوقت ملائما أيضا فى الفترة التى ظهر فيها حسن البنا . إذ كانت جماهير المسلمين تشعر بالاحباط والحيرة بسبب اختفاء نظام الخلافة الاسلامية الذى ظل متواجدا على مدى ١٣ قرنا من الزمان . هذا بالاضافة الى أن الرسالة التى تنشرها جماعة الاخوان المسلمين كانت تقدم لهم العون والانتقاذ والآمال . علاوة على أنها كانت بمثابة قوة تعويضية عن الموجه العلمانية التى كانت تجتاح مصر ليس فقط من جانب الغرب ولكن أيضا من جانب



تركيا التي اصطبغت بصبغة كمال آتاتورك في فترة ما بعد الخلافة  
الاسلامية •

الا أن حسن البنا قد فعل ما هو أكثر من مجرد انشاء حزب  
شعبي جماهيري • فهو باصراره على ضرورة أن يكون كل فرع من  
فروع جماعة الاخوان المسلمين مشتملا على المسجد الخاص به  
أو المركز الخاص أو المدرسة أو النادي أو الصناعة الخاصة به  
فانه بذلك قد بث الحياة في الفكرة القائلة بأن الاسلام يشتمل على  
كل جوانب الحياة • وهو باتخاذ ذلك الأسلوب فانه قد قدم  
أيضا مؤسسة تعمل على مساعدة أعضاء الاخوان المسلمين الفقراء  
والمتنمين للطبقة الأقل من الطبقة المتوسطة على التغلب على الاغتراب  
الروحي والاجتماعي الذي يعيشون فيه نتيجة لعيشهم في بيئة  
تسودها الطبقات العلمانية المصطبغة بالصبغة الغربية •

ومنذ ذلك الحين تزايد النمو الاقتصادي في الدول الاسلامية  
في أعقاب الاستقلال السياسي وفي أعقاب الارتفاع الدرامي في  
اسعار البترول الذي عثر عليه في الكثير من الدول الاسلامية فأدى  
ذلك الى جذب المدن لأعداد كبيرة من المهاجرين القرويين • ثم أحس  
هؤلاء القرويون بالضيق وفقدان الجذور عقب اقامتهم في بيئة المدن  
الغريبة عليهم • وتجمع هؤلاء القرويون الفقراء للعيش في الأحياء  
السكنية الفقيرة بالمراكز الحضرية مما جعلهم على استعداد للانضمام  
الى أية جماعات ثورية سواء أكانت علمانية أم دينية •

ويحاول الأصوليون الاسلاميون اجتذاب الناس الذين يشعرون  
بالاغتراب في داخل المجتمع علاوة على اجتذاب المظلومين وفقا  
للأسس الاسلامية • وهم يقدمون الاسلام على أنه دين العدالة

التامة والمساواة مع شجب طبقة عليا القوم الحاكمة ووصفها بأنها ظالمة وغير اسلامية وفاسدة وبالتالي ينبغي الاطاحة بها أو على الأقل تنحيها سلميا لكي يتولى الحكم أناس مؤمنون صادقون في ايمانهم • والتاكتيكات المستخدمة من أجل تحقيق هذا الهدف تتراوح ما بين انشاء خلايا سرية وعقد مؤتمرات جماهيرية في داخل المساجد أو خارجها • • وتتراوح ما بين المواجهات الدامية مع قوات الأمن والشرطة والمشاركات السلمية في الانتخابات • • وتتراوح ما بين تنفيذ العمليات الارهابية وتنظيم المظاهرات السلمية • • وتتراوح ما بين تدمير المنشآت الرسمية الحكومية والانسحاب الكامل من المجتمع والعيش في انطواء • • وما بين شن حرب شعواء ضد الحكومة الملحدة الكافرة واقامة حوار عقلائي مع الخصوم العلمانيين •

وبوجه عام تميل المنظمات الكبيرة الى العمل على المكشوف وفي صراحة وعلانية أما المنظمات الصغيرة فهي عسادة ما تعمل في السر والخفاء • وقد يقول المرء مجادلا أن بعض المنظمات التي لا يسمح لها بالعمل على المكشوف تظل صغيرة • ولكن من ناحية أخرى نجد منظمة شعبية كبيرة مثل الاخوان المسلمين في مصر كان لها جهاز سري حتى خلال الفترة التي كان يسمح فيها لها بالعمل على نحو مكشوف وشرعى •

ولكن مهما كان حجم وبسطة أى تنظيم أصولي أو مهما كانت حدة التزامه بالقضية الاسلامية فان الهدف الأسمى للتنظيم يظل متمثلا في شيء واحد : ألا وهو اقامة حكومة اسلامية حقبة بمعنى الكلمة في البلاد •

ومن بين الوسائل التي تتبع لتحقيق ذلك الهدف الأسمى تحويل الاحتجاج الاجتماعي الى حركة ثورية تتم على مراحل

مع استخدام الرموز الاسلامية واللغة والعادات والأعياد الاسلامية .  
 وذلك هو ما حدث بالفعل في ايران مع وجود فارق واحد وهو أن  
 ايران لم يكن بها حزب اسلامي مثل حزب الاخوان المسلمين يعمل  
 في داخل ايران وانما كان يوجد فقط مجموعة من علماء الشيعة  
 الذين لهم قاعدة اقتصادية مستقلة خاصة بهم علاوة على وجود  
 شبكة واسعة الانتشار خاصة بهم . ومن بين الوسائل الأخرى التي  
 تتبع من أجل خلق حكومة اسلامية لجوء جماعة اصولية الى  
 اغتيال الحاكم ( مثلما حدث مع السادات في مصر ) أو اللجوء الى  
 الاستيلاء على مركز ديني مهم ( مثل الاستيلاء على المسجد الحرام  
 في مكة ) على أمل أن مثل ذلك الحوادث الهام قد يفجر ثورة عارمة  
 ضد الدولة فيتمكن الأصوليون من الاستيلاء على السلطة .

ولكن مهما كانت الوسيلة المستخدمة فإن العنصر الأساسي  
 في الموقف يتوقف على مدى ولاء الجيش للحكومة . فأنظمة الحكم  
 في كل من مصر وسوريا والعربية السعودية قد تمكنت من البقاء  
 على قيد الحياة رغم الضربات العنيفة التي وجهت اليها بمعرفة  
 الأصوليين الراديكاليين لأنها كانت تحظى بولاء الجيش لها . ولكن  
 في ايران فقط نجد أن الخوميني كان قادرا على تقويض وإضعاف  
 الروح المعنوية للجنود بالجيش على نحو تدريجي مما جعل الجيش  
 في نهاية الأمر غير قادر على توفير التماسك والنظام في الدولة .  
 وقد حدث ذلك نتيجة الأسباب كثيرة :

١ - أن الجيش كان يستخدم كقوة بوليسية لاخضاع  
 الاضطرابات المدنية على مدى فترات طويلة للغاية حتى أنه أصبح  
 لا يثير خوف الناس .

٢ - أن الجيش كان يوجد به نسبة عالية من الأفراد المجندين  
 اجباريا والذين يجدون صعوبة في تحصيل التضامات الموجهة لهم  
 بمعرفة زعيم له مكانة عالية ومنزلة رفيعة مثل الخوميني والتي

تحثهم على التخلي عن البهلويين . كما أن عقدة الشهيد المتأصلة في عمق في داخل صدور الشيعة والتي دفعت بآلاف الإيرانيين الى تعريض صدورهم لرصاصات الجيش كانت بمثابة عامل مهم للغاية في اضعاف الروح المعنوية لدى الجنود .

وهناك أسباب عديدة أدت الى فشل الأصوليين الأفغان في الاستيلاء على السلطة . اذ أن الأصولية في افغانستان لم تزدهر من حيث هي حركة احتجاج ضد الأتوقراطية الظالمة وفساد الحكومات المسلمة من الناحية الاسمية في عهد الملك زاهر شاه والرئيس داود خان وإنما هي قد نمت من حيث هي ردود فعل ناجمة عن المحاولات التي قام بها الضباط اليساريون العسكريون والمثقفون اليساريون لتحويل الانقلاب العسكري الذي حدث في ابريل ١٩٧٨ الى ثورة ماركسية كاملة . ومثلما أدركت الحكومة اليسارية في كابول أن جارها القوى المتمثل في الاتحاد السوفيتي هو جار لا يمكن الاستغناء بالنسبة لبقائها على قيد الحياة فإن الجماعات الأصولية الاسلامية وكذلك الجماعات التقليدية الاسلامية وجدت نفسها معتمدة اعتمادا كبيرا على جيرانها من الدول الاسلامية — مثل باكستان وايران — من حيث مساندتها ومؤازة نموها وبقاؤها على قيد الحياة . وقصارى القول أن القادة الاسلاميين لا يتحكمون تحكما كاملا في الحركة الاسلامية التي يقودونها .

وبعد أن تسببت الحكومة اليسارية في خلق الظروف الملائمة التي تؤدي الى نمو الأصولية الاسلامية من خلال أعمالها المتطرفة أثناء الشهور العشرين الأولى عقب الثورة اليسارية نجد أنها بدأت تتراجع عن اصلاح الاقتصادى والاجتماعى وعن اضعاف الطابع العلماني على المجتمع الأفغانى .

والسياسات التي اتبعتها الحكومة اليسارية قد ساعدت على تنشيط القطاعات النائمة بالمجتمع — مثل الأميين الحضريين والنساء

والفلاحين المعدمين الذين لا يملكون أراضي زراعية على الإطلاق -  
 مما أدى الى تشديد قبضة الحكومة على السلطة • وهى فى نفس  
 الوقت بذلت الكثير من الجهد من أجل إنهاء الشعور بالاغتراب  
 الذى كان يشعر به العلماء الدينيون فى خلال الشهور الأولى من  
 الثورة • ولأن الحكومة هى التى تدفع المرتبات للعلماء الدينيين فإن  
 ذلك جعل الحكومة فى موقف يسمح لها باستخدام العلماء لكى  
 يوافقوا موافقة ضمنية على الأقل على السياسات التى تتخذها الطابع  
 الحديث • ومن خلال المبادرة التى قامت بها لإنهاء الحرب الأهلية  
 فإنها استطاعت أن تظهر نفسها على أنها محبة للسلام بالفعل فى  
 بيئة تزايد فيها عدد الناس الذين سئموا من الحروب وويلاتها ومن  
 ثم تمكنوا من كسب مساندة الكثيرين من الراغبين فى الاخلاص الى  
 الراحة فى داخل البلاد • وقد فعلت الحكومة ذلك بدون أن تتراخى  
 فى أنشطتها الأخرى المناهضة للمتمردين والتمثلة فى تقديم الرشوة  
 للمقاتل المتواجدة على طول المناطق الحدودية الأفغانية الباكستانية •

ونظرا لأن الحزب الديموقراطى الشعبى كان يمارس نفوذه فى  
 المراكز الحضرية الأفغانية فإنه قد ظل محتفظا بزماء المبادرة فى ذلك  
 الصراع • ففى أى تسوية استرضائية قد يتم التوصل إليها بين  
 هذا الحزب والمقاومة الإسلامية لم يكن من المتوقع أن يوافق هذا  
 الحزب الماركسى على أى برنامج يهدف الى تغيير الدولة والمجتمع  
 وفقا للنظريات الأصولية للإسلام أو يلغى وزارات حيوية مثل  
 وزارة الدفاع ووزارة الشؤون الخارجية ووزارة الشرطة والمخابرات •

وهناك عوامل مماثلة داخلية وخارجية توضح لنا السبب فى  
 فشل الأصوليين السوريين فى الاطاحة بحكومة حافظ الأسد •  
 فبحلول الوقت الذى أعلن فيه الاخوان المسلمون السوريون الجهاد  
 ضد حكومة حافظ الأسد فى عام ١٩٧٦ كان حزب البعث العربى

العلماني الذي يعكس الأوضاع ويجعل الاسلام جزءا من المقومات الداخلية التي تتألف منها القومية العربية قد ظل متقلدا السلطة لفترة تزيد على عشر سنوات مما مكنه من انشاء جمهور من الأنصار والمؤيدين له . وهؤلاء الأنصار والمؤيدون كانوا يتألفون من أقليات دينية وعلمانية مثل العلويين والمسيحيين بالإضافة الى طبقات اجتماعية عريضة مثل طبقات الفلاحين والعمال الذين استفادوا من قرارات الاصلاح الزراعي وقرارات التأميم في مجال الصناعة وتجارة الجملة . وأثناء المواجهات السابقة غير الخطيرة التي تمت بين الأصوليين والسلطات نجد أن هذه الشرائع من المجتمع قد احتشدوا حول العلم البعثي وقضوا على التهديد الاسلامي . وهكذا نرى انه قد ورث حكومة وحزبا لهما خبرة في صد الهجمات الأصولية الاسلامية من خلال أعمال شعبية وحكومية ورسمية .

وفي أوائل عام ١٩٨٠ قام الاخوان المسلمون بسوريا - انطلاقا من التجربة الايرانية الاسلامية - بعقد تحالف مع قوات المعارضة العلمانية قبل توجيه هجوم شامل على الحكومة من خلال المظاهرات الجماهيرية والاضرابات الجماعية عن العمل ولكن حافظ الأسد أدرك بوضوح أن الثورة الاسلامية السورية تسير وفق خطوط الثورة الايرانية . وعلى العكس من الشاه نجد أن حافظ الأسد لم يكن في حاجة لأن يتصارع مع شخصية اسلامية هائلة ومقدسة مثل الخميني . كما انه كان لديه مجال للمناورة على نحو أفضل مما كان لدى شاه ايران . وقام الأسد بتقديم تنازلات محددة في المجال الاقتصادي والاداري من أجل مواجهة الاتهامات العامة بالفساد ومواجهة المطالب المحددة التي يشتكي منها التجار - وهم الممولون الرئيسيون للأصوليين - علاوة على تقديم تسهيلات للحرفيين الراغبين في الحصول على تسهيلات تتعلق بالاستيراد ومنحهم الحريات المدنية . وجنبا الى جنب مع هذه التنازلات والتسهيلات استمر

حافظ الأسد في أعماله العسكرية الرامية الى سحق الأصوليين المسلمين والمتعاطفين معهم . وأثناء هذه الازمة قامت وسائل الاعلام الكبرى الواقعة تحت سيطرة الدولة بشن حملة عنيفة ضد الأصوليين مع الوضع في الاعتبار التمييز ما بين القطاعات المعتدلة والقطاعات المتطرفة من الحركة الأصولية علاوة على تركيز الدعاية على القرارات الحكومية الخاصة بزيادة عدد المساجد ورفع مرتبات العلماء الدينين . وتحت الضغوط المتزايدة التي مارسها الأصوليون وقف العلويون والمسيحيون الى جانب الحكومة خشية أن يتعرضوا للإبادة والسحق في حالة قيام حكومة اسلامية في المستقبل . وكان التجار يدركون أن الاطاحة بحكومة حافظ الأسد قد يعقبها حالة من الفوضى العارمة ولذلك بدأوا يعدون أنفسهم عن العصيان المسلح الذي يقوم به الاسلاميون . ومما حسم الموقف لصالح الحكومة فشل الأصوليين في المحاولة التي قاموا بها لاغتيال حافظ الأسد .

كما كانت العوامل الخارجية تشكل جزءا كبيرا من الصراع الذي يشنه الأصوليون . اذ كانوا يجدون ملاذا لهم في العراق والأردن ويتلقون المساعدات من الرياض . وكانت اسرائيل بمثابة عامل خارجي آخر مهم . فمما حسم الموقف لصالح حافظ الأسد قيام اسرائيل بغزو لبنان في يونيو ١٩٨٢ .

وفي حالة ايران نجد أن الفصل بين المسجد والدولة — وهو وضع ناجم عن الموارد المالية المستقلة التي يمتلكها العلماء الشيعة والتي أعطتهم درجة كبيرة من حرية الحركة على نحو لا مثيل له في العالم السني — كان بمثابة عامل مهم في اسقاط الشاه . فنظرا لأن العلماء الدينين في ايران لم يكونوا من الموظفين الحكوميين فان سيطرة الشاه عليهم كانت ضئيلة للغاية . وهناك

عامل آخر وهو أن الشاه - على العكس من حافظ الأسد - لم يكن لديه أيديولوجية بديلة مثل النظرية البعثية التي تتسم بالتكامل ولم يكن لديه حزب راسخ يعمل على تدعيم شرعية حكومته . وهناك سبب ثالث وهو أن الشاه - على العكس من الزعيم السوري - لم يكن يتمتع بالولاء من جانب أقلية قوية مثل العلويين أو المسيحيين المنتشرين في جميع أرجاء البلاد . وهناك سبب رابع وهو أن الشاه - على العكس من حافظ الأسد - وجد نفسه ضائعا ومدفوعا في مواجهة شخصية دينية مقدسة وجذابة ألا وهي شخصية الخوميني . وما زاد من ورطة الشاه أن الخوميني كان يوجه حركاته الاحتجاجية من خارج ايران وبالتالي كان بعيدا عن أوامره الملكية . وهناك سبب خامس وهو أن حافظ الأسد كان واضح الذهن بالنسبة للهدف الذي يسعى اليه ووسائل تحقيق ذلك أثناء تواجد الصراع الطويل بينما كان الشاه يتردد ويتذبذب أثناء اللحظات الحاسمة في الاحتجاجات الشعبية وذلك بسبب صحته الآخذة في التدهور وبسبب المواقف المتبعة التي تتخذها وشنجن التي تعتبر أكبر نصير لحكومته الايرانية . وأخيرا لم يكن أمام الشاه تهديد خارجي حقيقي أو محتمل بحيث يمكن للشاه تقديمه الى رعاياه بهدف تحويل مشاعرهم وطاقتهم نحو مواجهة عدو خارجي أجنبي

وبعد أن قام الخوميني بحفز الملايين من أفراد الشعب نحو مناصرة قضية الاسلام الذي يتعرض للتهديدات من جانب البهلويين فإنه راح يدفعهم نحو اضفاء الطابع الاسلامي على المجتمع . كما راح يدفعهم نحو مواصلة الحرب ضد عراق صدام حسين الذي قام بغزو جمهورية ايران الاسلامية .

وقبل قيام الثورة الايرانية كانت ايران تحكمها حكومة علمانية متخذة الطابع الغربي ومتألفة من عليا القوم أو الطبقة الارستقراطية



بالمجتمع . وهذا هو نفس الوضع السائد حاليا في معظم الدول الإسلامية : وهي دول كانت خاضعة للاستعمار الأوربي في خلال القرن التاسع عشر ثم حصلت على استقلالها في خلال الثلث الأول من القرن العشرين وتولى الحكومة فيها صفوة مختارة مشكلة على غرار الاستعماريين الأوربيين الراحلين . ومن هنا يمكن القول بأن الطريقة التي اتبعتها الثورة في الاطاحة بالحكومة العلمانية واقامة حكومة اسلامية محلها قد لقيت تأييدا هائلا من غالبية أعضاء المؤتمر الاسلامي الذي يضم موريتانيا التي كانت بمثابة مستعمرة فرنسية والتي تواجه المحيط الباسفيكي عند أقصى الغرب ومثل اندونيسيا التي كانت مستعمرة هولندية والتي تقع في أقصى شرق الباسفيك .

وعلى النقيض من ذلك نجد أن العربية السعودية هي حالة فريدة من نوعها بالنسبة لجيرانها على طول الساحل الغربي للخليج .

فالطبقة الارستقراطية الحاكمة في السعودية التي لم تشهد حكما استعماريا غربيا كان لديها عوامل قوية تعمل لصالحها . فمع امتلاك السعودية الأكبر احتياطي بترولي في العالم أصبح لدى الأسرة الملكية السعودية الحاكمة الموارد المالية الكافية لاستقطاب أية حالات من المعارضة تلوح في الأفق سواء بين الاخصائيين التكنولوجيين الفنيين أو بين زعماء القبائل المنشقة في الداخل أو التي تظهر بين قادة المعارضة السعودية المتواجدين في المنفى . ونظرا لأن أعضاء الأسرة الحاكمة السعودية هم رعاة الأماكن المقدسة المتواجدة في مكة والمدينة المنورة فإن ذلك قد أعطى السعودية وضعا فريدا من نوعه بين المسلمين في جميع أرجاء العالم . وهذا أيضا يساعد على الابقاء على الولاء الشديد من جانب العلماء الدينيين الذين يتمتعون بالمكانة العالية والموارد المالية السخية في داخل السعودية على نحو أفضل من أى مكان آخر في العالم السني . ومنذ أحداث

العصيان التي شهدتها مكة في عام ١٩٧٩ والتي قام بها الاخوان المسلمون الجدد الذين يدعون الى اقامة نظام جمهورى في داخل السعودية بدأت الدولة في تدعيم أجهزة مخابراتها وممارسة المزيد من الشدة والعنف ضد الخارجين على القانون .

ومع ذلك توجد هناك نقاط ضعف كبيرة . فبيت سعود ينبغي عليه توفير الحماية لمساحات شاسعة من الأراضى في حين أن عدد السكان يعتبر ضئيلا : إذ لا يزيد عدد السكان الأصليين السعوديين على ستة ملايين نسمة . كما يوجد ميل لدى الأمراء نحو الفساد والانحلال الخلقي والبعد عن الحياة المتسمة بالتقوى والورع وهذا في حد ذاته يشوه صورتهم في أذهان جماهير الناس ويقضى على شرعيتهم في الحكم ، وتظل الأسرة الحاكمة في حالة من عدم الشعور بالأمن والأمان والدليل على ذلك هو معارضتها المستمرة للإعلان عن دستور مكتوب وعدم رغبتها في مشاركة السلطة مع مجلس استشارى منتخب . وقد حاولت هذه الأسرة تأمين مستقبلها من خلال تدعيم روابطها الحربية والاقتصادية والمخابراتية مع أمريكا . الا أن المساعدات الأمريكية لا يمكن أن تساعد على مواجهة الاسلاميين الهدامين في الجبهة الداخلية .

ولقد تمكن الملكيون السعوديون من ابطال مفعول الرسالة الجمهورية الموجبة من طهران الثورية الى السعودية وذلك من خلال التركيز على الحقيقة التي مفادها أن أولئك الذين يحكمون إيران هم من الشيعة وهى طائفة ينظر اليها معظم السنين السعوديين بعدم تقدير .

وعلى كل حال فان مستقبل السعودية وكذلك مستقبل النظم الملكية الأخرى بالخليج علاوة على مستقبل العراق يتوقف على النتائج التي ستنجم عن الحرب الإيرانية العراقية .

ومنذ أن تفجرت الحرب الإيرانية العراقية في سبتمبر ١٩٨٠ قدم الخوميني تلك الحرب على هيئة مصطلحات اسلامية • فصدام حسين بغزوه لايران لم يتم فقط بغزو الأراضي الايرانية وانما قام ايضا بالهجوم على حكومة الله وبالتالي الهجوم على الاسلام • وأشار الخوميني أثناء طرد الغزاة العراقيين من ايران الى أن الأمر يستلزم معاقبة صدام حسين الكافر على الذنب الذي ارتكبه في حق الاسلام • ومن ثم ينبغي مواصلة القتال الى أن يتم الاطاحة بصدام حسين لأن ذلك هو واجب ديني يقع على عاتق جميع المسلمين الصادقين في ايمانهم ومن ثم فإن أولئك الذين يموتون أثناء قتالهم من أجل اسقاط صدام حسين هم يموتون من أجل الاسلام وبذلك يعتبرون من الشهداء • وقد ورد بشأن الشهداء الآية الكريمة التالية : (( ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون )) • وأثناء الاحتفال بالذكرى السابعة للحرب العراقية الايرانية في سبتمبر ١٩٨٧ كانت الحرب قد قضت على حياة ربع مليون مقاتل ايراني وحوالي نصف هذا العدد من العراقيين • وكانت الحرب تستهلك ٨٦٪ من مجموع الانتاج الايراني الداخلي بينما يصل هذا الاستهلاك في داخل العراق الى نسبة ٥٧٪ •

وانتصار طهران في هذه الحرب قد يؤدي الى ظهور حكومة في بغداد موالية لايران وذلك مع تزايد صعود الشيعة الى الحكم لأول مرة في التاريخ العراقي • وقد تمارس ايران ضغوطا سرية وعلمية على الأسر الملكية الحاكمة بدول الخليج بهدف ارغامها على اتباع المعتقدات الاسلامية الأساسية فيما يتعلق باستشارة الأمة في تسير دفة شؤون البلاد وانشاء حكومات نيابية في الداخل • وقد يجد حكام الخليج صعوبة في تحدى ايران في هذا الصدد لأسباب سياسية ودينية •

وقد تشبه إيران الإسلامية الى أن الله كان كريما وسخيا مع المسلمين المتواجدين بمنطقة الخليج لأنه منح منطقة الخليج احتياطا من البترول يصل الى ٥٥٪ من اجمالي احتياطي البترول في العالم كله وان من الواجب على حكومات الخليج أن تنسق خططها بهدف استغلال هذه الموارد الغالية في اعطاء أكبر قدر من المنافع لجمهور المسلمين وتحويل المنطقة كلها الى منطقة صناعية مهمة متقدمة علميا وتكنولوجيا . وبكلمات أخرى فان إيران قد تعرض خططا على جيرانها تتعلق بانشاء سوق اسلامية مشتركة على غرار السوق الأوروبية المشتركة المتواجدة في المجتمع الاقتصادي الأوربي . وقبله يقدم هذا على أنه بمثابة المرحلة الأولى في خطة شاملة تهدف الى جذب كافة الدول الإسلامية نحو شبكة اقتصادية واحدة شاملة مما يؤدي بالتالي الى تحويل الاسلام الى نظام اقتصادي عالمي على غرار الرأسمالية والاشتراكية .

وذلك من شأنه تدعيم المسلمين الذين يؤمنون ايمانا راسخا بعلو الاسلام من الناحية الأخلاقية والروحية على كافة الأنظمة الاجتماعية الأخرى .

والصراع الآخر الذي يرتطم مباشرة بالعالم الاسلامي هو الصراع العربي الاسرائيلي فيما يتعلق بحقوق الشعب الفلسطيني . واذا وافق الاسرائيليون على اعادة قطاع غزة والضفة الغربية المحتلين الى الفلسطينيين ثم انشاء دولة فلسطينية في هذه الأماكن وهو سيناريو غير متوقع الى درجة كبيرة فان كلا من اليساريين الراديكاليين والقوى الاسلامية ستمارس المزيد من الضغوط بهدف استعادة باقي الأجزاء التي احتلها اليهود في فلسطين منذ عام ١٩٤٨ . وبسبب استمرار رفض الاسرائيليين الجلاء عن الأراضي الفلسطينية المحتلة فقد تشفجر حرب جديدة بين اسرائيل والدول العربية . واذا تعرضت دولة عربية أو أكثر للهيمنة على أيدي الاسرائيليين فقد يؤدي ذلك الى تصعيد المعارضة ضد أمريكا وضد

أمريكا وضد الحكومات العربية الموالية لأمريكا مثل الحكومة السعودية على سبيل المثال .

وما يحدث في مصر هو أمر بالغ الأهمية فيما يتعلق بتشكيل الأمور في داخل دولة تعتبر هي القلب النابض للعالم الاسلامي كله . اذ توجد بها دلائل واضحة تشير الى تصاعد الأصولية بها : مثل تزايد اعداد النساء المرتديات لزي الحجاب الاسلامي وزيادة الهائلة في المطبوعات والكتب الاسلامية التي تصدرها دور النشر في مصر . الا ان الأمر يتوقف بالدرجة الأولى على ضباط القوات المسلحة . ومن بين النتائج المدمرة المترتبة على معاهد السلام المنفردة التي أبرمها السادات مع اسرائيل في سبتمبر ١٩٧٨ هو أن الضباط الذين تربوا على القومية العربية العلمانية على مدى ربع قرن من الزمان قد وجدوا أنفسهم محرومين فجأة من أيديولوجية يستندون عليها . اذ أن تحول الجيش فجأة الى جزء من خطط الدفاعات الغربية لمنطقة الشرق الأوسط كان بمثابة بديل ضعيف لما قدمه عبد الناصر لجيش وما قدمه من أمور لها الطابع الوطني والقومي . ومنذ ذلك الحين نجد أن الأصوليين الاسلاميين قد كثفوا من جهودهم الرامية الى ملء الفراغ الأيديولوجي في داخل الجيش مع العمل على كسب المتطوعين . فاذا وضعنا هذا في الاعتبار علاوة على تزايد الاتجاهات الناصرية بين بعض كبار الضباط بالجيش فإن ذلك قد يؤدي الى احتمال ظهور تحالف بين الاسلاميين والناصرين . وهناك بعض الدلائل التي تشير الى ذلك : منها تلك القلاقل والاضطرابات التي يثيرها المواطنون العاديون بل التي يثيرها بعض رجال الشرطة المظلومين الذين يتم قمعهم بواسطة رجال الجيش . من وقت لآخر مثلما كان عليه الحال في ايران . وقد يظهر ذلك التحالف في حالة تعرض دولة عربية أو أكثر للهيمنة على أيدي الاسرائيليين أثناء تفجير حرب شاملة .

وفي القطاع المدني نجد أن الاسلاميين المعتدلين يعملون على التغلغل في هدوء وببطء الى داخل النقابات المهنية والهيئات الادارية الخاصة بالدولة مما يؤدي الى تمهيد الطريق لدى قيام القادة الاسلاميين المدنيين منهم والعسكريين بتقلد المناصب الكبرى من خلال انتخابات سلمية أو من خلال انقلاب عسكري . ولكن الضعف الرئيسي الذي يعاني منه الأصوليون في دولة سنية مثل مصر هو أن العلماء الدينيين ليسوا سوى موظفين حكوميين وبالتالي فهم ليس قاعدة اقتصادية خاصة بهم وأن حق ممارسة الاجتهاد لا يمارسه أى شخص آخر بخلاف شيخ الأزهر الشريف الذي يكون دائما متوافقا مع نظام الحكم السائد . كما أن مصر المعاصرة قد تخلت عن علماء دينيين لهم شعبية كبيرة وعقائمية حرة مستقلة من أمثال الشيخ حافظ سلامة والشيخ عبد الحميد كشك والشيخ يوسف البدرى والشيخ عبد الله السماوى الذين كانوا يجاهرون ويعلنون صراحة ضرورة التطبيق الشامل للشريعة الاسلامية والغاء معاهدة السلام مع اسرائيل . كذلك نجد أن ظهور ذلك التدفق من شركات الاستثمار الاسلامية التى تقدم المعونات المالية للمنظمات الأصولية يعتبر ظاهرة فريدة من نوعها ولم يسبق لها مثيل مما يدل على بزوغ قاعدة اقتصادية مستقلة للقوى الاسلامية في مصر .

ولكن هناك عوامل خارجية مثل التطورات في حرب الخليج والصراع العربى الاسرائيلى قد تحدد مسار مجرى الأحداث في مصر على نحو يفوق التطورات على الجبهة الداخلية .

الا أن هناك شيئا واحدا مؤكدا تماما : وهو أن بزوغ مصر كدولة أصولية - وهى دولة سنية لها أهميتها الاستراتيجية فى داخل الوطن العربى - سيهز العالم الاسلامى وغير الاسلامى على نحو يفوق كثيرا ما حدث لدى تفجر الثورة الايرانية فى عام ١٩٧٩ .

## خاتمة

عقب الأداء الممتاز الذي قام به التحالف الذي يسيطر عليه الإخوان المسلمون في انتخابات ابريل ١٩٨٧ في مصر حدثت زيادة سريعة فجائية في النشاط الاسلامي . وكان ذلك النشاط يتم أساسا بمعرفة حوالي أربعين مجموعة راديكالية تعرف عادة باسم « الجماعة الاسلامية » . وقد تحدثت هذه الجماعة الاسلامية حق الحكومة في تعيين الأئمة الذين يقودون الصلوات الجماعية من خلال الاصطدام مع قوات الأمن التي تتواجد خارج المساجد ، كما تحدثت وواجهت الشرطة الجامعية فيما يتعلق بالبيئة غير الاسلامية التي تكتنف الحرم الجامعي والتي تتمثل في الاختلاط بين الطلبة والطالبات وظهور الطالبات بدون ارتداء لزي الحجاب الاسلامي بل قامت بارهاب المسيحيين وتخويفهم من خلال اعتداءاتهم على الكنائس .

وكان الاسلاميون الراديكاليون يمارسون نشاطهم بصفة خاصة في صعيد مصر ( الوجه القبلي ) الذي يعيش فيه حوالي ثلث تعداد السكان في مصر . وفي المدن الكبرى مثل أسيوط والمنيا قاموا بإغلاق الملاحى الليلية علاوة على قصر بيع المشروبات الكحولية على

عدد قليل من الفنادق الفاخرة السياحية • وبعدئذ تنفيذ وتطبيق قوانين السلوك الاسلامي في احياء معينة بالقاهرة وخاصة حتى عين شمس بل أقاموا بها محاكم اسلامية • وفي هذا الجو المشحون بالتوتر تم اغتيال رجل شرطة في عين شمس في أواخر سبتمبر ١٩٨٨ وردت الحكومة على ذلك بأن قامت باغراق حتى عين شمس بقوات من الجيش وشرطة الأمن ثم استخدمت قانون الطوارئ وقامت بالقضاء القبض على ٢٠٠٠ من المقاتلين الاسلاميين •

الا أن الدلائل كانت تشير الى أن قمع الحكومة للجماعات الراديكالية كان غير فعال على نحو متزايد • وقد قام الدكتور سعد ابراهيم الأستاذ في العلوم الاجتماعية بدراسة أشار فيها الى أن السجين الاسلامي يستلهم دائما الحديث النبوي الشريف « من شاهد منكم منكرا فليغيره بنفسه » • ولذلك فهو ينظر الى الأعمال الحربية التي يقوم بها على أنها جزء من واجبه الديني الذي يحتم عليه أن يكون « مسلما ملتزما » مع عدم المبالاة بالنسبة للنتائج التي قد تنجم عن أعماله الحربية •

ونظرا لقيام الحكومة بممارسات القمع بما في ذلك تعذيب المقاتلين الاسلاميين فقد زاد الصحفيون ونواب البرلمان التابعون للاخوان المسلمين من هجومهم على الممارسات الحكومية • وفي داخل مجلس الشعب المصري قام نواب الاخوان المسلمين بتحسين موقفهم من خلال تحويل الشعار الذي ينادون به : « ألا وهو » الاسلام هو الحل « الى مطالب تتلخص في انتهاء حالة الطوارئ واطلاق سراح المحتجزين والمسيجون وتشجيع المزيد من الوحدات السكنية وتحسين الخدمات الصحية وانشاء البنوك الاسلامية وادخال نظام الزكاة كوسيلة تهدف الى تقديم الرعاية الاجتماعية • وذن بين الصحف الخمس المعارضة للحكومة برزغت ثلاث منها من حيث هي أدوات.



مهمة في تشكيل الرأي العام الموالي للإسلام وهي المجالات الثلاث التي يرأس تحريرها صحفيون أصوليون • وكانت الأزمات الاقتصادية المستمرة التي تعاني منها الحكومة سببا في تزويد القرى الإسلامية بالبيئة الملائمة التي تمكنها من توسيع قاعدتها الشعبية •

بل أن بعض السياسات الرسمية التي اتخذتها الحكومة قد ساعدت المعسكر الأصولي على نحو غير متعمد • إذ أن قيام الحكومة بفرض حظر على الناصريين مع التقيد بفكرة وضع حد أدنى قدره ٨٪ من التصويت الشعبي بالنسبة لأي حزب حتى يتمكن من دخول مجلس الشعب ( وهذا قد أدى الى حرمان اليساريين العلمانيين من حق دخول البرلمان ) قد جعل الجمهور الساخط لا يجد أمامه أي اختيار سوى مساندة جماعة الإخوان المسلمين وحلفائهم الراديكاليين •

والأكثر من ذلك أنه في أوائل عام ١٩٨٩ ظهرت دلائل تشير الى حدوث انقسام في داخل المؤسسة الدينية • ففيما يتعلق بالمساجد التي يسيطر عليها الاسلاميون الحرييون قال الشيخ الأكبر للجامعة الأزهرية « ان المساجد السامة في عصرنا الحديث هي تلك المساجد التي تثير مشاعر الناس وهي المساجد التي يتم فيها اخفاء الأسلحة وأدوات العنف » وعلى النقيض من ذلك الكلام نجد أن المفتي الأكبر في مصر قد ألجأ الى الهجمات التي تشنها الحكومة على المساجد الواقعة تحت سيطرة وإدارة رجال الدين المستقلين الذين يتكلمون في جراءة وصراحة وأشار في حديثه الى أن تلك الهجمات الحكومية هي « جريمة كبرى » الا اذا كانت تتخذ الأسباب تتعلق بالأمن العام

وبالنسبة للأحداث الخارجية كان الأصوليون يشعرون بتدعيم موقفهم من خلال التمرد الذي يمارسه الفلسطينيون ضد القوات

الاسرائيلية والذي تفجر في قطاع غزة بينما قامت قوات الأمن في أكتوبر ١٩٨٧ بقتل سبعة أعضاء في منظمة الجهاد الاسلامية . وبعد ذلك بشهرين تفجر تمرد فلسطيني في الأراضي المحتلة في ميجو يسوده التعاون النشط من جانب الاسلاميين مع منظمة التحرير الفلسطينية العلمانية . ومن جهة أخرى نجد أن موافقة ايران على وقف اطلاق النيران في حربها مع العراق قد أحدثت تأثيرات سلبية على الأصوليين المصريين .

## ايران

لدى دخول حرب الخليج في عامها السابع في ٢٢ سبتمبر ١٩٨٧ وجدت ايران نفسها تواجه قوى مشتركة تضم سلاح الطيران العراقي الذي كان يمتلك آنئذ ٤٠٠ طائرة مقاتلة والسلاح البحري الأمريكي الذي يضم حوالي ٤٠ بارجة حربية .

بل كانت ايران أيضاً في موقف ضعيف من الناحية الدبلوماسية . ففي ٢٠ يوليو أصدر مجلس الأمن بالاجماع قرارا شاملا يضم عشر نقاط - وهو القرار الصادر تحت رقم ٥٩٨ بشأن وقف اطلاق النيران في حرب الخليج والذي يتضمن مادة بتكوين لجنة دولية لكي تحدد الجانب الذي يخرق القرار ويستأنف الحرب - وفي حين قبلت بغداد ذلك القرار الصادر عن مجلس الأمن نجد أن طهران لجأت الى المراوغة .

وأثناء شتاء عام ١٩٨٧ - ١٩٨٨ أصبحت ايران غير قادرة على شن هجوم ضخم في القطاع الجنوبي نظرا لأنها كانت تعاني من نقص في القوات البشرية والمعدات العسكرية . اذ كان القصف المستمر الذي شنه العراقيون على الكبارى والمصانع ومحطات توليد

الطاقة قد بدأ يحدث تأثيرا سلبيا على المجهود الحربي الإيراني الى درجة خطيرة . هذا بالإضافة الى أن إيران اذا شنت هجوما شاملا ضد العراق فأنها ستتغضب مجلس الأمن مما يجعله يصدر قرارا بفرض حظر بيع الأسلحة لإيران .

وبعد أن أدركت بغداد الورطة التي تعيش فيها إيران فأنهنا شنت حرب المدن على إيران في ٢٧ فبراير ١٩٨٨ بما في ذلك اطلاق صواريخ أرض/أرض التي يبلغ مداها ٣٨٠ ميلا والتي تسمى : « الحسين » . وكان هذا المدى البعيد للصواريخ يجعل طهران العاصمة واقعة تحت رحمة الصواريخ العراقية . وبحلول الوقت الذي انتهت فيه حرب المدن في ٢٠ ابريل كانت العراق قد أطلقت بالفعل ٢٠٠ صاروخ من صواريخ « الحسين » على المدن الإيرانية مع التركيز بصفة خاصة على طهران العاصمة . أما صواريخ إيران أرض/أرض فكان مداها ٧٧ ميلا فقط وتم توجيه معظمها الى بغداد .

وفي منتصف مارس تمكنت إيران بالتعاون مع حلفائها من الأكراد العراقيين من الاستيلاء على مدينة حلبجة Halabja التي يبلغ عدد سكانها ٧٠ ألف نسمة والتي تقع على مسافة ١٥ ميلا في داخل العراق . فقام الطيران العراقي بالهجوم على هذه المدينة مستخدما الأسلحة الكيماوية مما أدى الى مقتل ٤٠٠٠ شخص على الأقل معظمهم من المدنيين . فأدى ذلك الى اتاحة الفرصة امام إيران لشن حملة دعائية ضخمة ضد العراق . واحتز العالم لدى مشاهدته صوراً للجثث المشوهة للرجال والنساء والأطفال والحيوانات . الا أن الدعاية الواسعة التي قامت بها إيران فيما يتعلق بالاغارة على حلبجة Halabja بالأسلحة الكيماوية قد أحدث ذعرا شديدا بين المواطنين وبدأوا يخشون من قيام

بغداد بتزويد صواريخها أرض/رض برؤوس كيماوية • فأحدث ذلك تأثيرا سيئا على الروح المعنوية للجماهير الايرانية وقد كانت حالتهم المعنوية منخفضة بالفعل بسبب الهجمات الصاروخية المتكررة العراقية •

وفي هذا الجو من الارتباك الذي يسود ايران قامت العراق بشن هجوم ناجح في اقصى الجنوب مع استخدام مكثف للأسلحة الكيماوية وتمكن من استعادة شبه جزيرة الفاو Fao • وكان هذا بمثابة تخل عن الموقف الدفاعي الذي اتخذته العراق على سنوات عديدة ماضية • ثم وجدت ايران نفسها في مواجهة بالخليج مع البحرية الأمريكية التي قامت باعطاب أو تدمير اثنتين من البوارج الحربية الأربعة التابعة لها •

وفي ٢٧ ابريل قطعت العربية السعودية علاقاتها الدبلوماسية مع ايران • وكان السبب المباشر في ذلك هو رفض طهران مطلب الرياض الخاص بتخفيض عدد الحجاج الايرانيين من ١٥٥ ألف الى ٤٥ ألف حاج • بما يتمشى مع القرار الذي اتخذ أخيرا والذي ينص على السماح بألف حاج عن كل مليون مسلم في أى دولة وهو القرار الذي سبق الموافقة عليه في منظمة المؤتمر الاسلامي في اجتماعها في شهر مارس • واتهمت الرياض طهران بأنها « تتخذ موقفا معاديا من العربية السعودية وتعتمد الاضرار بمصالحها الرئيسية » • واثناء مناقشة حق الرياض في تحديد أعداد الحجاج وفرض الشروط على الحج أشارت ايران الى أن العامل الرئيسي في القرار السعودي يرجع الى التنسيق السعودي مع السياسات الأمريكية في المنطقة من أجل مساعدة العراق • ونظرا لأن الملك فهد كان يدرك واجبه الديني ازاء الحفاظ على العلاقات مع كافة الدول الاسلامية فإنه قد حصل على موافقة مجلس العلماء على الاجراء الذي اتخذه ضد جمهورية ايران الاسلامية •

وعلى الصعيد السياسي كان ذلك وقتا حساسا بالنسبة  
للإيرانيين الذين كانوا يمرون بذروة الانتخابات البرلمانية .  
وانتهت الجولة الثانية من الانتخابات في ١٣ مايو بظهور النواب  
الراديكاليين والاصلاحيين كقوة سائدة مهيمنة .

وفي ٢٥ مايو تفوق العراقيون على الإيرانيين في مجال المدفعية  
النقيلة والصواريخ التي تحمل رؤوسا عادية أو رؤوسا محملة  
بغاز السيانيد أو غازات الأعصاب المميتة حيث كانت تطلق تلك  
الصواريخ من قاعدة شالمخ Shalamche التي تقع شرق  
البصرة . وبعد مرور شهر استخدم العراقيون تكتيكات مماثلة من  
اجل استعادة جزر « المجنون » Majnoon التي تقع في منطقة  
المستنقعات الحدودية بالجنوب .

ووجهت طهران نداء للشعب الإيراني تحثه فيه على التطوع  
والذهاب الى ميادين المعارك . الا أن ردود الفعل كانت ضعيفة  
وذلك نظرا للدعاية الكبيرة التي قامت بها وسائل الاعلام الكبرى  
الإيرانية فيما يتعلق بتوسع العراق في استخدام أسلحة  
الغازات السامة .

واستمر التوتر بين البحرية الإيرانية والبحرية الأمريكية  
بالخليج قائما . ففي ٣ يوليو حدثت مناوشات ومصادمات بين  
الجانبين عند مضيق هرمز Hormuz . وفي هذا الجو المشحون  
بالتوتر الشديد حلقت طائرة مدنية إيرانية تقل ٢٩٠ من المسافرين  
في رحلة طيرانها المعتادة من بندار عباس الى دبي . فقامت بارجة  
حربية أمريكية بإطلاق النيران عليها واسقاطها وذلك بطريق الخطأ  
حبث ظنوا أنها طائرة حربية .

واتهمت إيران أمريكا بأنها تعمدت اسقاط هذه الطائرة  
المدنية . وبدلا من أن تقوم إيران برد انتقامي من أمريكا في داخل

المنطقة أو خارجها نجد أنها اكتشفت بتقديم شكوى لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة . وفي داخل إيران عقد كبار القادة الإيرانيين محادثات سرية تتعلق بقبولهم لقرار مجلس الأمن المتعلق بوقف إطلاق النيران والصادر تحت رقم ٥٩٨ . وتمكنوا من الحصول على موافقة شفوية من الخوميني في ١٥ يوليو وفي اليوم التالي ناقش « مجلس الخبراء » الحرب وكتبوا مذكرة رسمية أوصوا فيها بقبول وقف إطلاق النيران ورفعوا المذكرة إلى الخوميني الذي يملك وحده السلطة الدستورية - من حيث هو القائد الأعلى للقوات المسلحة - لتقرير مسائل الحرب والسلام .

وما أن وافق الخوميني رسميا في وثيقة مكتوبة على وقف إطلاق النيران حتى سارع الرئيس خمائيني إلى تنفيذ ذلك القرار . حيث أرسل خطابا في ١٨ يوليو إلى سكرتير عام الأمم المتحدة : خافيير بيريز دي كولار يبلغه فيه موافقة إيران على وقف إطلاق النيران .

وتلقى الإيرانيون نبأ موافقة إيران على وقف إطلاق النيران بدهشة كبيرة وعدم تصديق . إذ لم تقم الحكومة بأعدادهم وتهيئة الجو لهم لتلقى مثل هذا القرار الدرامي الذي اتخذته الحكومة . وظلت جماهير الشعب في انتظار لسماع خطاب من الخوميني لكي يوضح فيه الأمور لهم .

وجاء خطاب الخوميني في ٢٠ يوليو بمناسبة الذكرى الأولى لمذبحة الحجاج الإيرانيين في مكة على هيئة خطاب مطول استغرق ٩٠ دقيقة وأذيع في راديو طهران . وجاء في خطاب الخوميني ما يلي : « بسبب الأحداث والعوامل التي لن أتناولها حاليا بصفة مؤقتة .

وبعد أن درست النصائح التي قدمها الخبراء العسكريون والسياسيون في بلادنا . . فأنسى وافقت على قبول قرار وقف إطلاق النيران . وفي اعتقادي أن ذلك يتماشى مع مصلحة الثورة ونظام الحكم في إيران في هذه الفترة الحاسمة من التاريخ « وكان الخوميني يدرك أن الموافقة على قرار وقف إطلاق النيران سيحدث تشويشا واستياء بين أولئك الذين قد أعجبوا بموقفه المتشدد طوال فترات الحرب مع العراق ولذلك أشار في خطابه قائلا : « ان بعض الناس الواقعين تحت تأثير العواطف الجياشنة قد يتساءلون في شوق عن الأسباب والظروف التي دعت الى الموافقة على وقف إطلاق النيران وهو أمر لا بأس به في حد ذاته ولكن الظروف لا يسمح حاليا بالبحث في كافة التفاصيل التي دعت الى الموافقة على ذلك القرار . وأنا اكرر قولي لكم أن الموافقة على هذا القرار كان رهيبا بالنسبة لي بل أكثر من تناولى للسلم وقد أخضعت نفسي لمشية الله وتناولت هذا المشروب من أجل ارضاء الله » .

ومن بين الموضوعات التي لم يرغب الخوميني في التحدث عنها : الصعوبة المتزايدة التي واجهتها إيران فيما يتعلق بشراء الأسلحة من الدول الأجنبية . اذ وجدت إيران نفسها غير قادرة على تعويض الخسائر في الأسلحة الناجمة عن الهجوم على البصرة في عام ١٩٨٧ خاصة فيما يتعلق بالماكينات والمدافع اللازمة للدبابات وذخائر المدفعية . كما أن محاولات وشنجن الرامية الى وقف تدفق الأسلحة وقطع الغيار الى إيران في أعقاب فضيحة إيران جيت ( في أواخر عام ١٩٨٦ ) قد نجحت بالفعل في جرمان إيران من الحصول على الأسلحة المتطورة والذخائر وازدادت الأمور سوءا بسبب القيود المالية التي فرضت على إيران مما جعلها غير قادرة على الحصول على القروض المالية هذا بالإضافة الى الانخفاض المستمر في أسعار البترول الذي هبط بحدة في الفترة من عام

١٩٨٥ - ١٩٨٦ بسبب قيام العربية السعودية بزيادة انتاجها  
واغراق الأسواق العالمية بالبترول . وكان العائد من البترول  
الایرانی فی عام ١٩٨٨ يعادل ایراد العراق من البترول .  
وأخيرا وطبقا لما قاله هاشمي رفسنجانی المتحدث الرسمي البرلمانی  
ورئيس الأركان فان الأمريكان والعراق قرروا اللجوء الى كافة  
الوسائل التي تضمن منع ایران من تحقيق أى انتصار عسكري وذلك  
هو الذي جعل العراق تلجأ الى استخدام الأسلحة الكيماوية على  
نطاق واسع في الهجمات التي تشنها على ایران .

ووجدت ایران نفسها غير قادرة على مواجهة ذلك التحول  
الذي حدث في ميزان القوى من خلال زيادة القوى البشرية الحربية  
الایرانية ورفع الروح المعنوية لأفراد الجيش الإیرانی . بل ان  
المتطوعين للخدمة العسكرية في عام ١٩٨٨ قد انخفض عددهم بنسبة  
الثلث عن السنة السابقة . ومن بين الأسباب ان أولئك الذين أدوا  
فترة عمل لمدة ثلاثة شهور في جبهة القتال اكتشفوا أنه لا يوجد  
نشاط كبير لهم هناك . وهذا أدى الى عدم تشجيع أصدقائهم  
المدنيين على التطوع للقيام بواجبات على جبهة القتال . كما أن عدم  
الحسم في اتخاذ القرارات السياسية قد نشأ بدوره عن القوى  
الایرانية الهائلة التي شيدتها العراق منذ ربيع عام ١٩٨٧ . هذا  
علاوة على احجام المجتمع الدولي عن معاقبة بغداد على استمرارها  
في استخدام الغازات السامة على نطاق واسع . بالاضافة الى عدم  
رغبة القادة الإیرانيين في فرض المزيد من التقشف على الشعب  
الایرانی . وقصارى القول أن ایران لم تعد قادرة على التغلب على  
العجز الذي تعاني منه في مجال الأسلحة والمساندة الدبلوماسية .

وعلى وجه العموم استقبل قرار الخوميني في ارتياح كبير .  
اذ كان الكثيرون من الأفراد المنتمين للطبقة العليا والطبقة المتوسطة  
يرغبون في انتهاء الحرب منذ فترات سابقة . أما الطبقة العمالية



والطبقة الاجتماعية المنخفضة فكانوا يشعرون بالولاء الشديد للخميين لدرجة لا تسمح لهم بالتشكك في صحة قراراته . كما ان التوقعات بظهور اعتراضات من جانب بعض ضباط الحرس الثوريين قد تلاشت عندما قام قائد الحرس الثوري الاسلامي الذي يسمى محسن ريزا Rezai Muhsin أثناء اجتماعه مع الخوميين في ٢٢ يوليو بتسليمه خطابا بالموافقة على وقف اطلاق النيران وتجديده ولائه للخميين .

وقد أثبتت هذه الحرب أنها دموية للغاية وباهظة التكاليف . وتشير تقديرات الدول الغربية الى أن اجمالي القتلى في هذه الحرب قد وصل الى ٣٦٧ ألف قتيل : حيث وصل عدد القتلى الإيرانيين الى ٢٦٢ ألف وعدد القتلى العراقيين الى ١٠٥ آلاف . أما عدد الجرحى فيزيد على ٧٠٠ ألف جريح وهذا يعني أن اجمالي أعداد القتلى والجرحى قد وصل الى مليون شخص من الجانبين العراقي والایراني . أما الأرقام الرسمية التي أعلنها وزير الارشاد الاسلامي الايراني بعد مرور شهرين فهي على النحو التالي : ١٢٣٢٢٠ قتيلًا في المعارك و ٦٠١٧١ مفقودًا أثناء العمليات العسكرية و ١١٠٠٠ قتيل من المدنيين . وطبقًا لإحصائيات معهد استكهولم الدولي لبحوث السلام فإن إيران قد أنفقت مبلغًا يتراوح ما بين ٧٤ و ٩١ مليار دولار في هذه الحرب بينما أنفقت العراق مبلغًا ما بين ٩٤ و ١١٢ مليار دولار وهذه الأرقام لا تشمل على ثمن الأسلحة التي تم استيرادها من الخارج . أما قواتير الاستيراد من الأسلحة للعراق فهي بمبلغ ٤٢ بليون دولار وبالنسبة لإيران هي في حدود ١١ بليون دولار .

ولم يصبح القرار الرسمي بوقف اطلاق النيران نافذ المفعول الا في ٢٠ أغسطس . وبدأت محادثات السلام بين الجانبين في

٢٥ أغسطس في جنيف تحت رئاسة سكرتير عام الأمم المتحدة ولكن هذه المحادثات وصلت الى طريق مسدود عندما طالبت العراق بإجلاء قوات الأمم المتحدة فوراً من شط العرب • اذ رفضت ايران ذلك المطالب وأشار الى أن هذه المهمة هي مسؤولية مشتركة تخص الجانبين اللذين قاما بالتوقيع على معاهدة عام ١٩٧٥ • وأشار العراق الى أن معاهدة عام ١٩٧٥ لم تعد قائمة ولم يعد لها وجود • ورفضت ايران ذلك الرأي وأشارت الى أن هذه المعاهدة الخاصة بالحدود سارية المفعول الى الأبد وهي معاهدة لا يمكن إلغاؤها من جانب واحد •

وبدت بغداد متشددة عسكرياً عند نهاية الحرب مثلما كانت عنيدة ومتشددة في بدايتها • الا أن الحكومة الإيرانية والمجتمع الإيراني كانا أكثر قوة وتماسكا من الناحية العسكرية والسياسية مما كانا عليه منذ ثمان سنوات •

لقد بدأ الغزو العراقي في الوقت الذي كانت فيه الحماسة الملتهبة في ايران قد بدأت تخبو وتضعف • ولذلك يمكن القول بأن هذا الغزو اعطى للحكام الدينيين الفرصة لحياء وتجديد الدوافع التي تؤدي الى الوحدة الوطنية وتماسك الثورة الاسلامية • اذ أصبح الدفاع عن القاعدة الاسلامية لايران وطرد الغزاة المعتدين له اثر عظيم في تجميع كافة الناس على كلمة واحدة وصيحة واحدة • كما أدت الحرب الى كبح جماح المناقشات والمنازعات العنيفة علاوة على خلق بيئة تؤدي الى تزايد درامي في قوة الحرس الثوري الاسلامي •

وبحلول اوائل عام ١٩٨٤ تحولت الحرب الى صراع طويل بين الارادات الوطنية المتعلقة بالمجالات الحربية والسياسية والايدولوجية والاقتصادية بين النظامين الاجتماعيين المتنافسين : النظام العلماني البعثي الاشتراكي من جهة والنظام الاسلامي الثوري

من جهة أخرى • وأصبحت الحرب مهيمنة على وجدان المجتمع وسياساته في كلتا الدولتين وصارت نتائجها مرتبطة بمستقبل الحكومتين •

وصور القادة والزعماء الإيرانيون الحرب والقيود التي تفرضها الحرب على أنها بمثابة حافز يؤدي إلى زيادة تدعيم عملية الاعتماد على النفس علاوة على تحقيق الذات • وقد أدت هذه الحرب إلى تقوية العديد من الصناعات المحلية الجديدة التي تعمل في مجالات الدفاع وغيرها من المجالات الأخرى التي لا تتعلق بالدفاع • بل قد سجلت الصناعة الحربية في إيران نموا وازدهارا هائلا سواء في إنتاج المنتجات القديمة أو في إنتاج المنتجات المعدنية الجديدة على اختلاف أنواعها •

ودائما ما كان الاهتمام الأول لحكومة طهران منصبا على تعميق وتوسيع الثورة الإسلامية • ومادامت الحرب كانت تخدم ذلك الغرض فإن العروض المتكررة بوقف إطلاق النيران التي تقدمت بها العراق والأمم المتحدة ومنظمة المؤتمر الإسلامي كانت تلقى الرفض والازدراء من جانب طهران • ولكن عندما أدرك الخوميني من خلال اتصالاته المستمرة مع الشبكة الدينية التي تعمل تحت رئاسته أن رجل الشارع في إيران بدأ يشعر بالملل والسأم والضيق من هذه الحرب فإنه وافق على وقف إطلاق النيران وتقبل الهدنة • حيث أدرك أن فرض المزيد من التقشف على الناس وازغامهم على مواصلة الحرب في عنف من شأنه أن يقضي على القساعة الجماهيرية التي تركز عليها حكومته • وأدرك أن الاستمرار في الحرب سيؤدي حتما إلى تدمير الثورة وليس إلى تدعيمها وتقويتها • وهناك سبب آخر مهم وهو أن الخوميني البالغ من العمر ٨٦ عاما بدأ يتعرض للمتاعب الصحية • ويبدو أنه قد رأى أن من المستحسن أن يكون

خليفته « منتظري » - الذى سيتولى السلطة عقب وفاته - قادراً على معالجة المشكلتين التوأم : مشكلة الحرب ومشكلة الفراغ فى السلطة الذى قد ينجم عقب وفاته . لذلك فضل الخومينى أن ينهى الحرب ويعمل على تأمين الثورة الاسلامية خلال الفترة المتبقية له من حياته .

ومن هنا يمكن القول بأن العوامل الداخلية فقط هى التى كان لها تأثير على الخومينى الذى سبق له أن تجاهل كافة الضغوط الخارجية التى مارستها عليه قوى متنوعة خارجية مثل السعودية وليبيا والاتحاد السوفيتى وأمريكا ومنظمة المؤتمر الاسلامى ومجلس الأمن التابع للأمم المتحدة . والجدير بالذكر أنه قد أشار فى بيانه الصادر فى ٢٠ يوليو ١٩٨٨ الى « أن كبار المسئولين الايرانيين قد وافقوا على قرار مجلس الأمن من خلال ارادتهم الحرة ولا يوجد أى دور لأى شخص آخر أو دولة أخرى فى هذا الصدد » .

وقد كانت ايران مهتمة دائماً بتوازن القوى فى منطقة الخليج . ونظراً لأنها تعتبر نفسها دولة لها مساحة كبيرة وتضم عدداً كبيراً من السكان فانها نظرت الى نفسها على أنها بمثابة الدولة الكبرى فى منطقة الخليج . ورأت ايران أن اتخاذ الاسلام كأيدولوجية سياسية يعتبر أداة قوية تعين على تجميع الدول الواقعة على الجانب الغربى من الخليج تحت مظلة اسلامية مادام حكام الصفوة المختارة فى هذه الدول لا يمكن لهم أن يدعوا أنهم يستقون الشرعية فى الحكم من الدين الاسلامى . وقد واجهت ايران معارضة قوية فيما يتعلق بتحقيق هذا السيناريو وذلك لأسباب كثيرة .

أولاً - لقد كان هناك دائماً عداً تاريخى وعدم ثقة بين العرب والفرس .

**ثانياً -** انه كان يوجد دائماً ذلك الشقاق المتواجد بين الشيعة والسنة مع العلم بأن كافة الحكام العرب بالخليج من السنيين وهم لا يحترمون كثيراً الشيعة .

**ثالثاً -** وأخيراً وهذا هو أهم الأسباب فان جميع تلك الدول لها علاقات قوية مع أمريكا من الناحية العسكرية والاقتصادية والسياسية وهو أمر على النقيض تماماً من ايران الثورية . وهو الأمر الذي قد شجع العراق على غزو جمهورية ايران الاسلامية .

والجهود التي بذلتها العراق من أجل الاطاحة بحكومة الخوميني من خلال غزو ايران لقيت فشلاً ذريعاً . وفي نفس الوقت نجد أن محاولات ايران الرامية الى تحويل الحرب الى أداة لتصدير الثورة الاسلامية الى الدول الأخرى قد لقيت أيضاً فشلاً ذريعاً .

ولكن الحكومة العراقية قد خرجت من هذه الحرب وقد أصبحت كياناً حاق به الكثير من التغير نتيجة لهذه الحرب . اذ تسببت هذه الحرب في هدم الأيديولوجية العراقية بوجه عام والعناصر البعثية للنظام العلماني الجمهوري الاشتراكي بصفة خاصة . ولكن تتمكن بغداد من الصمود أمام وابل الدعاية الاسلامية المنبعثة من طهران فانها حاولت أن تبدو أكثر تديناً وتمسكاً بالدين الاسلامي من أعدائها الايرانيين . وراحت تستغل التاريخ الاسلامي القديم وراحت تصف الصراع الدائر بأنه « قادسية صدام حسين » مشيرة الى المعركة التي حدثت في عام ٦٣٧ عندما انتصر العرب المسلمون على الجيش الساساني لبلاد فارس ( الزراديشتي ) في منطقة القادسية التي تقع في الجزء الجنوبي من العراق . بل وضعت بغداد برنامجاً طموحاً لإنشاء مساجد جديدة وترميم المساجد القديمة علاوة على قيام صدام حسين بزيارات متكررة للأضرحة والأماكن المقدسة

بالمراق • والأهم من ذلك كله أن المؤتمر التاسع لحزب البعث العراقي المنعقد في يونيو ١٩٨٢ قد وصف الاسلام بأنه « ثورة عظمى في تاريخ البشرية جمعاء وأن العرب في العصر الحديث ينبغي أن يسيروا وفق رسالة الاسلام » • ومن ناحية أخرى فإن رسوخ أقدام صدام حسين في السلطة بالعراق عقب انتهاء الحرب مع ايران قد أوضح أن الأصولية الاسلامية الشورية بايران قد تم احتواؤها •

ونظرا لأن حكومة الخوميني قد حرمت من فرصة تصدير ثورتها من خلال قوة السلاح فإنه لم يكن أمامها سوى تطوير النظرية الثورية اجتماعيا واقتصاديا في داخل دولة ايران بهدف أن تصبح ايران هي الدولة النموذج أمام باقى الدول الاسلامية الأخرى • • وكان ذلك يعنى التركيز على الاصلاحات الداخلية وإعادة البناء والتعمير في داخل ايران •

وإذا كان الخوميني قد ركز انتباهه على تجريد واصلاح اقتصاد ايران فإن ذلك لم يمنعه من القيام بدوره كزعيم روحاني لكافة المسلمين وكان مستعدا لتقديم الهداية والنصح والارشاد إذا سمحت الظروف له بذلك •

والحاجة الى قيامه بالاضطلاع بذلك الدور قد ظهرت عقب طبع ونشر رواية « آيات شيطانية » بقلم سلمان رشدى وهو كاتب مولود في الهند ومقيم في لندن • ففي الفصل الثانى من هذه الرواية صور الكاتب النبى محمدا صلى الله عليه وسلم كشخصية روائية تسمى « ماهوند Mahound » تتسم بعدم الضمير والتجرد من المبادئ الأخلاقية والفسق والدجل • وبعدئذ أشار رشدى الى أن ماهوند وضع في القرآن آيات أتضح أنها من عمل الشيطان : آيات شيطانية • ثم قدم الكاتب فانتازيا خيالية جامحة عن « الستارة » وهى أشهر بيت شعبى للمدعاة في عهد الجاهلية •

وعقب طبع هذه الرواية في أواخر سبتمبر ١٩٨٨ طلب زعماء مسلمون مقيمون في إنجلترا من رئيسة الوزراء مارجريت تاتشر فرض حظر على بيع تلك الرواية ومحاكمة سلمان رشيد لمفترائه على الاسلام وتشويه سمعته . فأشارت مارجريت تاتشر الى أنه لا يوجد لديها سند قانوني يجيز لها أن تتخذ هذين الاجراءين . ولكي يكسب القادة الاسلاميون المقيمون في لندن التأييد لوجهة نظرهم في العالم الاسلامي كله فانهم قاموا بتصوير الصفحات التي تسيء للاسلام في ذلك الكتاب وأرسلوا صورا من تلك الصفحات الى سفارات ال ٤٥ دولة اسلامية الممثلة في منظمة المؤتمر الاسلامي المتواجد في لندن . ونظرا لأن مثل هذا التجديف في حق الديانة المسيحية يعتبر جريمة يعاقب عليها القانون في إنجلترا فان هؤلاء القادة الاسلاميين أجروا اتصالات مع وزير الداخلية دوجلاس هيرد لكي يتخذ اجراء ضد سلمان رشدي . ولكن هيرد أشار الى أن محاكمة مثل هذه الحالات تعتبر قانونية في الدولة التي يكون فيها الدين الرسمي هو الاسلام . أما في بريطانيا فالاسلام يشكل دينا للأقلية . وتفجرت المشكلة على المستوى الجماهيري في داخل إنجلترا وخارجها في ١٤ يناير ١٩٨٩ عندما قام المسلمون المقيمون في برادفورد بحرق نسخة من كتاب « آيات شيطانية » أثناء عقد مؤتمر جماهيري .

وفي ١٢ فبراير وفي أعقاب طبع النسخة الأمريكية من هذه الرواية تفجرت مظاهرات عنيفة في اسلام آباد عاصمة الباكستان التي فرضت حظر على تداول هذا الكتاب . وأدت المظاهرات العنيفة الى مصرع ستة أشخاص . وكان ذلك بداية لتفجر هذه المشكلة على المستوى العالمي . وبعدئذ يبدو أن أحد مساعدي آية الله الخميني قد أجرى اتصالات معه لكي يصدر فتوى دينية في هذا الموضوع .

فأصدر الخوميني فتوى دينية في ١٤ فبراير هذا نصها :  
 « أود أن أبلغ كافة المسلمين الشيعة في جميع أرجاء العالم أن  
 مؤلف كتاب « آيات شيطانية » الذي طبع ونشر من أجل الهجوم  
 على الاسلام وعلى النبي محمد وعلى القرآن الكريم وكذلك جميع  
 الناشرين الذين يعرفون تماما محتويات ذلك الكتاب قد صدر  
 عليهم الحكم بالاعدام . ولذلك فأنا أناشد كافة المسلمين الغيورين  
 على الدين الاسلامي أن ينفذوا حكم الاعدام في هؤلاء الناس في أي  
 مكان يتواجدون فيه لكيلا يجرؤ أحد مستقبلا على توجيه اهانات  
 لقدسية الاسلام وطهارته . وأي مسلم يقتل أثناء قيامه باغتيال  
 هؤلاء الناس يعتبر شهيدا » .

واختبأ رشدي الذي يحمل الجنسية البريطانية في مكان سري  
 في لندن وتم توفير حماية من الشرطة البريطانية له . وانتقد وزير  
 الخارجية البريطاني سير جيوفري هاو قرار الخوميني واعتبر ذلك  
 تدخلا في الشؤون الداخلية لدولة أخرى . ورحب الرئيس خمائني  
 الذي يترأس صلاة الجمعة في طهران بقرار الخوميني في خطبة  
 الجمعة التي ألقاها بتاريخ ١٧ فبراير حيث قال : « ندعو هذا  
 المؤلف للتوبة ويقول ( لقد وقعت في خطأ فادح ) ويعتذر للمسلمين  
 ويعتذر للامام الخوميني وعندئذ فقط يمكن للعالم الاسلامي أن يغفر  
 له » . وفي اليوم التالي قال سلمان رشدي « انني أبدى أسفى  
 الشديد لما سببه كتابي من شعور بالهم والقلق والحزن لدى  
 الاتباع المخلصين للاسلام » . ولكن مكتب الخوميني رد عليه بالآتي :  
 « حتى لو أعلن سلمان رشدي توبته وأصبح أكثر الناس تقوى  
 وورعا في كل الأوقات فانه لزام على كل مسلم أن يستخدم حياته  
 وممتلكاته من أجل ارسال سلمان رشدي الى الجحيم » . وفي وقت  
 سابق كان حجة الاسلام حسن صناعى Sanai رئيس مؤسسة  
 ٥ يونيو الايرانية قد عرض مكافأة مالية قدرها ٢٦ مليون دولار



لأى شخص إيراني ومليون دولار لأى شخص غير إيراني يقوم  
باغتتيال سلمان رشدى .

واجتمع ١٢ وزير خارجية تابعون للمجلس الأوروبى الذى يضم  
١٢ دولة على قرار الخومينى وقرروا فى ٢٠ فبراير استدعاء رؤساء  
بعثاتهم الدبلوماسية فى طهران كما قرروا فرض القيود على علاقاتهم  
الاقتصادية مع ايران . كما سحب بريطانيا كافة الدبلوماسيين  
الخمس التابعين لها من ايران وردت طهران على ذلك باستدعاء  
سفرائها من عواصم دول أدربا الغربية . وعندما قالت حكومة  
الدول الأوروبية الغربية أنها « تساند حرية الرأى وحرية التعبير »  
قال الرئيس خمائنى أن هذه الدول قد ارتكبت خطأ شنيعا لأنها  
« قد خلطت ما بين التعبير عن حرية الرأى وأهانة بليون مسلم » .

ووجه الخومينى خطابا مدته ساعة موجها الى المدرسين والطلبة  
فى الكليات والمعاهد الاسلامية ومذاعا على راديو طهران يوم  
٢٢ فبراير أكد فيه آراءه فيما يتعلق بدور رجال الدين فى المجتمع  
كما أكد على العلاقة الوثيقة التى لا تنقسم أبدا بين الدين والسياسة  
وهاجم مذهب التعبدية revisionism أو المناداة بالأخذ  
بروح التطور وقال « أولئك الذين ما زالوا يعتقدون أنه ينبغى  
علينا أن نشرع فى المجوء الى التنقيح والتعديل فى سياساتنا ومبادئنا  
ودبلوماسيتنا واننا قد وقعنا فى أخطاء شنيعة وأنه ينبغى علينا  
الا نكرر أخطاءنا أولئك الذين ما زالوا يعتقدون أن الشعارات  
المتطرفة الخاصة بنا ستجعل كلا من الغرب والشرق يشمر بالتشاؤم  
حيالنا وأن ذلك كله قد أدى فى نهاية الأمر الى عزلة ايران . وأولئك  
الذين ما زالوا يعتقدون اننا اذا لجأنا الى الأساليب البراجماتيقية  
العملية فان الغرب والشرق ستبادلان مشاعر الاحترام مع ايران

ومع الاسلام والمسلمين بالأمة الايرانية .. لهؤلاء جميعا أقول  
أن الله سبحانه وتعالى أراد لهذا الكتاب الالحادى الصادر تحت  
اسم « آيات شيطانية » أن يطبع وينشر حتى يمكن لعالم الغش  
والخداع والغرور والبربرية أن يكشف عن وجهه في عدائه المستمر  
للإسلام وحتى يمكن لنا أن نكف عن سذاجتنا ومادمت على قيد  
الحياة فلن أسمح للحكومة الايرانية أن تقع في براثن وأيدي  
الليبراليين المواليين للغرب ومادمت حيا فاننى سأقطع أيدي عملاء  
أمريكا وعملاء الاتحاد السوفيتي في كافة المجالات » .

ويمكن القول أن الخوميني — من خلال ذلك الخطاب — قد  
حاول تحييد الضغوط الواقعة على حكومته من جانب المعسكر  
البراجماتيقي العملي بالداخل والرامية الى تدعيم الروابط مع الدول  
الأوربية الغربية بهدف تسهيل تنفيذ مشروعات التعمير الكبرى عقب  
وقف اطلاق النيران في حرب الخليج والجدير بالذكر أن استيلاء طلبة  
مسلحين على السفارة الأمريكية بطهران منذ عشر سنوات ( في  
نوفمبر ١٩٧٩ ) قد أبطل مفعول حركة كانت ترمى الى التقارب بين  
الحكومة الايرانية ( التي كانت آنئذ بقياد الليبرالي المهدي  
بزارجان (Bazargan) وأمريكا .

وهذا الموقف الدرامي المتشدد الذي اتخذته الخوميني ازاء  
مسألة سلمان رشدي قد جعل هيبته تزداد كثيرا في المسلمين  
المتواجدين بالعالم خارج ايران . ووفقا لما قاله يعقوب زكي وهو  
اخصائي في الشؤون الاسلامية بجامعة هارفارد الأمريكية فان  
الهوميني بتعبيره في وضوح عن مشاعر المسلمين ازاء كتاب سلمان  
رشدي قد استعاد بضرية واحدة كل شيء فقد في الحرب مع العراق  
وخرج بازغا كزعيم روحى لا ينازعه أحد على زعامة المسلمين في  
جميع أرجاء العالم » . وهذا الدعم والتأييد للهوميني قد جاء ليس

فقط من جانب القادة المسلمين المتواجدين في أوروبا الغربية ولكن أيضا من جانب الزعماء المسلمين في نطاق العالم الاسلامي . وقد أشار محمد اسماعيل القرشي رئيس المنظمة العالمية للمحامين المسلمين الى أن هذا العمل الذي أقدم عليه سلمان رشدي « هو عمل لا يمكن اغتفاره وفق الشريعة الاسلامية » . كما أن الواعظ الرئيسي في مسجد جاما Jama بمدينة دلهي بالهند ( وهو من أكبر المساجد الرئيسية بالهند التي تضم حوالي ١٠٠ مليون مسلم ) قال « نحن نؤيد قرار حكم الاعداد الذي أصدره آية الله ضد ذلك الكلب الكافر المجدف » . وبعدئذ عبر الأخ العقيد معمر القذافي زعيم ليبيا عن تأييده للخوميني في قراره ضد رشدي . كما طالب حسين محمد ارشاد رئيس بنجلاديش بمحاكمة رشدي وتوقيع العقاب عليه .

وعندما أجرى المسؤولون البريطانيون اتصالات مع العديد من الدول الاسلامية الصديقة بهدف العمل على اصدار بيانات من زعماء سياسيين أو دينيين تتعارض مع فتوى الخوميني الخاصة بتنفيذ حكم الاعداد في رشدي فإن محاولاتهم باءت بالفشل الذريع . وحتى تركيا وهي دولة علمانية تحت قيادة الرئيس كنان افران Evran Kenan الذي يعتبر عدوا للأصولية الاسلامية والذي يتلطف الى ربط تركيا مع المجتمع الأوروبي قد رفضت المصادقة على الشجب الأوربي للخوميني . وكان من الواضح أن الخوميني يقف على أرض صلبة من الناحية الشيولوجية الدينية . وكان قد ارتكز في فتواه بشأن رشدي على الشريعة الاسلامية والقوانين والمبادئ الاسلامية . حيث استند في فتواه تلك على القرآن ، ونوع العقاب الذي ينبغي انزاله على أولئك الذين يفترون على رسول الله وعلى كلمة الله ( القرآن الكريم ) قد تم تحديده وممارسته بمعرفة محمد صلى الله عليه وسلم . فهو بعد أن فتح مكة واستولى

عليها في يناير ٦٣٠ أصدر أوامره بقطع رأس الشاعر كعب بن الأشرف بسبب تهكمه على القرآن الكريم . ومنذ ذلك الحين بدأ تلاميذ محمد يحذون حذوه في هذا الصدد .

وعندما أصدر الخوميني هذه الفتوى الدينية فانه يكون بذلك قد خطف الأضواء من فهد ملك السعودية الذي ظل من حيث هو راعى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة يحاول في السر مهاجمة كتاب رشدي واستصدار البيانات من الهيئات والمنظمات الاسلامية بإدانة رشدي . وبعد مرور أربعة أيام على إصدار الخوميني للفتوى الدينية قامت منظمة المؤتمر الاسلامي التي تتخذ من جدة مقرا رئيسيا لها بتحذير دار النشر ( فايكنج/ بنجوين ) التي أصدرت كتاب رشدي وأشارت في تحذيرها الى أن الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الاسلامي ستقوم بمقاطعة كافة الكتب التي تصدرها فايكنج/ بنجوين اذا لم تبادر بسحب رواية « آيات شيطانية » من الأسواق والمكتبات . وفي يوم ٢٦ فبراير نظمت هيئة العالم الاسلامي التي تتخذ من مكة مقرا لها والتي تمولها السعودية حلقة دراسية ورفضت اعتذار رشدي وأشارت الى أن اعتذاره غير كاف وطالبت بضرورة أن يعترف صراحة بأن كل ما كتبه عن الاسلام وعن النبي محمد وعن زوجاته هو محض أكاذيب واقتراء . وأدانت هذه الهيئة ووصفته بأنه « كافر ومرتد عن الدين » وطالبت بمحاكمة المؤلف والناشرين من خلال « المحاكم الملائمة » .

وكان من الواضح أن الخوميني هو الذي قاد كل هذا الهجوم المتعلق بهذا الموضوع أما باقي الشخصيات الاسلامية البارزة والمنظمات الاسلامية لم يكن أمامها سوى أن تحذو حذو الخوميني أو تلتزم بالصمت ومادامت هذه المسألة تتعلق بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم فانه لم يكن هناك مجال للشقاق السني الشيعي . وانما نظر الى الخوميني على أنه شخصية اسلامية عظيمة

على المسرح العالمى وعلى أنه يدعم قداسة وطهارة النبى محمد صلى الله عليه وسلم والاسلام .

وكان ذلك هو الخط الذى ركز عليه الوفد الايرانى فى نجاح عظيم فى مؤتمر وزراء خارجية منظمة المؤتمر الاسلامى الذى عقد فى الرياض فى منتصف شهر مارس . وجاء فى البيان الذى أصدرته منظمة المؤتمر الاسلامى ما يلى « ان ذلك الكتاب « آيات شيطانية » ينتهك كل أشكال الكياسة والذوق وهو بمثابة محاولة متعمدة للافتراء على الدين الاسلامى » . وأشار البيان الى أن المؤلف يعتبر مرتدا عن الدين الاسلامى وطالب بضرورة سحب الكتاب من الأسواق ودعا الدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الاسلامى بمقاطعة الناشرين اذا لم يبادروا الى سحب الكتاب من الأسواق » .

وأشار مندوبو ايران الى أنه ما دامت عقوبة الارتداد عن الدين هى الاعدام طبقا للقانون الاسلامى فان قرار منظمة المؤتمر الاسلامى يؤيد ويدعم نفس القرار الذى سبق أن أصدره آية الله الخمينى وهو تنفيذ حكم الاعدام فى سلمان رشدى .

وكانت هناك منافسة بين ايران والسعودية على زعامة العالم الاسلامى . وهى منافسة كانت تجرى فى داخل المجالس الخاصة بالمقاومة الافغانية . وعقب توقف اطلاق النيران فى حرب الخليج بدأت ايران فى القيام بدور نشط فى هذا الصدد .

## أفغانستان

لقد فشلت حكومة محمد نجيب الله فى اقناع الثوار بالانضمام الى حكومة مصالحة وطنية خلال النصف الأخير من عام ١٩٨٧ ولكن ذلك لم يمنع نجيب الله من مواصلة تخفيف الشكل والمحتوى الماركسى للنظام السياسى . فالدستور الجديد الذى أعلن عنه

في ديسمبر عام ١٩٨٧ قد ألغى كلمة « ديمقراطية » من الاسم الرسمي للدولة بحيث أصبح اسم الدولة هو : « جمهورية أفغانستان » والأهم من ذلك أن الدستور قد نص على أن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة وأن نظام الدولة يقرم على تعدد الأحزاب .

وحقيقة الأمر أن نتائج الانتخابات البرلمانية التي تمت في أبريل عام ١٩٨٨ قد أوضحت أن الحزب الديمقراطي الشعبي لم يحصل الا على ٢٧٪ من المقاعد بينما الجبهة الوطنية وهي هيئة شاملة قد حصلت على ٢٨٪ من المقاعد . أما المنظمات الشعبية من أمثال الحزب الثوري للعمال وحزب العدالة للفلاحين والحزب الاسلامي فقد حصلت على ٢٨٪ من المقاعد . ورئيس الوزراء سلطان علي كشتماند قد حل محله السياسي غير الحزبي محمد حسن شرق Sharq . ووجهه نجيب الله خطابا في مؤتمر الحزب الديمقراطي الشعبي في ٢٧ أبريل ١٩٨٨ بمناسبة الاحتفال بالذكرى العاشرة لثورة رؤور ( أبريل ) انتقد فيه الحزب لعدم اصغائه لصوت جماهير الناس مع الانهاك في البلاغة والفصاحة والحشو في الكلام المضلل المخادع وتجاهل الشخصيات التاريخية للمجتمع الأفغاني . وحث أعضاء الحزب على عدم تجاهل دور الاسلام وهيئة العلماء الاسلاميين الدينيين ثم أعلن أن أهداف الثورة الأفغانية لا ينبغي أن تتحقق من خلال الوسائل العسكرية .

وبعد أن صدر بيان مشترك من نجيب الله وجورباتشوف في أوائل فبراير عام ١٩٨٨ ينص على أن القوات السوفيتية سوف تبدأ انسحابها من أفغانستان في مايو وتستكمل انسحابها في خلال عشرة شهور فانه قد تم التوقيع على أربع اتفاقيات تحت اشراف الأمم المتحدة في جنيف في ١٤ أبريل من جانب كل من أفغانستان والاتحاد السوفيتي والباكستان وأمريكا . وكانت الاتفاقيات الثلاث

الأولى تتعلق بمبادئ عدم التدخل وإعلان الضمانات الدولية وحقوق اللاجئين في العودة • أما الاتفاقية الرابعة فتطلب من موسكو سحب جنودها البالغ عددهم ١١٥ ألف مقاتل من أفغانستان في الفترة

ما بين ١٥ مايو عام ١٩٨٨ و ١٥ فبراير عام ١٩٨٩ • ولكن بعد التوقيع على هذه الاتفاقيات قامت الدولتان الكبيرتان بتبادل خطابات سرية تسمح لهما بالاستمرار في تزويد حلفائهما بالامدادات العسكرية بمعنى أن الاتحاد السوفيتي وافق على السماح لأمريكا بتقديم أسلحة وذخائر إلى الفدائيين المتمركزين في الباكستان • ولكن نظرا لأن الباكستان كانت قد وقعت على اتفاقية عدم التدخل فإن الأمر كان يستلزم منها منع نقل الامدادات الحربية إلى داخل أفغانستان علاوة على إغلاق معسكرات التدريب العسكري المتواجد في الباكستان بالنسبة للتوار الأفغان المتواجدين في أراضيها • ولكن اسلام آباد خرقت هذه الاتفاقية علنا مما تسبب في تكدير ومضايقة كابول وموسكو •

وبعد أن نجح التحالف الاسلامي للمجاهدين الأفغان في الحصول على موافقة موسكو على سحب قواتها من أفغانستان فإنه قرر زيادة تحديه السياسي لحكومة كابول • ومن خلال تشجيع المخابرات الباكستانية للخدمات الداخلية ISI وهي وكالة للأمن الداخلي والحربي تستخدم مجموعة من الموظفين في حدود ١٠٠ ألف شخص أنشأ التحالف الاسلامي للمجاهدين الأفغان « حكومة مؤقتة » برئاسة أحمد شاه وهو عضو وهابى في التحالف الاسلامي لأفغانستان الذي يرأسه البروفيسور السيف • فأثار ذلك استياء الأحزاب المعتدلة التي كانت قد اقترحت إجراء انتخابات فورية في معسكر اللاجئين بهدف تشكيل واختيار حكومة مؤقتة • حيث كانت قد شجعتها نتائج استطلاع الراى العشوائية التي أجريت في منتصف

عام ١٩٨٧ على ٢٢٨٧ من اللاجئين المتراجدين في ١٠٦ معسكرات من بين مجموع المعسكرات المتواجدة في الباكستان والبنغلاديش ٢٤٩ معسكرا : حيث أظهر استطلاع الرأي أن ٧٢٪ يفضلون عودة الملك زاهر شاه الى حكومة ما بعد الحرب في أفغانستان وعندما تم تجاهل المهندلين وتم فرض السيطرة عليهم فانهم تهاطلوا بدورهم الحكومة المشككة حديثا التي تمول بمعرفة السعوديين . وقد أدى هذا - علاوة على رفض الباكستان وأمريكا الاعتراف بحكومة أحمد شاه - الى موت هذه الحكومة في همدون عقب مرور شهر قليل .

كما كانت هناك أيضا اختلافات عميقة بين قادة المقاومة فيما يتعلق بالاستراتيجية الملائمة التي ينبغي اتخاذها بهدف الاستيلاء على كابول . اذ كان هناك حزبان معتدلان وحزبان راديكاليان يرغبون في العمل على تحطيم الروح المعنوية في العاصمة وتشجيع الجنود على الهرب من الجيش الأفغانى مع زيادة وتعميق الروابط مع الشعب المدني الأفغانى قبل اللجوء الى شن هجوم على العاصمة تحت قياده موحدة . الا أن هذه الاستراتيجية قد لقيت معارضة من جانب « الحزب الاسلامى » بقيادة حكمتيار الذى تسانده أمريكا والباكستان والذى يتبنى فكرة الهجوم الفورى على كابول العاصمة . وفي نهاية الأمر لم ينجح أى شىء عن هذه المشاورات والمداولات لأسباب عديدة من بينها موت الجنرال محمد ضياء الحق رئيس الباكستان والراعى الأول لحكمتيار في ١٧ أغسطس عام ١٩٨٨ لدى حدوث انفجار في الطائرة التي كان على متنها .

ومع انخفاض التواجد السوفيتى العسكرى الى النصف في منتصف أغسطس قررت حكومة نجيب الله اخلاء العديد من نقاط ومراكز وحاميات الحدود من الجنود حتى تتمكن من تدعيم وضعها الاستراتيجى وتشجيع اللاجئين على العودة . وبالنسبة للجبهة



الاجتماعية/السياسية قامت حكومة نجيب الله بالابطاء في تنفيذ برامجها الخاصة بالاصلاح الزراعي وتحرير المرأة • بل قامت بزيادة ميزانياتها الخاصة بوزارة الشؤون الدينية التي أصبحت الآن تستخدم ٢٠ ألفا من رجال الدين الموظفين لدرجة أن ميزانية وزارة الشؤون الدينية أصبحت ثلاثة أضعاف ميزانية وزارة الخارجية • ففي كابول وحدها نجد أن خطة اصلاح وتجديد الألف مسجد المتواجدة بالمدينة كان يتوقع لها أن تكلف الميزانية العامة حوالي ٢٠ مليون دولار • وقد أشار نجيب الله في خطاب له موجه للجنة المركزية للحزب الديمقراطي الشعبي في أكتوبر أن الحزب كان على استعداد لوضع المصالحة الوطنية فوق مصلحة الحزب •

ورفض قادة المقاومة مقترحات نجيب الله على أساس أن حكومته هي حكومة عميلة لموسكو وبالتالي فهو لا يتباحث الا مع السوفيت • وقد حدث هذا في أوائل ديسمبر عام ١٩٨٨ في الطائف بالعربية السعودية حيث اجتمع قادة المجاهدين مع يولي فرونتسوف Qali Vorontsou وهو نائب وزير الخارجية السوفيتي المقيم في كابول كسفير للاتحاد السوفيتي في كابول • ولكن عقب اجتماعاتهم التالية مع فرونتسوف في اسلام اباد فانهم رفضوا اقتراحه باقامة ائتلاف مع الحزب الديمقراطي الشعبي وهو الحزب الذي ينظرون اليه على انه ليس سوى كيان خلخته موسكو • ولذلك لم يكن هناك ما يدعو للدهشة عندما تجاهلوا العرض الذي تقدم به نجيب الله لوقف اطلاق النيران من جانب واحد في ١ يناير عام ١٩٨٩ وقام المقاتلون التابعون لهم بمهاجمة الجنود الأفغان مما قضى على الهدنة القصيرة •

ولدى اقتراب موعد الانسحاب النهائي للقوات السوفيتية زادت موسكو من جهودها الدبلوماسية الرامية الى اقامة حكومة

المجموعات الأفغانية الشيعية المتواجدة في عاصمة إيران : وهي الدولة التي آوت حوالي مليونين من اللاجئين الأفغان • ونتيجة لجهوده هذه أجريت اتصالات رسمية بين مجموعات الشيعة بطهران والمجموعات السنية المتواجدة في بيشاور

وتم ممارسة ضغوط هائلة على أحزاب المجاهدين المتواجدين في بيشاور من جانب المخابرات الأمريكية والمخابرات الباكستانية التي تسمى ISI والتي يرأسها الجنرال حامد جول Hamid Gul بهدف إقامة مجلس شوري Shura أو مجلس استشاري وتكوين حكومة مؤقتة قبل الانسحاب النهائي الكامل للقوات السوفيتية من أفغانستان • إلا أن الخلافات الداخلية المتواجدة في داخل تحالف المجاهدين كانت حادة للغاية مما أدى الى تعذر تحقيق هذه المهمة •

وحقيقة الأمر أن الكثيرين من المراقبين قد تنبأوا بانتهاء تحالف المجاهدين نظرا لأن الأسمت الذي كان يبقى على تماسك ذلك التحالف ألا هو تواجد القوات السوفيتية في أفغانستان قد بدأ يتفكك بخروج هذه من أفغانستان • إلا أن هذا الانهيار لم يحدث على نحو فوري • وكان السبب الرئيسي في ذلك هو أن أمريكا في ظل حكومة جورج بوش الجديدة قد وعدت بالاستمرار في تقديم الأسلحة لتحالف المجاهدين في حدود مبلغ مليار دولار سنويا ( علاوة على تقديم مساعدات في حدود مليار دولار سنويا أيضا من جانب السعودية ) والجماعة التي تنفصل من تحالف المجاهدين من شأنها أن تفقد نصيبها من هذه الأسلحة ولذلك حرصت كل جماعة على البقاء في داخل التحالف لكي تحصل على نصيبها من الأموال والأسلحة •

وعلى الجانب الآخر وفي غياب حدوث تسوية سياسية تؤدي الى ظهور حكومة ائتلافية قام السوفيت بتسليم محتويات مخازنهم الحربية الشاسعة للأفغان بل أقاموا جسرا جويا لنقل المزيد من الذخائر والأسلحة . وأشار وزير الخارجية السوفيتي ادوارد شفرنادزة الى أن موسكو على استعداد لاحترام التزاماتها للأفغان وفق معاهدة الصداقة والتعاون لعام ١٩٧٨ التي تنص على تبادل الاستشارات فيما يتعلق بتوفير « الأمن والاستقلال وحماية الأراضي لكلتا الدولتين » وكان ذلك يعني أن السوفيت على استعداد لشن هجمات جوية من القواعد السوفيتية المتواجدة في داخل الاتحاد السوفيتي - اذا ما طلب منهم ذلك - تدعيا لحكومة كابول وضرب المتمردين : وهو أمر سبق أن فعلوه من أجل طرد الفدائيين من مدينة كوندوز Kunduz الواقعة في الشمال .

وفي حين كان بمقدور المقاومة الأفغانية أن تدعي أن الجهاد ضد موسكو قد نجح في تخليص أفغانستان من القوات الأجنبية الروسية فإنها لم يكن باستطاعتها أن تغير الجغرافيا أو المعاهدات الدولية القائمة .

وبعد العديد من حالات التأجيل اجتمع أخيرا مجلس الشورى الأفغاني في روالپنڊى Rawlpindi بالباكستان في ١٠ فبراير . وكان مجلس الشورى يضم ٥٢٦ عضوا حيث يتألف من ٦١ مندوبا عن كل عنصر من العناصر السبعة التي تتألف منها تحالف المجاهدين و ٨٠ مندوبا عن مجموعات الشيعة الثمانية المتمركزة في طهران و ١٩ من كبار شخصيات المسلمين من كابول . وأشار صبغة الله هجدي الذي كان يرأس آنئذ تحالف المجاهدين الى أن مجلس الشورى هو مجلس غير منتخب وغير ممثل لطوائف

الشعب ثم قدم استقالته • وبعدئذ خلفه في هذا المنصب محمد نبي  
المحمدي فأصدر أوامره بتأجيل الجلسات •

وكان السبب الرئيسي في تقديم المجدي استقالته هو فشله  
في الحصول على موافقة زملائه على تشكيل مجلس أعلى لتحالف  
المجاهدين يضم سبعة أعضاء وذلك من أجل الاتفاقية التي كان قد  
وقع عليها من قبل مع محمد كريم خليلي رئيس المجموعات الأفغانية  
المتركزة في طهران • وتجاوبا مع مطالبة الخليلي بـ ١٢٠ مقعدا  
فإن المجدي كان قد وافق على زيادة عدد المندوبين من ٦٠ مندوبا  
الى ١٠٠ مندوب بالنسبة للمجموعات المتركزة في طهران • ولكن  
السياف الموالي للسعودية وكذلك حكمتيار الموالي للباكستان  
رفضوا الموافقة على ذلك خشية أن يؤدي الوفد الموسع عن طهران الى  
حدوث اندماج بينه وبين المعتدلين المتركزين في بيشاور مما يؤدي  
الى احباط مخططاتهما •

وما رحل الوفد الذي هو بقيادة الخليلي الى طهران في  
احباط في ١٩ فبراير حتى راح مجلس الشورى يركز تفكيره على  
انجاز الأعمال • وأعطى لكل مندوب من الـ ٤٣٩ مندوبا الحاضرين  
صوتين بحيث يدلي بهذين الصوتين لصالح أى قائد من القادة  
السبعة لتحالف المجاهدين •

وكانت النتائج المعلنة في ٢٣ فبراير على النحو التالي :  
المدي ( الرئيس ) ١٧٤ صوتا ، والسياف ( رئيس الوزراء )  
١٧٣ صوتا ، والمحمدي ( وزير المالية ) ١٣٩ صوتا وحكمتيار  
( وزير الخارجية ) ١٢٦ صوتا ، وخالص ( وزير الدفاع )  
١٠٢ صوت ، ورباني ( وزير الداخلية ) ٩٩ صوتا ، والجلاني  
( وزير التعمير ) ٦٦ صوتا • وقد وضع هذا نهاية لأسلوب المناوبة  
القيادية كل ثلاثة شهور في المجلس الأعلى لتحالف المجاهدين •

والجدير بالذكر أن الجيلاني الذي كان أشد الناس انتقاداً للتدخل الباكستاني في الشؤون الأفغانية وخاصة فيما يتعلق بالتراجع الكبير لموظفي المخابرات الباكستانية ISI في داخل مسرح الأحداث لمجلس الشورى قد حصل على أقل عدد من الأصوات . ومن ناحية أخرى وبسبب الأموال السعودية الهائلة التي تدفقت لصالح السياف نجد أن السياف وهو الزعيم الوهابي لأصغر حزب في تحالف المجاهدين قد حصل على أكبر عدد من الأصوات تقريباً . وكان ذلك مقياساً درامياً عن مدى تأثير الأموال السعودية والجهود الحربية الباكستانية على السياسات الأفغانية .

وكان اسلام آباد والرياض ووشنجنجتن تعتقد أن تشكيل حكومة مؤقتة في بشاور يعتبر خطوة جوهريّة ولو أنها خطوة مرحلية . أما الخطوة التالية فهي أن تتمركز الحكومة في داخل أفغانستان . وذهبوا في تصوراتهم إلى أن جلال آباد هي مدينة يبلغ عدد سكانها ١/٢ مليون مواطن هي أنسب الأماكن التي يمكن للحكومة أن تتخذ منها مقراً لها . فهي تقع على مسافة ٤٥ ميلاً فقط من الحدود مع الباكستان كما تقع على طريق برى يربطها بكابول الواقعة على مسافة ٨٠ ميلاً في اتجاه الغرب علاوة على أن القوات السوفيتية كانت قد أخلتها في مايو عام ١٩٨٨ . ومنذ أن تم ذلك الجلاء عن جلال آباد استولى المتمرّدون بصفة دائمة على الطريق الممتد من الباكستان والذي يصل إلى المزرعة الحكومية الشاسعة عند جازيآباد Gaziabad الواقعة إلى الشرق من جلال آباد في يناير عام ١٩٨٩ . إلا أن المدينة كان لها خط دفاع من حقول الألغام عند حدودها الخارجية علاوة على الحاجز المائي الطبيعي المتمثل في نهر كابول . وكان يحرسها حوالي ١٥ ألفاً من الجنود الأفغان الذين تساندتهم مليشيات الحزب الديوقراطي الشعبي . وكانت قوات المتمرّدين تقدر بـ ١٥ ألف مقاتل مع انتماء معظم

الفدائيين الى الجبهة الاسلامية الوطنية التابعة للجيلاني والحزب الاسلامي التابع لخالص . وكان القادة الميدانيون لهذه القوات يرفضون باستمرار الضغوط الباكستانية الرامية الى دفعهم الى شن هجوم فوري على المدينة الآن ذلك من شأنه أن يسبب خسائر كبيرة بين المدنيين .

وكانت الحكومة الأفغانية مصممة على الإبقاء على الطريق جلال آباد/كابول مفتوحا . وحقيقة الأمر أن ذلك كان جزءا من الاستراتيجية الشاملة التي تلتزم بها الحكومة بالاتفاق مع موسكو طوال فترات الحرب الأهلية . فالقوات السوفيتية التي يزيد عددها على ١٠٠ ألف مقاتل والمنتشرة في جميع أرجاء أفغانستان كانت كافية لتمكين حكومة كابول من السيطرة على المراكز الحضرية الرئيسية والمطارات والطرق الموصلة اليها . كما أن سلاح الطيران السوفيتي كان منتشرا ويشترك مع سلاح الطيران الأفغاني في الاغارة على قواعد الفدائيين علاوة على القيام بتخويف ومعاينة الناس الذين يقدمون العون والمساندة للمتمردين . وذلك يوضح لنا السبب في أن موسكو فقدت في خلال تسع سنوات من المناوشات والحروب ١٥ ألف جندي فقط بمن في ذلك الطيارون .

وعلى النقيض من ذلك نجد أن الحرب الأهلية أودت بحياة ٧٠ ألف جندي من قوات الأمن الأفغانية وأفراد الحزب الديموقراطي الشعبي . وإذا أضفنا الى ذلك الرقم حالات الوفيات بين الفدائيين والمدنيين التي بلغت ٣٠٠ ألف قتيل فانه يمكن القول بأن مجموع الوفيات وصلت الى نسبة ١٠٪ من مجموع السكان الشباب بأفغانستان . وقد تكبد الفدائيون أكبر نسبة من الخسائر في الأرواح والماديات . وتشير التقديرات الحكومية الى أن نشاطهم العسكري خلال الشهور التسعة التي أعقبت التوقيع على اتفاقيات

جنيف قد وصل الى ٥٥٧ هجوما و ٤٠٣ حالات من حالات القاء القنابل واطلاق ٢٠١ ألف صاروخ وقذائف مدفعية ثقيلة وقذائف المورتار .

وفي أعقاب رحيل آخر القوات السوفيتية بما في ذلك رحيل ٢٠ ألف جندي من كابول ومطار كابول علاوة على مغادرة السفارات الغربية للعاصمة كابول بسبب توقعها لسقوط حكومة نجيب الله نجد أن الرئيس نجيب الله قد تصرف في سرعة وحزم .

اذ قامت الحكومة بكابول بتسليم ٣٠ ألف بندقية كلاشينكوف للشباب المدافعين عن الثورة بمعنى أن الحكومة جندت جانباً من أعضاء الحزب الديمقراطي الشعبي ابتداء من سن ١٤ سنة الى سن ٥٨ عاما . ثم قامت بتنفيذ خطتها الرامية الى رفع مستوى الحرس الخاص مع تخصيص ٣٠ ألفاً من هؤلاء الحرس للتواجد في كابول وتخصيص ١٥ ألفاً منهم للتواجد في العواصم الاقليمية . وعلاوة على ذلك كانت هناك قوات الشرطة النظامية التي يتراوح عددها من ٢٠ ألفاً الى ٢٥ ألف شخص . علاوة على الشرطة السرية المسلحة البالغ عددها من ١٥ ألف الى ٢٠ ألف شخص . وهذه القوة التي يتراوح عددها من ٨٠ ألفاً الى ٩٠ ألفاً من بين المجموع الكلي البالغ ١٥٠ ألفاً من الأشخاص شبه الحربيين والمليشيات القبلية كانت تعتبر بمثابة القلب النابض لحكومة كابول حيث كان من المتوقع لهم أن يحاربوا حتى النهاية المقاتلين البالغ عددهم ٧٠ ألفاً المنضمين للمعسكر الآخر .

وكلا الجانبين كان لهما القوى السياسية والحربية الخاصة بهما كما كانت لهما نقاط الضعف الخاص بهما . ففى حين أن تحالف المجاهدين قد توحد وتماسك مع بعضه البعض رغم التملق والمداينة من جانب كابول وموسكو فان الكثيرين من المراقبين قد

رأوا أنه تحالف متنافر العناصر على نحو يدعو لليأس حيث من المتعذر أن يتحدث زعماءه بلغة واحدة أو يلتقوا على فكرة موحدة نظرا لوقوعهم تحت تأثيرات الأجانب . ولذلك نجد ان الحكومة المؤقتة الخاصة بتحالف المجاهدين والنبي تتألف من عناصر متفاوتة ومتباينة والتي لا يوجد لها دستور قد فشلت في كسب اعتراف من جانب باكستان أو أمريكا . وظل ذلك التحالف منقسما فيما يتعلق بالسياسات الاجتماعية والسياسية بما في ذلك درجة التسلمة . ( اعضاء الطابع الاسلامي ) والاستراتيجية العسكرية .

وعلى الصعيد العسكري نجد أن الفدائيين قد حققوا نجاحا من حيث استيلاؤهم على عواصم بعض الأقاليم الواقعة على طول الحدود مع باكستان . الا انهم لم يجرؤوا على اقامة تواجد حقيقى لهم في أى مدينة من المدن الكبرى ، لكيلا يصبحوا هدفا سهلا أمام سلاح طيران الأعداء . وكان ذلك هو الدرس الذى تلقوه من قبل من الأحداث التى حدثت في مدينة كوندور التى تقع في الشمال والتي سبق أن استولوا عليها وتمركزوا فيها في أغسطس عام ١٩٨٨ ولكنهم بعدئذ اضطروا الى الفرار منها عندما قامت الطائرات السوفيتية القادمة ليس فقط من كابول ولكن أيضا من القواعد الروسية القريبة من الحدود بقصفها بالقنابل . وعلى الصعيد السياسى نجد أن تصرفاتهم وسلوكهم في مدينة كوندور قد أثارت الخوف والمرارة بين سكان المدينة . الأنهم راحوا يمارسون أعمال السلب والنهب لدرجة انهم قادوا باقتلاع أعمدة الكهرباء . وفي مدينة تورهام Torham الحدودية قامو بذبح ٧٠ من الجنود الحكوميين عقب استسلام هؤلاء الجنود لهم . بل قاهوا بتنفيذ مذابح مماثلة في اقليم كونار Kunar الشرقى الذى أخلته الحكومة المركزية . وقد تسبب ميلهم الشديد للانتقام في تدمير فاعلية الاستراتيجية العامة للتحالف الخاصة بتشجيع الارتداد من



الجانب المعارض مع وعود بالعمو العام • والخوف من الانتقام  
الدموى من جانب خصومهم كان عادلا مهما في تشجيع مؤيدي  
الحكومة على شهر السلاح وتقديم مقاومة صلبة ضد هجمات  
الفساديين •

ونظرا لأن نجيب الله كان يعرف تماما خطة تحالف المجاهدين  
الرامية الى ادخال السلاح والرجال الى داخل كابول قبل فرض  
حصار عليها فانه انتهن أول فرصة سانحة لكي يضرب خصومه  
ويجهز اتباعه ويعدهم للقتال • وعقب العثور على أسلحة ومتفجرات  
في العاصمة في ١٨ فبراير أعلن الرئيس أن السيادة الوطنية  
والاستقلال السياسي وسلامة الأراضي أصبحت واقعة تحت التهديد  
نتيجة المحاكيد والمؤامرات التي تحوكمها الباكستان وأمريكا • ثم  
فرض حالة الطوارئ وعلق الحقوق الدستورية المتعلقة بتجمهر  
الناس واضرابات العمال وتفتيش البيوت وتسجيل المكالمات  
التليفونية واقامة محاكم عسكرية لمحاكمة أولئك المتهمين بخرق  
القوانين • وقام بتعيين مجلس أعلى للدفاع عن الوطن يتألف من  
عشرين عضوا وبضم رجالا عسكريين وموظفين حزبيين • ثم قام  
بطرد ثمانية وزراء غير حزبيين بما في ذلك رئيس الوزراء شرق  
Shara ووضع مكانهم أعضاء من الحزب الديموقراطي الشعبي •  
وبدأت الدبابات وعربات نقل الجنود المصفحة تحرس مفارق الطرق  
في العاصمة حيث أغلقت أحياء معينة لدى قيام الشرطة المسلحة  
بتفتيش البيوت والقضاء القبض على العديد من الأنصار الموالين  
لحكومة رباني •

ومثما حدث من قبل ركزت حكومة الحزب الديموقراطي  
الشعبي عداواتها على الحزب الاسلامي برئاسة حكمتيار وجماعة  
اسلامى بقيادة رباني • وكان ذلك يعنى أن الحكومة على استعداد

للدخول في مفاوضات مع العناصر الأخرى التي يتألف منها تحالف المجاهدين علاوة على استعدادها للتفاوض مع المجموعات المتمركزة في طهران . ونظرا لأن مجموعات طهران قد استثنيت من الدخول في الحكومة المؤقتة التي اتخذت من بشاور مقرا لها فانها كانت تميل الى دراسة النداءات المتكررة من جانب كابول لاقامة مصالحمة وطنية .

وحققت الحكومة الأفغانية قدرا من النجاح في حملتها الرامية التي تحقيق مصالحمة وطنية . وقد أشار مصدر رسمي في كابول الى أن الحكومة قد أجرت اتصالات مع ٥٧٥ مجموعة تمثل ٤٥ ألف فدائي مسلح متواجدين في داخل أفغانستان وأن العديد من حالات وقف اطلاق النيران المحلية قد تم اعداد الترتيبات لها بالفعل .

وعقب رحيل السوفيت تمكن نجيب الله من اظهار نفسه على أنه رجل وطني متحمس وغيور على وطنه . وعلى النقيض من ذلك نجد أن النابلية العظمى من زعماء المجاهدين قد نظر اليهم الناس على أنهم عملاء للباكستان والعربية السعودية وأمريكا . وكان عقد مجلس الشورى الأفغاني في روالبندي وهي المدينة التوام لاسلام آباد والتي تعتبر عاصمة أجنبية بالنسبة للأفغان قد سبب الكثير من جرح المشاعر الوطنية لدى العديد من الوطنيين الأفغان .

ونظرا لأن زعماء المجاهدين يستمرون في رفض التوصل الى تسوية سياسية ولا يختارون سوى الحل العسكري فانهم كان عليهم الانتظار لحين ذوبان الجليد في الربيع وأوائل الصيف لكي ينفذوا الاختيار العسكري . ومما لا شك فيه أن أتباعهم قد برهنوا على أنهم جديرون بالاحترام كفدائيين مع تلك النجاحات التي يحققونها في حرب الغابات والجبال ولكن الاستيلاء على المراكز الحضرية والاحتفاظ بها هو موضوع آخر . وكيانهم غير المركزي كان بمثابة

مصدر قوة لهم لدى انهماكهم في الأنشطة الفدائية ولكنه لا يتلاءم معهم عندما يشتركون مع جيش تقليدي مسلح بالأسلحة الثقيلة :  
فذلك النوع من القتال يتطلب قيادة موحدة لم تظهر في الأفق بعد .

وأصبح ذلك واضحا تماما عندما حاولت قوات المجاهدين البالغ عددها عشرة آلاف مقاتل الاستيلاء على جلال آباد في أوائل مارس عام ١٩٨٩ . اذ قاموا بمهاجمة هذه المدينة في ٥ مارس على أساس أنهم سيتمكنون من الاستيلاء عليها في ٨ مارس ثم يتخذونها مقرا لعقد اجتماع لحكومتهم المؤقتة في يوم الجمعة الموافق ١٠ مارس من أجل الاعداد والتهديد للاعتراف بها في مؤتمر وزراء خارجية منظمة المؤتمر الاسلامي المقرر افتتاحه في ١٣ مارس . الا أن خططهم قد فشلت بالفعل . فهم بدلا من أن يشنوا هجوما مشتركا موحدا تحت قيادة موحدة مركزية أخذت قطاعات المجاهدين المختلفة تشن حالات من الهجوم الفردية الصغيرة المتناثرة . وتمكن الجيش الأفغاني المزود بالأسلحة الثقيلة من الشيا ب أمام تلك الهجمات المتناثرة وقام بأداء جيد على نحو غير متوقع . وبعد مرور ١٤ يوما على بدء هجوم الفدائيين اعترف قادتهم أنهم وقعوا في ورطة شديدة كما اعترفوا « بأنه ليس من السهل عليهم الاستيلاء على جلال آباد » وكان العزاء الوحيد للمجاهدين هو أن حكمتيار وزير الخارجية في الحكومة المؤقتة قد سمح له بأن يحتل المقعد الأفغاني في اجتماع منظمة المؤتمر الاسلامي المنعقد في الرياض . وعلى كل حال فان حكومة المجاهدين قد فشلت في كسب الاعتراف من جانب الباكستان أو من جانب أمريكا .

ويعتقد معظم المراقبين أنه لا توجد سوى فرصة ضئيلة في أن تنهار حكومة الحزب الديمقراطي الشعبي من الداخل في خلال فترة قصيرة مما يسمح لحكومة المجاهدين المؤقتة أن تنصب نفسها

في الحكم في كابول . كما لا توجد هناك أية فرصة في أن يبقى  
التمرد المسلح ضد الحكومة القائمة بعيدا عن الأحداث في المستقبل .  
وفي هذه الأيام نجد أن قادة المعارضة الميدانيين من أمثال أحمد  
شاه مسعود واسماعيل خان ( وهما ينتميان لجماعة إسلامي ) قد  
انسأوا بالفعل كيانا إداريا في المناطق التي يسيطرون عليها .  
بالأوامر التي يصدرها اسماعيل خان تؤدي إلى احكام السيطرة على  
القطاع الشمالي الغربي حول حيرات Herat ومسعود المتمركز في  
وادي بنجشير Panjshir شمال كابول هو رئيس « المجلس  
الرقابي للشمال » الذي يشتمل على أربعة أقاليم من بين الأقاليم  
الأفغانية البالغ عددها ٣١ اقليما .

وتحت هذه الظروف فإن السيناريو المتوقع هو انقسام البلاد  
إلى مناطق عديدة تحت زعماء عديدين مع تواجد حكومة الحزب  
الديمقراطي الشعبي في تحصينات بالمراكز الحضرية الكبرى التي  
ترتبط مع بعضها بشبكة من الطرق البرية . ولكن هذا وضع  
مستقر بطبيعته فتواجد حكومة لها قدر من السلطة السياسية  
والعسكرية في كابول يجعلها قادرة على ممارسة عملها ويجعل المبادرة  
في أيديها . وما سيساعد أكثر تلك الحقيقة التي مفادها أن  
أفغانستان تحتوى على ٧٠ مجموعة عرقية وذلك يسمح للحكومة  
أن تستخدم سياسة « فرق تسد » أو « أوجد الشقاق والخلافات  
بين الناس حتى تتمكن من السيطرة عليهم وانضمائهم  
لحكومتك » .

بل إن الصراعات الداخلية بين المجموعات المختلفة التي كانت  
قد توارت في الظل بسبب الجهاد المشترك ضد الغزاة السوفيت  
الكاافرين بدأت تعود إلى السطح مرة أخرى في أجزاء معينة من  
البلاد عقب جلاء السوفيت . ونظرا لأن أهالي أفغانستان أصبحوا

يتملكون أسلحة كثيرة وعلى نحو لا مثيل له في أى شعب آخر في العالم فإنه لا يمكن إستبعاد تحول أفغانستان الى لبنان أخرى .

ومن المتوقع لدى تردى البلاد نحو المزيد من مستنقع العنف أن يتزايد تأييد الناس لأرجاع الملك السابق محمد زاهر شاه لكى يرأس حكومة مؤقتة اذ أن عودته ستتيح المجال لحفظ كرامة الوجه بالنسبة لقادة الحزب الديمقراطى الشعبى وبالنسبة لمعظم القادة المبدائين علاوة على أن عودته ستلبى مطلباً شعبياً من جماهير الناس .

وإذا ألقينا نظرة عامة على الأزمة الأفغانية نجد أن الدين الاسلامى كان هو المحرك الرئيسى الذى دفع الأفغان الوطنيين والأفغان المتدينين لشن الجهاد ضد القوات السوفيتية . ويمكن القول بأن الحافز الاسلامى قد نجح بالفعل فى طرد القوات السوفيتية وانسحابها فى فبراير ١٩٨٩ . ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن الأحداث فى أفغانستان كانت مكملة لما حدث فى فبراير عام ١٩٧٩ فى ايران المجاورة لأفغانستان ، فهناك فى ايران كان الثوريون الاسلاميون قد أطاحوا بحكومة ربطت نفسها مع دولة عظمى هى أمريكا . فإذا نظرنا الى الوضع فى كل من ايران وأفغانستان فإنه يمكن القول بأن القوى الاسلامية فى هاتين الدولتين قد برهنت على صحة الشعار الذى يقول « لا شرقية ولا غربية » .

كما كانت هناك ظاهرة أخرى ماثلة . وهى أن الحرب الاسلامية المقدسة فى أفغانستان قد أحدثت تغيراً درامياً فى الحزب الحاكم اليسارى . اذ تحول هذا الحزب من العلمانية الحريية الى الحالة التى أعلن فيها أن الاسلام هو الدين الرسمى للدولة علاوة على البدء فى تنفيذ برامج انشاء المساجد الجديدة وترميم

واصلاح المساجد القديمة • كذلك أيضا نجد أن الحكومة العلمانية.  
لصدام حسين بالعراق أثناء حربها ضد جمهورية ايران الاسلامية  
قد تحولت الى الطابع الدينى حيث تعهد حزب البعث الحاكم بخلق  
دولة « تستلهم الاسلام كرسالة وثورة » بل انشأت الحكومة  
البعثية المعهد العالى للمشئون الاسلامية بهدف تدريب الوعاظ  
الدينيين والأئمة الذين يؤمنون المصلين والطلبة الذين يدرسون  
العلوم الدينية علاوة على اصدار الحكومة أوامرها المشددة للموظفين  
الحكوميين لكى يقيموا مآدب الافطار خلال شهر رمضان •

وهذه النماذج والأمثلة توضح لنا تماما القوى المتزايدة.  
للاسلام من حيث هو ايديولوجية اجتماعية وسياسية مفعمة  
 بالحياة •

## الفهرس

### الصفحة

٥	... ..	اهداء
٧	... ..	تقديم
٩	... ..	نبذة عن المؤلف
١١	... ..	نبذة عن التقويم الاسلامى
١٣	... ..	مقدمة

### الفصل الأول :

٢٣	... ..	بزوغ الاسلام ( المذهب السنى والشيعى )
----	--------	---------------------------------------

### الفصل الثانى :

٥٩	... ..	الاسلام القويم والصوفية
----	--------	-------------------------

### الفصل الثالث :

٩١	... ..	الاسلام فى الأزمنة الحديثة
----	--------	----------------------------

### الفصل الرابع :

١١٧	... ..	الاخوان المسلمون فى مصر وسوريا
-----	--------	--------------------------------

٤٩٧

( م ٣٢ - الأصولية الاسلامية )

## الصفحة

### الفصل الخامس :

١٨٩ المملكة العربية السعودية هي أقدم دولة أصولية

### الفصل السادس :

٢٤٥ إيران : الأصولية الثورية تتولى السلطة ... ..

### الفصل السابع :

٣٦٩ أفغانستان : الاقدار المتغيرة للأصولية ... ..

٤٣٧ تلخيص ... ..

٤٥٧ خاتمة ... ..



## صدر في هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل في محكمة التاريخ ،  
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٢ - علي ماهر :  
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة :  
عبد السلام عبد التحليم عامر ، ١٩٨٧
- ٤ - التيارات الفكرية في مصر المعاصرة ،  
د. محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطئ المصرية في العصور الوسطى ،  
عليه عبد السميع الجنزوري ، ١٩٨٧
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ ،  
لمى المطيعي ، ١٩٨٧
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي ،  
د. عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧
- ٨ - رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية ،  
د. علي بركات ، ١٩٨٧
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ،  
د. محمد أنيس ، ١٩٨٧
- ١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة العربية :  
محمود فوزي ، ١٩٨٧
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية ،  
شكري القاضي ، ١٩٨٧
- ١٢ - هدى شعراوي وعصر التنوير ،  
د. نبيل راغب ، ١٩٨٨

١٩٩٩

- ١٣ - أكتوبة الاستعمار المصرى للسودان : رؤية تاريخية ،  
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ١٤ - مصر فى عصر الولاة ، من الفتح العربى الى قيام الدولة  
الطولونية ،  
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامى ،  
د. على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر : دراسة.  
عن دور الجمعية الخيرية ( ١٨٩٢ - ١٩٥٢ ) ،  
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٨
- ١٧ - القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى ،  
د. محمد نور فرحات ، ١٩٨٨
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية ،  
د. على السيد محمود ، ١٩٨٨
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين ،  
د. أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨
- ٢٠ - دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين.  
سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى :  
د. محمد انيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨
- ٢١ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ١ ،  
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨
- ٢٢ - نظرات فى تاريخ مصر ،  
جمال بدوى ، ١٩٨٨
- ٢٣ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ٢ ، امام.  
التصوف فى مصر : الشعرانى ،  
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨

- ٢٤ - الصحافة الرفدية والقضايا الوطنية ( ١٩١٩ - ١٩٣٦ ) ،  
د. نجوى كامل ، ١٩٨٩
- ٢٥ - المجتمع الاسلامى والغرب ،  
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين ، ترجمة : د. أحمد  
عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،  
د. سعد اسماعيل على ، ١٩٨٩
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ، ج ١ ،  
تأليف : ألفريد ج. بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد  
١٩٨٩
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ، ج ٢ ،  
تأليف : ألفريد ج. بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد  
١٩٨٩
- ٢٩ - مصر فى عصر الاخشيدين ،  
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩
- ٣٠ - الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،  
د. حلمى أحمد شنبى ، ١٩٨٠
- ٣١ - خمسون شخصية مصرية وشخصية ،  
شكرى الفاضى ، ١٩٨٩
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،  
لعى المطيعى ، ١٩٨٩
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الأفريقى : نظرة على الأوضاع  
الراهنة ورؤية مستقبلية ،  
د. خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة  
حتى عام ١٩١٢ ،  
د. يونان رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

- ٣٥ - :علام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،  
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠
- ٣٦ - :المجتمع الاسلامى والغرب ، ج ٢ ،  
تأليف : هاملتون بووين : ترجمة : د. احمد عبد الرحيم  
مصطفى ، ١٩٩٠
- ٣٧ - :الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية  
في ربع قرن ،  
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠
- ٣٨ - :فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر  
العثمانى ،  
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠
- ٣٩ - :قصة احتلال محمد على لليونان ( ١٨٢٤ - ١٨٢٧ ) ،  
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠
- ٤٠ - :الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ،  
د. عبد المنعم الدسوقي الجميلى ، ١٩٩٠
- ٤١ - :محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،  
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١
- ٤٢ - :تكوين مصر عبو العصور ،  
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠
- ٤٣ - :رحلة فى عقول مصرىة ،  
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠
- ٤٤ - :الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى ،  
د. محمد عفيفى ، ١٩٩١
- ٤٥ - :الحروب الصليبية ، ج ١ ،  
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم : د. حسن  
حبشى ، ١٩٩١

- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ( ١٩٣٩ - ١٩٥٧ ) ،  
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصرى الحديث ،  
د. لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١
- ٤٨ - الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى ،  
د. زبيدة عطا ، ١٩٩١
- ٤٩ - العلاقات المصرية الاسرائيلية ( ١٩٤٨ - ١٩٧٩ ) ،  
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية ( ١٩٤٦ - ١٩٥٤ ) ،  
د. سمير اسكندر ، ١٩٩٣
- ٥١ - تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية ،  
( أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس  
الأعلى للثقافة ، فى ابريل ١٩٩١ ) أعدها للنشر :  
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٢ - مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، فى القرن  
الثامن عشر ،  
د. الهام محمد على ذهني ، ١٩٩٢
- ٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة ،  
د. محمد كمال الدين عز الدين على ، ١٩٩٢
- ٥٤ - الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى ،  
د. محمد عفيفى ، ١٩٩٢
- ٥٥ - الحروب الصليبية ج ٢ ،  
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د. حسن  
حبشى ، ١٩٩٢
- ٥٦ - المجتمع الريفي فى عصر محمد على : دراسة عن اقليم  
المنوفية ،  
د. حلمى أحمد شلبى فى ١٩٩٢

- ٥٧ - مصر الاسلامية وأهل الذمة ،  
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢
- ٥٨ - أحمد حلمي سجين الحرية والصحافة ،  
د . ابراهيم عبد الله المسلمي ، ١٩٩٣
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية في مصر ، من التمهيد الى التأميم  
( ١٩٥٧ - ١٩٦١ ) ،  
د . عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣
- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،  
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٣
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية في العصر الحديث ،  
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٣ ،  
لمعي المطيعي ، ١٩٩٣
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبد العصور : تاريخ مصر الاسلامية ،  
تأليف : د . سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ،  
وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د . عبد العظيم  
رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٤ - مصر وحقوق الانسان ، بين الحقيقة والافتراء : دراسة  
وثائقية ،  
د . محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية ( ١٨٩٧ - ١٩١٧ ) ،  
د . سهام نصار ، ١٩٩٣
- ٦٦ - المرأة في مصر في العصر الفاطمي ،  
د . نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣

- ٦٧ - مساعى السلام العربية الاسرائيلية : الأصول التاريخية ،  
( أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس  
الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات  
جامعة عين شمس ، فى ابريل ١٩٩٣ ) ، أعدها للنشر :  
د . عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٨ - الحروب الصليبية ، ج ٣ ،  
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د . حسن  
حبشى ، ١٩٩٣
- ٦٩ - نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية ( ١٨٨٦ - ١٩٥١ ) ،  
د . محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤
- ٧٠ - أهل الذمة فى الاسلام ،  
تأليف : أوس . ترتون ، ترجمة وتعليق : د . حسن حبشى ،  
ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٧١ - مذكرات اللورد كليرن ( ١٩٣٤ - ١٩٤٦ ) ،  
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د . عبد الرؤوف أحمد  
عمرو ، ١٩٩٤
- ٧٢ - رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر  
فى العصر الفاطمى ( ٣٥٨ - ٥٦٧ هـ ) ،  
أمينة أحمد امام ، ١٩٩٤
- ٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة ،  
د . رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤
- ٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، فى العصر الفرعونى ،  
د . سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤
- ٧٥ - أهل الذمة فى مصر ، فى العصر الفاطمى الأول ،  
د . سلام شافعى محمود ، ١٩٩٥

- ٧٦ - دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى ( زمن الاحتلال البريطانى ) ،  
د. سعيد اسماعيل على ، ١٩٩٥
- ٧٧ - الحروب الصليبية ، ج ٤ ،  
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشى ، ١٩٩٤
- ٧٨ - تاريخ الصحافة السكندرية ( ١٨٧٣ - ١٨٩٩ ) ،  
نعمات أحمد عثمان ، ١٩٩٥
- ٧٩ - تاريخ الطرق الصوفية فى مصر ، فى القرن التاسع عشر ،  
تأليف : فريد دى يونج ، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال ، ١٩٩٥
- ٨٠ - قنائة السويس والتنافس الاستعمارى الأوروبى ( ١٨٨٢ - ١٩٠٤ ) ،  
د. السيد حسين جلال ، ١٩٩٥
- ٨١ - تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو الى نصر أكتوبر ،  
د. رمزى ميخائيل ، ١٩٩٥
- ٨٢ - مصر فى فجر الاسلام ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية ،  
د. سيده اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٣ - مذكراتى فى نصف قرن ، ج ١ ،  
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٤ - مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،  
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥
- ٨٥ - تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية ( ١٩٣٤ - ١٩٥٢ ) ،  
د. حلمى أحمد شلبي ، ١٩٩٥



- ٨٦ - تاريخ التجارة المصرية في مصر الحرة الاقتصادية  
( ١٨٤٠ - ١٩١٤ ) ،  
د. أحمد الشربيني ، ١٩٩٥
- ٨٧ - مذكرات اللورد كليرن ، ج ١ ، ( ١٩٣٤ - ١٩٤٦ ) ،  
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د. عبد الرؤوف  
أحمد عمرو ، ١٩٩٥
- ٨٨ - التدقيق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،  
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥
- ٨٩ - تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني ،  
د. عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥
- ٩٠ - معاملة غير المسلمين في الدولة الاسلامية ،  
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦
- ٩١ - تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،  
تأليف : بيتر مانسفيلد : ترجمة : عبد الحميد فهمي  
الجمال ، ١٩٩٦
- ٩٢ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية ( ١٩١٩ - ١٩٣٦ )  
ج ٢ ،  
نجوى كامل ، ١٩٩٦
- ٩٣ - قضايا عربية في البرلمان المصري ( ١٩٢٤ - ١٩٥٨ ) ،  
د. نبیه بیومی عبد الله ، ١٩٩٦
- ٩٤ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية ( ١٩٤٦ - ١٩٥٤ )  
ج ٢ ،  
د. سهر اسكندر ، ١٩٩٦

- ٩٥ - مصر وأفريقيا ٠٠ الجذور التاريخية الأفريقية المعاصرة ،  
( أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس  
الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات  
الأفريقية بجامعة القاهرة )  
أعدها للنشر د. عبد العظيم رمضان
- ٩٦ - عبد الناصر والحرب العربية الباردة ( ١٩٥٨ - ١٩٧٠ ) ،  
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة د. عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٩٧ - العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من  
القرن التاسع عشر ،  
د. إيمان محمد عبد المنعم عامر
- ٩٨ - هيكل والسياسة الأسبوعية ،  
د. محمد سيد محمد
- ٩٩ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ( العصر اليوناني -  
الروماني ) ج ٢ ،  
د. سمير يحيى الجمال
- ١٠٠ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،  
د. د. عبد العزيز صالح ، د. جمال مختار ،  
أ. د. محمد إبراهيم بكر ، أ. د. إبراهيم نصحي ،  
أ. د. فاروق القاضي ، أعدها للنشر : أ. د. عبد العظيم  
رمضان
- ١٠١ - ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،  
اللواء / مصطفى عبد المجيد نصير ، اللواء /  
عبد الحميد كفاي ، اللواء / سعد عبد الحفيظ ، السفير /  
جمال منصور
- ١٠٢ - المقطم جريدة الاحتلال البريطاني في مصر ١٨٨٩ - ١٩٥٢  
د. تيسير أبو عرجة

- ١٠٣ - رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره  
د . على بركات
- ١٠٤ - تاريخ العمال الزراعيين في مصر ( ١٩١٤ - ١٩٥٢ )  
د . فاطمة علم الدين عبد الواحد
- ١٠٥ - السلطة السياسية في مصر وقضية الديمقراطية ١٨٠٥ -  
١٩٨٧  
د . أحمد فارس عبد المنعم
- ١٠٦ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية.  
في ربع قرن ، ج ٢  
د . سليمان صالح



رقم الايداع ١٩٩٧/٤٧٠١

---

التقديم الدولي 5 — 5164 — 01 — I.S.B.N 977

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب  
فرع الصحافة



لقد كان للأصولية الإسلامية فى الآونة الأخيرة تأثير كبير على الغرب يفوق التأثير الناجم عن أى حركة أخرى تتواجد بالعالم الثالث. والسبب فى ذلك هو أن العديد من الدول التى تمر بتجربة الأصولية الإسلامية تقع فى داخل نطاق الشرق الأوسط الذى يتمتع بأهمية استيراتيجية وهناك سبب آخر وهو أن العديد من دول الشرق الأوسط هى دول غنية بالبتروى الذى تعتمد عليه الاقتصاديات الغربية اعتمادا كبيرا للغاية.